الدكتور علي الوردي

أستاذ علم الاجتماع
جامعة بغداد

دراسة في طبيعة المجتمع العراقي

محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر
في ضوء علم الاجتماع الحديث

الدكتور علي الوردي
أستاذ علم الإجتماع
جامعة بغداد

دراسة في طبيعة المجتمع العراقي

محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر
في ضوء علم الاجتماع الحديث

[illegible]CENTRALEN

Orientalia
Bok & Biblioteksservice
Tel: 08-612 04 35

الإهداء

أقدم كتابي هـذا الى الذين يشغفون بالافـكار « العالية » فيحاولون تطبيقها في مجتمعهم بغض النظر عن طبيعة المجتمع وظروفه ·

لقد آن لهم أن ينزلوا عن أبراجهم العاجية وأن يأخـذوا بعين الاعتبـار مقتضيات الواقع الاجتماعي الذي يعيشون فيه ·

المقدمة

ان هذا الكتاب الذى اقدمه بين يدى القارى ، والكتب التالية له ، هي خلاصة دراسة طويلة شاقة . فقد بدأت بدراسة المجتمع العراقى منذ أكثر من عشرين عاماً . وازدادت هذه الدراسة تركيزاً منذ عام ١٩٥٠ ، وهو العام الذى عينت فيه مدرساً لعلم الاجتماع في كلية الآداب والعلوم ببغداد ...

ولابد لي من الاشارة هنا الى أنى تطرقت الى دراسة المجتمع العراقى في بعض كتبى ومحاضراتى العامة ، سابقا ، كما يلى :

(١) في عام ١٩٥١ ألقيت محاضرة عامة في قاعة « الملكة عالية » كان عنوانها « شخصية الفرد العراقي » . وقد طبعت هذه المحاضرة بعد اضافة بعض الزيادات عليها في كتاب صغير حيث نشر في العام نفسه .

(٢) وفي عام ١٩٥٤ ، أخرجت كتاب « وعاظ السلاطين » حيث تطرقت في فصوله الاولى الى طبيعة المجتمع العراقي في صدر الاسلام ، والى العوامل الاجتماعية التى أثرت في تكوين الشخصية فيه .

(٣) وفي عام ١٩٥٨ ، دعتنى هيئة الدراسات العربية في جامعة بيروت الاميريكية الى القاء محاضرة عامة في موضوع « الضائع من الموارد الخلقية في البلاد العربية » . وقد ركزت البحث في تلك المحاضرة حول أخلاق أهل العراق بوجه خاص . ونشرت المحاضرة في مجلة « الابحاث » التى تصدرها الجامعة المذكورة ، في شهر حزيران من العام نفسه .

(٤) وفي عام ١٩٥٩ ، اشتركت في مؤتمر علم الاجتماع العالمى الرابع الذى انعقد في مدينة شتريزا ، في شمال ايطاليا . فقدمت في المؤتمر بحثا حول البداوة وأثرها في المجتمع العراقي . وقد أتيح لي حينذاك أن أناقش عالمين كبيرين من علماء الاجتماع حول البحث ، واستفدت منهما فائدة غير قليلة .

(٥) وفي عام ١٩٦٢ . دعيت لحضور مهرجان ابن خلدون الذى عقد في القاهرة تحت اشراف المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . فألقيت فيه محاضرة حاولت فيها دراسة نظـرية ابن خلدون من حيث أهميتها في فهم المجتمع العربى بوجه عام ، والمجتمع العراقى بوجه خاص . وقد نشر المركز تلك المحاضرة ، مع بقية المحاضرات ، في كتاب خاص ، عنوانه « أعمال مهرجان ابن خلدون » .

(٦) وفي عام ١٩٦٢ ايضا ، القيت عدة محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة • وقد نشر المعهد تلك المحاضرات في كتاب عنوانه « منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته » • وقد دعوت في الكتاب والمحاضرات الى ضرورة انشاء « علم اجتماع عربي » يستمد جذوره من نظرية ابن خلدون ، ويستعين بها في دراسة الظواهر الاجتماعية في البلاد العربية المختلفة •

قصدى من ذكر هذه البحوث السابقة هو لفت نظر القارىء الى أن الآراء التي وردت فيها لم تكن نهائية • فقد غيرت البعض منها ، وأبقيت البعض الآخر على حاله • وهذا أمر لا أعتذر عنه • فالبحث العلمي من شأنه التغيير والتطوير ، اذ هو يسير في ذلك تبعا لتغير المعلومات التي يعثر عليها الباحث مرة بعد مرة • ولهذا أرجو من القارىء ان لا يستغرب حين يجدني أقول في هذا الكتاب برأي مخالف لما جاء في بحوثي السابقة •

الواقع اني ، خلال دراستي الطويلة للمجتمع العراقي ، قد ناقضت نفسي كثيرا • وربما أخذت اليوم برأي ، وتركته غدا ، ثم رجعت اليه بعد غد • وقد لاحظ الطلاب ذلك مني ، حيث وجدوني أغير منهج الدراسة في موضوع المجتمع العراقي عاما بعد عام • ولست استبعد ، بعد صدور هذا الكتاب ، أن أغير كثيرا من الآراء التي وردت فيه • وربما شهد القاريء في كتبي القادمة آراء مناقضة لها !

مراجع الكتاب :

اعتمدت في تأليف هذا الكتاب ، والكتب التالية له ، على مراجع شتى يمكن تصنيفها على المنوال التالي :

(١) الكتب والمقالات والنشرات : وهذه قد توافر منها في الآونة الاخيرة عدد لا يستهان به • وأود أن أخص بالذكر منها تلك الرسائل العلمية التي قدمها أصحابها لنيل شهادة الدكتوراه ، وقد طبع بعضها ككتاب الدكتور فاضل الجمالي ، وكتاب الدكتور متي عقراوي ، وكتاب الدكتور شاكر مصطفى سليم ، وكتاب الدكتور محمد سلمان حسن ، وغيرها • وهي كلها تبحث في المجتمع العراقي على وجه من الوجوه •

(٢) تقارير الطلاب : فقد كنت أطلبها من الطلاب في موضوع المجتمع العراقي كل عام • فتراكم عندي منها على توالي الاعوام عدد كبير • لا انكر أن بعض هذه التقارير كان تافهاً وليس فيه قيمة علمية كبيرة • ولكن البعض منها ، وهو قليل طبعاً ، يحتوي على ملاحظات واستقراءات اجتماعية نافعة • ولقد أتاحت لي هذه التقارير ، على أي حال ، أن ازداد تبصراً في المجتمع العراقي عاما بعد عام • فالطلاب يأتون الى الجامعة من شتى أنحاء العراق ، القريبة والبعيدة • ومنهم من جاء من البلاد العربية

المختلفة • فكانت تقاريرهم عن تقاليد مناطقهم وقيمها الاجتماعية تنور الذهن ، قليلا او كثيرا • وانى اذ أقدم هذا الكتاب لابد لي أن أعترف بفضل هؤلاء الطلاب وعونهم في الحصول على كثير من المعلومات التى وردت فيه •

(٣) الندوة التلفازية : وهذه كنت أقوم بها في محطة تلفزة بغداد عام ١٩٦٠ ، وكان عنوانها « أنت تسأل ونحن نناقش » • وقد وصلتنى من جراء ذلك رسائل كثيرة يسألنى فيها أصحابها حول بعض مشاكلهم الاجتماعية • وقد استفدت من هذه الرسائل فائدة غير قليلة ، ولا أزال احتفظ بها ، اذ أعتبرها مرجعاً لدراسة المجتمع العراقي • فهي تمثّل نوع المشاكل الاجتماعية التي يشكو منها بعض أهل العراق ، لا سيما الجيل الجديد منهم ، وما هو الصراع النفسي الذى يعانونه تحت وطأة تلك المشاكل •

ويؤسفني أن أقول ان « المسؤولين » لم يرضوا عن تلك الندوة ، ولم تلق هوى في قلوبهم • فأمروا بالغائها • وبهذا انقطعت عنى الرسائل التى كنت أستفيد منها(١) •

(٤) ملاحظاتي الشخصية : فقد اعتدت منذ زمن غير قصير أن اتجول في نواحى المجتمع العراقى وأصغى الى أحاديث العامة ، لا سيما المعمّرين منهم • وأولعت بذلك ولعاً شديداً • وقد عانيت من جراء هذا الولع شيئاً من المشقة والحرج • فالكثيرون من الناس في العراق لا يستطيعون ان يفهموا كيف يمكن أن تكون أحاديث العامة مصدراً للعلم • فهم اعتادوا أن يعتبروا العلم ذا مستوى رفيع ولا يجوز ان ينزل الى مستوى « الحمال والبقال » • فاذا رأوا رجلا « متعلما » يخالط السوقة ويصغى الى لغوهم وبذاءتهم ، استنكروا منه ذلك واستهانوا به •

الواقع أن علم الاجتماع هو بطبيعته « متواضع » يستمد اكثر معلوماته من السوقة ومن السفلة والمجرمين والغوغاء • فهؤلاء بمنابزاتهم ومفاخراتهم ، وبتعاونهم وتنازعهم ، يمثلون القيم الاجتماعية السائدة أصدق تمثيل • وهم بهذا المعنى أفضل من المتعلمين • فالمتعلم يميل عادة الى التحذلق والى التظاهر بخلاف ما يضمر • اما العامي فهو في الغالب غير قادر على اخفاء ما في اعماق نفسه من عقد وقيم • فهى تظهر عليه حين يتنازع او يتشاتم ، وحين يتعاون او يتفاخر •

---

(١) أجرت احدى الصحف البغدادية استفتاءاً حول أفضل ندوة تقدمها محطة التلفزة في ذلك الحين • فكانت نتيجة الاستفتاء : أنها ندوة « أنت تسأل ونحن نناقش » • ولم تمض على هذا الاستفتاء سوى مدة قصيرة حتى ألغيت الندوة بلا اعتذار • وليس هذا بالامر العجيب في هذا البلد « الامين » •

مشكلة الكثير من الناس في العراق أنهم لا يفهمون هذا ولا يستيسغونه • يبدو أنهم لا يزالون يعيشون في اطار عقلية قديمة ، اذ هم يعتقدون أن العلم يجب أن يكون أسمى من مستوى الجماهير وأنه كلما ازداد سموا وتحذلقا ارتفعت قيمته • وهذا مفهوم قد استمد جذوره من طبيعة الطبقة التى كانت ترعى العلوم قديما ـ أى طبقة الحكام المترفين • فهذه الطبقة كانت تريد من العلم أن يكون زينة لها تتباهى به وتتكبر على من هم دونها من عامة الناس • أما الآن فقد دالت دولة هذه الطبقة وأصبح المقصود من العلم أن يكون من وسائل خدمة الجماهير بدلا من أن يكون من مظاهر التعالى عليها •

انتقاد غير مقبول :

انتقدني بعض النقاد لانى لا أتبع في دراستي الاجتماعية الطريقة الاحصائية المنظمة المتبعة في أمريكا وغيرها من البلاد « الراقية » • وهذا انتقاد لا أقبله على الرغم من وجاهته الظاهرة • ان المجتمع العراقي هو غير المجتمع الامريكى • فهناك يستطيع الباحث أن يطرق الابواب على ربات البيوت يسألهن أى سؤال يخطر بباله ، وهن يحترمنه ويقدمن له الجواب الصحيح في كثير من الاحيان • اما عندنا فالامر يختلف عن ذلك اختلافا واضحا •

لقد عانى العراق منذ عهود بعيدة فجوة واسعة بين الشعب والحكومة فيه • فالشعب يعتبر الحكومة كأنها عدوة له لا تاتى له باية منفعة ، وكثيرا ما يأتى الضرر منها • وقد لاحظت هذا في أوساط العامة بوضوح • فهم اذا رأوا « افندياً » قادماً اليهم ، وبيده قلم ودفتر ، حسبوه قد جاءهم لجباية الضريبة ، او للتجنيد ، او لسوقهم الى الحبوس • وهم قد اعتادوا أن يكذبوا في جوابهم له بشتى الطرق ، خشية أن يصيبهم منه مكروه •

واذا جاءهم باحث اجتماعي حسبوه من جلاوزة الحكومة • فهو « افندى » في ملابسه ، وبيده قلم ودفتر ، اما اذا لبس الباحث ملابس اعتيادية مثلهم ، ظنوا انه جاسوس أرسلته الحكومة للتجسس عليهم • ولهذا كنت اذا أردت الدراسة أحاول نيل ثقتهم قبل أن أبدأ بالسؤال • وكنت أوجه اليهم الاسئلة تلقائياً ، وأحرضهم على الاجابة عن طريق اثارتهم وبعث الحماس والفخر فيهم •

في رأيي أن أصح طريقة لدراسة المجتمع العراقي هى تلك التى جاء بها العالم الالماني المعروف ، ماكس فيبر • وهي التى تعتمد على « التفهم » وتكوين « المثال النموذجي »(١) • فهى ملائمة لطبيعة مجتمعنا وظروفه

---

(1) Barnes (History of Sociology) p. 290—292.

الخاصة • اما الطريقة الامريكية فهي غير ملائمة ، وقد تورطنا في مشاكل وأخطاء نحن في غنى عنها • ومهما يكن الحال فاننا يجب ان نرجىء استخدام هذه الطريقة الى أن يصبح المجتمع العراقى كالمجتمع الامريكي قلبا وقالبا • وهذا أمر بعيد !

المجتمع العراقي والعربي :

هناك انتقاد ثان جابهنى به نقاد آخرون • ففي رأيهم أننا يجب أن ندرس المجتمع العربي اولا • اما المجتمع العراقى فهو ليس سوى جزء من المجتمع العربي الاكبر • وهم يقولون ان الكل اولى بالدراسة من الجزء •

انى أخالفهم في هذا الرأى مخالفة كبيرة • أود أن أسألهم هنا : كيف يمكن دراسة المجتمع الكبير من غير دراسة الاجزاء الصغيرة منه ، كل على حدة • فالمعروف في الطريقة « الاستقرائية » الحديثة أنها تبدأ بدراسة الجزئيات لكى تتوصل منها الى فهم الكليات العامة • يبدو أن هؤلاء النقاد يريدون أن يرجعوا بنا الى اتباع الطريقة « الاستنتاجية » القديمة • وهذا أمر لا أقرهم عليه •

لا شك في وجود صفات عامة يشترك فيها العرب في جميع أقطارهم • ولكننا مع ذلك يجب أن نعترف بوجود صفات يختلفون فيها أيضا • ونحن لا نستطيع أن نفهم هاتيك الصفات ، المتشابهة والمختلفة ، ما لم نبدأ بدراسة كل قطر من الاقطار العربية على حدة • وعندما يتم ذلك يأتي الباحثون ليقارنوا بين تلك الاقطار ويخرجوا بالنتائج المنشودة •

من خصائص الوطن العربي أنه يشمل بقعة من الكرة الارضية واسعة جدا ، فهو يمتد من المحيط الاطلسى الى الخليج العربى ، حيث تستغرق الشمس في اجتيازه اكثر من ثلاث ساعات • وقد مر على هذا الوطن دهر طويل كانت المواصلات بين أطرافه المتباعدة عسيرة جدا ، تستخدم فيها الابل والدواب ، او السفن الشراعية البطيئة ، وتستغرق أياما عديدة او شهورا •

وهذا التباعد بين أقطار الوطن العربى جعل كل قطر منها يعاني ظروفا خاصة به تختلف عن ظروف الاقطار الاخرى • فلم يحدث مثلا أن تمكن فاتح من فتح جميع الاقطار العربية ، ومن ابقائها تحت سيطرته المباشرة • ولهذا وجدنا كل قطر عربى له تاريخه الخاص من النواحي السياسية والاقتصادية والدينية وما أشبه •

يتضح هذا في تباين اللهجات بين الاقطار العربية المختلفة • شهدت في مرسيليا ، عام ١٩٥٠ ، رجلين من الجزائر • وكانا من العامة وغير متعلمين • فلم افهم من كلامهما شيئا ، وكأنهما كانا يتكلمان بلغة غير

عربية • الظاهر أن تباين اللهجات بين الاقطار العربية يزداد شدة بمقدار صعوبة الاتصال الاجتماعي بينها •

مما يجدر ذكره أن وسائل المواصلات الحديثة ، وانتشار الكتب والصحف والاذاعات ، أخذت تقرب بين الاقطار العربية المختلفة • وهذا يؤدي طبعا الى تضاؤل الفروق الاجتماعية واللغوية بينها شيئاً فشيئاً • والمتوقع أن تزول الفروق ، الى حد ما ، بعد زمن قصير او طويل • ولكننا على الرغم من ذلك يجب أن لا ننسى ، ونحن نعيش في المرحلة الراهنة ، أن هذه الفروق لا تزال حقائق قائمة لا يجوز الاستهانة بها • وليس من الصواب أن نعالج المشاكل في قطر من الاقطار العربية في ضوء دراستنا لقطر آخر •

الواجب القومي يحتم علينا أن نعالج مشاكل كل قطر في ضوء قيمه وظروفه الخاصة به • ان التعميم المطلق في هذا المجال غير جائز •

تيار جديد :

منذ عهد غير بعيد أخذت تصدر بعض المؤلفات المعنية بدراسة المجتمع العربي بوجه عام • وقد انعقد في الاسكندرية منذ بضع سنوات مؤتمر على مستوى جامعي أريد به وضع منهج لدراسة المجتمع العربي • وادخلت مادة المجتمع العربي في مختلف الكليات في الجمهورية العربية المتحدة • والظاهر أن جامعة بغداد أخذت تحاول الاقتداء بهذا التيار الجديد •••

ان هذا التيار على اي حال ستكون له ثمراته النافعة • ولكني لاحظت فيه أنه في الغالب ينحو منحى التوعية والارشاد أكثر مما ينحو نحو الدراسة الموضوعية الواقعية • فأكثر المؤلفات التي صدرت في هذا السبيل يبدو عليها انها كتبت لغرض معين هو خلق جيل من الشباب القومي الواعي • خذ مثلا أحد هذه المؤلفات ، ولعله من أهمها ، حيث اشترك في تأليفه مجموعة من أساتذة جامعة القاهرة ، وعنوانه « الوجيز في دراسة المجتمع العربي » • فقد جاء في مقدمته ما نصه :

« ونستطيع أن نقرر الآن ، بعد أن قمنا طوال هذه السنوات الاربع بتدريس تلك المادة في أضخم الكليات الجامعية ، أن التجربة نجحت فعلا ، وأن ادخال مادة المجتمع العربي في المناهج الجامعية قد حقق الغرض المقصود منه في خلق شباب واع مستنير ، يؤمن بالله وبعروبته ويعرف ماله وما عليه ويحيط علما بأوضاع أمته العربية ، وآمال هذه الامة في مجتمع عربي سليم مترابط الاوصال ، يشعر كل فرد بآدميته وكرامته وكرامة أمته »(١) •

---

(١) الوجيز في دراسة المجتمع العربي ، ص : ص ز

لست أشك أن هذا المنهج « الوعظي » في دراسة المجتمع العربي مهم ومفيد ، لا سيما اذا أخذنا بنظر الاعتبار كون المؤلفات السائرة على هذا المنهج قد كتبت لتوضع بين أيدي طلاب هم في السنوات الاولى من دراستهم الجامعية ، فلابد لها اذن من ان تنحو نحو الوعظ والتوجيه ، لكي تفتح عيون الطلاب الى ما عليهم من واجبات تجاه وطنهم الاكبر • ولكنني أعتقد أننا لا يجوز لنا ان نقف عند هذه الدراسة التوجيهية ، فنكتفي بها ، ولا نتعداها الى دراسة أخرى اكثر عمقاً منها واقرب الى منهج علم الاجتماع الحديث •

أخشى اننا اذا غلونا في الاندفاع بهذا التيار أن نكون مثل « وعاظ السلاطين » الذين كانوا يملأون عقول الناس بالمثل الطوبائية ، بينما هم يغضّون النظر عن الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه الناس ، والذي يمنعهم من ادراك تلك المثل العالية •

الفصل الأول

صراع البداوة والحضارة

خلال دراستي للمجتمع العراقي وجدت فيه ظاهرة اجتماعية كدت ألمحها فيه اينما توجهت في نواحيه المختلفة عبر الزمان والمكان ، وهي التي أسميتها بظاهرة الصراع بين البداوة والحضارة .

لقد أجمع علماء الآثار أن العراق كان مهبط حضارة تعد من أقدم الحضارات في العالم . وقد شاركته في هذه الميزة مصر . واختلف بعض العلماء حول أيهما أسبق حضارة من الآخر . ونحن لا يهمنا هنا ان يكون العراق له فضل السبق في هذا المضمار . فالذي يهمنا بالدرجة الأولى أن نعرف أن العراق قد احتضن منذ بداية التاريخ البشري حضارة مزدهرة . وسيان عندنا بعدئذٍ أن تكون هذه الحضارة هي الأولى من نوعها أم الثانية .

وظلت الحضارة تراود العراق حيناً بعد حين . وقد مرّ عهد ، ابان تأسيس الدولة العباسية ، أصبح العراق فيه مركز الحضارة العالمية ، حتى صارت عاصمته بغداد بودقة اجتماعية ضخمة تذوب فيها خلاصة ما أبدعه البشر من تراث حضاري حتى ذلك الحين .

ونجد العراق من الناحية الأخرى واقعاً على حافة منبع فياض من منابع البداوة ، هو منبع الجزيرة العربية . فكان العراق منذ بداية تاريخه حتى يومنا هذا يتلقّى الموجات البدوية واحدة بعد الأخرى . فكان بعض تلك الموجات يأتيه عن طريق الفتح العسكري ، والبعض الآخر منها يأتيه عن طريق التسلل التدريجي . وكلا هذين النوعين من الموجات لابد ان يؤثر في المجتمع العراقي ، قليلاً أو كثيراً ، فتنتشر فيه القيم البدوية وتحاول

التغلغل في مختلف فئاته وطبقاته .

هنا نجد الشعب العراقي واقعاً بين نظامين متناقضين من القيم الاجتماعية : قيم البداوة الآتية اليه من الصحراء المجاورة ،وقيم الحضارة المنبعثة من تراثه الحضاري القديم .

المتوقع في مثل هذه الحالة أن يعاني الشعب صراعاً اجتماعياً ونفسياً على توالى الأجيال . فهو من ناحية لا يستطيع أن يطمئن الى قيمه الحضرية زمناً طويلاً ، لأن الصحراء تمده بين كل آونة وأخرى بالموجات التى تقلق عليه طمأنينته الاجتماعية . وهو من الناحية الأخرى لا يستطيع أن يكون بدوياً كابن الصحراء لأن الحضارة المنبعثة من وفرة مياهه وخصوبة أرضه تضطره الى تغيير القيم البدوية الوافدة اليه لكي يجعلها ملائمة لظروفه الخاصة .

قد يجوز أن نصف الشعب العراقي بأنه شعب حائر ، فقد انفتح أمامه طريقان متعاكسان وهو مضطر أن يسير فيهما في آن واحد . فهو يمشي في هذا الطريق حيناً ثم يعود ليمشي في الطريق الآخر حيناً آخر ...

طبيعة التعاكس :

مما يلفت النظر في أمر البداوة والحضارة انهما متعاكستان في كثير من قيمهما الاجتماعية ، وهذا أمر سنعالجه بشيء من الأسهاب في مناسبة أخرى . يكفي أن نقول هنا ان الهدف الاساسي الذى تسعى نحوه البداوة هو على النقيض مما تسعى اليه الحضارة .

هناك ناحيتان يتضح فيهما هذا التعاكس او التناقض بين الحضارة والبداوة : هما الدولة والاحتراف . فمن الناحية الأولى نجد البداوة ميالة بطبيعة تركيبها الاجتماعي نحو النفرة من الدولة ، ونحو التهرب من الخضوع لها . ان العصبية القبلية في البداوة تحل محل الدولة وتقوم بوظيفتها . فالفرد البدوى يعتز بقبيلته كل الاعتزاز ، فهي سبب بقائه وموئل كرامته . اما الدولة في نظره فليست سوى نظام للذل ودفع الضريبة .ومن

العار كل العار على البدوي ان يخضع لدولة تجبى منه الأتاوة وتضربه بالسوط ان امتنع عنها . انه يفتخر بأخذ الأتاوة من غيره ويستنكف أن يعطيها لأحد مهما كان . ان اعطاء الأتاوة يعني في نظره الاعتراف بالعبودية والذل .

ومثل هذا يمكن ان تقول عن الاحتراف ، ونقصد به اتخاذ حرفة أو مهنة يكسب الانسان منها رزقه ، بكد يمينه وعرق جبينه . ان البدوي يعتبر الاحتراف ذلاً ومهانة . والظاهر أن لفظة « المهنة » في اللغة العربية مشتقة من المهانة ، أو هما من مصدر واحد . ان البدوي رجل مقاتل يحترم النهب والغزو ، ويحتقر الرزق الذي يأتيه عن طريق العمل . ولذا وجدناه منذ قديم الزمان يختزي أن يكون حائكاً أو صانعاً أو بقالا أو معلماً أو كاسباً أو كل ذي حرفة من الحرف التي اشتهرت بها الحضارة . فاولئك في نظره جبناء أذلاء ، ولو كان فيهم شيء من الرجولية لتركوا حرفهم الحقيرة وامتشقوا الحسام ليكسبوا به الرزق « الكريم » الذي يليق بالرجال أمثاله .

ظاهرة المد والجزر :

حين يدرس الباحث تاريخ العراق الاجتماعي ، منذ أقدم عصوره حتى عصرنا هذا ، يجد القيم البدوية تستفحل فيه حيناً ثم تتقلص عنه حيناً آخر ، وذلك تبعاً لوضع الدولة فيه من حيث ضعفها أو قوتها . ان الدولة أساس مهم من أسس الحضارة . فاذا قويت الدولة في بلد ما بحيث استطاعت أن تقمع النزاع الداخلي فيه وتضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطريق ، ازدهر الانتاج الزراعي والتجاري والصناعي ، وعمرت المدن . وانهمك الناس في حرفهم المختلفة لا يخشون شيئاً . وقد حدث هذا في تاريخ العراق مرات عديدة ، كما لا يخفى . وعندئذ وجدنا القيم البدوية تتقلص تدريجياً حيث تظهر مكانها القيم الحضرية القائمة على الطاعة والاحتراف .

وفي فترات أخرى من تاريخ العراق كانت الدولة ضعيفة لا تستطيع

أن تحمي أرواح الناس وأموالهم • وعند هذا وجدنا الناس مضطرين الى الالتجاء الى القيم البدوية ، يشتدون في التمسك بها كلما اشتد ضعف الدولة فيهم • فنرى العصبية القبلية وعادة الثأر والدخالة والتسيار والنجدة والضيافة ، وما أشبه ، تستفحل فيهم وتكاد تسيطر على تركيبهم الاجتماعي سيطرة تامة •

لاحظنا هذا بوضوح كبير في العهد العثماني ، ولا نزال نشهد بعض بقاياه وآثاره الاجتماعية حتى يومنا هذا ـ كما سيأتي ذكره بالتفصيل في فصول قادمة •

ان هذا يمكن أن نسميه ظاهرة المد والجزر بين البداوة والحضارة في العراق • يأتي المدّ البدوي تارة فيسيطر على المجتمع العراقي ثم ينحسر عنه تارة أخرى ليظهر مكانه المد الحضري •

ومشكلة العراق أنه حين ينحسر عنه المدّ البدوي لا يستطيع أن يتكيف للحضارة سريعاً حين تأتي اليه • فهو يبقى متمسكاً بقيمه البدوية زمناً يقصر او يطول ، تبعاً للظروف التي تواجهه عند ذاك •من طبيعة القيم الاجتماعية بوجه عام انها تبقى فعّالة زمناً بعد ذهاب الظروف المساعدة لها • فالناس اذا تعوّدوا على قيم معيّنة صعب عليهم بعد ذلك أن يتركوها دفعة واحدة • لاشك أنها تضعف فيهم بالتدريج بعد ذهاب العوامل المساعدة لها ، ولكن ذلك يحتاج الى زمن • وفي خلال هذا الزمن يحدث الصراع بين القيم الجديدة والقيم القديمة •وقد تظهر من جراء ذلك مشكلات اجتماعية لا يستهان بها •

الاقطار العربية :

ان ظاهرة المد والجزر هذه التى رأيناها في العراق قد نجد ما يقاربها أو يشابهها في أكثر الاقطار العربية على وجه من الوجوه •

حين نفتح بين أيدينا خارطة العالم ونحاول تركيز نظرنا على الوطن العربي منه ، نلاحظ فيه ظاهرة جغرافية تلفت النظر ، وتكاد تكون شاذة •

فهو يحتوي على أكبر امتداد صحراوي على وجه الكرة الأرضية ، يبدأ من جبال ايران شرقاً وينتهي عند سواحل المحيط الاطلسي غرباً . ولا يفصل بين جناحيه سوى بحر يشبه الشق الطويل ، هو البحر الأحمر .

لا ننكر أن الكرة الارضية تحتوي على منطقة صحراوية أخرى تكاد تقارب المنطقة العربية في طولها وضخامتها ، هي تلك التي تقع في شمال قارة آسيا ، وتمتد من الصين شرقاً حتى بحر الخزر غرباً . وهذه المنطقة هي من ناحية تشبه المنطقة العربية ، حيث كانت ولا تزال منبعاً فياضاً من منابع البداوة . ولكنها من الناحية الأخرى تختلف عن المنطقة العربية اختلافاً غير قليل .

هناك عوامل عديدة جعلت المنطقة العربية تنتج في بعض بقاعها حضارات مزدهرة حيناً بعد حين . فقد أشرنا الى حضارات العراق ومصر ، وكذلك يمكن ان نشير في هذا الصدد الى حضارات اليمن والشام وتونس والمغرب وغيرها . الواقع أن المنطقة العربية لم تكن لتخلو من حضارة مزدهرة في أية فترة من تاريخها الطويل . وهذا بخلاف ما نجده في المنطقة الآسيوية كما هو واضح .

نستطيع أن نستنتج من ذلك أن المنطقة العربية تتميّز عن جميع مناطق العالم بكونها قد جمعت منابع البداوة والحضارة بشكل خاص وعلى نطاق واسع جداً . ولهذا صح القول بأن المجتمع العربي هو أكثر المجتمعات في العالم معاناة للصراع بين البداوة والحضارة ، وتأثراً بهما .

اختلاف في الدرجة :

قلنا ان المنطقة العربية هي أكثر مناطق العالم معاناة للصراع بين البداوة والحضارة ، ولم نقصد بذلك ان هذه المنطقة هي الوحيدة في العالم من هذه الناحية . الواقع ان هناك كثيراً من مناطق العالم قد عانت شيئاً من الصراع بين البداوة والحضارة على وجه من الوجوه . والذي نريد أن نلفت نظر القارىء اليه هو أن المنطقة العربية تمتاز على غيرها بشدة هذا

الصراع وبتتابعه على مدى الأجيال •

لنأخذ مثلاً المنطقة الصحراوية الآسيوية التي أشرنا اليها آنفا ، فهي في الواقع لم تخل من هذا الصراع في بعض الفترات من تاريخها • انها تتاخم من جهة الشرق حضارة الصين ، ومن جهة الغرب حضارة ما وراء النهر • وقد عانت هاتان الحضارتان كثيراً من موجات البدو الذين عرفوا في التاريخ بأسماء شتى كالمغول والتتر والترك والقرغيز •••

ونستطيع ان نقول مثل هذا عن مناطق أخرى في العالم ، كايران والهند وجنوب أفريقيا • ففيها نجد بعض البقاع الصحراوية والى القرب منها نشأت حضارة قديمة أو حديثة • ولابد لنا من أن نتوقع في مثل هذه الحالة حدوث شيء من الصراع بين البداوة والحضارة • ولكننا يجب ان لا ننسى أن هذا الصراع ليس من النمط الذى شهدناه في المنطقة العربية • فكثيراً ما كانت الحضارة في تلك المناطق قادرة على استيعاب الموجات البدوية القادمة اليها ، وعلى اذابتها في وقت قصير نسبياً ، بحيث لا يبقى لها تأثير اجتماعي كبير •

خذ الحضارة الصينية مثلاً ، فهي كانت من السعة والكثافة بحيث استطاعت أن تهضم الموجات المغولية القادمة اليها وتذيبها في البودقة الصينية الكبرى • أدركت ذلك بجلاء عند زيارتي للصين عام ١٩٥٨ حيث لم أجد في المجتمع الصيني أي أثر واضح للموجات البدوية التي اجتاحت الصين قديما • نستطيع أن نرجع بعض الفضل في ذلك الى السور العظيم الذي بناه ملوك الصين القدماء لحماية حدودهم من هجمات المغول • ولكن السور نفسه هو دليل محسوس على أن الحضارة الصينية كانت بدرجة من السعة والكثافة بحيث تمكنت من انجاز هذا العمل العظيم •

أما في المنطقة العربية فالأمر مختلف ، ذلك ان الحضارات التي نشأت فيها كانت متفرقة في بقاع متباعدة ، كأنها واحات تكنفها الصحراء من معظم جوانبها • ولهذا كان الصراع بينها وبين البداوة شديداً ومتتابعاً منذ أقدم الأزمان • وهذا هو الذى جعل الحضارة والبداوة في هذه المنطقة في مد وجزر ، مرة بعد مرة •

نظرية خاطئة :

من النظريات التى كان لها رواج في الأوساط العلمية في الجيل الماضي نظرية حول البداوة لها صلة بالموضوع الذي نحن فيه ، وخلاصتها أن البداوة مرحلة اجتماعية مرت بها جميع الأمم قبل دخولها في مرحلة الحضارة .

مما يجدر ذكره ان هذه النظرية كانت مستمدة من نظرية التطور المشهورة التي صارت « موضة » علمية منذ ظهور داروين في منتصف القرن الماضي . فقد ظن العلماء يومذاك أن كل مجتمع بشري هو كالكائنات الحية لابد أن يمر في تطوره عبر التاريخ بسلسلة متتابعة من المراحل المحتومة . وهذه المراحل ، كما تخيّلوها ، تبدأ بالمرحلة البدائية التي يعيش الانسان فيها على الصيد والالتقاط ، ثم تأتي من بعدها مرحلة البداوة التي يعيش الانسان فيها على الرعي . وتليها مرحلة الزراعة ثم مرحلة الصناعة ....

لقد اتضح الآن خطأ هذه النظرية ، لاسيما فيما يخص البداوة . فالعلماء اليوم يميلون الى القول بأن البداوة ليست مرحلة ضرورية من مراحل التطور الاجتماعي ، وليس من المحتوم على كل أمة ان تمر بها خلال تطورها عبر التاريخ . ان البداوة في الواقع نظام اجتماعي لا ينشأ الا في الصحراء ، وهو لا يتغير أو يتطور ما دام باقياً فيها . فاذا خرج منها الى بيئة أخرى أخذ التغير يظهر فيه تدريجاً ، وهو قد يتجه عند ذاك نحو الزراعة أو التجارة أو الصناعة ، حسب مقتضيات الظروف .

ان هذا يؤدي بنا الى القول بأن الصحراء والبداوة أمران مترادفان . فالأمة التي لا تسكن الصحراء يصعب عليها أن تتخذ في معاشها نظام البداوة . انها في بداية أمرها قد تعيش في مرحلة الصيد والالتقاط ، حتى اذا شح عليها الرزق لسبب من الاسباب واضطرت الى ترك تلك المرحلة ، انتقلت الى مرحلة أخرى حسب طبيعة الأرض التي تعيش فيها . وهي في أكثر الاحيان لا يمكن ان تتخذ نظام البداوة اذا كانت أرضها غير صحراوية .

من المؤسف أن نرى تلك النظـرية ، على الرغم من ظهور خطئها أخيرا ، لا تزال شائعة في بعض اوساطنا العلمية ، ولا يزال بعض المؤلفين في بلادنا يأخذون بها ظناً منهم أنها نظرية صحيحة . من هؤلاء الدكتور علي حسني الخربوطلي ، فهو يقول : « كان العرب في جاهليتهم يعيشون في طور البداوة ، وهو طور اجتماعي طبيعي تمر به الأمم اثناء سيرها الـى الحضارة ... »[1] .

لا حاجة بنا الى القول بأن هذه النظرية قد تعرقل فهمنا لحقيقة المجتمع العربي ، ولتاريخه وطبيعة تركيـــبه . ان من الصعب علينا أن نـــدرك الخصائص التي تميّز بها المجتمع العربي عن غيره اذا اعتبرنا البداوة فيه ظاهرة عامة يشترك معه فيها كل المجتمعات البشرية .

وهناك خطأ آخر حول البداوة لاحظته لدى بعض الاجتماعيين فـي مهرجان ابن خلدون الذى انعقد في القاهرة عام ١٩٦٢ . فهم يظنون أن من أهم خصائص البداوة هو التنقل وقلة الاستقرار في الارض . وهم يشبّهون البدو في ذلك بالغجر والاسكيمو وغيرهم . وهذا خطأ علمي كبير يجب علينا تجنّبه .

الواقع أن البداوة لها ثقافتها الاجتماعية المنبعثة من طبيعة حياتهـــا الصحراوية ، وهي لا تشبه ثقافة الغجــر أو غيرها الا من حيث اتصافها بالتنقل الدائم . اما في غير ذلك من الامور فهناك فروق كبيرة جدا . وسنأتي الى بحث ذلك في فصول قادمة .

مقارنة وتصنيف :

يمكن القول ان الصراع بين البداوة والحضارة يختلف في نمطه وشدة تفاعله من قطر الى آخر في الوطن العربي .

نستطيع على أي حال تصنيف الاقطـار العـربية من هذه الناحية

---

(١) علي حسني الخربوطلي (المجتمع العربي) ص ١٥٣ .

الى ثلاثة أصناف رئيسة . أولها هو الصنف الذي يشبه العراق شبهاً كبيراً ، من حيث وجود الحضارة والبداوة فيه جنباً الى جنب ، فتسيطر عليه الحضارة تارة والبداوة تارة أخرى . ويشمل هذا الصنف أكثر الاقطار العربية كالاردن والشام والمغرب وتونس والجزائر واليمن ... وفي رأيي ان العراق يتفوق على هذه الاقطار جميعاً في شدة ظهور معالم الصراع والازدواج فيه ، وذلك لأسباب خاصة به ـ كما سيأتي في وقته .

اما الصنف الثاني فهو الذي تكون البداوة فيه أشدّ وأكثر تأثيراً من الحضارة . ولهذا فالصراع فيه ضعيف لا يظهر الا في نطاق ضيق جداً . ويشمل هذا الصنف نجداً والأحساء والعسير وليبيا ، والجزء الصحراوي من الجزائر وعُمان وحضرموت . ومن خصائص هذه الاقطار أنها قليلة السكان نسبياً ، وأكثرهم من البدو ، وليس فيها من معالم الحضارة الا النزر اليسير هو الموجود في الواحات حيث تستنبط المياه من الآبار فتنمو حولها مدن صغيرة يمتهن أهلوها الزراعة والتجارة . وهؤلاء لا يختلفون في عاداتهم وقيمهم الاجتماعية كثيراً عمّن يحيط بهم من القبائل البدوية .

قد تظهر في هذه الأقطار بعض الدول احياناً ، انما هي في واقع أمرها ليست دولاً بالمعنى الحضاري المعروف . وربما صح القول انها عبارة عن مشيخات قوية قائمة على أساس من العصبية البدوية . ان الدولة بمعناها الحضارى لا تقوم الا في المناطق التي يظهر فيها انتاج اقتصادي منظم ، من زراعة او صناعة . وبذلك تستطيع الدولة أن تدعم نفسها بما تجبى من ضرائب كافية ، عاماً بعد عام .

بقي لدينا الصنف الثالث والأخير من الأقطار العربية . وهذا الصنف على النقيض من الصنف الثاني الآنف الذكر ، حيث تكون الحضارة فيه أقوى أثراً من البداوة ، وأكثر تغلغلاً في الحياة الاجتماعية . يجب أن نعترف بأن هذا الصنف نادر الوجود في ربوع الوطن العربي . ولعلنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان القطر العربي الوحيد الذي تتمثل فيه خصائص

هذا الصنف ، الى حدٍ ما ، هو القطر المصري ، ولاسيما الوجه البحري منه . أما الوجه القبلي ، وهو الذي يسمى بالصعيد ، فمن الممكن عدّه من الصنف الأول ، وهو بذلك يشبه العراق الى حدّ كبير .

مما يجدر ذكره ان هذا التصنيف ليس كاملاً ولا شاملاً . فالموضوع أوسع مما ذكرنا وأعمق . وهذا هو الذي يجعلنا نهيب بالباحثين في الأقطار العربية المختلفة الى دراسة مجتمعاتهم الخاصة ، في سبيل التعرف الى مميزات كل منها على حدة ، ضمن النطاق العربيّ العام .

في سبيل علم اجتماع عربي :

قدّمت في أحد كتبي السابقة[١] اقتراحاً أود أن أعيد ذكره مرة أخرى في هذه المناسبة . هو أن الباحثين العرب يجب أن يتعاونوا فيما بينهم لانشاء علم اجتماع خاص بهم .

مما يجب الانتباه اليه هو أن علم الاجتماع الذي يدرس الآن في الجامعات الأجنبية لم تكتمل معالمه بعد ، وهو لا يزال متأثراً في بعض أصوله وأسسه بالمحيط الاجتماعي الذي نشأ فيه . وقد يصحّ أن أقول بأن علم الاجتماع لم يبلغ ، بعد ، مستوى العلوم الأخرى التي نمت منذ زمن طويل فأصبحت تستند في مفاهيمها على أسس عامة تصلح للتطبيق في كل زمان ومكان .

نشأ علم الاجتماع منذ مائة سنة تقريباً ، وهذا عمر يكاد يكون صغيراً بالنسبة لأعمار كثير من العلوم الأخرى . ومن المؤسف أن نرى بعض اخواننا ، من الكتاب والباحثين ، لا يفطنون لهذا الأمر ولا يهتمون به . فنجد أحدهم مثلاً يدرس علم الاجتماع في جامعة أجنبية فيرجع الى مجتمعه يريد أن يدرسه في ضوء ما درس هناك حرفياً ، ناسياً الفرق بين مجتمعه والمجتمع الذي درس فيه . انه قد يظن أن الظواهر الاجتماعية التي درسها

---

(١) علي الوردي (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته) الفصل الثالث عشر .

هناك « قوانين عامة » تصدق على جميع الشعوب في العالم من غير تفريق •

لا ننكر ما في علم الاجتماع الحديث من نظريات قيّمة تنير السبيل للباحث الاجتماعي اينما ذهب في أنحاء الأرض • ولكننا مع ذلك لا يجوز أن نتخذ منه « دستوراً » صلباً ، أو نقلّده تقليداً أعمى •

لاحظت اثناء دراستي العلمية في الولايات المتحدة أن علماء الاجتماع هناك لا يعنون بموضوع البداوة عناية كافية • ولا لوم عليهم في ذلك ، فهم لا يجدون أثراً للبداوة في بلادهم ، ولابدّ لهم من أن ينهمكوا في دراسة أمور أخرى هي ذات مساس بالمجتمع الذي يعيشون فيه •

ان الذين اهتموا بدراسة البداوة من الأجانب ليسوا من علماء الاجتماع ، بل هم على الاكثر من المستشرقين أو السائحين أو من أشبه • وهؤلاء على الرغم من جهودهم القيمة قد تورّطوا في أخطاء علمية غير قليلة •

ان هذا قد جعل الباحثين العرب ازاء مهمة صعبة • فهم المسؤولون بالدرجة الأولى عن دراسة البداوة ودراسة ما جرى في المجتمع العربي بينها وبين الحضارة من صراع • ولا يجوز لهم ان يتوقعوا من غيرهم دراسة ذلك ، ليأتوا هم من بعدهم فيتبعوا الطريق الذى مهده الغير لهم •

اهمية ابن خلدون :

امتاز ابن خلدون بميزتين لم يماثله فيهما أحد من الباحثين الاجتماعيين في جميع الامم • أولاهما أنه كان أول باحث في العالم درس المجتمع دراسة واقعية غير « وعظية » • وهو في ذلك سبق زمانه بخمسة قرون تقريباً • والميزة الثانية أنه كان ، ولا يزال ، أعظم من درس المجتمع العربي على أساس من طبيعة تكوينه الخاص ، أي على أساس ما جرى فيه من صراع بين البداوة والحضارة •

حين ندرس نظرية ابن خلدون نجدها في معظمها تدور حول المقارنة بين البداوة والحضارة ، وكيف حدث الصراع بينهما • ولهذا جاز

القول بأن هذه النظرية هي ، على الرغم من قدم زمانها ، خير مرجع لنا في دراسة المجتمع العربي • انها انبعثت من طبيعة هذا المجتمع ، كمثل ما انبعثت النظريات الاجتماعية الحديثة من طبيعة المجتمع الذي نشأت فيه •

مهما يكن الحال فان هذا الذي نقوله عن نظرية ابن خلدون لا يعني انها كانت صحيحة أو كاملة في جميع تفاصيلها • انها كأية نظرية أخرى من النظريات العظيمة ، لابد أن تحتوي على نقائص وأخطاء ، كمثل ما تحتوي على ابداع وأصالة •

من هذه الأخطاء أنه عند ما درس الصراع بين البداوة والحضارة في المجتمع العربي ظن أن هذا الصراع عام في جميع المجتمعات البشرية • ولهذا رأيناه يحاول تفسير التاريخ البشري كله بأنه عبارة عن دورات متشابهة تتتابع مرة بعد مره ولا يختلف فيها العرب عن غيرهم من الأمم • وهو يصف كل دورة بانها تنشأ من جراء هجوم البدو على الحضارة المجاورة فيؤسسون فيها دولة مزدهرة ولكن هذه الدولة تنحط وتضعف تدريجياً لما ينالها من الترف والنعومة ، حتى تسقط أخيراً اثر هجوم موجة بدوية جديدة عليها • وهكذا يتوالى ظهور الدول وسقوطها مرة بعد مرة •

ان هذه النظرية الخلدونية تصدق بدرجة كبيرة ، كما لا يخفى ، على تاريخ المجتمع العربي • وقد تصدق بدرجة أقل على تاريخ بعض المجتمعات الأخرى ، كما رأينا سابقاً • انما هي على أي حال لا يجوز تعميمها على تاريخ جميع المجتمعات البشرية •

وهناك خطأ آخر اقترفه ابن خلدون ، هو انه ظن بأن العرب أشد الامم بداوة ، وبعداً عن الحضارة • ولهذا رأيناه يصف العرب بكل ما يناقض صفات الحضارة من تخريب ووحشية وخشونة وما أشبه • وهذا هو الذى جعل بعض دعاة القومية العربية في عصرنا يذمون ابن خلدون ويوصون بحرق كتبه ونبش قبره ، باسم القومية ![1] •

---

(١) ساطع الحصري (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) ص ١٥١ •

الغريب من ابن خلدون أنه قال بذلك الرأي المتطرف في العرب وهو يعيش في عصر كانت وحشية المغول وتخريبهم ملأ الاسماع والأبصار في كل مكان . وقد أتيح له ان يكون في الشام عند اجتياح تيمورلنك لها ، وشهد مدى التخريب الفظيع ، والنهب والحرق والقتل ، الذي حدث فيها على يد التتر المتوحشين(١) . وكان ابن خلدون يعرف ماذا صنع تيمورلنك في المدن الأخرى ، وماذا صنع أسلافه كهولاكو وجنكيز خان قبله .

الواقع أن العرب في جميع فتوحهم لم يقترفوا مثل هذه الفضائع والتخريب . وقد شهدت لهم بعض الأمم المفتوحة بأنهم كانوا ذوي شهامة ومروءة غير قليلة(٢) . يبدو أن الذي دفع ابن خلدون الى اعتبار العرب أكثر بداوة وتخريباً ووحشية من غيرهم ، سببان :

اولهما : محاولة ابن خلدون للتقرب من تيمورلنك ونيل الحظوة عنده . ولا ننسى أن ابن خلدون كان في سيرته الشخصية انتهازياً فظيعاً ، يود التقرب من الملوك ، وقد يقلب في سبيلهم الحق باطلاً(٣) .

وثانيهما : هو ان ابن خلدون نشأ في بلاد المغرب وأدرك مدى التخريب الذي احدثه فيها اجتياح القبائل العربية لها منذ عهد غير بعيد . وهذا هو ما اشتهر في الاساطير الشعبية بـ « تغريبة بني هلال » . والظاهر أن المحيط الاجتماعي الذي عاش فيه ابن خلدون في المغرب كان مشحوناً بمثالب تلك القبائل المخرّبة ، فتأثر ابن خلدون به على وجه من الوجوه .

الواقع أن القبائل العربية قد خربت بلاد المغرب تخريبا فظيعاً(٤) . ولكننا مع ذلك لا نستطيع ان نعدّ تخريبهم بمستوى تخريب المغول والتتر . فقد كان هؤلاء وحوشاً سفاكين علاوة على كونهم مخربين . فكانوا لا يكتفون بتخريب المدينة التي يفتحونها ، بل يعمدون أحياناً الى قتل جميع سكانها .

---

(١) ابن خلدون (التعريف) ص ٣٧٤ .

(٢) ادوارد براون (تاريخ الادب في ايران من الفردوسي الى السعدي) ترجمة ابراهيم الشواربي ـ ص ٥٥٢ .

(٣) علي الوردي (منطق ابن خلدون ...) الفصل الحادي عشر .

(٤) محمد فهمي عبداللطيف (ابو زيد الهلالي) ص ٥١ ـ ٥٤ .

يمكن أن نقول عن العرب بوجه عام ان البداوة فيهم أقل توغلا وشدة مما هي في المغول والتتر ومن لف لفهم . ولعل السبب في ذلك هو أن العرب قد تصارعت فيهم البداوة والحضارة منذ أقدم الازمان . وهم اذن أقرب الى فهم الحضارة ، وأسرع الى التكيف لها ، من اولئك . وسنأتي الى بحث ذلك مرة أخرى في الفصل القادم .

منشأ الحضارة :

قلنا ان أول حضارة ظهرت في العالم هي تلك التى نشأت في العراق ومصر ، وذلك قبل ستة آلاف سنة تقريباً . والسؤال الذي يواجهنا هنا : لماذا ظهرت الحضارة في هذين القطرين قبل غيرهما من أقطار العالم ؟

حاول بعض الباحثين في القرن الماضي أن يجيبوا على السؤال بقولهم ان هذين القطرين قد اتصفا بوفرة المياه وخصوبة الأرض واعتدال المناخ ، فنشأت فيهما من جراء ذلك الزراعة التى هى أساس الحضارة . الواقع ان هذا الجواب على الرغم من وجاهته الظاهرة لا يحل لنا المشكلة حلاً تاماً . نحن لا ننكر أثر الماء والأرض والمناخ في نشوء الزراعة . ولكن هذه المزايا لا يمكن ان تكون وحدها كافية في هذا الشأن . فالمعروف أن هناك في أنحاء العالم أقطاراً عديدة تكاد تشبه العراق ومصر من حيث توافر تلك المزايا فيها ، فلماذا لم تنشأ الحضارة فيها مبكّرة على نمط ما نشأت في ذينك القطرين ؟

للمؤرخ المعروف أرنولد توينبي نظرية في هذا الصدد يمكن اعتبارها أفضل حل لهذه المشكلة . خلاصة النظرية أن المنطقة الصحراوية الشاسعة التى نشهدها اليوم ممتدة من المحيط الى الخليج لم تكن كذلك منذ بداية أمرها. فقد دلت الأبحاث الحديثة على أن هذه المنطقة كانت في يوم من الايام غزيرة المطر وافرة الخير زاخرة بأنواع الحيوان والنبات ، وكان سكانها يعيشون على صيد الحيوان والتقاط الاثمار ، حيث لم يكن بينهم من يعيش في طور البداوة أو الحضارة على الوجه الذي رأيناه بعد ذلك .

لقد كانت المنطقة على مثل هذا الوضع قبل عشرة آلاف سنة تقريباً ، وذلك في العصر الذى يطلق عليه العلماء اسم « العصر الجليدي الرابع » . ففي ذلك العصر كان الجليد القطبي زاحفاً نحو الجنوب حتى أصبح قريباً من شمالي المنطقة العربية . ولهـــذا كانت الرياح القطبية تجتاح المنطقة العربية في معظم فصول السنة ، فيغزر المطر فيها من جراء ذلك ، ويكثر النبات والحيوان .

ولسبب لـم يعرف كنهه حتى الآن ، بدأ الجليد ينحسر نحو الشمال تدريجياً . ولهذا أخذ المطر يقل في المنطقة شيئاً فشيئاً ، حيث صار الجفاف يظهر فيها بمرور الزمن . يقول توينبي ان سكان المنطقة جوبهوا عند ذلك بمشكلة لم يعهدوها من قبل . فقد أخذ مجال الرزق يضيق عليهم تدريجاً ، وبدأوا يفكرون في ايجاد مورد آخر للرزق . ان الحياة المطمئنة التي نعموا بها من قبل آذنت بالزوال .

اضطرت الحاجة بعض سكان المنطقة الى ابتداع طريقتين جديدتـين للعيش تختلفان عن الطريقة القديمة التى اعتادوا عليها . وهاتان الطريقتان هما الرعي والزراعة . فالذين آثروا البقاء في الصحراء اتخذوا طريقـة تربية الأنعام وأخذوا يترحّلون معها سعياً وراء المراعي . اما الآخرون فقد ذهبوا الى أحواض الانهار القريبة وصاروا يستصلحونها للزراعة ، وبهـذا نشأت لديهم الحضارة(١) .

قصة آدم :

يميل بعض الباحثين الى القول بأن قصة آدم التي ورد ذكرها فـي الـكتب المقدسة ليست سوى قصة رمزية تشير الى الأحداث التاريخية التي أشرنا اليها آنفا . وخلاصة القصة أن آدم وزوجته حواء كانا يعيشان فـي جنة عدن منعّمين ، ثم عصيا ربهما بتحريض من الشيطان .. فطردهما الله

(1) Toynbee (A Study of History) — Somervell abridgement - Vol. I, p. [illegible] — 74.

من الجنة ، حيث صارا يكسبان قوتهما عن طريق الكدح وعرق الجبين . ورزقهما الله بعد ذلك ولدين هما : هابيل وقابيل . فاتخذ هابيل مهنة الرعي بينما اتخذ قابيل مهنة الزراعة . وجرى بين الأخوين نزاع فقتل قابيل أخاه هابيل[1] ...

من الباحثين الذين عنوا بهذه القصة المؤرخ الذي أشرنا اليه ـ توينبي . فكان من رأيه أن جنة عدن التي عاش فيها آدم وزوجته ، قبل سقوطهما ، تمثل الحالة المطمئنة التي كان البشر يعيشون فيها قبل انحسار العصر الجليدي . اما النزاع بين هابيل وقابيل فيمثل الصراع الذى حدث بعدئذ بين البداوة والحضارة[2] .

هناك باحث آخر اهتم بقصة آدم أيضاً ، هو المهندس المعروف : وليم ويلكوكس . ولكنه ذهب في هذا السبيل الى مدى أبعد مما ذهب اليه توينبي ، اذ هو حاول أن يحدد موقع جنة عدن تحديداً دقيقاً ، وتوصل بتحرياته الى القول بأن تلك الجنة كانت في العراق ، وفي الفرات الأوسط على وجه التخصيص .

ان ويلكوكس يعرفه العراقيون اذ هو الذي أشرف على بناء سدة الهندية . فلقد دعته الحكومة العثمانية عام ١٩٠٨ لكي يدرس مشاريع الري في العراق . وقد انتهز الفرصة فأخذ يبحث عن مواقع الأنهار الأربع التي كانت تسقى أرض الجنة حسبما ورد ذكرها في التوراة ، وهي حداقل والفرات وجيحون وفيشون . وقد انتهى ويلكوكس أخيراً الى الرأي بأن تلك الانهار لم تكن سوى نهر الصقلاوية وشط الحلة وشط الهندية ثم منخفض الحبانية وأبي دبس الذي تغمره المياه عند الفيضان[3] .

---

(١) لقد استعملت اسم « قابيل » حسبما ورد في كتب التاريخ العربية ، اما اسمه الاصلي كما ورد في التوراة فهو « قايين » . انظر : سفر التكوين ، الاصحاح الرابع .

(2) Toynbee (op. cit.) Vol. I, p. 65 — 66.

(٣) وليم ويلكوكس (من جنة عدن الى عبور نهر الاردن) ـ تعريب محمد الهاشمي ـ ص ١٢ ـ ١٣ .

سواء أوافقنا على هذا الرأي الذى جاء به ويلكوكس ام لم نوافق ، فاننا حين نستمع الى تتمة حديثه في هذا الموضوع نشعر بأن معه بعض الحق فيما توصل اليه من رأي . واني أكاد أعتقد أن ويلكوكس أصاب حين قال بان ظروف العراق قد جعلت منه اكثر أقطار العالم ملائمة لظهور الصراع بين البداوة والحضارة فيه .

لقد أتيح لويلكوكس أن يعيش في مصر ، ويدرس أرضها وأنهارها ، قبل أن يأتي الى العراق . وبهذا استطاع أن يعقد مقارنة بين طبيعة هذين القطرين الذين ظهرت فيهما أول حضارة في تاريخ العالم . ففي رأيه أن العراق يشبه مصر من ناحية ويختلف عنها من ناحية أخرى . فمن الناحية الأولى نجد الحضارة تظهر في مصر والعراق في وقت متقارب . اما من الناحية الثانية فنجد في العراق ظروفا خاصة تجعله اكثر ملائمة لتغلغل البداوة فيه ، ولصراعها مع الحضارة .

يقول ويلكوكس ما نصه :

« ان النيل اكثر أنهار العالم اتزانا ، فانه ينذر بارتفاعه وانخفاضه قبل مدة مناسبة . ولا يسلك سلوكا مفاجئاً ، ويحمل من الغرين في فيضانه ما يكفي لتطييب الارض دون أن يؤدى ذلك الى طمر القنوات ، كما أنه بحد ذاته خال من الأملاح ، ويفيض عادة في أشهر آب وايلول وتشرين الأول من كل سنة مؤمناً بذلك ارواء المزارع الشتوية والصيفية على السواء ، ويجرى بين رواب من الحجارة الرملية والكلسية التي تجهز منها المواد الانشائية بكثرة . اما دجلة والفرات فانهما يرتفعان بدون انذار سابق وسلوكهما على الدوام مفاجيء ، ويحملان خمسة أضعاف ما يحمله النيل من غرين ، ويحدث فيضانهما في آذار ونيسان وأيار ، وهذا موسم متأخر جداً بالنسبة للزروع الشتوية ومبكر جداً بالنسبة للنباتات الصيفية ، ويحتويان على كمية جسيمة من الأملاح المحلولة ،

ويجريان بين صحارٍ جبسية وأراضٍ مالحة »[1] .

ويضيف ويلكوكس الى ذلك قائلا : ان أرض العراق أشد انحداراً من أرض مصر . ففي مصر يبلغ انحدار الأرض قدماً واحداً في كل ميل ، بينما نراه في العراق يبلغ خمسة اقدام في الميل الواحد[2] . ان شدة الانحدار في الارض تؤدى طبعاً الى قوة جريان الأنهر فيها . وهذا معناه أن الأنهر ذات قدرة كبيرة على كسر السدود واجتياح الاراضي الزراعية المجاورة . وفي رأى ويلكوكس أن ذلك من شأنه زيادة النزاع بين الفلاحين والرعاة ، أو بين قابيل وهابيل . فالفلاحون يحاولون انشاء السدود على ضفاف الأنهر لكي يحموا بها حقولهم الزراعية من خطر الغرق . ولهذا فان حدوث أية ثغرة في تلك السدود يسبب كارثة عظيمة لهم . اما الرعاة فمن مصلحتهم أن تحدث هذه الثغرة في السدود ، ولعلهم يجدون في أنفسهم اغراءاً لإحداث مثل هذه الثغرة في سنوات الإمحال الشديدة ، لانها تؤدى الى ارواء المراعي التى تتغذى عليها أنعامهم .

يقول ويلكوكس ان الخصومة المستمرة بين هابيل وقابيل يدل عليها ما ورد في التوراة من أن الله كان يقبل قرابين هابيل ويزدرى بقابيل وقرابينه . ويظهر ان التضال بين الأخوين بلغ شدته ، فظن قابيل ذات مرة أن أخاه قام بكسر السدود ، فعدا عليه ودنّس يده بقتله . وكان غضب الرب لهذا الجرم عظيماً[3] ...

ويعتقد ويلكوكس أن هذه الخصومة بين الأخوين ، التي ظهرت في العراق منذ أقدم العصور التاريخية ، لا تزال باقية فيه حتى العصر الحديث . فهو يحدثنا عما شهده بنفسه من الخصومة بين هابيل وقابيل عام ١٩٠٩ . ففي شهر أيار من ذلك العام ، حين كان فيضان الفرات بالغاً أقصى حدوده ، كان ويلكوكس يتجول على الضفة اليسرى منه ،

(١) أحمد سوسة (فيضانات بغداد في التاريخ) ج ١ ص ١٤٧–١٤٨
(٢) وليم ويلكوكس (المصدر السابق) ص ١٩ – ٢٠ .
(٣) وليم ويلكوكس (المصدر السابق) ص ١٧ .

متجها نحو الشمال بين الرمادي وهيت . فرأى أكثر من خمسين قطيعاً من الغنم تسير في الوادي خارجة من المنطقة الصحراوية . وكان ظهور هذه القطعان سبباً في القاء الرعب والفزع في نفوس الزراع . وعند رجوع ويلكوكس في اليوم التالى سالكاً طريق النهر بسفينة ، سمع صوت رصاصتين ، واحدة بعد الأخرى ، وشاهد من بعيد عدداً كبيراً من الفرسان والمشاة يهرعون الى محل الحادث ، بعضهم يحمل المساحي والبعض الآخر يحمل البنادق . وكانوا على استعداد لمقاومة اولئك الرعاة البدو او لدفع خطر الفيضان .

ولما اجتمع ويلكوكس بأحد أكابر الشيوخ ، قال له : « لماذا لا تقتسمون الأراضي بينكم ، فتغمرون قسماً منها بالمياه ، وتتركون القسم الباقي لزراعة الحنطة والشعير ؟ » . أجابه الشيخ : « اننا لا نستطيع أن نتفق فيما بيننا ، ولكننا نتمنى أن تحل في البلاد بعض الانظمة والقوانين محل هذه الضغائن المستمرة بيننا » . وأضاف الشيخ قائلا : « اذا سنّت في البلاد قوانين عملية فان الزرّاع ، وهم الاكثرية الساحقة في هذه البلاد ، سيصرّون على احترامها »[1] .

تغير مجارى الانهار :

يتضح مما سلف أن وضع الأنهار في العراق يختلف اختلافاً كبيراً عن وضعها في مصر . فهي في العراق تحتاج الى عناية مستمرة من حيث تطهير مجراها وكريه . فالتهاون في ذلك يؤدي الى ترسب الغرين في قعر المجرى على توالى الأيام . وهذا بدوره يؤدي الى استفحال خطر الفيضان من جهة ، والى تغير مجاري الانهار من الجهة الأخرى .

اننا حين ندرس خريطة الانهار في العراق عبر التاريخ نجدها في تبدّل مستمر . فهي هنا تارة وهناك تارة أخرى[2] . وهذا أمر له نتائج

(١) وليم ويلكوكس (المصدر السابق) ص ١٨ .
(٢) كوردن هستد (الاسس الطبيعية لجغرافية العراق) ـ تعريب جاسم محمد الخلف ـ ص ٦٢ ـ ٦٤ .

اجتماعية بالغة الأهمية ، لا سيما من حيث الصراع بين البداوة والحضارة . وقد رأينا ذلك بوضوح في العهد العثماني حين كانت سيطرة الحكومة ضعيفة ونظام الري مهملا . فقد ترسّب الغرين مثلا في نهر الغراف وقل جريان الماء فيه ، فاخذت مياه دجلة تتجه نحو العمارة ، فنشأت هناك الاهوار والفيضانات المتتابعة . وحدث مثل هذا في الفرات حين تحولت مياهه من فرع الحلة الى فرع الهندية ، فكان الجفاف في جانب والغرق في الجانب الآخر .

ان هذا التحول في مجاري الأنهر قد أدى طبعاً الى زيادة النزاع بين القبائل العراقية . فالقبيلة التي تجد أراضيها قد أمحلت من جراء تحول النهر عنها ، لابد أن تحاول الهجرة الى أراضٍ أخرى ، وهناك ستصطدم مع القبيلة التي كانت تتصرف بالأرض قبلها . ويمكن القول ان القبائل العراقية كانت تتنازع على الأراضي الزراعية على منوال ما تفعل القبائل البدوية في نزاعها على المراعى في الصحراء . وهذا من شأنه تدعيم أواصر العصبية في القبائل العراقية واشاعة الثأر والغزو بينها . وربما اضطر بعض تلك القبائل الى العودة الى حياة الرعي من جديد .

أرجح الظن أن هذا الذى شهدناه في العراق في العهد العثماني ، قد حدث ما يشبهه في عهود أخرى قديمة . نذكر على سبيل المثال ما حدثنا المؤرخون به عن العهد الذي حلّ بالعراق بعد وفاة الاسكندر . يقول الدكتور أحمد نسيم سوسة : « وعلى أثر وفاة الاسكندر خيمت على البلاد سحابة من الاضطراب السياسي كانت سبب حرمان البلاد من الاستقرار الداخلي الذى يعد العامل الأساسي في ازدهار انظمة الري ، وساد بنتيجة ذلك النظام العشائري في البلاد ، وقد استمر هذا الحال حتى جاء الدور الساساني الذي امتاز عن غيره بما تمتع به من استقرار سياسي ، اذ قامت على أنقاض النظام العشائري سلطة موحّدة وضعت الركن المتين لنهضة عمرانية جديدة شملت طول البلاد وعرضها ... »[١] .

---

(١) أحمد سوسة (المصدر السابق) ص ٢٠٤ .

أهمية الدولة :

قلنا من قبل ان الحضارة تتميز بوجود الدولة فيها ، بينما تتميز البداوة بوجود العصبية القبلية • ومن شأن الدولة انها تمنع التنازع بين الناس فتجعلهم ينسون عصبياتهم الضيّقة بمرور الأيام ، وهي فوق ذلك تعنى بشؤون الانتاج الزراعي والتجاري والصناعي ، فينهمك الناس في أعمالهم المختلفة ، حيث تنمو الحضارة بهم وتزدهر •

مما يجدر ذكره أن العراق شهد في فترات كثيرة من تاريخه ظهور دول قوية تعمل على انماء الحضارة فيه • ولكن هاتيك الفترات لم تدم طويلا • فكانت كل فترة منها تتلوها فترة أخرى من فترات النزاع والفوضى على منوال ما رأينا في العهد العثماني ، او في العهد الذي تلا وفاة الاسكندر •

من العوامل التي ساعدت على ذلك هو أن العراق واقع على حافة الصحراء حيث لا يفصل بينها وبينه فاصل من بحر أو جبل • ولهذا كانت الصحراء تقذف العراق بالموجات البدوية حيناً بعد حين • يمكن القول بان هذه الموجات البدوية المتتابعة لا تتيح للعراق فرصة قيام دولة ثابتة فيه زمناً طويلا •

حين نقارن بين العراق ومصر من هذه الناحية نجد بينهما فرقاً غير قليل • لا ننكر أن مصر تحيط بها الصحراء من معظم جوانبها • ولكن هذه الصحراء التي تحيط بمصر ليست كالصحراء المتاخمة للعراق • فهي في الغالب مؤلفة من رمال جرداء تصعب فيها الحياة بشتى أنواعها • ولهذا فهي ليست منبعاً مهماً من منابع البداوة • اما العراق فهو واقع على حافة الصحراء التى عرفت في التاريخ بانها من أعظم منابع البداوة في العالم ، وهي التى أطلق عليها اسم « جزيرة العرب » •

طوفان نوح :

وردت قصة الطوفان في الكتب المقدسة كمثل ما وردت قصة آدم وولديه هابيل وقابيل • ومما يلفت النظر أن هناك كثيراً من القرائن التي

تعيّن موقع هذا الطوفان في العراق • فقد عثر المنقبون في الآثار العراقية القديمة على قصص تشبه قصة الطوفان المذكورة في الكتب المقدسة الى حد كبير • ويميل بعض العلماء الى القول بان هذه القصة ترمز الى فيضان هائل حلّ بالعراق في زمن قديم جداً ، ولعله كان اكبر فيضان شهده سكان العراق القدماء بحيث رسخت حوادثه في أذهانهم جيلا بعد جيل ، وبقيت ذكراه خالدة مدة طويلة ، كما كان مصدر الهام لكتاب ذلك الزمن وشعرائه[1] •

الظاهر أن النبي نوحاً كان يعيش في العراق في ذلك الزمن ، وقد تنبأ بالكارثة قبل وقوعها • فكان يحذّر الناس وينذرهم أن يتركوا خصوماتهم المحلية ، وبغيهم بعضهم على بعض ، فلم يسمعوا له • ولعلهم كانوا مشغولين عنه بنزاعهم القديم الذي أشرنا اليه آنفا ، حيث كان الرعاة يهاجمون سدود الانهار ويحاولون تخريبها ، فيصدهم الفلاحون عنها ، وتثور بينهم المعارك • لقد كان هذا يحدث بينهم في الوقت الذى كانت فيه نذر الطوفان تتوالى عليهم دون جدوى •

ذكرت التوراة أن العالم كان قبيل الطوفان مملوءاً بالعدوان والظلم[2] • وقد أشار القرآن الى مثل هذا في بعض آياته • فذكر أن قوم نوح كانوا فاسقين ، وانهم كانوا ظلمة طغاة ، وأن الله أرسل اليهم نوحاً ليدعوهم الى عبادة الله وتجنب الآثام والطغيان • فلم يسمعوا له وسخروا منه • فأمره الله بأن يصنع السفينة لكي ينجو بها هو وأتباعه من الغرق الذى سيحل بالناس عقاباً على بغيهم وآثامهم[3] •

يقول ويلكوكس : ان النزاع بين الجماعات المختلفة وما نشأ عنه من نتائج مريعة هي التى ألقت الفزع في نفوس بعض المفكرين الذين كان نوح أحدهم • فقد خاف نوح عاقبة الأمر فتهيأ لمجابهة الحدث الرهيب

---

(١) أحمد سوسة (المصدر السابق) ص ١٦٥ ـ ١٦٦ •
(٢) التوراة ، سفر التكوين ، الاصحاح الثالث عشر •
(٣) القرآن ، سورة هود ، وسورة الشعراء ، وغيرهما •

الذي كان متوقعاً ، فصنع لنفسه سفينة من خشب الحور الذي تكثر اشجاره على ضفاف الفرات ، وطلاها بالقار المستخرج من هيت ، بعين الطريقة التى تطلى بها « القفة » اليوم في الفرات[١] .

حدث الطوفان أخيراً كما تنبأ به نوح ، وعامت السفينة تتهادى على سطح الماء بمن كان فيها ، وتسير حسبما يتجه بها تيار الماء والرياح . وفي رأي الدكتور سوسة : انها استقرت أخيراً ، بعد انخفـاض ميـاه الطوفان ، على أحد المرتفعـات الصحـراوية في جـوار النجف ، وهي مرتفعات تعلو عن سطح البحر بما يناهز الخمسة والستين مترا[٢] .

ويضيف الدكتور سوسة الى ذلك قائلا بأن سفينة نوح تذكرنا بما وقع في بغداد في عهد الرشيد عام ١٨٦هـ . فقد حدث حينذاك فيضان كبير مما اضطر الرشيد أن ينتقل من قصوره ، مع أهله وحرمه وأمواله ، الى السفن . وبقي فيها حتى هبط مستوى نهر دجلة ، فعاد الى البر[٣] .

---

(١) وليم ويلكوكس (المصدر السابق) ص ٢١ .
(٢) أحمد سوسة (المصدر السابق) ص ١٧٠ ـ ١٧١ .
(٣) أحمد سوسة (المصدر السابق) ص ١٦٦ .

الفصل الثاني

ما هي البـــداوة

تحدثنا عن صراع البداوة والحضارة ، في العراق بوجه خاص ، وفي الوطن العربى بوجه عام . وهنا لابـد ان يواجهنـا سؤال : مـا هى البداوة ، وما هي الحضارة ؟ فنحن لا نستطيع أن نستمر في بحثنا من غير أن نفهم طبيعة كل واحدة منهما .

ان من العسير ان نعرّف الحضارة تعريفا وافياً . فهى ظاهرة اجتماعية متغيرة ، تختلف في كثير من معالمها وخصائصها باختلاف الزمان والمكان . اما البداوة فتعريفها ليس بمثل هذه الصعوبة ، انها في الغالب لا تتغير ، او تختلف اختلافاً كثيراً . باختلاف الزمان والمكان . فهي اليوم تشبه ما كانت عليه قبل مائة سنة ، او قبل عدة مئات من السنين . وهي كذلك تتشابه في المناطق المختلفة تقريباً . وهـذا هو الذى دعى المؤرخ توينبي الى وصف البداوة بأنها « حضارة مجمدّة »[١] .

ومهما يكن الحال فاننا حين نفهم ماهية البداوة نستطيع أن نفهم شيئاً عن ماهية الحضارة بصورة غير مباشرة . فالحضارة معاكسة للبداوة في كثير من خصائصها ، ومن الممكن اذن أن نتبين هذه الخصائص ، قليلا او كثيراً ، عن طريق المقارنة بما يقابلها في البداوة .

---

(1) Toynbee (A Study of History) — Somervell abridgement — Vol. I, p. 164.

توضيح حول اصطلاح :

قبل أن نباشر البحث في ماهية البداوة ، ينبغي أن نزيل الالتباس عن اصطلاح علمي له صلة وثيقة بموضوعنا ، هو الـ « Culture » . فهذا الاصطلاح أصبحت له أهمية كبيرة في علم الاجتماع ، وفي العلوم الاخرى المتصلة به . ومن المؤسف ان نجد المؤلفين العرب يختلفون في ترجمة هذا الاصطلاح الى اللغة العربية . فبعضهم ترجمه الى « ثقافة » ، والبعض الآخر ترجمه الى « حضارة » .

اني لا أميل الى ترجمته الى « حضارة » . والسبب الذى يدعوني الى ذلك هو أن لفظة « الحضارة » استعملت في اللغة العربية منذ قديم الزمان بمعنى « المدنية » . وعلى هذا جرى ابن خلدون وجميع المؤرخين والباحثين والأدباء العرب . فهم قد اعتادوا أن يصنّفوا الناس الى فئتين متناقضتين هما : البدو والحضر . ولهذا فاني أحب أن أحافظ على هذا المعنى القديم للفظة « الحضارة » . فهي عندي بمعنى « المدنية » ، وقد جريت عليه في فصول هذا الكتاب .

اما « الثقافة » التي يستعملها الآن كثير من المؤلفين في مصر وغيرها بمعنى « Culture » ، فاني أميل الى مجاراتهم فيها . ولكن هذه اللفظة على اي حال لاتخلو من عيب . فهي قد شاع استعمالها في التداول العام بمعنى المعرفة او التهذيب او النضوج العلمي . فاذا وصف الناس شخصاً بانه « مثقف » عنوا أنه مهذب او مطلع على المعرفة الحديثة اطلاعاً ناضجاً عميقاً .

ان هذا التداول الشائع للفظة « الثقافة » قد يحدث التباساً وغموضاً لدى القاريء ،عند استعمالها بمعناها العلمي . ولكي لا يقع مثل هذا الالتباس سأحاول استعمال « الثقافة الاجتماعية » بمعنى « Culture » . وبهذا يمكن التفريق بين المعنى العلمي والمعنى الشائع لهذا الاصطلاح المهم[1] .

---

(١) ربما استعملنا لفظة « الثقافة » مجردة في بعض الاحيان ، على سبيل الاختصار . فالرجاء من القارىء أن يفهمها بمعناها العلمي في كل موضع ترد فيه في هذا الكتاب .

ما هى الثقافة الاجتماعية :

الثقافة الاجتماعية للأمة كالشخصية للفرد . فكما أن كل فرد له شخصيته الخاصة به ، اذ هو يتميز بها عن أي فرد آخر ، كذلك تكون كل أمة من الأمم ، اذ هى اختصت بثقافة اجتماعية معيّنة لا تماثلها أية ثقافة أخرى في أية أمة .

يمكن تعريف الثقافة الاجتماعية بأنها مجموعة التقاليد والقواعد والافكار الموجودة في أية أمة من الأمم . وهي تشمل مختلف شؤون الحياة فيها ، كالشؤون الدينية والاخلاقية والقانونية والفنية والصناعية واللغوية والخرافية وغيرها[1] . ويجب أن نعلم بأن الثقافة الاجتماعية ليست مجموعة بسيطة مؤلفة من أجزاء متفرقة ، بل هي كلّ متماسك ومترابط بحيث تكون الاجزاء فيه متفاعلة فيما بينها تفاعلا قويا يجعلها ذات طبيعة جديدة لم تكن فيها عندما كانت منفردة .

للاستاذة روث بنديكت رأي في هذا الصدد مهم . فهي تشبّه الثقافة الاجتماعية بالمركب الكيمياوي ، وتأتي على ذلك بمثل البارود . فالبارود هو مركب كيمياوي مؤلف من مواد الكبريت والفحم ونترات البوتاسيوم . وكل واحدة من هذه المواد ليست لها قابلية الانفجار . ولكنها بعد أن تتفاعل فيما بينها ، يظهر مركب البارود الذي يتميز بالقابلية الشديدة للانفجار[2] . على مثل هذا تكون الثقافة الاجتماعية ، فهي مركب قائم بذاته ، وليست هي مجموعة بسيطة من الاجزاء المتفرقة . انها ذات خصائص تختلف عن خصائص كل جزء داخل في تركيبها[3] .

ان هذه حقيقة علمية مهمة جداً ، وهي ستنفعنا كثيراً في دراسة

---

(1) Sutherland & Woodward (Introductory Sociology) p. 19.

(2) Ruth Benedict (Patterns of Culture) p. 42 — 43.

(٣) حاولت ذات مرة أن أطلق على الثقافة الاجتماعية اصطلاح « التركيب الاجتماعي » ، وكنت متأثرا في ذلك بنظرية روث بنديكت هذه . ولكنى اضطررت الى تركه أخيرا حيث فضلت عليه اصطلاح « الثقافة الاجتماعية » .

البداوة . فالمعروف عن البداوة مثلا انها تحترم خصلة الكرم كثيراً . ولكننا حين ندرس طبيعة الكرم في البداوة نجدها لا تشبه طبيعة الكرم في الحضارة او في الحياة البدائية . فهي هناك شيء آخر ، اذ هي مطبوعة بطابع الثقافة البدوية ، ومتلونة بلونها . ويمكن أن نقول مثل هذا عن جميع الخصال البدوية ، فنحن قد نجد لها ما يشابهها في الثقافات الأخرى ، انما هو تشابه بالاسم او الشكل الظاهري فقط . اما من حيث المحتوى الواقعي فالخصلة البدوية تختلف عن شبيهتها « الاسمية » في أية ثقافة أخرى .

لعل هذا هو الذي جعل بعض السياح والمستشرقين يتورّطون في أخطاء فظيعة عند دراستهم للخصال البدوية . انهم ينظرون فيها بمنظار ثقافتهم الأجنبية ، فيفهمونها على غير ما هي في الواقع . وهم لو نظروا فيها من خلال اطارها الثقافي الخاص بها ، لأدركوا مدى الخطأ الذي تورطوا فيـه .

طابع الثقافة البدوية :

لكل ثقافة اجتماعية طابع عام تتميز به عن غيرها ، وهذا هو ما أطلق عليه علماء الاجتماع والانثربولوجيا « Pattern of Culture » . وهنا ينبغي أن نسأل : ما هو الطابع العام الذي تتميز به الثقافة البدوية ؟

من المؤسف أن نلاحظ أن الثقافة البدوية لم تدرس ، حتى الآن ، دراسة علمية في ضوء البحوث الاجتماعية الحديثة . معظم الدارسين كانوا من السياح الأجانب والمستشرقين ، كما أشرنا اليه من قبل . وهؤلاء في الواقع قد قدموا لنا في هذا الشأن دراسات كثيرة ونافعة ، ولكنها ليست دراسات علمية بمعنى الكلمة . انهم دأبوا على ذكر اجزاء الثقافة البدوية دون أن يتعمقوا فيها لكي يتعرفوا الى الطابع العام الكامن وراءها .

قال أحد المستشرقين وهو براون : ان الفضائل الرئيسة في البداوة هي الشجاعة والكرم والضيافة والولاء للقبيلة والثأر[1] . وقد حاول مور

(1) Browne (A Literary History of Persia) Vol. I, p. 190.

أن يحصر تلك الفضائل في اثنتين فقط هما : الشرف والثأر[١] • اما غولدزيهر فقد حصرها في واحدة ، هي المروءة ، ولكنه جعلها تشمل مظاهر شتى هى : الشجاعة الشخصية ، والشهامة التي لا حد لها ، والكرم الى حد الاسراف ، والاخلاص التام للقبيلة ، والقسوة في الانتقام ، والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه او على قريب له او على قبيلته بقولٍ أو فعل[٢] •

فرضية أميل اليها :

لا أكتم القاريء أني حاولت ، منذ بدأت بدراسة البداوة ، أن أتوصل الى القرار الحاسم في حل تلك المشكلة ، فلم أوفق • أنا واثق بأن حلّها ضروري لفهم طبيعة المجتمع العربي والعراقي • ولهذا دأبت على البحث في سبيل العثور على فرضية وافية في هذا السبيل • فكنت انتقل فيه من رأي الى آخر ، مرة بعد مرة • ولست أدري الى أين سينتهي بي المطاف أخيراً •

اني أميل الآن الى فرضية في هذا الصدد ، ولعلني سأغير رأيي فيها بعد الانتهاء من طبع هذا الكتاب • ومهما يكن الحال فاني أرى بأن محور الثقافة البدوية ، او طابعها العام ، يمكن اجماله بكلمة واحدة هي «التغالب»•

ولكي نفهم هذا المحور يجدر بنا أن نذكر أن كل ثقافة اجتماعية تحتوي على مركبات ، أو محاور جزئية ، هي التي يطلق عليها علماء الاجتماع اسم « Cultural Complexes » • وكل مركب من هذه المركبات يتألف من خصال متنوعة تسمى « Cultural traits » •

وفي رأيي أن مركبات الثقافة البدوية هي ثلاث : (١) العصبية (٢) الغزو (٣) المروءة • والملاحظ أن طابع « التغالب » موجود في جميع هذه المركبات الثلاثة • فالفرد البدوي يريد أن يغلب بقوة قبيلته أولا ، وبقوته الشخصية ثانياً ، وبمروءته أي بتفضله على الغير ثالثاً •

(1) Ibid, Vol I, p. 193.

(٢) أحمد أمين (فجر الاسلام) ص ٧٦ ـ ٧٧ •

فهو اولا يريد أن ينتمي الى قبيلة قوية تحميه . فهو يتعصب لها ويثأر من أجلها ، لانه يدرك أنه بغير ذلك لا يستطيع البقاء في الصحراء التي تكاد تخلو من أية سلطة حكومية . وهو ثانياً يريد أن ينال المكانة العالية في قبيلته ، ويفاخر أقرانه بها . أنه يجب ان يكون شجاعاً قوياً ذا نجدة وشهامة ، يتفوّق على غيره في القتال عندما تغزو قبيلته أو تغزى . والحياة في الصحراء لا تحتمل الضعيف الجبان الذى يكون وراء القوم أثناء القتال . فهو سيكون محتقراً ذليلا لا عون له ولا مكانة .

والرجل البدوي أخيراً يجب أن يكون ذا مروءة صارخة . ان الشجاعة والنجدة والشهامة في الحرب لا تكفى لأن ينال المكانة العالية بها . يجب أن يبرهن للناس بأنه قوي غلاّب في الحرب والسلم معاً . انه في السلم يجب أن يحمي ويغيث كل من يلجأ اليه ، سواء أكان ضيفا أو محتاجاً او جاراً او دخيلا او رفيقاً . فكل اهانة تلحق بمن يلجأ اليه يعدّها اهانة موجهة اليه شخصياً .

قد تقاس شجاعة الرجل البدوي بمقدار غنائمه التي يحصل عليها في الغزو . ولكن هذا المقياس لا يكفى وحده . فالرجل يجب ان يكون وهاباً بقدر ما يكون نهاباً . ومن هنا جاء وصف الرجل البدوي منذ قديم الزمان بانه « نهاب وهاب » . ان البخل يُعدّ في نظر البدو دليلا على الجبن والضعف . فالقوي المعتد بشجاعته لا يبخل . انه ينفق ما لديه على ضيوفه واللاجئين اليه ، وهو واثق بأنه سينال بشجاعته غنائم أخرى . ولسان حاله يقول « ابذل ما في اليد يأتيك ما في الغد » .

قرائن من الشعر الجاهلي :

الواقع ان الشعر الجاهلي هو بمثابة كنز علمي ثمين يمكن أن ندرس به طابع الثقافة البدوية . ونحن هنا لا نبالى بما زعمه الدكتور طه حسين أو غيره حول الشعر الجاهلي ، حيث ذهب الى القول بأن ما وصل الينا منه كان أكثره منحولا . ان الشعر الجاهلي ، على فرض انتحال الكثير

منه ، يظل نافعاً لنا من الناحية الاجتماعية ، اذ أن الرواة الذين نفترض انتحالهم له لا يستطيعون أن يخرجوا به عن اطار القيم البدوية المعروفة . ان المنتحل مضطر أن يأتي بالشعر المشابه لاشعار الجاهلية لكي يروج بين الناس ويصدّقون به .

مهما يكن الحال فاننا حين ندرس الشعر الجاهلي نلاحظ فيه كثيراً من معالم الثقافة البدوية . لنأخذ على سبيل المثال قصيدة عمرو بن كلثوم التي افتخر فيها بقومه . فهي قصيدة عامرة بنزعة « التغالب » . ننقل فيما يلي بعض أبياتها :

نطاعن ما تراخى الناس عنا	ونضرب بالسيوف اذا غُشينا
ورثنا المجد من عليا معدّ	نطاعن دونه حتى يبينا
نجذّ رؤوسهم في غير برّ	فما يدرون ماذا يتقونا
بشبان يرون القتل مجداً	وشيب في الحروب مجرّبينا
ألا لا يعلم الاقوام أنّا	تضعضعنا وأنّا قد ونينا
الا لا يجهلن أحد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا
ونوجد نحن أمنعنا ذماراً	وأوفاهم اذا عقدوا يمينا
وقد علم القبائل من معدّ	اذا قبب بأبطحها بنينا
بأنّا المطعمون اذا قدرنا	وانّا المهلكون اذا ابتلينا
وأنّا المانعون لما أردنا	وأنّا النازلون بحيث شينا
وأنّا التاركون اذا سخطنا	وأنّا الآخذون اذا رضينا
وأنّا العاصمون اذا أطعنا	وأنّا العارمون اذا عُصينا
ونشرب ان وردنا الماء صفواً	ويشرب غيرنا كدراً وطينا
اذا ما الملك سام الناس خسفاً	أبينا أن نقر الذل فينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا	وماء البحر نملؤه سفينا
اذا بلغ الفطام لنا صبيّ	تخرّ له الجبابر ساجدينا[١]

---

(١) الحسين بن أحمد الزوزني (شرح المعلقات السبع) ص ١٤٧ – ١٦١ .

H

لا يحسبن القاريء أن هذه قصيدة شاذة من الشعر الجاهلي . الواقع اننا كلما توغلنا في دراسة الشعر الجاهلي عثرنا فيه على عدد متزايد من الأبيات التي تشبه في مغزاها الاجتماعي قصيدة ابن كلثوم . فهي كلها تشير الى النزعة الشديدة المسيطرة على نفسية الرجل البدوي والتي تدفعه دائماً نحو القوة والغلبة ، ونحو الفخار بها . فهو يفاخر بقبيلته لانتصارها على القبائل الأخرى ، وهو يفاخر بنفسه لتفوقه على الأقران في الشجاعة وكثرة الغنيمة ، وهو أخيراً يفاخر بمروءته يتفضل بها على الناس ، ولا يتفضل أحد عليه .

الشخصية البدوية :

الشخصية بوجه عام هي صنيعة الثقافة الاجتماعية ، وصورة مصغرة لها في الغالب . فالفرد لا يكاد يفتح عينه للحياة حتى يجد الثقافة الاجتماعية قد ضربت نطاقها عليه وشملته بقيمها ومركباتها وطابعها العام . وهو اذن سينشأ وتتبلور شخصيته في حدود القالب الذي صنعته الثقافة الاجتماعية له . انه يجد الذين حوله يتفاخرون ويتشاتمون طبقاً للقيم التي أوحت بها الثقافة . فهو اذن يشعر بالميل الشديد نحو تحقيق قيم الفخار في نفسه ، ونحو الابتعاد عن قيم الشتيمة ، جهد امكانه .

لا ننكر أن الأفراد يختلفون في درجة تمثلهم للثقافة الاجتماعية . فمنهم الناجح جداً في ذلك ، ومنهم الفاشل . ومنهم من يتراوح بين هذا وذاك . ولكنهم جميعاً يحبون أن ينالوا الفخار الذي توحي به الثقافة الاجتماعية ، وان يتجنبوا العار . ان الثقافة ، كما قال الاستاذ سمنر ، هي توتّر نحو الملاءمة والتوافق[1] .

وحين ندرس البدو في الصحراء نجد فيهم هذا التوتّر نحو التلاؤم مع الثقافة البدوية واضحاً . فمنهم من بلغ فيه أقصى المرام كحاتم الطائي ،

(1) Sutherland & Woodword (Op. cit.) p. 35

أو عنترة العبسي ، ومنهم من انحط عن ذلك على درجات متفاوتة . اما الفاشل منهم فلابد أن يكون مصيره الاحتقار ، ثم الهلاك عاجلاً أو آجلاً .

ان نزعة التغالب ، التي افترضناها طابعاً عاماً للثقافة البدوية ، واضحة الأثر في شخصية كل رجل بدوي ، قليلا او كثيراً . فالبدوي يحب من صميم قلبه ، كما رأينا ، ان يكون غالباً لا مغلوباً في كل شأن من شؤون حياته . انه يريد أن يغلب بقوته وقوة قبيلته ، ويغلب بمروءته .

أكاد اعتقد جازماً بأن المروءة البدوية ليست سوى مظهر رئيسي من مظاهر نزعة التغالب . ولهذا كان من الصعب على البدوي أن يكون موضع عطف أو رعاية أو تفضل من قبل أحد . فذلك يعني في نظره دليلاً على الهوان والضعف . وعلى النقيض من ذلك ، نراه يشعر بالفخار حين يأتيه أحد يطلب منه فضلاً أو حماية . فهو يعدّ ذلك من علامات السؤدد والمقدرة .

خلاصة ما يمكن قوله في هذا الصدد أن نزعة التغالب قد سيطرت على شخصية البدوي ، وجعلته ينظر في كل الامور حسبما توحي اليه . انه يود أن يكون ناهباً لا منهوباً ، معتدياً لا معتدى عليه ، معطيا لا قابضا ، مقصوداً لا قاصداً ، طالباً لا مطلوباً ، مغيثاً لا مستغيثاً ، مجيراً لا مستجيراً ، قادراً لا مقدوراً عليه ، حامياً لا محمياً ، مسؤولاً لا سائلاً ، مرجواً لا راجياً ، مشكوراً لا شاكراً ... الخ .

في هذا يكمن مفتاح الشخصية البدوية وشعارها : « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

ملاحظة مهمة :

جدير بنا في هذه المناسبة أن نأتي بملاحظة لا تخلو من أهمية . وقد عثرت على هذه الملاحظة في قصيدة للفرزدق مدح بها الامام علي بن الحسين ، حيث قال :

ما قال « لا » قط الا في تشهده   لولا التشهد كانت « لاءه » نعم

الواقع اني عندما سمعت بهذا البيت لأول مرة صعب عليّ فهمه • لم أستطع أن أفهم كيف يمكن لرجل ، مهما بلغت ثروته أو نفوذه ، أن يلبّي طلبات جميع الناس ، وأن يقول « نعم » لكل من يقصده في حاجة • ولكنني بعد دراسة البداوة أدركت أن هذا أمر ممكن فيها على وجه من الوجوه •

لم أكن أفهم بيت الفرزدق من قبل لاني كنت أنظر فيه بمنظار المجتمع الذى نشأت فيه • فقد افترضت وجود رجل في مجتمعنا مفرط في الكرم على النمط الذى وصفه الفرزدق ، وتخيلت عندئذٍ شدة ازدحام ذوى الحاجات على بابه • فهم يقصدونه من كل حدب وصوب ، ويتراكمون عليه صاخبين هاتفين • فكل واحد منهم يطلب منه تلبية حاجته الخاصة ، ويتوسل في ذلك بشتى الوسائل • ان الرجل مضطر أن يتهرب منهم ، أو يسدّ بابه عنهم • فهم كثيرون ، وكلما أفلح في تلبية حاجة البعض منهم ، ازدادوا عليه كثرة وتهافتاً وصراخاً •

ان هذا أمر كثير الحدوث في مجتمعنا وفي كل المجتمعات التي أخذت بشيء من الحضارة قليلاً أو كثيراً • وقد شهدناه غير مرة عندما يشتهر شخص بالمروءة والكرم فى احدى المدن العراقية • أما في المجتمع البدوى في الصحراء فهو أمر نادر الحدوث او يكاد يكون معدوماً •

فالبدو هم ذوو مروءة وكرم بمقدار ما هم ذوو أنفة وعزة واباء • فقد توازن هذان الجانبان في الشخصية البدوية بحيث صار في الامكان اشتهار رجل بالمروءة المفرطة دون أن يحتشد الناس على بابه ويتكالبوا عليه •

ان المضيف البدوى مفتوح دائما • والطعام يقدم فيه لكل ضيف أو قاصد ، حيث يلاقى الترحاب والبشاشة • وهذا قد يتعجب منه الأجانب ، فهو لو كان موجوداً في بلادهم لازدحم بالفقراء والمحتاجين ولظلوا فيه طيلة حياتهم لا يبرحونه • اما في البداوة فالرجل لا يذهب الى مضيف الا عند الضرورة القصوى ، كأن يكون في سفر بعيد ثم أدركه الليل وهو بالقرب من احدى القبائل ، فهو يأوى الى مضيف شيخها ، او الى أى بيت

من بيوتها ، كما يشاء . وهو يأبى أن يبقى في المضيف او البيت أكثر مما ينبغي له .

من القصص التى تروى حول حاتم الطائي ، أنه عثر في البادية على رجل كضه الجوع ، والرجل لا يعرفه . فقال له حاتم : « لماذا لا تذهب الى حاتم فتجد عنده الزاد والمأوى ؟ » . أجابه الرجل أن الجوع خير له من أن يتحمل منّة أحد . ان هذا قريب في المعنى من قول الشنفرى :

وأستفّ ترب الأرض كي لا يُرى
علي من الطول امرؤ متطوّل[1]

من مظاهر الأنفة وعزة النفس في الرجل البدوي أنه يحاول التمنّع باصرار شديد عندما تقدم له هدّية أو طعام او ما اشبه . وأصبحت هذه عادة مستحكمة فيه . وقد ورث أهل العراق بعض مظاهر هذه العادة ، وشاعت بينهم . فالمُهدي يصّر على الاعطاء والمهدى اليه يصّر على الرفض. وتنشب مشادة بينهما وتدافع الى درجة لا تطاق ـ كما سنرى .

نلاحظ هذا في المضيف البدوى بوضوح . فصاحب المضيف يحاول أن يدسّ اللقمة بعد اللقمة في فم ضيفه : « أرجوك ان تأكل .. كل من هذا بالله عليك .. كل من أجل خاطري .. » . والضيف يتعزّز ويتلوى دون جدوى . حدث مرة لاحد السياح أن وقع في مثل هذه الورطة حتى أصيب بالتخمة والقيء . ان معدة هذا السائح الغربي لم تتعود على مثل هذه التخمة الفظيعة ...

بلغت الأنفة في الرجل البدوى الى درجة جعلته يأبى أن يسأل غيره سؤالاً استفهامياً بسيطاً . وقد جاء في أحد الأمثال البدوية قولهم : « السؤال ذلّ ولو أين الطريق » .

---

(١) أحمد محمد الحوفي (الحياة العربية من الشعر الجاهلي) ص ٢٣٦ .

جانبان متوازنان :

نستطيع أن نقول على سبيل الاجمال : ان الثقافة البدوية فيها جانبان متناقضان ، ولكنهما متوازنان . فقد رأينا الرجل البدوي يوّد أن يغـزو وينهب ، ويقتل ويعتدي . وهو في الوقت ذاته يود أن يتكرّم ويحمي ويغيث ويشمل بمروءته كل من يأتي اليه قاصداً في حاجة .

الواقع أن الحياة البدوية لا يمكن أن تستقيم أو تدوم مـن غـير أن يتوازن فيها هذان الجانبان . فلو فرضنا أن الجانب الأول كان هو المسيطر وحـده على الثقافة البدوية ، لأصبحت الحياة فيها فوضى ، اذ أن الناس سيكونون عندئـذ كالذئاب يأكل بعضهم بعضاً دون رادع . وهذا وضع لا تستسيغه الحياة الاجتماعية طبعاً . ولو فرضنا أن الجانب الثاني ، أى جانب المروءة ، كان هو المسيطر لسارت الحياة البدوية في طريق الفناء .

ان الحياة الاجتماعية في جميع أطوارها وأشكالها لابد ان يتوازن فيها جانب التعاون وجانب التنازع [1] ، ولا فرق في ذلك بين البداوة وغيرهـا من الثقافات الاجتماعية الأخرى . ان الفرق الموجود بين الثقافات المختلفة هو في طبيعة هذا التوازن ، وفي نمط الجانبين فيه .

يمكن تشبيه الحياة الاجتماعية في هذا الشأن بالتيار الـكهربائي . فلابد أن يلتقى قطبان أحدهما سالب والآخر موجب ، لـكي ينشأ التيار وتتم الغاية المقصودة منه . بمثل هذا تسير الحياة في الصحراء وتسير في أى مكان آخر في العالم .

ان القطب السالب في الحياة البدوية يتمثل في العصبية وحب الغـزو والنهب والاعتداء ، أما القطب الموجب فيتمثل في المروءة بمظاهرها المختلفة . ولولا وجود هذين القطبين لتوقف تيار الحياة في الصحراء .

---

(1) Ogburn & Nimkoff (Handbook of Sociology) p. 232 — 233.

استدراك :

قد يسأل سائل فيقول : هل أن الثقافة الاجتماعية التى درسناها تنطبق على جميع الأمم البدوية في العالم ، أم هي تنطبق على البداوة العربية وحدها ؟

من الصعب أن أجيب على هذا السؤال بدقة ، لاني لم أدرس الامم البدوية الاخرى دراسة كافية . والواقع أن البداوة العربية وحدها هي التي يمكن دراستها بتعمق وبنطاق واسع . فهي قد ارتبطت بتاريخ الاسلام ارتباطاً وثيقاً ، ولهذا كثرت المراجع عنها والدراسات فيها . اما البداوات الاخرى فتاريخها لا يخلو من غموض ، والدراسات فيها قليلة نسبياً .

ومهما يكن الحال فاني أميل الى القول بان الثقافات البدوية كلها مطبوعة بطابع « التغالب » على وجه من الوجوه . ولكنها قد تختلف في محتويات هذا الطابع العام ، وفي طبيعة تركيبه والتوازن فيه .

ان تركيب الثقافة البدوية يتأثر بطبيعة بيئته الجغرافية[1] . ولهذا قد يصح القول بان الثقافات البدوية قد تختلف فيما بينها حسب طبيعة الصحراء التي تنشأ فيها ، وموقعها ، ومدى اتصالها بما حولها من الحضارات .

حين نقارن ، مثلاً ، بين الصحراء التي نشات فيها البداوة العربية وتلك التى نشأت فيها البداوة المغولية ، نجد بينهما فرقاً لا يستهان به . ويتضح هذا الفرق في المظاهر التالية :

(١) الملاحظ في الصحراء العربية أنها تقع في موقع جغرافي له أهمية اجتماعية بالغة . فهي اولا تتوسط بين القارات الثلاث ، آسيا وأفريقيا واوربا ، وتمر بها الطرق العالمية التي تربط بين تلك القارات . وهي ثانياً تحتوي على بحار وخلجان وأنهار طويلة ، مما جعلها على اتصال بحري مع مختلف انحاء العالم . أما الصحراء المغولية فهي تكاد تكون منقطعة عن العالم كما لا يخفى .

---

(1) Jamali (The New Iraq) p. 17.

(٢) والصحراء العربية تقع في المنطقة الدافئة ، وهي بوجه عام أقل برودة من الصحراء المغولية • فالصحراء المغولية قريبة من المنطقة القطبية ، وهي مكشوفة تجاه الرياح الجليدية التي تهب عادة من تلك المنطقة • ولهذا جاز القول بان قسوة الحياة فيها أشد مما هي في الصحراء العربية •

(٣) والأهم من ذلك كله أن الصحراء العربية تقع الى القرب من منابع الحضارات العريقة ومهابط الأديان الكتابية ، فكانت على اتصال وثيق بهذه الحضارات والأديان • وقد رأيناها أخيراً تحتضن دعوة دينية كبرى هي الدعوة الاسلامية • وخرج البدو منها الى العالم يحملون هذه الدعوة فأحدثوا في تاريخ العالم تغييراً يندر أن نجد له مثيلاً •

مقارنة بين خروجين :

شهد تاريخ العالم المتحضر حدثين من أحداث البداوة يعدّان من أعظم الأحداث الاجتماعية فيه هما : خروج بدو العرب الى العالم اثر الدعوة الاسلامية ، وخروج بدو المغول اليه ، بعد ذلك بستة قرون تقريباً ، اثر الحركة التي بدأ بها جنكيزخان • فنشأت من جراء هذين الخروجين امبراطوريتان كبيرتان •

حاول بعض المستشرقين والمؤرخين عقد مقارنة بين هذين الخروجين، وانتهوا الى القول بانهما من طبيعة متشابهة ، وان محمداً لا يختلف عن جنكيزخان كثيراً • وهذا خطأ فادح لا نقرّهم عليه • الواقع أن هناك فرقاً كبيراً جداً بين الخروجين ، والرجلين • ولا مجال للقياس بينهما •

حين ندرس سلوك البداوة العربية في الفتوح ، وسلوك البداوة المغولية فيها ، يتبين لنا مبلغ الاختلاف بينهما في تركيب الثقافة الاجتماعية • أكاد اعتقد أن العرب كانوا أكثر مروءة وأقل قسوة وتخريباً من المغول ، كما أشرنا اليه من قبل •

لا أنكر ان العرب خربوا كثيراً من البلاد المفتوحة ، ونهبوا وسبوا وسفكوا الدماء • ولكن الذي صنعوه في هذا السبيل لا يقاس بما صنع

المغول في فتوحهم . ان المسألة هنا نسبية ، والمقارنة يجب ان يراعى فيها درجة التخريب والسفك ، ومدى توازنها مع جانب المروءة وخلق الفروسية. فالفاتح ذو المروءة قد يخرّب وينهب ، ولكنه يتجنب انتهاك الحرمات أو الاعتداء على الضعفاء . انه يقتل خصمه اذا شهر في وجهه السيف ، ولكنه قد يعفو عنه ويحميه اذا استسلم له .

المؤرخ البارون دوسون قد اختص بتاريخ المغول وتعمق في دراسة أحوالهم وفتوحهم ، وقد كتب عنهم كتاباً يعدّ من المراجع المهمة عنهم ، عنوانه « تاريخ المغول من جنكيزخان الى تيمورلنك » . فهو يقول فيه عنهم ما نصه :

« ... لقد فاقوا في قسوتهم أشد الشعوب همجية فقتلوا غيلة جميع من وقع في أيديهم من أهل البلاد التى فتحوها ، ولم يبقوا على رجل أو امرأة أو طفل ، وأحرقوا البلدان والقرى ، وأحالوا الديار العامرة الى مفازات مقفرة ... ولربما ظن ظانّ ان التاريخ تغالى في وصف مآسيهم وفظائعهم ، ولكن جميع المراجع التي دونت عنهم في بلاد مختلفة ، تتفق تمام الاتفاق على ما امتازوا به من غلظة وعنف . وكانت عادتهم أن يسترقّوا البقية الباقية من أهل البلاد التي يفتحونها وأن يعذّبوهم أشد العذاب ، بحيث كان من ينجو برأسه من سيوفهم لا يستطيع أن ينجو بنفسه من عسفهم وظلمهم . وكانت حكومتهم تعمل على نشر الفساد فتقصي كل من عرف بالشرف والنبل ، وتقرّب كل من اشتهر بالضعة والخسة ... وقد أصبح تاريخ المغول ، بما انفرد به من وحشية وعنجهية ، سجلاً لكثير من حوادث الفزع والرعب ... »[1] .

وهناك مؤرخ آخر قال عن المغول مثل هذا القول . وهذا المؤرخ مختص بتاريخ المغول أيضاً ، هو الاستاذ هارولد لامب صاحب كتاب « جنكيزخان » . فهو يشبّه فتوحهم بالريح العاصفة والزلزال العالمي ،

---

(١) ادوارد براون (تاريخ الادب في ايران من الفردوسي الى السعدى) ـ ترجمة ابراهيم الشواربى ـ ص ٥٥٢ ـ ٥٥٣ .

ويقول انهم اجتاحوا العالم بعقل لا يختلف عن عقل الحيوان الذى لا يكترث لتعذيب البشر ، والذى يشره لكل ما هو جديد برّاق ، ويندفع اندفاع الأطفال الذين لا يدركون معنى المسؤولية[١] .

حاول الدكتور غوستاف لوبون ، العالم الاجتماعي المعروف ، عقد مقارنة بين العرب وغيرهم من الفاتحين ، في العصور القديمة ، فانتهى الى القول بان العرب كانوا أكثر عدلاً وكرماً وفروسية ، وقد ساعدوا على تنمية الحضارة التي فتحوها أكثر مما عملوا على تخريبها[٢] . وقد أشار الى مثل هذا المستشرق ادوارد براون ، حين قارن بين الفتح المغولي لايران وفتح العرب لها . يقول براون : لقد كان فتح العرب لايران سبباً في كثير مما وقع فيها من دمار وخراب وعناء ، ولكن العرب كانوا على حد تعبير اعدائهم الاسبانيين « فرساناً وأبطالاً يمتازون بكثير من الرقة والدماثة ... » . وقد خربوا في الحقيقة كثيراً من ايران ولكنهم جلبوا معهم كثيراً من الخير والنفع . وذلك على العكس مما فعله المغول في ايران وغيرها من الأمصار . فقد كان المغول يعاقبون من يقف في وجههم بالموت ، ولكنهم أيضا كانوا يعاقبون من يخنع أمامهم بالموت .. وكانت قسوة المغول متعمدة يقصدون بها ايقاع الرعب في قلوب أعدائهم حتى يشلّ الفزع حركتهم فلا يقدرون على المقاومة والمدافعة . وكانوا يجدون أنه آمن لجيوشهم المظفرة ألا يتركوا وراءهم الا الخرائب الملتهبة ، أو الأفران الملأى بالجثث الآدمية . لانهم يخشون أن يبقوا على أحد بعد المعركة مخافة أن يثير لهم الفتن والقلاقل ...[٣] .

تعليل ونقد :

هناك رأيان شائعان في تعليل الفرق الكبير بين سلوك العرب في فتوحهم وسلوك المغول ، هما التعليل القومي والتعليل الديني .

---

(1) Harold Lamb (The Crusades, The Flame of Islam) p. 337.

(٢) غوستاف لوبون (حضارة العرب) ـ ترجمة عادل زعيتر ـ ص ٥ ـ ٢٢ .

(٣) ادوارد براون (المصدر السابق) ص ٥٥٢ ـ ٥٥٤ .

فالتعليل القومي يعزو هذا الفرق الى كون العرب مجبولين بطبيعتهم على الخير والفضيلة . ويمكن أن نعدّ السيد محمود شكري الألوسي ممن ذهبوا هذا المذهب في التعليل . فقد كان من رأيه أن سبب الاختلاف بين الأمم ،من حيث الخصال والاخلاق ، يرجع الى ما في عقولهم من تفاوت طبيعي . وهو يقول : ان العرب لما كانوا « أتم الناس عقولا واحلاماً ، وأطلقهم ألسنة ، وأوفرهم افهاماً ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة ، وأورثهم كل منقبة جليلة »[1] .

لا حاجة بنا الى القول بأن هذا الطراز من التعليل ذهب زمانه . فهو قائم على أساس من « الغرور القومي » الذى لا يقره علم الاجتماع الحديث. فقد اتضح الآن أن عقول الأمم ، أو خصالها وأخلاقها ، لا تختلف من حيث طبيعتها الأصلية . انما هي تختلف من جراء ما يحيط بها من ظروف تاريخية واجتماعية متنوعة .

مما يلفت النظر أن أحد كتاب الاتراك حاول أن يمجّد المغول على أساس من « الغرور القومي » على منوال ما فعل الألوسي في تمجيد العرب. فهو يقول عن المغول القدماء انهم كانوا ذوي عقول عالية[2] ...

اما الرأى الثاني في تعليل الفرق بين سلوك العرب والمغول في الفتوح، وهو الذي أسميته بالتعليل الديني ، فهو يقول بان الدين الاسلامي الذي حمله العرب عند فتوحهم هو الذي جعلهم أقل قسوة واكثر مروءة من المغول . وفي نظري ان هذا تعليل وجيه ، وقد أخذت به في كتابي « مهزلة العقل البشري » الذى أصدرته عام ١٩٥٥ . الواقع ان محمداً قد بعث في أصحابه وأهل بيته روحاً فياضة بمبادىء العدل والمساواة ، وقد سار هؤلاء مع الجيوش البدوية الفاتحة ، فكانوا بمثابة « صمام أمن » فيها يردعونها عن السفك والظلم والتخريب جهد امكانهم[3] ...

---

(١) محمود شكرى الالوسي (بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب) ج ١ ص ١٤٦ .

(٢) فؤاد الصياد (المغول في التاريخ) ص ٢٣٥ .

(٣) علي الوردى (مهزلة العقل البشري) الفصل الثانى عشر .

اني لا أزال أميل الى هذا التعليل الذى جئت به منذ سنوات • ولكني أود أن أقف هنا لأتساءل : لو أن دعاة العدل والمساواة هؤلاء الذين رأيناهم في الجيوش العربية قد كانوا في الجيوش المغولية ، فهل كان في امكانهم أن يؤثروا فيها ويردعوها كما استطاعوا أن يفعلوا في الجيوش العربية ؟

يبدو لى أن هناك عاملين تعاونا على جعل العرب أكثر رحمة في الفتوح من المغول : أحدهما هو العامل الديني الذى ذكرناه ، والآخر هو استفحال خصال المروءة في البداوة العربية منذ أيام جاهليتها • يمكن القول ان المروءة الشديدة التى كانت سائدة في الجيوش العربية أورثت فيهم استعدادا نفسيا للتأثر بما كان دعاة التعاليم الدينية يوصونهم به • ولو كان هؤلاء الدعاة في الجيوش المغولية لما انتجوا مثل هذا التأثير في أرجح الظن •

قلنا ان الصحراء المغولية تقع في المنطقة الباردة وهى متعرضة للرياح القطبية القارسة • وهذا أمر له أهمية اجتماعية غير قليلة • فقد اضطر المغول الى اتخاذ خيمهم وملابسهم من النوع السميك الواقي • وهم في حاجة الى نوع من الغذاء الدسم الذى يمنح أجسامهم سعرات حرارية كافية تجاه لفحات البرد[١] • والظاهر أن هذا هو الذى جعل المغول يهتمون بمطاليب الحياة المادية أكثر من اهتمامهم بشؤونها المعنوية كالمروءة وحسن السمعة • ان قسوة الحياة هنالك ربما أضعفت فيهم نزعة الايثار والتفضل التى لاحظناها في البداوة العربية بوضوح شديد •

دعاة المبادىء الاسلامية :

ذكرنا أثر هؤلاء الدعاة في تقليل القسوة والتخريب لدى الجيوش العربية الفاتحة • ومما يجدر ذكره ان هؤلاء الدعاة لم يكونوا من القبائل البدوية المتوغلة في حياة الصحراء • انهم كانوا في بداية الأمر يعرفون باسم « المهاجرين والانصار » ، اى انهم كانوا من أهل مكة والمدينة • ثم جاء

---

(١) هارولد لامب (جنكيز خان) ـ ترجمة بهاءالدين نوري ـ ص ٥ ـ ٦ •

التابعون لهم بعدئذ ، وهم كانوا كذلك من أهل المدن على الاكثر[١] . ولقد كانت الصفة الغالبة على جميع الصحابة الاولين والتابعين لهم هي أنهم كانوا متأثرين بقيم الحضارة ، قليلاً أو كثيراً .

ان هذا دليل على ان الصحراء العربية لم تكن منعزلة عن العالم المتحضر كانعزال الصحراء المغولية عنه . انها كانت ، كما ذكرنا سابقاً ، متصلة بالحضارات المجاورة ومتفاعلة معها على توالى الأزمان . وهذا كان من العوامل التي جعلت الفتوح العربية بانية للحضارة أكثر مما هي مخرّبة لها . وهذا على النقيض من فتوح المغول .

يبدو أن المغول ، عندما خرجوا الى العالم يفتحونه ، أحسوا بالدهشة ازاءه وربما شعروا بالخوف من أفانين الترف والحضارة فيه . يقول المؤرخ برسي‌سايكس في هذا الصدد : ان حب المغول للتخريب يرجع الى طبيعتهم البدائية ، بحيث كانوا اذا احتكوا ببلد من البلدان المتحضرة اندفعوا الى تدمير حضارته بسبب خوفهم منها . لذلك نرى المغول حين احتكوا بالبلاد الصينية ، ولمسوا طرفاً من حضارتها ، يندفعون الى كراهية المخلوقات المجاورة لهم فيهاجمونها ،وينكّلون بالرجال والنساء والأطفال ، ويحرقون القرى ويحوّلون المدن العامرة الى صحراء جرداء ، بحيث لم يتركوا وراءهم الا بلداناً مخربة مكتضة بجثث القتلى[٢] .

---

(١) أحمد أمين (فجر الاسلام) ص ١٥٢ ـ ١٥٥ .

(2) Percy Sykes (History of Persia) vol. II p. 55 — 56.

الفصل الثالث

البداوة ونزعة الحرب

لعلني لا أغالي اذا قلت ان البدو اكثر أمم العالم اندفاعاً في سبيل التنازع والتباغض والقتال . انهم أشد في ذلك من جميع الأقوام البدائية والمتحضرة . وليس هذا بالأمر المستغرب . فلو درسنا طبيعة الحياة في الصحراء لوجدناه أمراً طبيعياً لا داعي للاستغراب منه . يجب أن نعلم قبل كل شيء ان الأساس ، الذي تقوم عليه طريقة المعيشة في الصحراء ، هو الرعي بالدرجة الاولى . وهذه الطريقة تختلف من حيث نتائجها الاجتماعية عن طريقة الصيد والالتقاط الشائعة بين الأقوام البدائية ، وعن طريقة الزراعة والصناعة والتجارة الشائعة بين الأقوام المتحضرة .

هناك نجد صحراء واسعة جداً ، ولا ينبت فيها سوى الحشائش ، اذ هي تظهر متناثرة هنا وهناك ، إثر سقوط بعض زخات من المطر . وقد اضطر البدو أن يتنقلوا مسافات شاسعة في الصحراء سعياً وراء تلك الحشائش ، لكي يرعوا عليها أنعامهم .

ان المراعي الصحراوية هي في الغالب قليلة وشحيحة لا تفي بحاجة السكان الذين هم بطبيعتهم في تزايد مستمر . قد يصح أن نقول ان البدو اكثر تناسلا وتكاثراً من غيرهم . ولعلنا نستطيع أن نعزو السبب في ذلك الى أن الصحراء تقل فيها الأمراض والأوبئة عادة . ولهذا كان معدل الوفيات الطبيعية فيها أقل منه في معظم المناطق الأخرى . وهنا منشأ المشكلة !

فالبدو يتكاثرون جيلا بعد جيل ، ولكن المراعي لديهم لا يمكن أن

تتكاثر • انها تعتمد على المطر ، والمطر قليل نادر في الصحراء • وقد أشارت بعض الدراسات العلمية الى أن معدل المطر في الصحراء أخذ يميل نحو التناقص منذ بداية انزياح العصر الجليدى ، وهو لا يزال في تناقص مستمر حتى عصرنا هذا •

ان هذا وضع مشحون بالتوتر والتأزم ، وهو لابد أن يؤدي بسكان الصحراء الى التناحر والتقاتل • وهذا هو الذي جعلنا نعد الغزو من المركبات الاساسية في الثقافة البدوية •

يقول المؤرخ فليب حتّي : ان الغزو ينفع البدو في حياتهم الصحراوية، اذ أن القتال الذى يجري فيه يقلّل من عدد الأفواه الآكلة[١] • ويقول حتّي : ان سكان البادية هم في حياتهم الاعتيادية على حافة المجاعة دائماً ، ولهذا صارت نزعة القتال عندهم كأنها حالة ذهنية مزمنة • ان القتال في البادية هو بمثابة صمّام الأمن يمنع سكانها من التكاثر فوق الحد المكافيء لمواردها الشحيحة[٢] • فما دام سكان البادية بوجه عام لا يستطيعون تكثير الموارد فيها ، فالطريق المفتوح أمامهم اذن هو ان يقلّلوا من العائشين عليها • وهذا يحدث عادة في معارك الغزو حيث يسقط القتلى فيها بين كل حين وآخر •

قال أحد شعراء الجاهلية في مدح قومه :

قوم اذا نبت الربيع لهم
نبتت عداوتهم مع البقل[٣]

وقال شاعر آخر :

ونحن أناس لا حجاز بأرضنا
مع الغيث مانلقي ومن هوغالب[٤]

---

(1) Philiph Hitti (History of the Arabs) p. 25.
(2) Ibid, p. 89.

(٣) نورى حمودى القيسي (الفروسية في الشعر الجاهلي) ص ٤٤ •
(٤) المصدر السابق ، ص ٤٩ •

مقـــارنة :

ان نزعة القتال ، والميل الى الغزو والنهب ، موجودة في كل أقوام العالم بلا شك . فهي طبيعة بشرية عامة . ولكنها تقل او تكثر حسب الظروف الخاصة بكل جماعة منهم . فالبدائيون مثلا ، وهم الذين يعيشون في مرحلة الصيد والالتقاط ، يتغازون ويتقاتلون . ولكنهم أقل في ذلك من البدو . فهم يعيشون في قرى ثابتة نسبياً ويجدون بالقرب منهم مجالا لصيد الحيوان او التقاط الأثمار عادة . ولهذا فان الدوافع التي تؤدي الى الاحتكاك والتقاتل فيما بينهم هي أقل من تلك التي رأيناها بين القبـائل البدوية .

وحين ندرس الاقوام المتحضرة نجد نزعة القتال فيها أضعف وأقل مما هي في غيرهم . ان الحكومة التي تنشأ بين المتحضرين تجعلهم ، كما أشار اليه ابن خلدون ، أميل الى الدعة وأقل اعتياداً على القتال او التنازع العنيف[١] .

كثيراً ما يقع القتـال والتغـازي بين الحـكومات المختلفة في البـلاد المتحضرة . ولكن ذلك يتم على يد جنود مدربين على القتال . اما عامة الناس فيها فليس لديهم ميل الى القتال والتغازي الا في ظروف خاصة . ان التنازع بين المتحضرين يحدث عادة بشكل تنافس سلمي ، لا تراق فيه الدماء أو تنهب فيه الأموال ــ كما سيأتي .

الدولة والبداوة :

ان الحكومة ، أو الدولة بمعناها الأعم ، لا تنشأ عادة الا في الحضارة . فمن النادر أن نجد دولة تنشأ في الحياة البدوية او البدائية .

الدولة لا تنشأ الاّ في المجتمع الذي ينتج اكثر مما يستهلك ، كما أشار اليه العالم الاجتماعي سيمز[٢] . فالدولة تقوم على جباية الضرائب

(١) ابن خلدون (المقدمة) ص ١٢٥ ــ ١٢٧ .

(2) Newell Sims (Society And Its Surplus) p. 223 — 228.

عادة . والمجتمع لا يستطيع أن يدفع الضرائب الا اذا كان انتاجه الاقتصادى أكثر من حاجته المعاشية . وهذا أمر لا يتم الا في الحضارة حيث يكون الانتاج منظماً ووفيراً .

من الصعب جداً ان تظهر الدولة في الصحراء . فالانتاج فيها ، كما رأينا ، يكاد لا يكفي لسكانها المتزايدين . روى بعض المؤرخين عن ظهور دولة بسيطة في صحراء العرب في الجاهلية ، هي دولة كندة . فأخذت تفرض الأتاوة على القبائل البدوية . ولكنها لم تستطع البقاء طويلا ، اذ أن القبائل ثارت عليها ثورة عارمة وقضت عليها قضاء مبرماً(١) .

اننا نرى الآن ، على أي حال ، دولة قوية في الصحراء العربية ، هي المملكة العربية السعودية . ولكننا يجب ان لا ننسى بان هذه الدولة لا تعتمد كثيراً على الضرائب المأخوذة من القبائل البدوية ، بل هي تعتمد على ضرائب المناطق الزراعية والمدن . وقد جاءتها مؤخراً واردات النفط الغزيرة ، فاستغنت بها وتقوّت . ولولا هذه الواردات لربما كان مصير الدولة السعودية كمصير دولة كندة الجاهلية .

العصبية القبلية :

يمكن القول بان القبيلة تقوم مقام الدولة في البداوة . فالفرد يجد فيها الأمن والضمان والرعاية . ومن لا ينتمي الى قبيلة قوية في الصحراء قد ينتهي أمره الى الهلاك ، مهما كان في حد ذاته شجاعاً قوياً(٢) .

ان الفرد البدوي يعتمد على شجاعته وقوته الشخصية كثيراً ، ولكنه يجد أن ذلك لا يكفيه أحياناً اذ هو قد يجابه من الخطر في دروب الصحراء ما لا يستطيع هو بمفرده أن ينجو منه . فالقبيلة القوية كثيراً ما تحمي أبناءها في أي مكان يذهبون اليه . انها تهدد بالثأر كل من يريد أن يعتدى عليهم . فاذا قتل أحدهم بيد فرد من قبيلة أخرى هبّت القبيلة

(١) جواد علي (تاريخ العرب قبل الاسلام) ج ٢ ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧ .
(2) Philip Hitti (Op. cit.) p. 26 — 27.

تطالب بثأره . فاذا هي لم تتمكن من قتل القاتل ، عمدت الى قتل أي فرد من قبيلته بدلا عنه .

مما يجدر ذكره أنه بمقدار ما يتوقع الفرد من القبيلة أن تشمله بحمايتها ، تتوقع القبيلة منه أن يمنحها الفداء والولاء . فهي تسرع الى حمايته والأخذ بثأره ، وهو كذلك يسرع الى نجدتها والتضحية في سبيلها في الملمات . انها مصلحة متبادلة بينه وبينها . فهو يتقوى بالقبيلة ، والقبيلة تتقوى به .

ان النجدة المطلقة هي من خصال البداوة التي لا يمكن الاستغناء عنها. فالفرد اذا استنجدت قبيلته به في شيء ، لا يجوز له أن يسأل او يتردد ، بل هو يسرع الى سلاحه ويركض معها وراء كل هدف تتجه نحوه . والقبيلة كذلك لا يجوز أن تسأل او تتردد في نجدة أحد أبنائها اذا هتف يستنجد بها . يقول أحد شعراء الجاهلية في مدح هذه الخصلة :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

وقال شاعر آخر :

اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم
لاية حرب أم بأي مكان[١]

أهمية النسب في البداوة :

لا توجد أمة في العالم تهتم بالأنساب كاهتمام البدو بها . يقول فليب حتّي : ليس في العالم قوم ، غير البدو ، رفعوا معرفة الانساب الى مرتبة العلوم[٢] .

الواقع أن معرفة الانساب لها وظيفة اجتماعية مهمة في الثقافة البدوية.

---

(١) عمر الدسوقي (الفتوة عند العرب) ص ١٢٧ .

(2) Philip Hitti (Op. cit) p. 28.

فبها يميّز البدوي أبناء قبيلته عن غيرهم ، وبها يعرف أين يأخذ بثأره من أبناء القبائل الأخرى . ان مجهول النسب في البادية هو كمن ليس لديه قبيلة تحميه وتأخذ بثأره . وهو مضطر اذن أن يتحالف مع احدى القبائل ، وقد يتخذ نسبها بمرور الايام .

يزعم البدو أنهم انما يهتمون بالانساب لكونها تعيّن صفات الفرد منهم . فهم يعتقدون أن الانسان يرث صفاته كلها من أبويه . فاذا نشأ الولد بينهم وهو غير متصف بصفات أبويه ارتابوا بنسبه . يبدو أن ذلك جاءهم من جراء تجاربهم في الخيل بوجه خاص . فهم قد لاحظوا بأن الخيل ترث صفاتها من آبائها . ولهذا رأيناهم يهتمون بأنساب الخيل كمثل ما يهتمون بأنساب الناس . انهم يجهلون أثر البيئة الاجتماعية في تكوين شخصية الانسان .

هناك قصة متداولة بين البدو في الوقت الحاضر وقد سمعتها شخصياً من رواة مختلفين . خلاصتها أن رجلا بدوياً تزوج امرأة من ذوات النسب ، وفي أيام عرسه أراد أن يتحبب الى قلب زوجته فصاد ورلا وجاء به اليها يخفيه تحت عباءته مخافة أن تراه أمه . انه أراد ان تحظى زوجته وحدها بلحم الورل دون أن تعرف أمه . ولكن زوجته غضبت من ذلك وطلبت الطلاق منه ، اعتقاداً منها ان أبناءها سيرثون من أبيهم تلك الصفة الذميمة ، وهم لذلك سوف يعاملونها في الكبر مثل معاملة أبيهم لأمه . يقول الرواة ان الزوجة تزوجت من غيره بعد طلاقها . وتزوج هو من زوجة أخرى . فنشأ أبناؤها وابناؤه على نمط ما تنبأت به ...

لا يهمنا ان تكون هذه القصة واقعية أو خيالية . يكفي فيها أن تكون مأثورة بين البدو يتناقلونها في مجالسهم ويثقون بصحتها . وهي بذلك تدل على اعتقادهم الراسخ بان الولد يرث خصاله من أبويه .

لا يجوز أن نلومهم على ذلك . فهم يدركون انهم انما تمكنوا من البقاء في الصحراء القاسية بما كان لديهم من خصال قوية غالبة . وهم اذن يريدون أن يحافظوا على تلك الخصال في أنفسهم وأبنائهم ، فلا

يضعفوها عن طريق تلويثها بدماء ضعيفة . وقد جاء في أحد أمثالهم قولهم : « العرق دساس » .

مهما يكن الحال فقد كان الاهتمام بالنسب من اسباب اثارة العداء والنزاع بين القبائل البدوية . يقول جرجى زيدان : « وبين القبائل أو أفخاذها أو بطونها أو عمائرها عصبية النسب تجمعها بعضها على بعض ـ الأقرب فالأقرب على الأبعد فالأبعد . فتجتمع الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعاً من بطن واحد ، وتجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ولو كانوا جميعاً من قبيلة واحدة ، على حد المثل (أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب) ... وكل من القبائل او البطون والأفخاذ يفاخر سواه بحسنات قومه ويذكر مثالب الآخرين . ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها . على أن أشهر حوادث المنافسة بين العرب انما هو بين القبائل القحطانية (او اليمنية) والقبائل العدنانية ... »[١] .

والواقع ان النزاع بين القبائل العدنانية والقبائل القحطانية له تاريخ طويل ، وقد أدى الى نشوب كثير من المعارك في مختلف الاقطار التي أمتدت اليها الفتوح الاسلامية . ففي الاندلس مثلا وقعت معركة سالت فيها الدماء بضع سنوات ، وكان سببها أن رجلا عدنانيا اقتطف ورقة عنب من بستان رجل قحطاني . وقد ظل هذا العداء قوياً حتى عهد قريب . ففي اوائل القرن الثامن عشر حدثت عدة معارك بين العدنانيين والقحطانيين في لبنان وفلسطين[٢] .

صيانة المرأة في البداوة :

ان الاهتمام الشديد بالأنساب دفع البدو الى الاهتمام بصيانة المرأة وبالمحافظة على حسن سلوكها وعفتها . فالمرأة عندهم وعاء النسب . فاذا

---

(١) جرجي زيدان (التمدن الاسلامي) ج ٤ ص ١٤ .

(2) Philip Hitti (Op. cit.) p. 280 — 281.

تلوّث الوعاء تلوث محتواه به .

يحرص البدو قبل كل شيء على اختيار الزوجة النسيبة لأبنائهم . فهم يفضلون نسب المرأة على جمالها . وقد جاء في أحد امثالهم المأثورة : « اياكم وخضراء الدمن » ، ويقصدون به التحذير من التزوج بامرأة جميلة غير نسيبة . انهم يشبهونها بالزهرة الجميلة التي تنبت على مزبلة .

ولا يكتفي البدو بذلك بل هم يحرصون أيضا على ان تكون المرأة منهم في غاية العفة وحسن السمعة . والظاهر أن ليس هناك أمة في العالم تحرص على عفة المرأة مثلهم . انهم لا يتوانون أن يقتلوا المرأة عند الاشتباه بسيرتها . ومن يتوانى منهم عن ذلك أصيب بالعار الذي لا يمحى ، هو وأولاده من بعده .

في البادية الآن قبيلة مجهولة النسب تسمى « صلبة » ويقال انها من بقايا الصليبيين . فهي قبيلة محتقرة جدا في البادية[1] ، لا تغزو ولا تغزى . ويأنف البدو من قتالها أو الاعتداء عليها . ومما اشتهرت به هذه القبيلة ان مستوى الجمال في نسائها عال ، ولكن البدو يتجنبون التزوج منهن ، اذ هم يخشون ان تتلوث دماء أبنائهم من جراء ذلك .

والملاحظ أن هذه القبيلة اختصت بالمهن التي يحتقرها البدو كل الاحتقار ، كالحياكة والحدادة والتطبيب وما أشبه . وقد يحترف بعض نسائها الشعوذة وقراءة « الفال » ، وربما البغاء أيضاً . انها على أي حال تسير في الصحراء آمنة ، لا يفكر أحد بالاعتداء عليها . فهي ضعيفة ، والبدو يستنكفون من الاعتداء على الضعفاء .

ومما يجدر ذكره ان المرأة قد تكون من عوامل اثارة النزاع والقتال في البادية . فالمرأة البدوية قد تنهب في الغزوات كما تنهب الأباعر والأمتعة . ولكن القبيلة المغزوة تشعر بالخزي لنهب نسائها اكثر مما تشعر به لنهب أموالها المادية . فالمال غاد ورائح ، على حد تعبير حاتم الطائي . اما المرأة فشرفها اذا ثلم لا يرتق . ويمكن القول ان من أهم ما يدفع الرجل البدوي

(1) Jamali (The New Iraq) p. 17.

H

الى الاستبسال في القتال هو دافع حماية المرأة وصيانتها من الاهانة او السبي • وكان هذا من الأسباب التي جعلت بعض القبائل البدوية في الجاهلية تئد بناتها في التراب بعد ولادتهن مباشرة •

وقد اعتادت نساء البدو أن يذهبن وراء الرجال في المعارك لتحريضهم على القتال • وقد يحدث أحيانا أن يشترك بعض النساء في القتال فعلا • واذا أبدت احداهن بسالة فيه ارتفعت مكانتها الاجتماعية وكثر خطّابها أو خطّاب بناتها • فهم عند ذاك يعدّونها أماً عظيمة تنتج الأبطال ، كمثل ما تنتج الفرس الأصيلة نسلا ممتازاً •

المعروف عن البدو في عصرنا انهم يستخدمون في معاركهم فتاة خاصة تسمى « العمارية » • والمفروض فيها أن تكون جميلة ومن ذوات الحسب والنسب فيهم • فهي تركب في هودج على ناقة ، وتكشف عن رأسها ، وتحاول أن تتقدم القوم في القتال لتحرضهم عليه • فهي تنادي بأسماء الرجال وتشجعهم بذكر مفاخرهم الماضية ، واذا رأت أحداً منهم يفرّ من ميدان المعركة عنفته وأثارت فيه نخوة الرجولية[1] •

مما يجدر ذكره أن الرجل البدوي ذو حساسية شديدة تجاه المرأة النسيبة الجميلة • فهو يسير فخوراً منفوخاً أمامها يحاول لفت نظرها الى رجولته وبطولته ، وقد يتقمص أمامها شخصية غير التي اعتاد عليها في سائر أوقاته • وكثيراً ما يرمي بنفسه في المعارك ويندفع فيها اندفاعاً «جنونياً» بغية أن ينال اعجاب المرأة التى تنظر اليه •

ومما يذكر ان المرأة البدوية تستنكف أن تتزوج رجلا جباناً • انها تريد زوجاً بطلا مرفوع الرأس لكي ترفع رأسها به تجاه أترابها من نساء القبيلة • يروى المؤرخ عباس العزاوى أن امرأة من بني لام كانت زوجة لأحد رؤسائهم الشجعان • فلما توفى تزوجها أخوه • وكان هذا الزوج الجديد يشبه أخاه المتوفى في ملامحه ، ولكنه لا يشبهه في شجاعته وجرأته على الغزو • فامتعضت الزوجة من ذلك ، وأنشأت قصيدة باللهجة

---

(١) عباس العزاوي (عشائر العراق) ج ١ ص ٣٥٧ ــ ٣٦٠ •

البدوية جاء فيها :

الزول زوله والحلايا حلاياه   والفعل ما هو فعل ضافي الخصائل

وكانت تقصد بذلك أن زوجها الحالي يشبه في ملامحه الجميلة زوجها المتوفي ولكنه لا يدانيه في خصاله الحميدة . فعدّ الزوج ذلك منها اهانة يصعب تحمّلها . فعزم أن يقوم بما ينال اعجابها .عند هذا ذهب الى الغزو وغنم فيه غنائم وفيرة . فادركت الزوجة أنه لا يقل عن زوجها الأول في شجاعته وخصاله الحميدة ، فرضيت به(١) .

المهنة والغـزو :

أشرنا الى أن البدو يحتقرون المهن كل الاحتقار . فهم يحتقرون الحائك والحداد والصانع والصيقل والدباغ والحلاق وكل من يكسب رزقه بكد يمينه أو عرق جبينه . انهم يعدّون ذلك دليلا على الجبن والضعف . فالقوي الشجاع في نظرهم يجب أن يكسب رزقه بحد سيفه وقوة ذراعه .

وهم قد يحتقرون المهن الفكرية كمثل ما يحتقرون المهن اليدوية . فالمعلم عندهم محتقر . وكذلك الكاتب والمنجم والمغنى والعازف والطبيب . وربما احتقروا الحاذقين في معرفة الأنساب او الأنواء او الفراسة او اقتفاء الاثر ، اذا كان هؤلاء يعتمدون عليها في كسب رزقهم .

يقول الاستاذ حافظ وهبة ان البدو اذا أرادوا تحقير انسان وسبه بكلمة تكون مجمع السباب قالوا له « يا ابن الصانع ! » . وحدث مرة أن الملك عبدالعزيز بن سعود سب أحد أمراء البدو بهذه الكلمة . فسمعت زوجة الأمير بذلك فقالت له : « لا يمكن ان أعاشرك بعد الآن ، لأنك من أبناء الصنّاع لا من أبناء القبائل . وابن سعود لا يكذب »(٢) .

ان البدو الآن اذا ارادوا سؤال أحد منهم عن وضعه المعاشي ، لا يقولون له « كيف أنت في شغلك » كما يفعل الحضر ، بل يقولون « كيف

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٥٠ .

(٢) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ص ١٣٢ .

أنت بذراعك ؟ » . واذا ضاقت الحياة برجل منهم عمد الى سيفه فذهب في الصحراء غازيا . وهو اذا رجع بغنيمة وافرة نال مكانة رفيعة في قبيلته ، علاوة على نيل رزقه .

يروى السيد عبدالجبار الراوى قصة خلاصتها أن شيخا من شيوخ البدو كانت له زوجتان ، احداهما مهجورة لها بيت خاص صغير في أقصى القبيلة ، والاخرى حظية تعيش مع أولادها في بيت الشيخ الكبير في وسط القبيلة . وكان للزوجة المهجورة ولد ، فهي تحرضه أن يذهب الى ديوان أبيه ويجلس مع الضيوف فيه . وأدرك الولد عند استماعه أحاديث القوم انه لا يستطيع أن يحصل على مكانة مرموقة في نظر أبيه وقومه الا اذا ذهب الى الغزو وكسب فيه غنيمة . وذهب الولد يغزو منفردا . وأتاحت له الصدفة أن يغنم من قبيلة فرساً ورمحاً وفتاة ، بعد أن أبدى شيئاً من البسالة والاقدام . وعند وصوله بهذه الغنيمة الفاخرة الى قبيلته ، قابلته الأم بالزغاريد والفرح ، وأصبح ممن يشار اليه بالبنان .. وقد نال هو وأمه خطوة لدى أبيه[1] ...

يقول السيد عبدالجبار الراوي : ان الغزو محمدة عند البدو وتمجيد لا ذم فيه ولا نقيصة ، وهو يختلف اذن عن الخطف والابتزاز والسرقة . وكثيراً ما يتطوع الرجل القوى للغزو ويلقى بنفسه في المهالك ، ويبذل من ماله وشباب قومه أضعاف ما يربح من الغزو . وذلك لكي يفوز بالسمعة الحسنة في أندية القوم ، حيث سيتغنّى بمديحه الشعراء ويلهج بذكره الناس . يقال عن فرحان باشا ، وهو الجد الأعلى لقبيلة شمر المعروفة الآن في العراق ، انه نزل ذات يوم في قرية المشاهدة الواقعة في شمال بغداد ، فرأى رجالها ضخام الاجسام ، فسألهم : هل تغزون ؟ فأجابوه : أنهم لا يستطيعون الغزو ولم يتخذوه صنعة لهم . فقال لهم : « اغزوا من هم أطكّع منكم »[2] . وكان قصده أنهم اذا كانوا ضعفاء لا يقدرون على الغزو فليغزوا من هو أضعف منهم .

---

(١) عبدالجبار الراوي (البادية) ص ٢٤٢ ـ ٢٤٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

حقوق الملكية :

للملكية في الحضارة حقوق وحدود معينة ، تشرف على تطبيقها الدولة . وكثيرا ما تكون هناك وسائل لتسجيل تلك الحقوق وتثبيتها ، حيث يكون من الصعب التلاعب بها . اما في البداوة فالامر مختلف كل الاختلاف . وهذا ناتج عن شيوع الغزو والتناهب ، وعدم وجود الدولة فيها.

جاء في بعض الامثال البدوية قولهم « الحلال ما حل باليد » وقولهم « الحق بالسيف والعاجز يريد شهود » . وهناك أمثال أخرى بهذا المعنى ، وهي كلها تشير الى ان البدو يفهمون الملكية بخلاف ما يفهمها الحضر .

الواقع ان الرجل البدوي يستنكف أن يطالب بحقوقه عن غير طريق السيف والغلبة . وهو يحتقر الحضر لانهم يلتجأون في المطالبة بحقوقهم الى المحاكم . فالحضر في نظره « مخنثون » قد أفسدت الدولة أخلاقهم .

اذا تملّك البدوي شيئاً وجب أن يدافع عنه بالسيف . اما اذا ضعف عن ذلك تجرأ عليه الغير واستحوذ عليه . الى هذا أشار الشاعر الجاهلي المعروف ، زهير بن ابى سلمى ، في معلقته حيث قال :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم(١)

من أعظم ما يتباهى الرجل البدوي به هو وفرة الغنائم التي يحصل عليها عن طريق الغلبة والقتال . فهو يعد تلك الغنائم أطيب ما يملك حلالا . فاذا جاء اليه أحد من المتحضرين وقال له ان غنائمه حرام عليه وان الله لا يرضى عنها ، تعجب واستنكر . فهو يعتقد بان الله مثله يحترم الشجاعة ويقدّر الغنائم الناتجة عنها .

رأينا البدو منذ عهد قريب قد اعتادوا أن يتصدقوا على أرواح أمواتهم من المال الذي ينهبونه في غاراتهم . وهم يعدّون « غارة الضحى » أجل

(١) الحسين بن أحمد الزوزني (شرح المعلقات السبع) ص ١٠٤ .

الغارات وأقربها الى الله ، لانها تجرى في وضح النهار وتدل على جرأة القائم بها وبسالته . والرجل البدوي قد يغضب اذا قيل له : « حرمك الله من غارة الضحى » . سأل عباس العزاوى بدوياً عن ذلك ، فأجاب البدوي قائلا : « وهل أحل من غارة الضحى ، فهي على وجه نهار ، وكيف تحرمني من مثل هذه الغارة »[1] .

التسمية في البداوة :

ان الاسماء التي يتسمى الافراد بها في مجتمع ما هي كالشتائم العامية تدل على القيم الاجتماعية السائدة في ذلك المجتمع . وحين ندرس طبيعة الاسماء التي كانت شائعة في بدو الجاهلية نجدها واضحة الدلالة في ذلك .

سئل أحد البدو في الجاهلية : لماذا تسمون أبناءكم بمكروه الاسماء ، وعبيدكم بالمحبوب منها ؟ أجاب قائلا : « انما نسمي أبناءنا لاعدائنا وعبيدنا لأنفسنا »[2] .

أول ما نلاحظه في أسماء الجاهلية أن الكثير منها يشير الى الصلابة : كحجر وصخر وفهر وجندل وجبل ، أو يشير الى القوة والغلبة كمالك وظالم وغانم وغالب وعاصم وفاتك وغارم ومنازل ومقاتل وطارق وسيف وحرب وضرار ، الخ ... والذي يلفت النظر فيها أن الكثير منها مأخوذ من أسماء الحيوانات الضارية او المؤذية ، وهذا أمر قلما نجده في الأمم الاخرى . فهناك نجد أسماء أسد وسبع وليث وذئب ونمر وفهد ودب وكلب وثعلب وهر وضبع وحية وحنش وسرحان (أى ذئب) وأسامة (أى أسد) وأبي جهل (أي نمر) ونزك (أي كركدن) وفزر (أي ببر) ودلدل (اى قنفذ) وحريش (أى ام سبعة وسبعين) الخ ...

والغريب أن البدو على الرغم من شدة حبهم للخيل ، قليلا ما

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج ٢ ص ٢٣ .
(٢) محمود شكري الألوسي (بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب) ج ٣ ص ١٩٣ .

يتسمون بأسمائها . فلم نجد بينهم من اسمه حصان مثلا . وكذلك يندر أن يتسموا بأسماء البعير او البغل او أي حيوان آخر يُستخدم في الركوب والحمل . والظاهر أن الحيوان الذي يسمح لغيره أن يركب عليه أو يحمل اثقالا عليه ، هو في نظرهم لابد ان يكون ذليلا . انهم يحترمون الحيوانات الأبية التي تعتدى على الغير ولا تسمح للغير بأن يعتدي عليها ، كأن يركبها أو يضربها او يستخدمها في منافعه الخاصة .

أحقر الحيوانات في نظرهم هو الحمار ، اذ هم يعدونه أكثر الحيوانات تحملا للذل وصبرا على الأذى . ان أشد شتيمة يُجابه البدوي بها هي أن يقال له « حمار » . فمن الالقاب الكريهة التي لُقب بها مروان بن محمد ، آخر ملوك بني أمية في الشام ، هو « مروان الحمار » . والمظنون أن مروان كان لا يتردد أن يقتل كل من ينطق بهذا اللقب في حضرته .

قال أحد شعراء الجاهلية :

ان الهوان حمار الأهـــل يعـــرفه
والحـر ينكـــره والرسـلة الأجُد
ولا يقيم على خسـف يـــراد بـــه
الا الاذلان : عَيْـر الحـــيّ والوتـــد
هذا على الخسف معقـــول برمتـــه
وذا يشجّ فلا يبـــكى له أحـــد[1]

يخيل لي أن حقارة الحمار في نظر البدو جعلتهم يحتقرون أي انسان يشبه الحمار في سلوكه ، اي الذي ينفع ولا يضر . ان الرجل الذي يريد أن ينال مكانة محترمة بينهم يجب أن يكون قادرا على النفع والضرر في آن واحد . يقول الشاعر الجاهلي :

ولكن فتى الفتيان من راح او غـــدا
لضرّ عـــدو او لنفـع صـــديق[2]

---

(١) أحمد محمد الحوفي (الحياة العربية من الشـــعر الجاهلي) ص ٢٨٠ .

(٢) محمود شكري الألوسي (المصدر السابق) ج ١ ص ٦٣ .

الواقع ان المقدرة على النفع والمقدرة على الضرر امران مترادفان لدى البدو ، كمثل الكرم والشجاعة ، لا ينفك أحدهما عن الآخر الا نادراً . واذا حدث للرجل البدوي أحيانا أن يكون في موقف حرج حيث يجب عليه أن يختار بين أحد ذينك الأمرين ، كأن يكون نافعاً فقط او ضاراً فقط ، فالجدير به أن يختار الامر الثاني منهما . قال أحد شعراء الجاهلية :

اذا أنت لم تنفع فضرّ فانما
يراد الفتى كيما يضر وينفع

وقال شاعر آخر :

ومن لم يكن ذئباً على الأرض أجرداً
كثير الأذى بالت عليه الثعالب(١)

ان الذي يقصر كل أعماله على النفع فقط هو الرجل الذليل . والاحرى بالبدوي اذن ، في حالة عجزه عن النفع ، أن يكون ضارا ليتجنب معرة الذل عليه وعلى قومه . ويمكن أن نقول مثل هذا عن القبائل البدوية. فالقبيلة التى تجد نفسها غير معروفة بالمكارم ذهبت في الارض غازية ، أو قاطعة للطريق . وهي قد لا تكسب الغنيمة المجزية في ذهابها ، ولكنها تكسب على الاقل سمعة القدرة على الضرر .

كرامة البدوي :

ان الرجل البدوى ذو احساس مفرط بكرامته ، لا يتحمل أن تناله أية اهانة مهما كانت تافهة . انه واثق بان أية اهانة تافهة قد تجر وراءها اهانة اكبر منها . فليس هناك قيود أو حدود في البادية تردع الناس عن التمادى في الاهانة والاعتداء .

ان البدوى سريع الغضب شديد النقمة . وقد جاء ذلك من شدة احساسه بكرامته الشخصية . فهو يعمد حالا الى امتشاق سيفه ليضرب

---

(١) علي الوردي (اسطورة الأدب الرفيع) ص ١٦٣ .

به من يتجرأ عليه كائنا من كان • انه لا يتردد أو يتلكأ في لحظة الغضب • فذلك في نظره عيب ودليل على الجبن والضعف • ومن هنا جاء احترامهم للرجل « الفاتك » • فالفاتك هو الذى يسرع الى الضرب او القتل حالما تخطر على ذهنه خالجة تأمره بذلك • وقد وصف أحدهم « الفتك » فقال : « اذا هممت فافعل »[1] •

حين ندرس تاريخ الجاهلية نجده مملوءاً بالمعارك الطاحنة و « المنافرات » الطويلة ، التى حدثت من جراء هذا الاحساس المفرط بالكرامة ، والغضب الشديد لها ، عند الرجل البدوي •

يروى الالوسي عن « منافرة » شديدة حدثت في الجاهلية ، وكان سببها تافها جدا ، خلاصته أن ثلاثة من البدو اصطحبوا في سفر ، كان أحدهما فزاريا والثاني تغلبيا واثالث كلابيا • فاصطادوا حمار وحش • ومضى الفزاري في بعض حاجته ، فطبخ رفيقاه الحمار وأكلا منه ، ثم أخفيا للفزاري قضيب الحمار مطبوخا ليأكله • فلما عاد الفزاري وأخذ يأكل ضحك منه رفيقاه • فهاج به الغضب واسرع الى السيف يأمرهما به أن يأكلا من القضيب كما أكل هو منه • امتنع احدهما وكان جزاؤه القتل • اما الثاني فأكل منه ونجا •••

كان المفروض فيه أن يمتنع عن تحمل هذه الاهانة ويموت دونها كما مات صاحبه ، بيد أنه جبن وانكسر • فصار هو وقبيلته سبة بين القبائل • وأخذ الشعراء ينظمون القصائد « البذيئة » في ثلبها وتحقيرها[2] • أرجح الظن أن هذا الرجل ندم على ما فعل • انه هرب من الموت فوقع في العار • والموت عند البدوي أهون من العار •

يقول الباحث ثيسيغر ، حول البدو في أيامنا : « ان البدو لا يحقدون عادة ، ولكنهم اذا اعتقدوا أن شرفهم قد أهين ، يحقدون بسرعة ويصرون على الانتقام • اضرب بدويا فانه يقتلك فورا او فيما بعد • ومن السهل

---

(١) محمد حبيب البغدادي (المحبر) ص ١٩٢ •

(٢) محمود شكري الألوسي (المصدر السابق) ج ١ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ •

أن يسيء الغريب الى شعوره دون أن يقصد ذلك . وضعت مرة يدي على رقبة ابن قبينة فاستدار الي وسألني بغضب اذا كنت اعتقده عبدا ... لم يكن عندي أية فكرة عن ان ما فعلته كان خطأ »[1] .

الطاعة والامرة :

البدوي من أكثر الناس حبا للرئاسة والامرة ، وأكثرهم نفـرة من الطاعة والانصياع . وقد جاء في أحد أمثالهم قولهم : « الامارة ولو على الحجارة » . ان الامرة في نظر البدو علامة الغلبة ، والطاعة علامة المغلوبية. فهم لا يطيعون شيخهم ، بل ينعاونون معه على سبيل النجدة والنخوة . أما اذا طلب الشيخ منهم شيئاً بطريقة الامر والانتهار ، عصوه وتحدوه .

يقول الفرزدق مادحا قومه :

اذا نحن سرنا سارت الناس خلفنــــا
وان نحن أومأنا الى الناس وقفــوا

فالشاعر يقصد هنا أن قومه رؤساء كبار فرضوا أمرهم على سائـر القبائل . وهو بذلك يشير الى المشكلة الكبرى التى تعانيها البداوة من جراء التنازع على الامرة . فالقبائل التى تخضع لرئيس ، لظروف استوجبـت ذلك ، لا تستطيع أن تصبر عليه مدة طويلة . انها لابد أن تنتهز الفرصة للتمرد عليه وتحديه . فهي تطلب الامرة كما يطلبها الرئيس وقومه . وكثيرا ما ينشأ عن ذلك الانقسام والتنازع .

ان هذا هو الذى جعل القبيلة البدوية تميل الى الانقسام عندما تتضخم في عدد افرادها فوق حد معين ، حيث يظهر التنافس والخصام بين رؤسـاء أفخاذهم ، وقد ينشب القتال بينهم . وقد ذكرت أخبار الجاهلية عن معارك طاحنة حدثت بين فخذين من قبيلة واحدة .

يطلق ابن خلدون على هذه النزعة البدوية اســم « التنافس على

---

(١) ولفريد ثيسيغر (رمال العرب) ـ تعريب هاجر وعبدالستار ـ ص ١٦٩ .

الرئاسة » • وهو يقول عنها انها شائعة في البداوة شيوعاً كبيراً ، حتى صار البدوى لا يسلّم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته الا في الاقل وعلى كره منه لأجل الحياء • ويذهب ابن خلدون الى القول بأن هذه الصفة كانت منَ الأسباب الرئيسة التي جعلت البدو غير صالحين لحكم البلاد المتحضرة ، اذ أنها تؤدى الى تعدد الحكام منهم والأمراء ، وبهذا تختلف الأيدى على الرعية في الجباية والاحكام فيفسد العمران وينتقص[١] .

ويؤيد المستشرق أوليرى رأى ابن خلدون هذا تأييدا كبيرا • فهو يقول : ان البدوى يملؤه الشعور بكرامته الشخصية ، حتى ليثور على كل شكل من أشكال السلطة ، وحتى ليتوقع منه سيد قبيلته وقائده في الحروب الحسد والبغض والخيانة من أول يوم اختير للسيادة عليه ، ولو كان صديقاً حميماً له من قبل•••ان ثورته على كل سلطة هي السر الذى يفسر لنا سلسلة الجرائم والخيانات التى شغلت أكبر جزء من تاريخ العرب ، وجهل هذا السر هو الذى قاد الأوربيين في أيامنا هذه الى كثير من الأخطاء ، وحمّلهم كثيراً من الضحايا التى كان يمكنهم الاستغناء عنها . وصعوبة قيادة العرب وعدم خضوعهم للسلطة هى التى تحول بينهم وبين سيرهم في سبيل الحضارة الغربية[٢] •••

حب الحرية :

يعزو أوليرى تلك النزعة في البدو الى حبهم للحرية . وأنا أميل الى رأي ابن خلدون حيث عزاها الى التنافس على الرئاسة . يبدو لى ان الحرية مفهوم حضرى جاءت به الثورات الشعبية الحديثة ، وأصبح الحضر يتغزلون بها وينشدون فيها الاناشيد ، اعتقادا منهم ان الحرية مقصود كل حي في الوجود يسعى اليها الطير والحيوان علاوة على الانسان . ومن هنا وجدنا

---

(١) ابن خلدون (المقدمة) ص ١٥٠ •

(2) De lacy O'leary (Arabia Before Muhammad) p. 20 — 21.

كثيراً من الحضر ، لا سيما في البلاد العربية ، يمدحون البدو على حبهم الشديد للحرية في زعمهم •

في رأيي أن الحرية بمعناها الحضري الحديث لا يفهمها البدوي • انها تعني أن يكون الانسان حراً في أقواله وأعماله ما لم يكن معتدياً فيها على حرية غيره • وهذا معنى يصعب على البدوي أن يستسيغه • فالبدوى اعتدائي ظالم بمثل ما هو شهم كريم • انه ميال الى الاعتداء على حرية غيره ليظهر به قوته وشجاعته • وهو يتباهى دائما بانه اعتدى على غيره ولم يعتد أحد عليه — على منوال ما قال عمرو بن كلثوم في مدح قومه :

بغاة ظالمون وما ظُلمنا ولكنّا سنبدأ ظالمينا[1]

جلس أحد البدو في بعض أسواق الجاهلية ومدّ ساقه ثم أخذ يتحدى الناس جميعاً اذا كانت لأحدهم جرأة فيضرب ساقه بالسيف • فأسرع أحد الحاضرين الى سيفه فقطع به ساق الرجل • وثارت من جراء ذلك فتنة رعناء •••

وحدث ذات مرة أن رجلاً كان يبول فأبصر به رجل آخر فقال : « لم أر كاليوم عورة رجل أقبح » • فرد الاول عليه بشتيمة أقذع • وأخذ الرجلان يتبادلان الشتائم ، حتى وصل الحال الى أن تشترك قبيلتاهما في في المنافرة والمفاخرة ، والقيل والقال • وكانت قصة طويلة لا مجال هنا لذكرها[2] •

خلاصة القول ان الحرية بمعناها الحضري الحديث لا يفهمها البدوى• فالحضر انما نادوا بالحرية وأولعوا بها لانهم وقعوا تحت وطأة حكام مستبدين يحكمونهم على خلاف رغبتهم • أما البدو فليس هناك من يستطيع التحكم فيهم أو قهرهم على غير ما يرغبون فيه • انهم طلاب رئاسة أكثر مما هم طلاب حرية • وهذا أمر سينفعنا كثيراً في فهم بعض ملامح المجتمع العراقي من الناحية السياسية والاجتماعية •

---

(١) أحمد محمد الحوفي (المصدر السابق) ص ٢٧٢ •
(٢) محمود شكري الالوسي (المصدر السابق) ج ١ ص ٢٩٠ •

الفردية في البداوة :

يرى المؤرخ فليب حتّي أن الفردية من خصائص الرجل البدوي . ويقول ان الفردية والعصبية القبلية كانا من العوامل الحاسمة التى أدت الى تفكك الدولة الاسلامية وسقوطها[1] .

أقف هنا لأسأل : ماذا يقصد فليب حتّي بكلمة الفردية ؟ فاذا كان يقصد بها الفردية كما هي معروفة في الحضارة الحديثة ، وهي التي تُسمى في اللغة الانكليزية بالـ « Individualism » ، فأرجح الظن عندى انها بعيدة عن طبيعة البداوة .

تعني الفردية في مفهومها الحديث ان كل فرد مسؤول عن نفسه وعن أعماله وأقواله الخاصة به ، فلا يُسأل عنها أحد غيره من أقاربه أو أبناء محلته أو بلدته أو قومه على أى وجه من الوجوه . فاذا أصيب الفرد بالعار مثلاً فان قومه لا يعيّرون به ، واذا اقترف جريمة في حق أحد فان قومه لا يطالبون بها . وهذا نلاحظه في الشتائم في البلاد الراقية فمن النادر أن يشتم فرد بفضيحة اقترفها أبوه أو أمه أو أحد اخوته وأبناء عمه مثلاً . انه يُشتم بها وحده في الغالب فيقال له « خائن » أو « سارق » أو « متفسخ » أو « غشاش » .

اما في البداوة فالأمر على الضد من ذلك غالبا . ولا يكاد يقترف أحد في القبيلة عملا مذموما حتى تنكس القبيلة كلها رأسها خجلا من الناس . وقد رأينا كيف أصبحت قبيلة فزارة سبّة في الأفواه لان رجلاً منها أكل قضيب حمار . ان الشتائم البدوية تدور في معظمها حول العار الذى أصيب به أحد الاقرباء . وقد يكون الرجل غير معيب في ذاته ، ولكن العيب يلحقه لعمل قام به أحد افراد قبيلته أو أحد آبائه وأجداده .

وعادة الثأر في البادية توضح لنا ذلك أعظم توضيح . فاذا اقترف أحد افراد القبيلة جريمة طولبت القبيلة كلها بها . وقد يعاقب أى فرد منها

---

(1) Philip Hitti (Op. cit.) p. 27 — 28.

على ما اقترفه قريب له أو نسيب . وهذا هو الذى نهى عنه القرآن بقوله : « ولا تزر وازرة وزر أخرى »[1] .

ان النزعة « الجماعية » في البداوة تقوم مقام النزعة « الفردية » في الحضارة . فالبدوى يقول « نحن » بدلاً من أن يقول « أنا » .

حروب السيف واللسان :

قلنا ان تاريخ الجاهلية مملوء بالمنافرات والمعارك الطاحنة التي نشأت عن شدة احساس البدوى بكرامته . ان أية اهانة تنال أحد أبناء القبيلة ستنال القبيلة كلها حتماً . والقبيلة مضطرة اذن أن تدفع عنها العار الذى يلحق بها بكل وسيلة ممكنة .

ان الحروب القبلية التى تنشأ من جراء ذلك هي على نوعين ، أحدهما يسمى بـ « المنافرة » وهو يقتصر على تبادل الشتائم وأشعار الهجاء . والآخر يطلق عليه اسم « اليوم » وفيه يستخدم سلاح السيف بدلاً من سلاح اللسان .

مهما يكن الحال ، فان البدو يعدّون « اللسان » من أهم أسلحتهم في الحروب ،ولعلهم يعدّونه أحياناً أمضى وأشد وقعاً من السيف . فهم يتقاتلون بألسنتهم أحياناً وبسيوفهم أحياناً أخرى . وكثيراً ما يتحاربون بكلا السلاحين في آن واحد .

والمعروف عن أهل الجاهلية أنهم كانو يحتفلون بنبوغ الشاعر بينهم ، « فاذا نبغ في القبيلة شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الاطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، واشادة بذكرهم . وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج »[2] .

---

(١) القرآن ، سورة الانعام ، آية ١٦٤ .
(٢) أحمد محمد الحوفي (المصدر السابق) ص ١١٠ .

ان الشاعر البدوي يذب عن قبيلته كما يذب عنها الفارس الشجاع • هذا يذّب عنها بسيفه ، وذاك بلسانه • وهنا يكمن السبب الاكبر فيما اشتهر به أهل الجاهلية من اهتمام هائـل بالشعر والـكلام الرنّان المنمّق • وقد ظل هذا الاهتمام باقياً في العرب حتى يومنا هذا • وقد يصح القول بان العرب هم أكثر أمم العالم شغفاً بالشعر وتقديراً لـه وتأثّراً به • انهـم ورثوا ذلك من أيام الجاهلية • وظلوا محافظين عليه ، على الرغم من تبدل الظروف والأحوال •

أيام العرب :

أفرد أبو الفرج الاصفهاني كتاباً خاصاً بأيام العرب ، وهي « الأيام » التي نشبت فيها المعارك الطاحنة بين القبائل في الجاهلية• فكانت ألفاً وسبعمائة يوم[١] • وحين نفحص أسباب تلك « الأيام » نجد الـكثير منها ناشئاً عن اهانة بسيطة تلحق برجل ، فيغضب لها غضباً شديداً ، ويسرع الى الفتك بالذى أهانه • وعند هذا ينشب القتال بين قبيلتيهما ، وقد يشترك فيـه أحلافهما من القبائل الأخرى •

خذ مثلاً حرب البسوس وهي من أشهر أيام العرب • فهي قد نشأت من أجل ناقة أصابها شيخ من بني تغلب بسهم فأدماها ، فغضب لها رجل من بني بكر ، وأسرع الى الشيخ فقتله • فثارت تلك الفتنة العمياء التى دامت زهاء أربعين عاماً وسقط فيها الألوف من الجرحى والقتلى •

ومثل هذا نقول عن حرب « داحس والغبراء » ، وهي لا تقل شهرة عن حرب البسوس • كان سببها المباشر سباق بين حصان عبسي وفرس ذبيانية • فحدث جدال بين صاحبيهما مما أدى الى أن تشترك قبيلتاهمـا وأحلافهما في قتال مرير لا يقل شأناً عن قتال البسوس •

يمكن القول ان الاهانة البسيطة التي تؤدى الى مثل هذه المعـارك الطاحنة هي بمثابة شرارة تقع على برميل مشحون بالبارود • ان النفسية

---

(١) محمود شكري الألوسي (المصدر السابق) ج ٢ ص ٦٨ •

البدوية مستعدة دائماً للتشاحن والحرب . فهي كالبارود المعدّ للانفجار ، لا تحتاج الا الى شرارة ضئيلة لـكي تلتهب فتحرق الأخضر واليابس .

فذلكة تاريخية :

ان هـذه الممارسة الدائمة للقتـال في البداوة هي التي جعلت البدو قادرين على الانتصار والغلبة عندما يخرجون الى العالم المتحضر يفتحونه . ان الحضر لا يستطيعون الصمود أمام زحفهم الا قليلا . والبدو لا يقفون في فتوحهم الواسعة عند حد ، الا عندما تثور المنازعات والنعرة القبلية بينهم . أما اذا ظلوا متحدين فهم قد يتمكنون من فتح العالم كله .

الواقع أن البدو لا يخرجون لفتح العالم الاّ في أحـــوال نادرة . والسبب في ذلك أنهم مشغولون عادة بمنازعاتهم القبلية في داخل البادية . ومن الصعب عليهم أن يتحدوا جميعاً في جبهة واحدة ليخرجوا بها من نطاق باديتهم نحو فتح العالم .

كان أول حدث من هذا النوع في صحراء العرب تم على يد ذلـك الرجل العظيم : محمد بن عبدالله . ويضيق بنـا المقام للتحدث عن عظمة هذا الرجل . وأعترف أني عاجز عن استقصاء سر عظمته ، كما عجـــز الـكثيرون . يكفي هنا أن أقول بأنه استطاع بعد كفاح طويل أن يجعل من تلك القبائل المتنافرة أمة واحدة ، وقذف بهم الى العالم . حيث أسســـوا فيه امبراطورية كبرى في مدة غير كبيرة .

عند ولادة هذا الرجل كانت صحراء العرب تجرى على نفس الوتيرة التى اعتادت عليها منذ قديم الزمان . ولكنها عند وفاته كانت تشهد انقـلاباً هائلاً يندر أن نجد له مثيلاً في التاريخ .

يقال ان جنكيزخان صنع في صحراء المغول ، بعد بضعة قرون ، مثلما صنعه محمد في صحراء العرب . وهذا قول فيه خطأ كبير ــ كما قلنا في الفصل السابق . فقد شهدنا فتوح العرب ، وشهدنا فتوح المغول ، فوجدنا الفرق بينهما عظيماً .

لقد وحّد جنكيز خان قبائل المغول وقادها في فتح العالم ، ولكنه فعل ذلك من أجل الفتح فقط ، ولم يكن له من قصد فيه سوى الفخار الناتج عن سعة الفتح وكثرة الغنائم . اما محمد فقد وحّد القبائل العربية في سبيل دين جديد يدعو الى مبادىء العدل والمساواة .

لا ننكر أن القبائل العربية كانت مدفوعة الى « الجهاد » من أجل الفخار بالفتح وغنائمه في أكثر الأحيان . ولكننا يجب أن نعترف أيضاً أن دعاة الدين كانوا منتشرين بين تلك القبائل يبثون فيها ، وفي البلاد المفتوحة ، مبادىء العدل والمساواة ، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً غير قليل[1] .

ظهر في صحراء العرب في القرن الثامن عشر ، رجل اسمه محمد بن عبدالوهاب ، حيث حاول أن يقلّد محمداً في توحيد القبائل البدوية عن طريق الدين ، وفي قذفهم الى العالم المتحضر يفتحونه . فنجح في ذلك نجاحاً جزئياً ، ثم انتهت حركته أخيراً الى الفشل . ويمكن أن نعزو هذا الفشل الى سببين هما :

أولا : أن محمد بن عبدالوهاب كان فقيها مقلّدا ، ولم يكن نبياً عبقريا من طراز محمد بن عبدالله . لقد فهم ابن عبدالله طبيعة مجتمعه وزمانه ، وعرف كيف يسير فيها ويعالج مشكلاتها الراهنة . اما ابن عبدالوهاب فكان لا يعرف من دنياه سوى حفظ الكتاب والسنة والتزمت فيهما تزمتا شكليا جامدا . وشتان بين العبقري والمقلد !

ثانيا : ظهر ابن عبدالوهاب في زمن كانت الحضارة فيه قد أبدعت أنواعا من وسائل الحرب وأسلحتها لا عهد للناس بها من قبل . فقد اخترعت البارود أولا ، ثم اخترعت بعدئذ السيارات والطائرات وما أشبه . ولهذا أصبحت الحضارة قادرة على مقاومة البدو عند خروجهم من الصحراء في سبيل الفتح ، وعلى مطاردتهم بعدئذ في الصحراء ذاتها ـ كما سيأتي .

---

(١) علي الوردي (مهزلة العقل البشري) ص ٣٥٠ ـ ٣٦٧ .

لم تستطع الموجة الوهابية على أي حال أن تتوغل في فتوحها خارج نطاق الصحراء . وهي قد حاولت ذلك غير مرة دون جدوى . فاكتفت أحيانا بغزو بعض المدن الواقعة على حافة الصحراء ، فقتلت عددا كبيرا من سكانها ، ونهبت أموالهم ، ثم رجعت الى الصحراء كما جاءت وهي تهزج أهازيج النصر ، وتزعم انها كانت مجاهدة في سبيل الله !

الحرب في البداوة والحضارة :

بحثنا عن طبيعة الحرب في البداوة ، وبعض دوافعها . ونريد أخيرا أن نقارنها بطبيعة الحرب في الحضارة . الواقع أن الحروب كثيرا ما تنشب بين المتحضرين ، وربما حدثت بينهم لاسباب تافهة لا تقل تفاهة عن تلك التي رأيناها في « أيام » الجاهلية . فالحرب العالمية الاولى ، مثلا ، نشبت من جراء رصاصة أطلقها طالب صربي على ولي عهد النمسا . فكانت هذه الرصاصة كالسهم الذي أطلقه شيخ بني تغلب على ناقة البسوس ...

ان هذا صحيح ، ولكننا يجب أن لا ننسى الفارق الكبير بين طابع الحضارة وطابع البداوة في هذا الشأن . ان الثقافة البدوية تقوم ، كما أسلفنا ، على أساس التغالب ، اي أن الحرب والقتال مركّب أساسي فيها . ولهذا كانت الحرب في البداوة دائمة متصلة لا يخمد لها أوار . فهي لا تتوقف فترة الا لتثور بعدئذٍ . ان القيم البدوية بشتى مركباتها وخصالها تدور حول تمجيد الغزو والغلبة والفروسية والحمية المفرطة . وليس هناك حد تقف عنده هذه القيم . ان البداوة في جوع مزمن ، ولابد أن يكون فيها تنازع البقاء شديدا[1] ، حيث يفنى فيه الضعيف ويبقى القوي الصامد . وقد صوّر أحد شعراء الجاهلية هذا الوضع في الحياة البدوية ببيتين من الشعر ، حيث قال :

يُغار علينا واترين فيُشتفى
بنا ان أُصبنا أو نغير على وتر

(1) Jamali (Op. cit.) p. 29.

قســـمنا بذاك الدهر شـطرين بيننا

فما ينقضي الا ونحن على شطر[1]

اما الحضارة فقائمة على أساس آخر . فالناس فيها يعتمدون في كسب رزقهم على المهن المختلفة ، اليدويـة منها والفـكرية . والمفروض فيهم أن يتنافسوا في مهنهم تنافسا سليما لا تراق فيه الدماء او تنهب الأموال . وهناك حكومة تسعى نحو تنمية الانتاج لديهم لكي تـزداد بذلك حصيلة ضرائبها منهم . فهي تحاول أن تقمع أي نزاع عنيف يقـع بينهم لـكي لا يضعف الانتاج وتقل الجباية .

أما الحروب التى تقع بين المتحضرين ، فهى سياسية أكثر مما هــي اجتماعية . واعني بذلك أنها تحدث بين الدول المختلفة من جراء تنـازع الأطماع والاهداف بينها . فكل دولة تطمع أن تزيد من ثروتها ونفوذهـا على حساب الدول الأخرى . وهي تعلن الحرب حالما تستشعر من نفسها القدرة على ذلك .

لا ننكر أن الدول المتحضرة قد تشبه القبائل البدوية من هذه الناحية . فهم جميعا يتنازعون من أجـل البقاء . ولـكن طبيعة الحــرب في البداوة تختلف عنها في الحضارة . لعلني لا أعدو الصواب اذا قلت بأن الحرب هي الأصل في البداوة ، وما السلم فيها الا عرض طارىء . اما في الحضارة فالسلم هو الأصل ، والحرب عرض .

لا تستطيع الحضارة أن تنمو وتزدهر اذا هي ابتليت بحرب دائمة . ان حياتهـا الاقتصادية لا تنتعش الا في حياة السلم . وهي اذا اشتركت في حرب تحاول أن تنهيها في أقصر مدة ممكنة لـكي ترجع الى حياة السلم من جديد . يمكن القول على سبيل الاختصار ان الحياة الاقتصادية في الحضارة تقوم على أساس التنافس الهاديء ، بينما هي تقوم في البداوة على أساس التغالب العنيف .

نلاحظ اليوم في جميع الدول دعوة صارخة نحـو السـلم . وليس

---

(١) احمد محمد الحوفي (المصدر السابق) ص ٢٦٠ .

معنى هذا أن الدول تريد أن تنبذ أطماعها وأهدافها المتناقضة ، أو تترك نزعتها نحو تنازع البقاء . ان تنازع البقاء طبيعة بشرية محتومة لا مفر منها . ولكن الدول أدركت مؤخرا أن التنازع السلمي ، تحت اشراف قانون دولي عام ، أنفع لها من التنازع الحربي القديم وأكثر ربحا .

ان هذه الدعوة الصارخة نحو السلم بين الدول المتحضرة لابد أن تؤتي ثمارها في يوم من الأيام ، قريب او بعيد . لا بد أن يأتي على العالم يوم يسيطر فيه القانون على الدول ، كمثل ما سيطر من قبل على الأفراد والجماعات في داخل كل دولة . وبغير هذا لا نأمل أن تبقى الحضارة البشرية أو تزدهر .

ملاحظة ختامية :

اعتبرنا الحرب والقتال أهم معالم البداوة . فهو منبعث من طبيعة الثقافة البدوية ، ولولاه لما استطاعت البداوة أن تبقى في الصحراء ، اذ ان الصحراء شحيحة الموارد ، ولابد لسكانها من أن يتغازوا ويتقاتلوا وينهب بعضهم بعضا لكي يعيشوا .

اذا رأينا البدو يتركون الغزو والقتال ، فمعنى ذلك أنهم سائرون في سبيل التخلص من ثقافتهم البدوية ، والدخول في عالم الحضارة . وهذا هو ما يحدث الآن في بعض مناطق البداوة قليلا أو كثيرا . نلاحظ ذلك في نجد والعراق وليبيا والجزائر ، وفي أكثر المناطق الصحراوية في العالم .

ان المخترعات الحديثة ، من سيارات وطائرات ومدافع ورشاشات وغيرها ، جعلت في الامكان السيطرة على الأمن في الصحراء والقضاء على الغزو والقتال فيها . وقد أصبحت الحضارة الحديثة قادرة على التغلغل في أعماق الصحراء ، حيث أخذت تغري البدو على احتراف المهن الحضرية شيئا فشيئا .

معنى هذا أن الثقافة البدوية سائرة في سبيل الاختفاء والزوال عاجلا أو آجلا . فهي لا تستطيع أن تصمد طويلا تجاه تيار الحضارة الطاغي .

انها صمدت من قبل دهورا طويلة ، اذ هي كانت منعزلة في صحرائها ، تواصل الحياة فيها جيلا بعد جيل ، على نمط لا يتغير . وكانت الحضارة عاجزة عن التغلغل فيها أو التأثير عليها . وكثيرا ما كانت البداوة تخرج من صحرائها وتؤثر فيها ، دون أن تستطيع الحضارة أن ترد عليها بالمثل . أما الآن فقد انقلبت الكفة . أصبح الغالب مغلوبا والمغلوب غالبا !

قد يعترض معترض فيقول : اذا كانت الثقافة البدوية تسير في سبيل الزوال ، كما تقول ، فلماذا نشغل أنفسنا بدراستها ؟

الواقع أننا لا نريد من دراسة الثقافة البدوية أن نتسلى بأحاديثها وأقاصيصها ، كما يزعم البعض ، بل نريد أن نفهم بها أنفسنا . لقد أثرت البداوة في تاريخنا وتركيب مجتمعنا منذ عهود بعيدة . ولهذا فنحن لا نستطيع أن نفهم هذا التأثير قبل أن نرجع الى المؤثر فندرس ماهيته دراسة دقيقة .

يبلغ سكان الوطن العربي اليوم زهاء ثمانين مليونا ، وتقدر نسبة القبائل البدوية فيهم بما يقارب ربعهم . ولا يخفى أن هذه النسبة تختلف باختلاف الأقطار العربية . ففى المملكة السعودية مثلا تؤلف القبائل البدوية (٧٥) بالمائة من السكان ، وفي العراق (٢) بالمائة ، وفي سورية (١٫٥) بالمائة . اما في مصر فالنسبة ضئيلة جدا ، وربما ناهزت النصف بالمائة من السكان .

والواقع ان تأثير البداوة في الوطن العربي لا ينحصر في هذه القبائل وحدها ، بل هو يشمل سكان الأرياف أيضا ولو بدرجة أضعف . وقد يشمل التأثير سكان المدن على وجه من الوجوه .

سنجد هذا واضحا في العراق ، كما سيأتي في بعض الفصول القادمة . فهناك يكاد أهل الريف يبلغون نصف السكان ، وهم يعيشون في وضع اجتماعي يشبه وضع البداوة من وجوه كثيرة . اما باقي السكان ، وهم أهل المدن ، فقد تأثروا بالقيم البدوية من جراء احتكاكهم بالقبائل الريفية والبدوية المحيطة بهم ، على توالى الأجيال . وقد يصح القول ان الكثيرين

منهم هم متحضرون في الظاهر ، ولكنهم بدويون في الباطن . وهذا هو الذي جعل بعض معالم الشخصية المزدوجة واسعة الانتشار بينهم ...

* * *

ان علماء الاجتماع في الغرب قد اعتادوا على تصنيف السكان الى فئتين مختلفتين هما : أهل الريف وأهل المدن . اما في بلادنا فينبغي أن نضيف الى هاتين الفئتين فئة ثالثة هي القبائل البدوية المترحلة . فكل فئة من هذه الفئات الثلاث في بلادنا تعيش في وضع اجتماعي خاص بها . انها جميعا قد تأثرت بالقيم البدوية ولكنها تختلف فيما بينها حسب اختلاف هذا التأثّر ومبلغ تفاعله مع القيم الحضرية .

أعود فأقول اننا في حاجة ماسة الى انشاء علم اجتماع خاص بنا . والأمل من الباحثين العرب أن يلتفتوا الى هذا ويتعاونوا عليه .

الفصل الرابع

أعماق الثقافة البدوية

قلنا ان الـكثير من الباحثين الأجانب ، من المستشرقين والسياح ، الذين درسوا البداوة لم يفهموها فهما واقعيا ، وتورطوا من جراء ذلك في أخطاء غير قليلة . فهم نظروا في البداوة من خارج ولم يتغلغلوا في أعماقها . انهم نظروا فيها بمنظار ثقافاتهم الاجنبية ، فأخذوا يفسرونها كما توحي به قيمهم ومقاييسهم . ولو أنهم نظروا فيها بمنظار ثقافتها الخاصة بها ، لما تورطوا في تلك الاخطاء على أرجح الظن .

ومن المؤسف أن نرى بعض الباحثين العرب يتورطون في مثل تلك الاخطاء التي تورط فيها الاجانب . ولعلهم قلدوا الاجانب فيها . ولا يزال للاجانب لدى البعض منا حرمة وتقدير أكثر مما يستحقون ، وكأنهم لا يدركون أن الاجانب بشر مثلنا يخطئون كما نخطىء .

راي اوليري :

من الباحثين الذين أخطأوا في فهم البداوة هو المستشرق أوليرى . فقد تحامل عليها ووصفها بأوصاف بعيدة عنها . فهو ألف كتابا عن عـرب الجاهلية جاء فيه قوله : ان الرجل البدوي جامد العاطفة قليل الخيال ، يهتم بالماديات أكثر مما يهتم بالمعنويات ، وهو طماع ينظر في الأمور نظرة مادية وضيعة ، ولا يقيسها الا بما تنتج له من نفع محسوس[١] .

---

(1) De Lacy O'leary (Arabia Before Muhammad) p. 20.

يبدو أن أوليرى نظر في البداوة نظرة سائح او تاجر قطع البدو عليه الطريق ونهبوه ما يملك من مال وملابس ، فاصدر عليهم مثل هـذا الحكم الصارم . لا ننكر أن الرجل البدوي نهاب ، كما أشرنا اليه من قبل . فهو يحب الغنيمة حبا جما . انما هو في الواقع لا يحب الغنيمة من أجل قيمتها المادية ، بل هو يحبها من أجل ما تمنحه من قدرة على المروءة والكرم . انه كما قلنا نهاب وهاب في آن واحد .

لو أن أوليرى عاش بين البدو ، وتفهم ثقافتهم الاجتماعية تفهما عميقا ، لوجد أنهم على النقيض مما رأى . فهم بعد أن ينهبوه سيرجعون بغنائمهم الى قومهم ليتكرموا بها عليهم أو ينفقوها على ضيوفهم وجيرانهم .

لعلني لا أعدو الصواب اذا قلت بأن البدو هم أكثر الناس حبا للسمعة الحسنة والصيت البعيد . نجد أحدهم يضحي بنفسه وكل ما يملك في سبيل أن يكون معروفا بالكرم والمروءة .

ان أهم الوسائل التي يستطيع الرجل أن ينال بها الرئاسة والسمعة في البداوة هو أن يكون شجاعا وكريما ، أى أن يكون نهابا وهابا . فهو يحصل على الغنائم عن طريق القوة والشجاعة ، ثم يحصل على الرئاسة والسمعة عن طريق الكرم والمروءة . يقول السيد عبدالجبار الراوي عن قبيلة شمر ، وهي القبيلة البدوية المعروفة الآن في العراق ، ان عجيل الياور حصل على الرئاسة العامة فيها عن طريق الغزو والكرم . فكان يغزو وينجح في غزواته ، ثم يوزع ما يغنمه في بيوت شمر[١] .

التوفير في البداوة :

البدوي لا يفهم التوفير أو الادخار ، كما يفهمه الحضري . فالحضري يدرك بأن أهم طريقة يستطيع ان يضمن بها المعاش والكرامة في مستقبل أيامه هو توفير النقود أو المال ، بأشكاله المادية المختلفة . شعاره

---

(١) عبدالجبار الراوي (البادية) ص ٢٢٨ .

في ذلك « القرش الابيض ينفع في اليوم الاسود » . فاذا أصابته شدة في يوم من الايام أخرج المال المدخر لديه ، فانفقه في حاجته ووقى به كرامته أو حياته .

ان البدوي لا يفهم هذا ولا يستسيغه . فالقرش لا ينفعه عندما تشتد المجاعة . ولا يخفى أن المجاعة هي أشد ما يخشاه البدوي في حياته . فهو لا يستطيع ان يأكل « القرش » أو يشتري به ما يؤكل في تلك الصحراء الواسعة . انه يفضل أن يدخر السمعة بدلا من ادخار القرش . ومن هنا جاء قول حاتم الطائي عندما لامته زوجته على اسرافه في الكرم :

أماوى ان المال غاد ورائح
ويبقى من المال الأحاديث والذكر[1]

قد يسأل سائل : وما هي فائدة السمعة للبدوى عندما تشتد به المجاعة ؟ الواقع أن السمعة لها فائدة غير قليلة في حياة البدوي . فهي من جهة تساعده على نيل الرئاسة وكثرة الاعوان والمناصرين ، فيستطيع أن يغزو بهم ويغنم .وهي من الجهة الاخرى تجعل الناس يسرعون الى اغاثته عند الشدة حسب المثل القائل « ارحموا عزيز قوم ذل » . ان البدو يحرصون على الاغاثة في مثل هذه الحالة ، وهم يصفون الكريم بأنه « جابر عثرات الكرام » .

اما الرجل البخيل الذى يشتهر باللؤم والأنانية وجمع المال ، فهو ينفر الناس عنه ويكون موضع الاحتقار والهوان بينهم . ولذا فهو يمسى أكثر تعرضا للاعتداء عليه ونهب ماله . وهو اذا أصيب بالضيق ذات يوم لم يسرع أحد الى اغاثته . فيخسر ماله علاوة على خسران سمعته . والى هذا أشار الشاعر الجاهلي اذ قال :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم[2]

---

(١) أحمد محمد الحوفي (الحياة العربية من الشعر الجاهلي) ص ٢٥٠ .
(٢) الحسين بن أحمد الزوزني (شرح المعلقات السبع) ص ١٠٣ .

أهم مظاهر الثروة والمال لدى البدوي هو مقدار ما يملك من أباعر أو أنعام . وهذه لا تصلح للادخار كما تصلح النقود والأموال المادية في الحضارة . انها معرضة للغزو والنهب دائما . ولهذا رأينا البدو في أيامنا يصفون المال كأنه « وسخ اليد. » يأتي ويذهب سريعا . ولا غرو اذن أن يفضل البدو ادخار السمعة على ادخار المال .

رأي آخر لأوليرى :

يصف أوليرى البدوي بأنه عديم الوفاء . ويذهب أوليرى الى أبعد من ذلك فيقول ان البدوي يبغض من يحسن اليه . فالاحسان يثير فيه شعورا بالخضوع وضعف المنزلة ويشعره بأنه أصبح مديناً للمحسن بواجب . ولهذا فان رئيس القبيلة يتوقع من أتباعه الحسد والبغض والخيانة من أول يوم اختير للرئاسة عليهم ، ولو كان صديقا حميما لهم من قبل . وهذا هو ، حسب رأي أوليرى ، السر الذي يفسر لنا سلسلة الجرائم والخيانات التي شغلت أكبر جزء من تاريخ العرب . وجهل هذا السر هو الذي قاد الاوربيين في أيامنا الى كثير من الاخطاء ، وحملهم كثيرا من الضحايا التي كان في الامكان الاستغناء عنها[١] .

نرى أوليرى هنا ينسب الى قومه الاوربيين ارتكاب الخطأ في فهم البداوة . وهو لا يدري أنه نفسه أكثر خطأ منهم .

في رأيي أن البدوي لا يخلو من خلق الوفاء على أي حال . ولعله وفيّ الى حد كبير . وليس هذا بالأمر العجيب في ضوء ما درسنا من طابع الثقافة البدوية . فالبدوي كما أسلفنا لا يحب أن يرى أحداً قد تفضل عليه بشيء . انه يحب أن يكون هو المتفضل على الناس ، لا المتفضل عليه . فالتفضل في نظر البدوي يعني القوة والغلبة ، كما قلنا من قبل . ولذا كان البدوي ميالا الى رد الفضل ، والى الزيادة فيه ، جهد امكانه . وهذا هو الذي دعاني الى اعتبار الوفاء من خصال الثقافة البدوية .

---

(1) De Lacy O'leary (op. cit.) p. 20 — 21.

انا لا ننكر مع ذلك أن البدوي قد يبغض من يتفضل عليه ، ويحمل في نفسه الحسد له أو الحقد عليه . فنحن اذن قد نوافق على رأي اوليرى من هذه الناحية . ولكننا لا يجوز أن نجاري أوليرى الى الحد الذي وصل اليه ، فنعد البدوي خائنا غدارا . يمكن القول بأن البدوي قد يشعر تجاه الاحسان بصراع بين دافعين متناقضين . فهو من جهة يشعر ببغض المحسن أو بحسده ، اذ هو يعده غالبا له . وهو من الجهة الاخرى يشعر بضرورة الوفاء له ، لانه لا يحب أن يبقى مدينا له أو مغلوبا تجاهه .

مهما يكن الحال فاننا لا يجوز أن نلوم البدوي على بغضه للمحسن . ذلك ان الاحسان البدوي يحمل في كثير من الأحيان طابع الزهو والخيلاء ، وهو قد يؤدي بطبعه الى بعث الحسد والبغض في قلب المحسن اليه . ان المحسن في الغالب لا يقوم بالاحسان بدافع من الرحمة او الانسانية أو التقرب الى الله ، بل هو يقوم به بدافع من حب السمعة والرئاسة . وكثيرا ما نلاحظه عند الاحسان يتلفت ، من حيث يشعر او لا يشعر ، لكي يرى تأثير احسانه على الناس . انه بعبارة أخرى يريد أن يتباهى باحسانه أكثر مما يريد أن يرحم الغير به . لعلنا لا نغالى اذا قلنا بأن دافع الرحمة والانسانية والتقرب الى الله من الخصال النادرة في البداوة . ان التغالب وتنازع البقاء العنيف هنالك لا يسمح لمثل هذه العواطف الرقيقة بالظهور .

اذا كان المحسن البدوى يحب التباهي باحسانه ، فلابد أن نتوقع من المحسن اليه أن يقابله بالحسد والبغض . انها حقيقة ذات وجهين ، وكل وجه منهما يكمل الاخر ، ولا يقوم الا به . فهما وجهان متقابلان ومتكاملان !

يقول الشاعر الجاهلي :

ومن يجعل المعروف في غير أهله
يكن حمده ذماً عليه ويندم[١]

(١) الحسين بن أحمد الزوزني (المصدر السابق) ص ١٠٣ .

هنا نجد الشاعر يصنف الناس الى فريقين ، أحدهما يذم المحسن ويحاول الاساءة اليه ، والاخر لا يفعل ذلك . وهذان الفريقان موجودان معا في البادية . ففيها أفراد يغلب عليهم دافع الوفاء حيث يكبتون به دافع الحسد ، وفيها أفراد آخرون على النقيض من ذلك . انهم جميعا من طبيعة واحدة ، والفرق بينهم ناشيء من تغلب أحد الدافعين على البعض منهم ، وتغلب الدافع الآخر على البعض الآخر .

جاء في أحد الأمثال البدوية قولهم : « اتق شر من أحسنت اليه » . قد يستغرب القاريء من هذا القول ، اذ هو يجد الثقافة البدوية تحرّض على المروءة من جهة ، وتحذّر منها من الجهة الاخرى . يخيل لي أن هذا ليس سوى تناقض ظاهري . فالثقافة البدوية تحرض على المروءة دائما ، على الرغم مما ينتج عنها من مغبة سيئة . وكأنها تقول للفرد : أحسن الى الناس على كل حال ولا تكترث لما سوف يسيئون اليك من جراء ذلك. فالمروءة مجد وسؤدد ،ولابد أن يكون ثمنها غاليا ، على منوال ما قال الشاعر : « ولابد دون الشهد من ابر النحل » .

الحسد في البداوة :

الحسد صفة بشرية عامة يكاد لا يخلو منها أي انسان مهما كان . فما دام هناك تنازع وتنافس في الحياة الاجتماعية فلابد أن يكون فيها تحاسد على وجه من الوجوه . وهذا التحاسد قد يكون ضعيفا أو قويا ، في الأفراد والجماعات ، تبعا لاختلاف العوامل النفسية والاجتماعية في كل منهم . انما هو موجود فيهم جميعا .

يقول المثل الدارج : « العين لا تحب من هو أرجح منها » . وكذلك يقول مثل آخر : « عدو المرء من يعمل عمله » . وهناك أمثال كثيرة بهذا المعنى في جميع لغات العالم ، وهي كلها تشير الى ما جبل عليه الانسان ، بوجه عام ، من ميل نحو بغض من ينافسه في شيء أو يتفوق عليه فيه .

وهذا هو ما نقصده بالحسد .

مهما يكن الحال ، فمن الممكن القول ان التحاسد في البداوة هو أقوى وأشد عنفا مما هو في الحضارة . ولهذا عوامل مختلفة نجملها فيما يلي :

اولا : مما يخفف شدة التحاسد في الحضارة هو أن المتحضرين اعتادوا على خلق التملق والمجاملة الزائدة في علاقاتهم الاجتماعية . فهم اذا حسدوا أحدا حاولوا تغطية حسدهم بطلاء من المجاملات الكاذبة . أما البدو فهم على النقيض من ذلك عادة . انهم يعدون الكذب والتملق من امارات الضعف والمذلة . ليس في البدو حكومة تقهرهم وتفرض عليهم الضرائب . ولهذا فهم ليسوا مضطرين الى اتخاذ أخلاق الذل كالكذب والمكر والمجاملة الزائدة ، كما اضطر اليه الحضر . اعتاد البدوى على الصراحة والمجابهة ، ومن الصعب عليه أن يكبت عواطفه الجائشة في صدره . فهو اذا أبغض أحدا أو حسده ظهر ذلك على وجهه بوضوح . انه قد لا يتردد أن يجابه خصمه بالكلمة الجارحة والشتيمة . وكثيرا ما وقعت معارك ومنافرات كبرى في أيام الجاهلية من جراء ذلك ـ كما رأينا في الفصل السابق .

ثانيا : تتميز الحضارة ، لاسيما القديمة منها ، بوجود نظام طبقي صارم فيها . وهذا النظام من شأنه اضعاف نزعة التحاسد بين الناس . فالفرد يشعر بأن من الصعب عليه أن يطمح الى مكانة هي أعلى من المستوى الطبقي الذى نشأ فيه . وهو قد تغلب عليه القناعة والرضى بماكتب الله عليه . يمكن القول ان التنافس في الحضارة محدود في نطاق ضيق نسبيا ، هو النطاق الذي فرضته الاعتبارات والقيود الطبقية الشائعة بين الناس .

اما في البداوة فالامر مختلف . فالبدو لا يعرفون من الحدود والقيود الطبقية الا قليلا . ان النظام القبلي أقوى لديهم من النظام الطبقي . فهم

في داخل القبيلة يشعرون كأنهم من جد واحد ونسب واحد ، وليس هناك من ميزة لاحد منهم على غيره الا بما تفرضه كفاياته الشخصية من كرم وشجاعة وما أشبه . لاننكر أن الرئاسة القبلية تنحصر عادة في أسرة معينة منهم . ولـكن هذا ليس بالامر الثابت الذى لا يتغير بمرور الايام . فطالما تحولت الرئاسة من أسرة الى أخرى في داخل القبيلة . فالاسرة التـي لا يظهر فيها رجل كفؤ للرئاسة ، لابد ان تفقد مكانتها ، وتتحول الرئاسـة عنها ، عاجلا أو آجلا . معنى هذا أن التنافس على المكانة العالية شديد في البداوة ، وهو لابد أن يؤدي الى استفحال التحاسد فيهم . وقد أشـار ابن خلدون الى ذلك حين قال : « وهم متنافسون في الرئاسة ، وقل أن يسلم واحد منهم الامر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته الا في الاقل ..»[1].

ثالثا : بدأت الحضارة في العصر الحديث تخفف من وطأة القيود الطبقية التي كانت شائعة فيها قديما ، وأصبح الكثير من الناس فيها قادرين على الارتفاع عاليا في السلم الطبقي حسب كفاياتهم الشخصية وظروفهم . انما هم لم يصلوا في تنافسهم او تحاسدهم في هذا السبيل الى الدرجة التي رأيناها في البداوة . ويمكن ان نعزو السبب في ذلك الى طبيعة الحضارة الحديثة . ان وسائل النشر والنقل والمواصلات التي توافرت في الحضارة الآن جعلت في امكان الشخص العصامي الصاعد أن يجـد لـه انصارا ومعجبين في شتى أنحاء بلده أو أنحاء العالم . انه لا يخلو طبعا من حساد يبغضونه ويكيدون له ، ولـكن هؤلاء قـلائل بالمقارنـة الى كثرة الانصـار والمعجبين ، وهم مضطرون الى مجاملته والى الاعتراف بفضله تجاه موجة الاعجاب الطاغية .

ان من الصعب ، على أي حال ، أن نجد مثل هذا في البداوة . الواقع أننا لا يجوز أن ننكر وجـود أفراد من البدو نالوا شـهرة عريضة في الصحراء ولكنهم قليلون ، وهم في الغالب قد نالوا شهرتهم بعد موتهم ، أما

---

(١) ابن خلدون (المقدمة) ص ١٢٦ .

في حياتهم فقد كان حسادهم أكثر من المعجبين بهم عادة .

لا يكاد البدوي يبدأ بالارتفاع عن طريق كفاياته الشخصية ، حتى يرى الحساد قد تكاثروا حوله ، وهم يحاولون الوقوف في طريقه والقضاء عليه . كل واحد منهم يقول لنفسه : لماذا صار هذا الرجل أرفع منزلة مني ؟ فهل هو أفضل مني أو أكثر شجاعة وكرما ؟ وهو عندئذ سيحس بالميل نحو البحث عن عيوب الرجل والى النكاية به سرا أو علانية .

ان القبيلة البدوية صغيرة نسبيا وأفرادها يعرف بعضهم بعضاً معرفة شخصية . ومن شأن المعرفة الشخصية أنها تزيد من حدة التحاسد بين الأفراد . ان هذا أمر قد نجد له شبيها بين المتحضرين الذين يعيشون في محلة واحدة . ولكن الحضارة تمكن الفرد من الخروج الى العالم الواسع حيث يستطيع أن يحصل فيه على المكانة الرفيعة دون أن يعترض طريقه أبناء محلته . أما في البداوة فالفرد لا يتحرر من الارتباط بقبيلته الا نادرا . انه يولد ويموت فيها . وهو يعاني فيها من كيد الحساد أعظم العناء . ان « الفتّاك » و « الصعاليك » هم وحدهم الذين خرجوا من حوزة قبائلهم . ولكنهم كانوا قليلين نسبيا .

النفاق في البداوة :

قلنا ان البدو ميالون الى الصراحة والمجابهة ، وتقل بينهم المجاملات الكاذبة . ومعنى هذا أن خلق النفاق فيهم ضعيف أو نادر ، وهم يختلفون فيه عن الحضر عادة . وهنا تواجهنا مشكلة ، وهي أن القرآن وصف البدو بالنفاق صراحة حيث قال : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ... »[1] . والاعراب في لغة القرآن هم البدو . وقد قال الطبري في تفسير هذه الآية ما نصه : « الأعراب وهم من نزلوا البادية أشد جحودا لتوحيد الله ، وأشد نفاقاً من أهل الحضر في القرى والأمصار ، وانما وصفهم جل ثناؤه بذلك لجفائهم وقسوة قلوبهم ، وقلة

---

(١) القرآن . سورة التوبة ، آية ٩٨ .

مشاهدتهم لاهل الخير ، فهم لذلك أقسى قلوبا وأقل علما بحقوق الله »[١].

يبدو أن طبيعة النفاق التي عناها القرآن والطبري ليست هي بالمعنى الذى نقصده في مفهومنا الاجتماعي الحديث . ومما يجدر ذكره ان لفظة « النفاق » اصطلاح جاء به الاسلام ليصف به فئـة من الناس أظهروا الاسلام وأضمروا الـكفر . وكانوا كثيرين بعد الهجرة وازدادوا كثرة بعد الفتح . فهم قد أعلنوا اسلامهم بدافع الانتهازية والطمع ، حيث توقعوا أن ينالوا به الجـاه أو الغنيمة . ومن هنا بدأ الاسلام يفرق بين « المسلم » و « المؤمن » ، ثم نزلت الآية القائلة : « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولـكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ... »[٢] .

وعلى أي حال فقد كان أكثر البدو في عهد النبي ، وشطر من عهـد الشيخين ، منافقين بهذا المعنى الذى أشرنا اليه ، أي أنهم كانوا يتظاهرون بالاسلام انما هم كانوا في أعـماق قلوبهـم لا يزالـون جـاهليين في قيمهم الاجتماعية ونزعاتهم النفسية .

قد يقول قائل انهم لا يزالون حتى الان كذلك ، فالقيم البدوية لا تزال مسيطرة عليهم على الرغم من عقيدتهم الاسلامية . الواقع أن هنـاك فرقا كبيرا بين ما هم عليه الآن وما كانوا عليه في بداية الدعوة . فقد كانوا يومذاك غير مخلصين في عقيدتهم الجديدة ، وقد أعلنوها تظاهرا . ولـكن العقيدة أخذت تتعمق في نفوسهم ، من بعد ذلك تدريجيا ، حتى صاروا أخيرا من أشد الناس ايمانا بها .

ويجب أن نعترف مع ذلك ان عقيدتهم هذه لم تمنعهم عن العصبية والغزو والثأر والحمية وغير ذلك من القيم البدوية . فهم لا يرون أي تناقض بين شدة تمسكهم بالعقيدة الاسلامية وشدة تمسكهم بالقيم البدوية ، أو لعلهم لا يفكرون بذلك أصلا[٣] .

---

(١) أحمد أمين (فجر الاسلام) ص ٨٢ .
(٢) القرآن . سورة الحجرات . آية ١٤ .
(3) Jamali (The New Iraq) p. 46.

ان البدو لا يزالون كما كانوا في أيام الجاهلية أولي صراحة وصدق ومجابهة لا رياء فيها ولا نفاق ، الا قليلا . وهم بالمقارنة الى الحضر أسمى خلقا من هذه الناحية . يقول المؤرخ عباس العزاوي عن البدو في عصرنا ما نصه : « نرى أوصافا كثيرة عند البدو ولا نجدها عند غالب اخوانهم من الحضر . فكأن البداوة ملازمة للصدق ، والانفة من الخديعة والكذب . وكأن الحضر غير منفكين عن الاوصاف الرديئة الا من عصم الله تعالى ... ذلك ما دعا أن يأمن الحضري معاملته مع البدو ، ويتخوف البدوى من أهل المدن ، وحيلهم والطرق التي يتخذونها لسلب ما عنده . فهو في حذر وخوف ... » .

ويقول العزاوي أيضا : « ومهما كان الامر فالبدوي يغزو وينهب ويقتل ، ولكنه لا يكذب ولا يخدع ولا يخون الامانة ... حر الضمير ، صريح القول ، وعفيف الذيل في غالب أحواله ... »[1] .

خلاصة القول ان البدوي يأنف من الكذب والنفاق والخداع والمكر والمجاملة الزائدة ، لانه يعدها من اخلاق الذل الذى ابتلي به الحضر . فالبدوي ذو فروسية ورجولة . وأخلاق الفروسية تناقض أخلاق الضعفاء الأذلاء .

لقد أشار ابن خلدون الى مثل هذا الفرق بين اخلاق البدو وأخلاق الحضر . وعزى سببه الى عاملين هما : الحكومة والترف . فالحضر يخضعون لقهر الحكومة فيضطرون الى التخلق باخلاق النفاق والكذب والمجاملة الزائدة لكي يخففوا بها قسوة حكامهم وتعسفهم . وهم مترفون في حياتهم من بعض الوجوه ، حيث اعتادوا على الحاجات الكمالية في مساكنهم وملابسهم ومطاعمهم ومراكبهم ، وهم مضطرون اذن ان يتكالبوا في طلب المال ويتوسلوا اليه بشتى الوسائل ، المشروعة وغير المشروعة ، فيكذبون ويغشون ويخدعون ويتملقون ...

---

(١) عباس العزاوى (عشائر العراق) ج ١ ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ .

أما البدو فهم بعيدون عن ذلك نسبيا . فحياتهم في غاية الخشونة والبساطة ، وليس لديهم حكومة تقهرهم وتجبى الضرائب الفادحة منهم . ولهذا كانت اخلاقهم أقرب الى الفطرة من اخلاق الحضر ، حيث يقل فيها التصنع والتكلّف ، وتسودها الصراحة والمجابهة[١] .

الوفاء بالوعد :

تحدثنا من قبل عن طبيعة الوفاء البدوي تجاه الاحسان ، ونريد الآن أن نتحدث عن طبيعته تجاه الوعد .

المعروف عن البدو بوجه عام أنهم يحترمون الوفاء بالوعد . فالكلمة التي تخرج من أفواههم ، في سبيل وعد ما ، يتقيدون بها ويعدونها كأنها دين واجب الوفاء . و من هنا جاء في أحد أمثالهم قولهم : « وعد الحر دين » . وقد وردت في الشعر الجاهلي أبيات عديدة تمدح الوفاء وتذم الغدر[٢] .

هنا نقف تجاه مشكلة . فالشعر الجاهلي على الرغم مما فيه من أبيات عديدة في مدح الوفاء لا يخلو في الوقت ذاته من بعض أبيات تمدح الغدر . قال أحد شعراء الجاهلية :

قبح الاله بني كليب انهم
لا يغدرون ولا يفون لجار[٣]

نجد الشاعر في هذا البيت يذم الوفاء والغدر معا . فهل في هذا تناقض ؟ يمكن القول أنه تناقض ظاهري وليس حقيقيا . فلو درسناه في ضوء الطابع العام للثقافة البدوية لانكشف لنا السر الكامن وراءه .

مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الوفاء البدوي يختلف في طبيعته عن الوفاء المعروف في الحضارة . فالمتحضرون انما يمجدون الوفاء لانه نافع لهم في تجارتهم ومهنهم المختلفة . ان التاجر الذي يشتهر بين الناس بقلة

(١) ابن خلدون (المقدمة) ص ١٢٣ ـ ١٢٧ .
(٢) أحمد محمد الحوفي (المصدر السابق) ص ٢٨١ ـ ٢٨٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

الوفاء سوف يفشل في تجارته عاجلا أو آجلا • فاعتباره التجارى يعتمد في الاكثر على شدة التزامه بوعوده وديونه • معنى هذا أن الوفاء الحضري له أساس نفعي مادي •

اما في البداوة فالوفاء له أساس آخر • انه مطبوع بطابع الثقافة البدوية ، أي أنه يقوم على أساس التغالب والقوة • فالرجل البدوي لا يفي بوعده الا حين يجد في ذلك اشعارا بقوته ومروءته • اما اذا أحس بأن الوفاء قد يدل على ضعفه فانه مضطر أن يكون خائنا غدارا ، وهو يفتخر بذلك •

يود الرجل البدوي أن يذهب بنفسه الى صاحب الوعد أو الدين أو الوديعة ، فيوفي له بها من تلقاء نفسه • انه يشعر عندئذ كأنه قد أدى ما عليه من واجب المروءة وأصبح غالبا لا مغلوبا • اما اذا جاءه رجل يطالبه بالوفاء ، ويتعنف في مطالبته ، أو يتحداه عليها ، فهو يشعر عندئذ بأن الوفاء يمس بكرامته ويدل على ضعفه ، ولابد له اذن من أن يقابل التحدي بتحد أشد منه •

قال أحد شعراء الجاهلية في مدح نفسه وقبيلته :

فما يستطيع الناس عقداً نشدّه
ونقضه منهم وان كان مبرماً(١)

يقصد الشاعر بهذا البيت أن قبيلته قوية غلابة بحيث أنها تستطيع أن توفي بالعهد ، وأن تنكث به ، كما تشاء • فهي لا تخشى سطوة أحد ولا تخضع له مهما كان جبارا •

الولاء في البداوة :

معنى الولاء ان يلتزم الانسان جانب حليفه أو رئيسه أو جماعته في الملمات ، فلا يفارقهم أو يتقاعس عن نصرتهم • وهو نوع من الوفاء وقد يسمى بـ « الاخلاص » أحيانا •

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٥ •

وهنا نريد أن نسأل : هل البدو ذوو ولاء أم لا ؟ يجيب السيد حافظ وهبة على ذلك بالنفي ، وهو يقول : ان البدوى لا يعرف قلبه الاخلاص تقريبا ، شيمته الرياء والنفاق ، ولا يعوّل الامراء على عددهم ولا على قوتهم ، وكثيرا ما يكون البدو شرا على الامير الذي يقاتلون معه ، حيث لا تكاد تبدو عليه الهزيمة حتى يكونوا هم البادئين بالنهب والسلب له بحجة انهم أولى بأمواله من الاعداء • وقد جرى مثل هذا كثيرا في العراق اثناء الحرب الاولى مما اندهش له الضباط الانكليز لانهم لم يفهموا كيف ينهب الصديق صديقه • ولكن البادية لا تعرف غير السلب والنهب ، والغنيمة فيها مقدمة على كل شيء[1] •••

في رأيي أن السيد وهبه قد أخطأ في فهم طبيعة البداوة ، كمثل ما أخطأ فيه الضباط الانكليز • لا ننكر أن وهبة قد خالط البدو ، وعاش بينهم أحيانا ، اذ هو كان من وزراء الملك عبدالعزيز بن السعود • ولكنه ، فيما أظن ، قد نظر في البداوة من خارج ، ولعله نظر فيها بمنظار الملك عبدالعزيز نفسه •

مما يجدر ذكره ان الملك عبدالعزيز كان يعتمد في بداية أمره على جيش مؤلف من القبائل البدوية ، وكثيرا ما كان يعاني من تقلباتهم وقلة ولائهم له • فكانوا يلتحقون به عندما يرونه قويا منتصرا ، وينفضون عنه حين تبدو عليه بعض امارات الضعف والهزيمة • وربما كان هذا هو الذى دعا السيد وهبة الى وصف البدو بقلة الولاء والاخلاص •

أكاد أعتقد أن البدو من أكثر الناس ولاءا واخلاصا ولكننا يجب أن نفهم الولاء في هذا الصدد حسب معايير البداوة وطابع ثقافتها الاجتماعية • فالبدوي يتصف عادة بالولاء الشديد نحو قبيلته ورئيسه وحلفائه ، وربما بذل نفسه في سبيلهم عند الملمات•وهناك في تاريخ البداوة قصص وأمثلة كثيرة تدل على ذلك وتؤكد عليه • ولكننا مع هذا لا نتوقع من البدو أن يكونوا ذوى

---

(١) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ص ١٠ ، و ص ٢٧٥ •

ولاء واخلاص تجاه قـوة غريبة عنهـم . فهـم اذا انظموا الى هذه القوة ، لسبب من الاسباب ، لا يحملون نحوها من الولاء مثلما يحملون نحو قبيلتهم أو رئيسهم الخاص بهم . فهم هنا يختلفون عنهم هنالك . وكل حالة لهـا حسابها في ضوء القيم البدوية .

اعتاد البدو أن يتهافتوا على الالتحاق بكل حركة تنشأ بينهم حـين يتوقعون أن ينالوا بها النصر والغنيمة . ولـكنهم لا يكادون يلمحون فيهـا بعض بوادر الخور والهزيمة حتى ينفضوا عنها سريعا . وربما عمدوا الى نهب ما يجدونه من مال يعود لاصحاب تلك الحركة عند هزيمتهم .

المظنون أن هذا التقلب قد حدث ، قليلا أو كثيرا ، اثناء الحركات الوهابية التي ظهرت في بادية العرب منذ منتصف القرن الثامن عشر . فقـد كانت هذه الحركات في مد وجزر ، مرة بعد مرة . تنتصر تارة وتنخذل تارة أخرى . ويخيل لى أن القبائل البدوية كانت تلتحق بها أثناء انتصـارهـا وتنفض عنها أثناء انخذالها .

اعتاد البدو على مثل هذا التقلب في شتى أطوار تاريخهم . ونحن حين ننظر الى تقلبهم هذا بمنظار ثقافتنا الحضرية قد نصفهم بالرياء والنفاق ، أو بقلة الولاء والاخلاص . ولـكنهم في الواقع ليسوا كذلك . انهـم يسيرون في جميع أطوارهم على خطة ثابتة لا تتغير ، وهم لا ينافقون فيها أو يتكتّمون . فهـم يقدّرون النصر والغنيمة دائما ، ويندفعون في سبيلهمـا اندفاعا مستقيما لا انحراف فيه او تقلب . اما التقلب الذى لاحظناه فيهـم فمرجعه تغير الظروف المحيطة بهم . انهم بعبارة أخرى لا يتقلّبون بأنفسهم ، بل تتقلب الظروف بهم . فهم ثابتون على طبيعتهم ، لا يعرفون فيها تبديلا ، يوما بعد يوم .

ان الرئيس الحضري الذى ينشد معونة القبائل البدوية يجب ان يفهم طبيعتهم هذه قبل أن يتورط معهم في أمر . فاذا غدروا به بعد بيعة ينبغي أن لا يلوم في ذلك الا نفسه .

راي ثيسيغر :

ان الباحث ثيسيغر له دراسة في البداوة مستفيضة ، اذ هو قد تزيا بزي البدو وركب البعير مع رفقاء منهم وتجول في البادية العربية ، ثم أصدر في ذلك كتابا حدثنا فيه عن خصال البدو حديثا مسهبا . ومن الامور التى لفتت نظره في البدو وأدهشته أنه لاحظ فيهم خصالا متناقضة . فهو يقول عنهم انهم يتطرفون في ما يفعلون . وأن يكونوا كرماء مع التبذير أو حريصين الى درجة لا تصدق ، صبورين جدا او ثائرين الى درجة هستيرية تقريبا ، شجعانا الى حد لا يصدق أو هيابين دون ما سبب ظاهر ... »[١] .

ويصف ثيسيغر شدة كرمهم فيقول انه في الصحراء السورية استضافته جماعة بدوية فوضعوا أمامه طبقا كبيرا من الارز المكوم حول خروف ذبحوه من أجله ، ثم أخذوا يسكبون عليه الزبدة السائلة حتى أخذت تفيض على الرمل . وعندما كان ثيسيغر يعارضهم في ذلك يجيبونه « أهلا بك مائة مرة » . وكان كرمهم المفرط هذا يزعج ثيسيغر دائما لانه كان يعلم بانهم يجوعون أياما . ومع ذلك عندما كان يغادرهم كانوا يحاولون اقناعه بانه « تكرّم » وتفضل بالبقاء معهم .

ومن ناحية أخرى شهد ثيسيغر في جماعة من البدو أنهم تنازعوا بأصوات مرتفعة ولوحوا بأيديهم نحو السماء ، حول قضية قديمة في شأن بضعة دراهم ، حتى خيل اليه أن ليس ثمة شعب كالبدو يحبون المال الى هذه الدرجة القوية . ولكن ثيسيغر تذكر أثناء ذلك كيف أن أحد اولئك المتنازعين أعطى رداءه الوحيد في احدى المناسبات لزميل له بدافع من الكرم ، الامر الذي لا يقدم عليه أي انسان سوى البدوي[٢] .

---

(١) ولفريد ثيسيغر (رمال العرب) ـ تعريب هاجر وعبدالستار ـ ص ١٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

نود أن نقف وقفة قصيرة عند هذا الرأي الذى جاء به ثيسيغر • فالملاحظ أنه يحب البدو ويعجب بخصالهم • وهو اذن لا يتهجم عليهم كما تهجم أوليرى وغيره • ولكنه مع ذلك يصفهم بالتناقض في خصالهم • والظاهر أنه على الرغم من كثرة تجواله بين البدو لم يستطع ان يفهمهم فهما علميا عميقا • فهو لا يزال متأثرا في نظرته اليهم بمعاييره الحضرية •

مما لفت نظره بوجه خاص هو انهم كرماء وبخلاء في الوقت نفسه فهم يبذلون أعز ما يملكون في سبيل ضيفهم من جهة ، وهم من الجهة الاخرى يتخاصمون أو يتقاتلون على دراهم معدودة • الواقع انهم ليسوا في هذا متناقضين • فهم يتخاصمون على المبلغ القليل حين يشعرون بأنه يؤخذ منهم عن طريق المغالبة أو المغابنة • وهم لا يحبون ان يكونوا مغلوبين في أي شيء مهما كان تافها ، كما ذكرنا سابقا • اما اذا جاءهم ضيف ، أو قاصد ،يرجو منهم أضعاف ذلك المبلغ فهم لا يترددون أن يمنحوه له • فهذا في نظرهم يختلف عن ذاك اختلافا كبيرا •

جاء في أحد الامثال الشائعة بين البدو الآن قولهم : « شيّم البدوي وخذ عباته » • ومعنى هذا انك تستطيع ان تأخذ عباءة البدوي التي لا يملك غيرها اذا جئت اليه مستعطيا او قاصدا • اما اذا أردت أن تأخذ عباءته بالقوة ، فانه سينقلب عند ذلك الى سبع مفترس ، ولعله لا يبالي أن يموت في سبيل عباءته « الحقيرة » •

ان اغتصاب أى شيء من الرجل البدوى يعطي معنى الاستهانة والاستضعاف • فمن أشق الامور عليه أن يرجع الى أهله وقد اغتصب منه شيء مهما كان تافها • ان أهله سيوبخونه على ضعفه وقلة رجوليته ، وقد تنافره زوجته اذ هي تعده غير كفوء لها • وهو قد يفضل الموت على حياة الهوان هذه •

المعروف عن البدو انهم اذا أرادوا شراء شيء ساوموا على ثمنه مساومة طويلة متعبة • فهم يقولون في أمثالهم : « ساوم حتى يعرق جبينك » • وسبب ذلك انهم لا يحبون أن يغبنهم البائع فلسا واحدا • فالغبن نوع

من الغلبة في نظرهم • ومما يجدر ذكره ان البائع قد يأتى الى بيتهم بعد تلك المساومة الطويلة ، فيقدمون له من الطعام أضعاف ما ساوموا عليه •

ان المتحضرين قد يجدون في هذا السلوك البدوى تناقضا صارخا • والواقع انه خال من كل تناقض • فالسلوك البدوي هو هو لا يتغير ولا يتناقض في جميع أطواره • انه يميل الى الغلبة ويدور معها اينما تدور •

خداع الكريم :

جاء في أحد الامثال البدوية قولهم : « ان الكريم اذا خدعته انخدع » • وأظن أن هذا يشبه في معناه المثل الذى ذكرناه آنفا وهو « شيّم البدوي وخذ عباته » • فانت اليوم اذا قصدت البدوي ومدحته في مروءته ، وقلت له انك قصدته من مكان بعيد بعد أن سمعت عن كرمه ونخوته ، هزته الأريحية وبذل من نفسه وماله ما تريد • وقد اصطلح الناس ان يخاطبوا البدوي في حاجتهم بقولهم له « يامعوّد » ، أي أيها المتعود على المكارم • ولا تزال هذه الكلمة مستعملة في العراق ، وكثيرا ما يستعملها كاتب هذه السطور في مخاطباته من حيث لا يقصد ولا يشعر •

ذكر السيد سليمان فيضي انه في عام ١٨٩٩ فصل من المدرسة الاعدادية العسكرية ، اثر مشاجرة قامت بين الطلاب • وكانت تلك نكبة عليه ، و لم يكن يتاح له أن ينجو منها الا بأمر من السلطان في استانبول • فشد الرحال الى عبدالعزيز بن رشيد ، أمير نجد في ذلك الحين ، ليتوسط له في الامر • وبعد ان كابد الاهوال في سفره خلال الصحراء ، وصل الى الامير البدوي وعرض عليه حاجته ، مع العلم انه لم تكن لديه معرفة سابقة به • فقال الامير له : « ابشر بنجاح مطلوبك يا سليمان ••• » • وفي النهاية أبرق الامير الى السلطان يطلب منه أن يعفو عن سليمان ، وان يعين له مرتبا خاصا علاوة على ذلك [1]•••

---

(١) سليمان فيضي (في غمرة النضال) ص ١٥ ـ ٢٦ •

مما يجدر ذكره ان بعض الحضر في أيامنا قد استغلوا هذه الاريحية المفرطة في رؤساء البدو ، فهم يقصدون أحدهم في حاجة لهم ، ويتملقون اليه بمديحهم الكاذب • ولعلهم يحسبون انهم قد خدعوا الرئيس البدوى بذلك ، ونالوا منه مطلوبهم عن طريق التملق •

يجب أن نعلم ان البدو بوجه عام ، ورؤساءهم بوجه خاص ، يمتازون بالذكاء الفطري وبالمقدرة على الفراسة البديهية • فهم لاينخدعون ، ولكنهم يتظاهرون بالانخداع • وقد فشل الكثيرون من الحضر في فهم هذه الصفة في البدو •

ان البدوي لا يكترث اذا رآك تحاول التملق اليه في سبيل حاجتك • فهو لا يتفضل عليك من أجلك ، انما هو يفعل ذلك من أجل السمعة الحسنة التى تنتشر بين القبائل عنه • فما دمت قد قصدته في حاجتك فذلك هو المديح الحقيقي له ، اما اذا مدحته بلسانك ، او نافقت في مدحه ، فليس ذلك بالامر المهم في نظره • انه كريم ، والكريم ينخدع بطبعه ـ كما يقول المثل البدوي •

النزعة الدينية في البداوة :

يقول أوليرى ان البدو لا يميلون كثيرا الى دين[1] • وقد تابعه في هذا القول أكثر الباحثين والمستشرقين • فهم يذهبون الى أن النزعة الدينية ضعيفة في البدو بوجه عام • ان هؤلاء ينظرون في التدين البدوى ، كمثل ما نظروا في مختلف خصال البداوة ، حيث هم يدرسونها في ضوء معاييرهم الحضرية •

ينبغي أن نعرف قبل كل شيء ما هو التدين في معناه الاجتماعي العام • الواقع أن التدين يحتوى على ثلاثة أركان ، هي (١) العقيدة (٢) الشعائر (٣) الاخلاق • وحين ندرس البدو بوجه عام نجد الركنين الاولين من

(1) De Lacy O'leary (op. cit.) p. 20.

H

التدين واضحين فيهم . ولعلهم لا يقلون فيهما عن الحضر . اما من حيث الركن الثالث ، وهو الاخلاق ، فهم قد يختلفون فيه عن الحضر من بعض الوجوه . فقد رأيناهم ذوي صدق وعفة وأمانة من ناحية ، وهم فيها أقرب الى الاخلاق الدينية من الحضر.. ورأيناهم من الناحية الأخرى ذوي عصبية وثأر وغزو واعتداء ، وهم فيها أبعد عن الاخلاق الدينية من الحضر .

فالمسألة اذن نسبية . ونحن اذن نستطيع ان نعد البدو متدينين أو غير متدينين ، تبعا للناحية التى ننظر منها اليهم . ولقد عقد ابن خلدون فصلا في مقدمته قال فيه : ان البدو أقرب الى خصال الخير من الحضر . ولعله كان يشير بذلك الى انهم بطبيعتهم أكثر استعدادا لقبول التعاليم الخلقية التى جاء بها الدين ، اذ هم أقرب الى الفطرة وأبعد عن مبتدعات الحضارة ومساوىء أخلاقها[1] .

أشرنا من قبل الى طبيعة « النفاق » الذى اتصف به البدو اثر دخولهم في الاسلام ، وقلنا أنه قد زال عنهم شيئا فشيئا ، لا سيما بعد ان اشتركوا في الفتوح الاسلامية ونالوا النصر والغنيمة فيها . يقول أبو جعفر النقيب[2] في هذا ما نصه : « ان الاسلام ما حلا عند العرب ، ولا ثبت في قلوبهم ، الا بعد موت الرسول ، حين فتحت عليهم الفتوح وجاءتهم الغنائم والاموال وكثرت عليهم المكاسب وذاقوا طعم الحياة وعرفوا لذة الدنيا ... فاستدلوا بما فتحه الله عليهم ، وأتاحه لهم ، على صحة الدعوة وصدق الرسالة . وقد كان النبي وعدهم بانه ستفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر . فلما وجدوا الامر قد وقع بموجب ما قاله ، عظّموه وبجلوه ، وانقلبت تلك الشكوك . وذلك النفاق وذلك الاستهزاء ، ايمانا ويقينا واخلاصا . وطاب لهم العيش

---

(١) ابن خلدون (المقدمة) ص ١٢٣ .

(٢) ان أبا جعفر هذا كان من كبار المفكرين في القرن السادس الهجرى . ومن المؤسف أنه لم يؤلف كتابا . ولكن المؤرخ ابن ابى الحديد سمع بعض آرائه فسجلها مبعثرة في كتابه « شرح نهج البلاغة » . وفي رأيي أن أبا جعفر كان مفكرا اجتماعيا من الطراز الاول . ولو أنه أنتج كتابا لربما تفوق به على ابن خلدون المشهور .

وتمسكوا بالدين لانه زادهم طريقا الى نيل الدنيا ، فعظموا ناموسه وبالغوا في اجلاله واجلال الرسول الذى جاء به . ثم انقرض الاسلاف وجاء الاخلاف على عقيدة ممهدة ، وأمر أخذوه تقليدا من أسلافهم الذين ربّوا في حجورهم . ثم انقرض ذلك القرن وجاء من بعدهم كذلك ، وهلم جرا ... »[1] .

النصر والتدين البدوي :

تهجم بعض المستشرقين على النبي محمد فوصفوه بأنه « نبيّ حرب » لا « نبيّ سلام » . والظاهر أنهم في هذا قد تأثروا بثقافتهم المسيحية ، حيث قارنوا محمدا بالمسيح ، فوجدوا الاول منهما يستخدم القتال في دعوته ، بينما الثاني يستخدم الطريقة السلمية فيها .

نسى هؤلاء أن محمدا ظهر في محيط اجتماعي يختلف عن ذلك الذى ظهر فيه المسيح . وقد أشار الى هذا المؤرخ توينبي وأكد عليه[2] . ومما يجدر ذكره أن محمدا اتبع الطريقة السلمية أثناء دعوته في مكة ، فلم يتأثر بها سوى عدد قليل جدا من الاتباع . وكان هؤلاء من أهل المدن . اما القبائل البدوية فقد ظلت باردة تجاه الدعوة ، تتفرج عليها وكأن الامر لا يعنيها . وعندما نشب القتال بين محمد وقريش ، بعد الهجرة ، أخذت القبائل البدوية تراقب المعركة لترى أي فريق سينتصر فيها أخيرا . وحين انتصر محمد وفتح مكة أدركت القبائل بان محمدا لابد أن يكون نبيا حقا وانه مرسل من الله .

يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن : « كان فتح مكة واستيلاء المسلمين على البيت الحرام (الكعبة) من أكبر العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة الاسلامية ، فقد اعتقدت القبائل العربية التى رفضت الدعوة بادىء ذى بدء ، أن المسلمين تلحظهم عناية الهية لا قبل لغيرهم بها ،

---

(١) مصطفى جواد (أبو جعفر النقيب) ص ٣٧ ــ ٣٨ .

(٢) Arnold Toynbee (A study of History) vol. III, p. 468 — 469.

فسارعوا الى الاسلام ودخلوا فيه أفواجا »[1] .

ومما يلفت النظر أن القبائل البدوية هذه دخلت في الاسلام، ثم ارتدت عنه ، ثم رجعت اليه ، خلال مدة قصيرة جدا لا تكاد تتجاوز الخمس سنوات . فهي دخلت في الاسلام بعد فتح مكة ، ثم ارتدت عنه عند سماعها بخبر وفاة النبي ، ثم رجعت اليه حين اخذ يفتح الممالك وتنهال عليه الغنائم . قيل ان طليحة ، الذى ادعى النبوة في ايام الردة ، صار فيما بعد من أكثر المسلمين حماسا في الجهاد . ولعل الكثيرين من أتباعه ، وأتباع غيره من « أنبياء الردة » ، قلدوه في ذلك ، حيث انقلبوا فجأة من « مرتدين كفرة » الى « مسلمين مجاهدين » .

لا يجوز أن ننظر في هذه الوقائع «الغريبة» بمنظار ثقافتنا الحضرية ، أو نقيمها بما اعتدنا عليه من قيم أو معايير مثالية . فهذه هي طبيعة البدو في كل زمان ومكان . ان نزعة التغالب والغزو التي جبلوا عليها تجعلهم ينظرون في الدين ، وفي أي أمر آخر من أمور الحياة ، بمنظار يختلف عن منظار المتحضرين . ولو أن محمدا سار فيهم سيرة المسيح لما اتيح لدينه أن ينتشر ، أو يصل الى ما وصل اليه أخيرا .

لو أن محمداً أمر أتباعه بمثل ما أمر المسيح به : « من ضربك على خدك الايمن فقدم له خدك الأيسر » ، لاستهانت بهم القبائل البدوية واستضعفتهم ، ثم أكلتهم أكلا . ان المستضعف المهان لا بقاء له في البادية . وتلك سنة الحياة في البادية منذ قديم الزمان !

مقارنة في التدين :

رأينا البدو يميلون الى الدين القوى الذى يؤدى بهم الى النصر والغنيمة . ومن المجدي ان نقارن البدو بالحضر من هذه الناحية .

قلنا ان الحضر يعانون من قهر الحكام كثيرا ، وهذا أمر يصدق بوجه خاص على أهل الحضارات القديمة الذين لاعهد لهم بالحياة الديمقراطية

---

(١) حسن ابراهيم حسن (تاريخ الاسلام) ج ١ ص ١٣٩ .

الحديثة . وهم كانوا يعانون بالاضافة الى ذلك من وطأة الامراض وتوالي الأوبئة عليهم . ولهذا كان طابع الكآبة والتذمر والأنين طاغيا على الكثيرين منهم . انهم اذن في حاجة الى دين يعزيهم في محنهم ويبعث فيهم الثقة والتفاؤل . انهم بعبارة أخرى يحتاجون الى نوع من الدين يختلف عن ذلك الذي رأيناه في البداوة .

ان الاديان التي انتشرت في الحضارات القديمة اتصفت عادة بخصائص خاصة بها ، نجمل بعضها فيما يلي :

(١) كثرة الشفعاء : وهذه ظاهرة اجتماعية نلاحظها في كثرة المراقد المقدسة التي يقصدها الناس ويتهجدون عندها ويتوسلون بها ويبثون شكواهم فيها . فمن النادر ان نجد ناحية من البلاد المتحضرة ليس فيها مثل هذه المراقد على وجه من الوجوه . يصعب على الحضر أن يطلبوا حاجاتهم من الله مباشرة . فالله في نظرهم كالسلطان العظيم جالس على عرش عال جدا في السماء ، وهم يريدون شفيعا يتوسط لهم عند الله . انهم اعتادوا في حياتهم السياسية أن يوسطوا الشفعاء في حاجاتهم عند السلطان ، وهم يحسبون الله مثله لا يقضي حاجة الا بتأثير الشفعاء والوسطاء .

والواقع ان المراقد المقدسة قد ساعدت الحضر كثيرا في شفاء أمراضهم وتطمين نفوسهم . فالايحاء النفسي الذي يتأثرون به في داخل المراقد قد يبعث فيهم الثقة النفسية . وهذا أمر له أهمية غير قليلة في شفاء الامراض وحل المشاكل كما أثبتت البحوث العلمية الحديثة[١] .

(٢) عقيدة المنقذ الالهي : وهذه ظاهرة اجتماعية أخرى نجدها في جميع الحضارات القديمة تقريبا . فالحضر عند تحسسهم بالالم من جور حكامهم يأملون من الله ان يرسل اليهم منقذا يخلصهم « فيملأ الارض عدلا بعد ملئت جورا » . وهذا الأمل يتحول الى عقيدة بمرور الايام .

---

(1) Charles Baudouin (Suggestion and Autosuggestion).

ان هذه العقيدة قد تختلف في أشكالها وتفاصيلها من طائفة الى أخرى ، انما هي موجودة في جميع الطوائف والاديان التى تنتشر بين الحضر . وهى تنفعهم كثيرا من الناحية النفسية . ولولاها لضاقت الحياة بهم . انهم يتخيلون بها كيف ينتقمون من اعدائهم في المستقبل ، وكيف سينعمون بالرفاه والحياة الرغيدة عندئذٍ .

(٣) كثرة الشعائر والطقوس الدينية : فالحضر يزيدون وينوعون فيها ، جيلاً بعد جيل ، لكي تلائم ظروفهم النفسية والاجتماعية المستجدة . فالشعائر البسيطة التى جاء بها الدين في أول أمره لا تكفيهم . ولهذا رأينا « البدع » الدينية تتكاثر وتتراكم عندهم بمرور الايام . فاذا جاءهم مصلح يحاول اعادتهم الى البساطة الدينية الاولى شتموه وكفروه . فالبدع قد أشبعت حاجة في نفوسهم وهم لا يحبون أن يخسروها حيث يبقون بعدها كالتائهين .

(٤) كثرة الاولياء والمقدسين : فقد كانت الحضارات القديمة ولا تزال تعج بهؤلاء . ولهم وظيفة اجتماعية ونفسية لايستهان بهما . فهم ينفخون على رؤوس المرضى ، ويعزون المنكوبين ، ويفضون المنازعات ، ويرشدون الناس الى طريق الاخرة . انهم بعبارة أخرى يمثلون الدين للناس تمثيلا حيا واقعيا . فاذا اشتكى أحد من علة أو مشكلة لجأ اليهم يستفتيهم أو يطلب نصيحتهم . وهم قد يستغلونه أحيانا ، بيد أنهم ينفعونه من الناحية النفسية ويبعثون الطمأنينة في قلبه قليلا أو كثيرا .

ان هذه الخصائص الدينية التى وجدناها في الحضارة ، قد لا نجد لها ما يشابهها في البداوة الا نادرا . وربما دخل بعضها في البداوة من جراء اتصالها بالحضارة على وجه من الوجوه .

ان هذا هو الذي جعل شكل الاسلام يختلف في البداوة عنه في الحضارة . وهو يختلف في الحضارة ، بين منطقة وأخرى منها ، تبعا لاختلاف الظروف في كل منها .

لقد وجد البدو في الاسلام دينا يؤدى بهم الى النصر والغنيمة ، كما أسلفنا • أما الحضر فقد وجدوا فيه ما يحتاجون اليه حسب ظروفهم المختلفة • فكانت كل جماعة منهم تأخذ منه ما يلائمها ، وربما زادت فيه وأضافت اليه لكي تشبع به حاجاتها النفسية والاجتماعية المتنوعة •

يظن البدو انهم أقرب الى روح الدين من الحضر • وكذلك يظن الحضر انهم أقرب اليه من البدو • والواقع أنهم جميعا أخذوا من الدين ما يلائم وضعهم الاجتماعي والنفسي ، وأهملوا الباقي • وهذا هو دأب أكثر الناس في كل زمان ومكان •

الديمقراطية في البداوة :

يقول المستشرق لامانس : ان البدوى نموذج الديمقراطية • ويضيف أوليري على ذلك قائلا : انها ديمقراطية مبالغ فيها الى حد كبير[1] •

هنا ينبغي أن نسأل : ما هي الديمقراطية التى وصف هذان الرجلان البدو بها • فهي اذا كانت من النمط الذى نعرفه في الحضارة الحديثة ، فانها بعيدة عن ما توحى به القيم البدوية • ولكننا مع ذلك لا ننكر وجود نمط من الديمقراطية سائد بين البدو ، وهو مما يلائم طابع ثقافتهم الاجتماعية •

اعتاد البدو ، كما ذكرنا سابقا ، ان لا يخضعوا لامر أي انسان مهما كان • فهم قد يحترمون رئيسهم القبلي ويتعاونون معه ، انما هم لايطيعونه طاعة عمياء كما كان يفعل الحضر تجاه امرائهم قديما • وهذا يمكن أن نعده نوعا من الديمقراطية بمعنى من المعانى •

نرى البدو يقابلون الرئيس منهم ، ويجالسونه ويخاطبونه ، من غير اكتراث أو تأدب • فهم ينادونه باسمه عادة ، أو بكنيته • وفي أيامنا قد يخاطبونه بقولهم « يا محفوظ » أو « يا طويل العمر » • وكثيرا ما يجابهونه بالكلمة الخشنة او اللوم اللاذع •

(1) De Lacy O'leary (op. cit.) p. 20.

ذكر الدكتور جون فانيس أنه كان ذات يوم في خيمة شيخ من شيوخ آل سعدون . واذا برجل بدوي ، نحيف شاحب اللون رث الثياب ، يدخل الخيمة ويجلس بين أدنى الجالسين . وعندما تناول البدوي فنجان القهوة لم يشربه ، بل بصق فيه وألقاه من فوق كتفه . فسأله الشيخ عما به . فقال انه كان في الليلة الماضية نائما في جوار الشيخ وذمامه ، فسرق منه بعيره ، « فوالله لاأشربن قهوتك » . عند ذلك أمر الشيخ بأن يؤتى له من ماله ببعير . فجيء بالبعير وألقى بخطامه على رأس البدوي . ثم قدمت له القهوة فشربها[١] .

ان هذه ظاهرة اجتماعية مألوفة في البادية ، لا يستغرب منها البدو ، اذ هي منبعثة من طبيعة ثقافتهم الاصيلة . فنحن قد نسميها ديمقراطية ، انما هي ليست من نمط الديمقراطية التي نشهدها في الحضارة الحديثة .

اعتاد الحضر منذ قديم الزمان ، كما أشار اليه ابن خلدون ، على قهر الحكام ، وعلى الخضوع لهم والتملق بين أيديهم . والسيف معد فوق رؤوسهم ليُضرب به أي رجل منهم جريء أو غير مؤدب أو غير مطيع . ومنذ بداية العصور الحديثة أخذت الشعوب المتحضرة تثور على حكامها . وبعد كفاح طويل مرير استطاعت الشعوب أن تخضع الحكام لامرها ، قليلا او كثيرا . وهي دائبة في هذا السبيل حتى يومنا هذا ...

نقصد بهذا أن الديمقراطية طارئة على الحضارة وليست أصيلة فيها كما هي في البداوة . وهناك ناحية أخرى تختلف فيها ديمقراطية البدو عن ديمقراطية الحضر ، وهي قضية الانساب .

ان نظام الحكم في الحضارة قام منذ بداية أمره على أساس من النسب والنظام الطبقي المغلق . فهناك طبقات معينة يولد المرء فيها ، ويصعب عليه التحول عنها صعودا او نزولا . وقد قامت الثورات الديمقراطية

---

(١) جون فانيس (أقدم أصدقائي العرب) ـ ترجمة جليل عمسو ـ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

الحديثة لمكافحة هذا النظام الطبقي • ولهذا بدأت أهمية الانساب في الحضارة تضعف وتتضاءل بمرور الأيام ، وصار الناس سواسية أمام القانون ، لا فرق بين الشريف والوضيع منهم في الحقوق والواجبات • أو هم يحاولون أن يكونوا كذلك •••

أما في البداوة فالاعتزاز بالانساب لا يزال قائما كما كان منذ قديم الزمان • لا ننكر أن النظام الطبقي المغلق غير موجود في البداوة على النمط الذي رأيناه في الحضارة القديمة • فالبداوة تقوم على اساس العصبية القبلية ، لا على أساس العصبية الطبقية • ولهذا كانت وظيفة الانساب فيها هي للتمييز بين القبائل وليس للتمييز بين الطبقات •

معنى هذا ان الديمقراطية البدوية تبقى مسيطرة على البدو ما داموا في الصحراء • فاذا خرجوا الى العالم يفتحونه ، وخضعت لهم الامم المفتوحة ، تركوا الديمقراطية وصاروا تجاه تلك الامم أولى أرستقراطية وكبرياء •

رأينا البدو الذين يعيشون في الصحراء الآن • فهم على الرغم من وجود الديمقراطية بينهم ، يعاملون بعض الافراد والجماعات العائشة في الصحراء معهم معاملة لا تخلو من كبرياء وارستقراطية • فهم مثلا يحتقرون قبيلة « الصلبة » احتقارا كبيرا • وهم كذلك يحتقرون عبيدهم ، والمختصين بالرعي منهم ، وأرباب المهن كالحائك والحداد وغيرهم • فالبدو من أولى الانساب الاصيلة لا يتزوجون من بنات هؤلاء ، ولا يزوجونهم بناتهم أبدا • وهم يعتبرونهم من طبقة واطئة جدا •

ومما يجدر ذكره ان البدو ينظرون الى الحضر كلهم بمثل هذه النظرة • فهم يعدون أنفسهم أسمى خلق الله • اما الحضر فيأتون بالدرجة الثانية وراءهم ولو كانوا أولى أنساب شريفة •

كان السيد رجب ، نقيب أشراف البصرة منذ عهد غير بعيد ، يعتز بنسبه البدوي • فذهب ذات يوم الى بغداد يريد أن يتزوج فتاة من البيوت الشريفة فيها • فذكروا له بيت الباچچي والجادرجي وغيرهما • فرفض

ذلك قائلا : « أريد الاشراف » . وهو يحسب تلك البيوت غير شريفة لانها تحترف المهن الحضرية . فقالوا له : لا يوجد أشرف من هؤلاء في بغداد ، اما اذا أردت الاشراف حسب رأيك فاذهب الى البادية ...

والمعروف عن امرأة بدوية انها رفضت الزواج من « ابن المشرى » الذى كان حاكم الزبير في العهد العثماني ، لانه من أبناء العبيد[1] .

خلاصة القول أن البدو ديمقراطيون فيما بينهم ، بينما هم أرستقراطيون تجاه غيرهم من الحضر او أصحاب الحرف والانساب الوضيعة . وقد اتضح هذا عند قيام الدولة الاسلامية ، حين احتك البدو بغيرهم من الامم .

البدو والصراع الطبقي :

لكي نفهم أرستقراطية البدو تجاه غيرهم ، ندرس الصراع الطبقي الذى أخذ يظهر لدى العرب إثر توسع الفتوح وقيام الدولة الاسلامية الكبرى . فقد ظهر هذا الصراع في بداية الامر بين العرب أنفسهم ، ثم صار يتحول تدريجا ضد غيرهم من الاقوام المفتوحة .

بدأ الصراع الطبقي يظهر بين العرب في عهد الخليفة الثالث ، عثمان بن عفان . وهو الصراع الذي نشب بين قبيلة قريش والقبائل العربية الاخرى . والظاهر أن له جذورا عميقة منذ أيام الجاهلية . فقد كانت قريش في الجاهلية القبيلة التجارية الوحيدة في جزيرة العرب . وكانت تتعاطى الربا ، وجمعت ثروة طائلة . وكانت فوق ذلك سادنة الكعبة وتطلق على نفسها اسم « أهل بيت الله » . وكانت القبائل العربية تحترمها وتحسدها في آن واحد . وقد ازدادت مكانة قريش ارتفاعا بعد واقعة الفيل ، حيث أخذت قريش تدّعي بأن الله يقف الى جانبها في الملمات ويحميها ضد أعدائها ، ولهذا أرسل الطير ليقضي على الأحباش الذين جاءوا من اليمن لحربها وهدم كعبتها[2] .

---

(١) حافظ وهبة (المصدر السابق) ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .
(٢) علي الوردى (اسطورة الادب الرفيع) ص ١١٧ ـ ١٢٣ .

وعندما بدأت الدعوة الاسلامية تظهر ، حاربتها قريش محاربة عنيفة لا هوادة فيها . ولكن الدعوة انتصرت أخيرا ، فأذعنت لها قريش صاغرة . وقد رأينا قريشاً في عهد أبي بكر وعمر تشعر بالضعة والانخذال ، اذ هي فقدت المكانة العالية التي كانت لها في أيام الجاهلية . وتشير بعض القرائن التاريخية الى أن الخليفة عمر كان يبغض قريشا ويميل الى الاعراب ، وكانت قريش تبادله البغضاء[1] . ويتهمها بعض الباحثين بأنها كانت من المتآمرين على قتله .

وعندما تولى الخلافة عثمان حاولت قريش أن تستغل عهده لاسترجاع مكانتها القديمة . فهي كانت تحب عثمان حبا جما ، وقد ساعدته على نيل الخلافة وبذلت في سبيل ذلك جهودا غير قليلة . ويبدو أنها استحوذت في عهد عثمان على حصة كبيرة من المناصب والولايات والغنائم . ومن هنا بدأ الصراع يظهر بينها وبين القبائل الاخرى .

يروى المؤرخون أن والي الكوفة في ذلك العهد ، وكان قرشياً ، أعلن ذات يوم في مجلسه قائلا : « انما السواد بستان قريش » . فقامت اليه جماعة من الاعراب تعترض عليه وتستنكر قوله . وقد سفّرت هذه الجماعة الى معاوية في الشام ، وجرى هناك بينهما نقاش حاد . وكان من جملة ما قال لهم معاوية : « انكم قوم من العرب ... وقد بلغني أنكم نقمتم قريشا ، وان قريشا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم ... » فأجابه أحدهم : « كم تكثر علينا بالامرة وبقريش ، فما زالت العرب تأكل من قوائم سيوفها وقريش تجار »[2] .

مهما يكن الحال فقد كان هذا الصراع بين قريش والقبائل الاخرى من أهم العوامل في الثورة على عثمان . واستطاعت قريش أن تستغل مقتل عثمان ، كما استغلت خلافته ، فاتخذت من « قميصه » شعارا لها ، وتم

---

(١) علي الوردى (وعاظ السلاطين) ص ١٩٢ ـ ١٩٧ .
(٢) ابو بكر بن العربى (العواصم من القواصم) ص ١٢٠ .

لها النصر أخيرا حيث تأسست الدولة الاموية • وهى دولة قامت على أساس العصبية القرشية ، كما أشار اليه ابن خلدون[1] •

أصبحت قريش في العهد الاموي تؤلف الطبقة العليا في المجتمع الاسلامي • وقد ساعدها على ذلك الحديث القائل « الأئمة من قريش » • فاعتبرت نفسها موئل الخلافة ، ولا يجوز أن تخرج الخلافة منها • وشاع بين الناس أن قريشا خلقها الله ذات طبيعة خاصة بها لا يشاركها فيها أحد • يقول المؤرخ جرجى زيدان : « فاعتقدوا الفضل للقرشيين على الناس كافة في كل شيء حتى في أحوال الحياة والولادة فقالوا (لا تحمل لستين الا قرشية ولا تحمل لخمسين الا عربية) وأنه لا تكون بنت امرأة قرشية أمة ، وأن القرشي لا يتزندق ، وأنه لا ينبغي للقرشي أن يستغرق في شيء من العلم غير الاخبار • وظلت الرئاسة في قريش لا ينازعهم فيها منازع الى عهد غير بعيد »[2] •

يخيل لي أن الاعراب في العهد الاموي خضعوا لامرة قريش ورضوا بها • ولعلهم رجعوا الى ما كانوا عليه في الجاهلية ، يحترمون قريشا ويحسدونها في آن واحد • ومن الممكن القول أن الاعراب أدركوا بأن خطرا جديدا أخذ يهددهم ويهدد قريشا معهم ، هو خطر الموالي • فقد صار عدد الموالي يزداد بمرور الايام ، حتى كادوا يؤلفون الاكثرية في المجتمع الاسلامي • ولابد للاعراب من أن يتضامنوا مع قريش تجاه هذا الخطر ، حيث يتبعون مبدأهم القديم القائل « أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب » •

صراع العرب والموالى :

إن هذا الصراع الذى اشتهر أمره في التاريخ الاسلامي هو في أساسه الاجتماعي صراع طبقي • وقد كان في الواقع أشد أثرا وأوسع نطاقا من

---

(١) ابن خلدون (المقدمة) ص ٢١٦ •

(٢) جرجى زيدان (تاريخ التمدن الاسلامي) ج ٤ ص ٣٦ •

ذلك الصراع الذى شهدناه من قبل بين قريش والاعراب .

اختلف الباحثون في هذا الصراع . فالدكتور أحمد أمين مثلا يؤكد على أن العرب أساءوا معاملة الموالي واحتقروهم[١] ، بينما الدكتور ابراهيم العدوي يؤكد على النقيض من ذلك . فهو يقول ان العرب قدموا للموالي الشيء الكثير من آيات المودة والاخلاص ، واعتمدوا عليهم في الحكم ، وعيّنوهم بشتى المناصب الادارية والعلمية والعسكرية ، وكانوا فوق ذلك يصبرون عليهم ويتحملون ما يبدر منهم من انتقاد وتحدٍ . ولكن الموالي على الرغم من ذلك أضمروا لهم الحقد ، واتبعوا مذهب الشعوبية في سبيل الانتقام منهم والقضاء على دولتهم[٢] .

أكاد أعتقد أن كلا من هذين القولين لا يخلو من تطرف . ونحن لو درسنا الامر في ضوء الثقافة البدوية لوجدنا أن الحقيقة الواقعية هي في الوسط بين ذينك الطرفين . فالقبائل البدوية قد تكبرت على الموالي وأساءت معاملتهم من ناحية ، ولكنها من الناحية الاخرى قد حمتهم وأتاحت لهم بعض الفرص المناسبة . ولو قارنا معاملة هذه القبائل للموالي بمعاملة الفرس والروم لهم من قبل لوجدنا فرقا لا يستهان به .

رأينا البدو في حياتهم الصحراوية يحتقرون ذوي الانساب والحرف الوضيعة ، ولكنهم في الوقت ذاته يحمونهم ولا يعتدون عليهم . وهناك فرق بين الاحتقار والاعتداء . ان البدوي رجل فخور متكبر ، ولكنه في الوقت ذاته شهم ذو فروسية ومروءة . فهو يعتدى على من يتحداه ويقف في وجهه ، انما هو يحمي ويغيث من يأتي اليه متوسلا أو قاصدا ـ كما أشرنا اليه من قبل مرارا .

الواقع أن المصادر التاريخية امتلأت بالاخبار التي تدل على اهانة العرب للموالي . وهذه أخبار يصعب علينا التشكيك في صحتها . وللدكتور

---

(١) أحمد أمين (ضحى الاسلام) ج ١ ص ١٨ ـ ٢٩ .

(٢) ابراهيم أحمد العدوى (المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية) ص ١٨ ـ ٢٠ .

عبدالعزيز الدوري رأى في هذا الصدد لا يخلو من وجاهه : فهو يقول : « فهذه القصص ترد في مصادرنا لتسجل حالات تجلب الانتباه لشذوذها عن المألوف ، ولذا لا يمكن اعتبارها ممثلة للوضع • وعلينا أن ننتبه لهذه الظاهرة في مصادرنا ، فنعرف الغريب الذى يذكر لغرابته ولا ننسى أنه الشاذ »[١] •

أود أن أضيف الى هذا الرأي شيئاً هو أن أخبار اضطهاد الموالي ، التي وردت في مصادرنا التاريخية ، قد سجلت على الأكثر في العهد العباسي • وهذا العهد قام على أساس النكاية بالعهد الاموى وشجب ما حدث فيه من خروج على مبادىء الاسلام • ويجب ان لا ننسى أيضا ان كثيرا من المؤرخين في العهد العباسي كانوا من الموالي ، ونحن لا نتوقع من هؤلاء ان يكونوا حياديين في روايتهم للاخبار في هذا الموضوع •

ومهما يكن الحال ، فأرجح الظن أن الموالي عوملوا بشيء من الاهانة أو الاضطهاد على أيدي العرب ، قليلا أو كثيرا • وهم بدورهم قابلوا السيئة بمثلها او أشد منها • وهذا أمر طبيعي في البشر بوجه عام •

لابد للموالي حين يرون العرب يعاملونهم بغرور وكبرياء ، أن يقابلوهم بالمثل ، فيستهينوا بمظاهر الفخار البدوي ويشجبوها باسم الدين • ويمكن القول إن الدين أصبح سلاحا بأيدي كلا الفريقين • فالعرب يقولون : اننا هدينا الموالى الى الدين بسيوفنا • والموالى يقولون : ان الفخار العربي مناقض لتعاليم الدين • وأخذ الصراع ينمو بمرور الايام ، بادرة من هنا وبادرة من هناك ، وكل فريق يزداد في تعصبه لنفسه كلما ازداد خصمه تعصبا من جانبه[٢] •

طبيعة الولاء :

سمي الموالى بهذا الاسم لانهم عند اعتناقهم الاسلام حاولوا محالفة القبائل البدوية ، اي حاولوا الدخول في ولائها وحمايتها • فكان الرجل

---

(١) عبدالعزيز الدورى (الجذور التاريخية للشعوبية) ص ٢٠-٢١ •
(٢) على الوردى (مهزلة العقل البشرى) ص ٣٥٤ ـ ٣٥٧ •

من الامم المفتوحة لا يكاد يعلن إسلامه حتى يذهب الى قبيلة عربية لينتمي اليها عن طريق الولاء . والقبيلة عند ذلك تعلن حمايتها له ، وقد تتيح له أن يتسمى باسمها او يلتحق بنسبها ، فيقال له مثلا انه كندي أو تميمي أو نخعي « بالولاء » . وقد تختفي صفة « الولاء » هذه بعد جيل أو بضعة أجيال ، فيصبح المولى « عربيا » في النهاية .

إن من العار على القبيلة العربية ان تسمح لاحد أن يعتدى على مواليها ، فهي تعتبر ذلك اهانة لها . وهي قد تدافع عنهم دفاعا غير قليل . رأينا ذلك في العراق في العهد العثماني ، حيث أخذ كثير من الغرباء والاعاجم يدخلون في ولاء القبائل العربية ، عن طريق ما يسمونه بـ « الكتبة » ، وصاروا يتمتعون بحمايتها ...

يخيل لي أن عامة الموالى قد فعلوا مثل هذا في العهد الاموى ، أو في العهد العباسي . والظاهر أن هناك نفرا من الموالي لم يعجبهم ذلك . وربما كان هؤلاء من وجهاء الموالي ، أو من أدبائهم وعلمائهم ، ففضلوا أن يبقوا معتزين بأنسابهم أو كفاياتهم الشخصية ، وأخذوا يتحدّون العرب وينازعونهم في الفخار قليلا او كثيرا . ولعل النزعة « الشعوبية » ظهرت في هؤلاء وحدهم . اما بقية الموالى ، وهم الجمهور الغالب فيهم ، فقد بقوا يتنعمون بحماية « الولاء » العربي ولا يكترثون للقيل والقال ...

إن الموالى اذن يمكن تصنيفهم الى فريقين ، فالفريق الاكبر منهم يتألف من العامة الذين لا يهمهم النسب والفخار بمقدار ما تهمهم الحماية وكسب الرزق . وهؤلاء يشبهون العامة في كل زمان ومكان . انهم يريدون أن يعيشوا ، ولا يهمهم في سبيل ذلك أن ينالوا العزة أو ينالوا المهانة . أما الفريق الآخر من الموالي فهو يتألف من أصحاب الأنوف الشامخة والاعتزاز بالمجد التليد . وهم قليلون طبعا ، ولكنهم ملأوا بصراخهم ودعايتهم الاجواء وصفحات الكتب .

ان العامة بوجه عام ميالون الى السكون والخنوع ، والى الرضى

بما كتب الله عليهم . اما الخاصة فهم أميل الى الصخب والمشاغبة والاعتراض.
ولهذا فهم أقدر على شحن كتب التاريخ بما يريدون .

تلخيص وخاتمة :

أطلنا البحث في شرح الخصال البدوية وطابع ثقافتها الاجتماعية . ولابد لنا في النهاية من تلخيص هذا البحث ووضعه في هيكل عام .

قلنا في بداية البحث ان كل ثقافة اجتماعية ، في أية أمة من الامم ، لها طابع عام ولها مركبات ، وكل مركب منها يتألف من خصال مختلفة . وقد رأينا كيف أن الثقافة البدوية يغلب عليها طابع « التغالب » . أما مركباتها وخصالها ، فيمكن اجمالها على المنوال التالي :

(١) مركب العصبية : وهو يحتوى على التماسك القبلي ، والمشيخة ، والثأر ، والنجدة ، والفخار بالنسب ، وصيانة المرأة ... الخ .

(٢) مركب الغزو : وهو يحتوى على الفخار بالقوة والشجاعة ، والقتال والغنيمة ، والعزة والصراحة والاباء ، واحتقار المهن المختلفة...الخ.

(٣) مركب المروءة : ويحتوى على الفخار بالضيافة والكرم ، وحماية الدخيل والجار والرفيق والحليف والمولى وكل ضعيف لاجيء . وقد يحتوى كذلك على الوفاء والولاء والامانة ... الخ .

لست أدعي ان هذا البحث الذي قمت به حول البداوة كان بحثا علميا . والجدير بي أن اسميه « محاولة علمية » . والرجاء من زملائي الباحثين أن يعينوني فيه ، ويكشفوا عن أوجه الخطأ والصواب منه . والواقع أنه أوسع وأعمق من أن يقوم به شخص واحد . ولابد للباحثين من أن يتعاونوا عليه كل بمقدار جهده وموضوع اختصاصه .

أشرت غير مرة الى ان المجتمع العربي ، بمختلف أقطاره ، لا يمكن فهمه بغير الرجوع الى الثقافة البدوية والتعمق في دراستها . فالوطن العربى

كما قلنا هو أعظم موطن في العالم تصارعت فيه البداوة والحضارة وتفاعلتا . فالبداوة والحضارة فيه كالقطبين المتنافرين . وقد جرى تيار التاريخ فيه من جراء الاتصال بينهما ، كمثل ما يجرى تيار الكهرباء من جراء الاتصال بين القطب السالب والقطب الموجب منه .

ان هذا أمر سنلاحظ أثره بوضوح عندما نأتي في الفصول القادمة الى دراسة المجتمع العراقي ، وهو المجتمع الذي أردت أن أتخذه نموذجا ، او مدخلا تمهيديا ، لدراسة المجتمع العربي الاكبر .

الفصل الخامس

العراق في العهد العثماني

بعد أن درسنا في الفصول السابقة طبيعة البداوة وصراعها مع الحضارة في الوطن العربي بوجه عام ، نتحول الى دراسة المجتمع العراقي لنرى مبلغ تأثير البداوة ونمط صراعها مع الحضارة فيه .

وفي رأيي أننا لا نستطيع أن نفهم المجتمع العراقي في وضعه الراهن ما لم نرجع بدراستنا الى الوضع الذى كان عليه هذا المجتمع في العهد العثماني . فقد ظل العهد العثمانى مسيطرا في العراق زهاء أربعة قرون ، ولم ينقشع عنه الا خلال الحرب العالمية الاولى ، اى منذ نصف قرن تقريبا.ونحن بدراستنا للمجتمع العراقي في العهد العثماني انما ندرس الوضع الاجتماعي الذي كان يعيش فيه آباؤنا ، ويعيش فيه كثير من اخواننا الذين لا يزالون أحياءاً حتى يومنا هذا . معنى ذلك أن العادات والقيم والافكار التي كانت سائدة في العهد العثماني لا تزال مؤثرة فينا بصورة مباشرة او غير مباشرة . ان تركيب شخصيتنا في الوقت الحاضر ليس سوى نتاج التفاعل بين ما كان عليه الناس في العهد العثماني ، وما جاءت به الحضارة الحديثة من عادات وقيم وأفكار .

البداوة في العهد العثماني :

إن القبائل العراقية التي لا تزال تعيش في طور البداوة الخالصة هى اليوم قليلة جدا لا تكاد تتجاوز نسبتها الـ (٢) بالمائة من

مجموع السكان • ولكننا لو رجعنا الى الوراء ، الى ما قبل مائة سنة تقريبا ، لوجدنا هاتيك القبائل كثيرة جدا حيث كانت نسبتها تبلغ الـ (٣٥) بالمائة من مجموع السكان • وهذا أمر يشير الى مبلغ تغلغل البداوة في العراق في ذلك العهد •

يبدو أن العراق كان في العهد العثماني مطمح أنظار القبائل البدوية التي تحوم في الصحارى المتاخمة للعراق • فهي كانت تقف من العراق موقف المترصد الطامع ، وتنتهز الفرص للتسلل اليه بين آونة وأخرى • وقد كان هناك عاملان رئيسان يشجعانها على ذلك : أحدهما ضعف سيطرة الحكومة على العراق وشيوع الفوضى والنزاع القبلي فيه • والثاني توالى الاوبئة الكاسحة عليه ، فقد كان كل وباء يجتاح العراق يقضي على كثير من سكانه لا سيما أهل المدن منهم •

ان القبائل البدوية التى تعيش في الصحراء تحيى حياة الخشونة ، وهي على حافة المجاعة دائما ، كما أشرنا اليه في فصل سابق • ومعنى هذا أنها تعاني في الصحراء ضغطا يدفعها نحو التسلل الى العراق • وهي كانت من الناحية الاخرى تشهد في العراق عامل جذب يجذبها نحوه • انها كانت ترى في العراق أراضي خصبة ومياه وفيرة • فهى اذن لا تستطيع أن تظل صابرة في الصحراء ، تتحمل فيها ضنك العيش ، بينما العراق الى القرب منها مكشوف تجاهها ، وقد كاد يفرغ من سكانه ، وشاعت فيه الفوضى واضطراب الأمن •

بحث قيم :

للدكتور محمد سلمان حسن بحث قيم ينفعنا كثيرا في هذا الموضوع • وقد نشر معهد الاحصاء في جامعة اكسفورد هذا البحث في إحدى نشراته الدورية[١] • وكان من النتائج التى توصل اليها الدكتور حسن في بحثه

(1) Bulletin of the Oxford University Institute of Statistics, vol. 20, No. 4, 1958.

هو : أن عدد سكان العراق كان ، في عام ١٨٦٧ ، لا يتجاوز المليون والربع الا قليلا . اما فئات السكان الثلاث فكانت نسبهم كما يلي :

(١) القبائل البدوية : ٣٥٪ من مجموع السكان .

(٢) القبائل الريفية : ٤١٪ من مجموع السكان .

(٣) أهل المدن : ٢٤٪ من مجموع السكان[١] .

إن هذا يدل دلالة واضحة على مبلغ ما كان المجتمع العراقي عليه من مد بدوي وجزر حضري . فالبداوة تتمثل في القبائل البدوية والريفية معا . وهي تؤلف (٧٦) بالمائة من مجموع السكان ، أي ثلاثة أرباع السكان تقريبا . اما الحضارة فتتمثل في أهل المدن الذين يؤلفون الربع الباقي .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن أهل المدن لم يكونوا يمثلون قيم الحضارة تمثيلا صحيحا . فلقد كانوا محاطين بالقبائل ، وهي تهددهم دائما بالغزو او قطع الطريق ، وقد اضطروا من جراء ذلك الى اتخاذ القيم البدوية ، قليلا او كثيرا ، لكي يدرأوا بها خطر القبائل عليهم . انهم لم يجدوا في الحكومة قوة كافية تحميهم من خطر القبائل ، فاضطروا الى الاعتماد على أنفسهم في ذلك . ولهذا رأيناهم يقابلون القبائل بمثل أسلحتها وقيمها ، فشاعت لديهم تقاليد العصبية والثأر وما أشبه ، وصاروا يلجأون اليها في سبيل المحافظة على أرواحهم وأموالهم ، كأن لسان حالهم يقول : « لا يفلّ الحديد الا الحديد ! » .

وضع المدن :

مهما يكن الحال فقد كانت المدن في العهد العثماني ، لا سيما قبل منتصف القرن التاسع عشر ، في غاية الانحطاط والخراب . ولعلنا لا نغالى اذا قلنا انها لم تكن « مدناً » بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة في العالم المتحضر ، بل هى كانت أشبه بالقرى منها بالمدن .

---

(١) انظر : مجلة الثقافة الجديدة ، في عددها الثانى عشر من السنة السابعة ، الصادر في تشرين الاول والثانى عام ١٩٥٩ .

يحدثنا السائح الانكليزي كيبل الذى سافر من البصرة الى بغداد عن طريق دجلة عام ١٨٢٤ : أنه لم يشهد بين القرنة وبغداد سوى مدينتين هما « الكوت » و « شفلّح » • وهو يقول عن الكوت انها كانت قرية صغيرة حقيرة مبنية كلها بالطين ويحميها سور من الطين ارتفاعه ستة أقدام ، وفيها يقيم شيخ قبائل بني لام وهو الشيخ القويّ الذي يمتد نفوذه من القرنة الى بغداد[١] • اما شفلّح فهي قلعة مبنية بالآجر ، ويقيم فيها شفلّح شيخ قبائل زبيد التي تمتد « ديرتها » على الضفة اليمنى من دجلة بين نهر الغراف وبغداد • ان قلعة شفلّح هذه هي التي سميت بالبغيلة فيما بعد ، ثم سميت أخيراً بالنعمانية[٢] •

ولدينا وصف آخر للمدن العراقية جاء به السائح الالماني نيبور الذى تجول في العراق في عام ١٧٦٥ • فهو قد سافر عن طريق الفرات ، وذكر المدن التي مر بها ، كالسماوة ولملوم والرماحية والحلة • وكذلك ذهب الى النجف وكربلا • وخلاصة ما ذكر في هذا الشأن أن معظم تلك المدن كانت مبنية بالطين ، وكان قليل من الدور في بعضها مبنيا بالآجر • وكانت جميع المدن في الفرات الاوسط تخضع لسيطرة شيخ الخزاعل • فكان كأنه حكومة قائمة بذاتها ، يجبى الضرائب ، ويفرض الأتاوة على القوافل والسفن والمسافرين[٣] •

مدينة بغداد :

كانت بغداد ، ولا تزال ، اكبر مدينة في العراق • فهي مركز الاشعاع الحضاري فيه ، اذ هي عاصمة الحكومة من جهة ، وفيها يتجمع اكبر عدد من التجار واصحاب الحرف من الجهة الاخرى • ولكي نعرف

---

(١) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) ج ١ ص ٢٧٤ •
(٢) المصدر السابق • ج ١ ص ٢١٦ •
(٣) كارستن نيبور (مشاهدات نيبور) ـ ترجمة سعاد العمرى ـ ص ٥٥ ـ ٢٠٨ •

مبلغ انحطاط الحضارة في العراق في العهد العثماني ننظر في الوضع الذي كانت عليه هذه المدينة « الكبرى » .

كانت بغداد على أي حال تحتوى على أسواق عامرة نسبيا . وتتركز هذه الاسواق في الوسط . والى القرب منها شيدت دور من الآجر لا تخلو من زخرفة وفخامة ، يسكنها كبار الموظفين وأثرياء التجار والملاكين . ولكننا لا نكاد نبتعد عن هذا الوسط ، حيث تتغلغل في أطراف المدينة ، حتى نجد هناك محلات قذرة ذات أزقة ضيقة ، تسودها العصبية المحلية ...

مما يلفت النظر أن بغداد ، في منتصف القرن التاسع عشر ، لم تكن تحتوى على أي شارع معبّد ، أو مستقيم عريض . ان أول تعبيد حدث في بغداد كان في عهد مدحت باشا عام ١٨٧٠ . فقد عمد هذا الوالي على تعبيد زقاق قصير واقع على رأس الجسر من جانب الرصافة . وقد سمي هذا الزقاق منذ ذلك الحين بـ « عقد الصخر »[١] إشارة الى الاحجار التي عبّد بها .

وفي عام ١٩١٠ جاء الى العراق الوالي ناظم باشا الذى أطلق عليه العراقيون لقب « مدحت الثاني » . وقد سعى هذا الوالى الى فتح أول شارع في بغداد ، هو « شارع النهر » الذي عرف فيما بعد باسم « شارع المستنصر » .

إن هذا الشارع لا يزال باقيا على وضعه . فهو ليس عريضا ولا مستقيما . وانما سمي « شارعاً » لانه كان في حينه أكثر استقامة واتساعا من الأزقة المألوفة في بغداد . وقد قامت عند فتحه ضجة غير قليلة ، وانتشر العويل بين الناس الذين هدمت دورهم من أجله ، إذ هم لم يعهدوا ذلك من قبل في مدينتهم .

يجب أن لا ننسى أن أزقة بغداد لم تكن مضاءة بأى نوع من الضياء ، عدا ضياء القمر في الليالي المقمرة . بدأت الحكومة تضيء أزقة

---

(١) عبدالكريم العلاف (بغداد القديمة) ص ١٤ .

بغداد منذ عام ١٨٧٩[١] ، حيث وضعت فيها فوانيس نفطية . ولكن تلك الفوانيس لم تكن وافية بالمرام ، إذ هي كانت ذات ضياء خافت يكاد لا يضيء الا نفسه . ولهذا كانت الازقة مليئة بـ « الجن » بشتى أنواعها . فلقد كان الظلام المخيّم على الازقة يبعث الرهبة في قلوب المارة ، ويجعلهم يتخيلون أهوال « الجن » ومكايدها في زوايا الازقة ومنعرجاتها ، فيطلقون سيقانهم للريح . وقد ظل « الجن » يرتعون في أزقة بغداد حتى عهد متأخر . وقد شهد بعض أهوالها كاتب هذه السطور .

خطر القبائل على بغداد :

كان أهل بغداد يعانون من خطر « الجن » في الليل ، كمثل ما كانوا يعانون من خطر القبائل في النهار . يحدثنا المؤرخ عباس العزاوي : أنه في عام ١٨٥٢ أغارت قبيلة عنزة البدوية على قافلة من الجمال كانت تسير بالقرب من الطارمية في شمال بغداد . وكانت القافلة بحماية « عقيل » . فنهبت عنزة منها تسع مائة بعير : وبعد بضعة أيام أغارت عنزة مرة أخرى ، وكانت برئاسة شيخها ابن هذال ، على قافلة قادمة من الشام ، فنهبت الجمال والأحمال وكانت تحتوى على دراهم فضة وذهب . ونهبوا كذلك دواباً في طريق الحلة[٢] .

إن هذه لم تكن بالحادثة النادرة ، فطالما حدث مثلها بالقرب من بغداد . وكانت الحكومة تحاول أحيانا مطاردة القبائل الغازية فتسترجع منها الغنائم . ولكنها لم تكن تفعل ذلك دائما ، وكثيرا ما كانت تسكت فلا تحرك ساكنا . وكان الناس يعرفون ذلك فيلجأون في حماية قوافلهم الى الاستعانة بأفراد من « عقيل » ، يستأجرونهم لهذا الغرض .

مما يجدر ذكره أن « عقيل » هذه لم تكن قبيلة ، بل كانت جماعة

(١) المصدر السابق ، ص ٧٠ .
(٢) عباس العزاوى (تاريخ العراق بين احتلالين) ج ٧ ص ١٠٦ .

من أعراب نجد ، سكنوا جانب الكرخ من بغداد وامتهنوا تسيير القوافل وحمايتها[1] . فكان لهم رؤساء كرؤساء القبائل ، وهم يضمنون القوافل بأجر معيّن . وقد اعتادوا أن يدفعوا الأتاوة للقبائل التي يمرون بها ، ليأمنوا من غاراتها على قوافلهم . وقد يضطرون أحيانا الى الدفاع عن القوافل بحد السيف ، فينجحون حينا ويفشلون حينا آخر .

وليس من النادر أن تقوم جماعة « عقيل » هذه بدور الحامي والحرامي معا . انها قد تكون مخلصة في حماية القوافل البغدادية ، ولكنها مع ذلك قد لا تتردد عن نهب بغداد عندما تجد الفرصة مواتية لها . وهي قد تكون أحيانا حليفة للحكومة تحارب في صفوفها ضد القبائل العاصية ، وهي قد تكون في أحيان أخرى معادية للحكومة ، فتنشب المعارك الطاحنة بينهما .

يحدثنا فريزر عن معركة شديدة وقعت في بغداد بين الحكومة وعقيل في عام ١٨٣٤ ، وقد شهدها بنفسه عياناً . وصارت بغداد حينذاك ميدانا للنهب والقتل والتخريب ، بشكل فظيع[2] .

نظرة عامة :

اذا كانت هذه هي حالة بغداد ، مع العلم انها عاصمة العراق ومركز الحكومة فيه ، فكيف كانت اذن حالة المدن الاخرى ؟! .

يقول المؤرخ عبدالرزاق الحسني : « كان نفوذ القبائل العراقية في القرن الثاني عشر للهجرة ، والثامن عشر للميلاد ، يسود معظم انحاء العراق . فلا سلطان للحكومة الا في مراكز الولايات ، وفي الحواضر الكبرى . أما الدساكر والضياع فكانت تتنازع حكمها القبائل الرئيسية ، وأهمها المنتفق والخزاعل وبنو لام . وكانت هذه القبائل تُقطع الاراضي الزراعية ، وتقيم الحدود الشرعية ، وتجبى الضرائب والرسوم القانونية ،

---

(١) هاشم السعدي (جغرافية العرب الحديثة) ص ١١٠ – ١١١ .

(٢) جيمس فريزر (رحلة فريزر – ترجمة جعفر الخياط – ص ١٧٧ – ١٨٨ .

وتزاول معظم الاعمال التي تزاولها الادارات المحلية القائمة الآن في البلاد وكأنها مؤسسات رسمية قائمة بنفسها »[1] .

قد يصح أن نعلّق على كلام الحسني هذا فنقول إن سلطة الحكومة لم تكن قوية بدرجة كافية حتى في مراكز الولايات والحواضر الكبرى . لا شك أنها أقوى في هذه المراكز مما هي في الانحاء الاخرى ، ولكنها مع ذلك لم تكن كافية لتدعيم معالم الحضارة فيها كما ينبغي .

الظاهر أن العراق لم يكن في ذلك العهد يخضع لحكومة واحدة ، بل كان يخضع لعدة حكومات محلية ، هي تلك التي تكونت حول مشايخ القبائل الكبار ـ كما سيأتي في حينه . وطالما اشتد النزاع والتغازي والقتال بين تلك الحكومات المحلية ، وقد تدخل الحكومة المركزية طرفا في هذا النزاع القبلي ، على وجه من الوجوه .

مما يلفت النظر ان ابن خلدون أشار الى مثل هذا الوضع الاجتماعي ، عندما درس أحوال المغرب في أيامه . فهو يقول ان الدولة اذا ضعفت ، وتقلص ظلها عن الانحاء القاصية من البلاد ، ظهرت في تلك الانحاء دول صغيرة تقوم على أساس من العصبية[2] .

يبدو أن البلاد العربية متشابهة تقريبا من هذه الناحية . فاذا قويت سلطة الحكومة المركزية فيها ، ضعفت العصبية القبلية . واذا ضعفت سلطة الحكومة ، قويت العصبية .

لعلني لا أغالى اذا قلت ان الحكومة العثمانية كانت في العراق ، لا سيما في القرن الثامن عشر ، تشبه أن تكون حكومة بين حكومات أخرى أصغر منها . فهى قد تحالف بعض تلك الحكومات المحلية لتحارب بعضها الآخر . وهى قد ترجع أحيانا من الحرب منتصرة ، فتأتي بالأباعر والغنائم التي حصلت عليها في الحرب ، فتعرضها في أسواق بغداد للبيع . وقد تفعل القبائل مثل هذا عند خروجها من الحرب منتصرة على الحكومة

---

(١) عبدالرزاق الحسني (العراق قديما وحديثا) ص ١٥٤ .
(٢) ابن خلدون (المقدمة) ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

المركزية • فهي تغنم البنادق والخيول والامتعة منها ، وقد تعرض بعضها في الاسواق بأثمان منخفضة •

الدولة العثمانية :

لكي يتوضح لنا الوضع الاجتماعي في العراق في العهد العثماني ، يجدر بنا أن نلقى نظرة عامة موجزة على تاريخ الدولة العثمانية ، كيف نشأت في بداية أمرها ، وكيف جاءت الى العراق •

كانت هـذه الدولة مصـابة ببعض الأدواء المزمنة قبـل مجيئها الى العراق • فلما جاءت اليه ابتليت بأدواء أخرى من جراء الظروف الخاصة بالعراق • ولهذا كانت عاجزة عن ضبط الأمن والمحافظة على الارواح والاموال في العراق • فشاعت فيه الفوضى من جراء ذلك ، وانتشر النزاع القبلي على نطاق واسع •

يجب أن نعلم قبل كل شيء أن الدولة العثمانية لم تكن في بداية امرها دولة ، بل كانت قبيلة بدوية جاءت من تركستان الشرقية هربا من غارات جنكيزخان ، فاستوطنت في الاناضول تحت حكم السلاجقة الذين كانت عاصمتهم « قونية » • وقد طلب أحد رؤساء القبيلة من السلطان السلجوقي أن يقطعها أرضاً تعيش عليها • فاعطاها مقاطعة على بحر مرمرة الى الجنوب من القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية •

كانت الدولة البيزنطية آنذاك في حالة انحلال عام • فانتهزت القبيلة العثمانية الفرصة وأخذت تشن عليها الغارات باسم الدين ، مما جعلها تنمو في قوتها ورفعتها شيئاً فشيئاً • وقد جاء اليها الكثير من المتطوعين ، من مختلف الإمارات الاسلامية المجاورة ، ليقاتلوا معها « جهادا في سـبيل الله » • فكان كل فتح جديد يتم على يدها في « بلاد الكفر » ــ حسب تعبير ذلك الزمان ــ يرفع من مكانتها في نظـر المسلمين ، ويقوّي تيـار المتطوعين في خدمتها[1] •

---

(١) ساطع الحصرى (البلاد العربية والدولة العثمانية) ص ١٣ ــ ١٦

يمكن القول اذن إن الدولة العثمانية قامت منذ بداية ظهورها على أساس من العصبية القبلية والغزو ، تحت ستار مصطنع من الدين . وهي قد ظلت كذلك طيلة حياتها تقريبا . فكانت تفاخر بالفتح والغنيمة أكثر مما تفاخر بالعمران والعدل . وكان الولاة فيها يهتمون بتشييد المساجد والتكايا وبتخصيص الأوقاف الواسعة لها ، اكثر مما يهتمون بتنمية المرافق العامة ووسائل الانتاج .

الديالكتيك الانكشاري :

يقول الدكتور أسد رستم(١) : ان الدولة العثمانية شبت بسرعة وشاخت بسرعة . فهي قد فتحت كثيرا من الأقطار في مدة قصيرة ، ولكنها سرعان ما أخذت تتدهور بعد ذلك وتشيع فيها عوامل الانحلال والفوضى .

يعزو الاستاذ ساطع الحصري معظم السبب في ذلك الى طبيعة الجيش الذى اعتمدت عليه الدولة العثمانية في فتوحاتها ، وهو الجيش الذى عرف باسم « الجيش الانكشاري » . فقد كان هذا الجيش عاملا فعالا في انتصار الدولة أولا ، وفي تدهورها أخيراً(٢) .

انه في الواقع جيش عجيب يندر أن نجد له مثيلا بين جيوش العالم قديما وحديثا . فهو مؤلف من جنود اختطفتهم الدولة من أهاليهم منذ طفولتهم ، وأخذت تدربهم على أفانين الحرب والقتال . انهم في الغالب من أبناء البلاد المسيحية التي فتحتها الدولة العثمانية ، ولكنهم بعد أن ينشأوا في المؤسسات الخاصة التي أقامتها الدولة لهم ، يصبحون من أشد الجنود حماسا للاسلام واندفاعا في الجهاد من أجله . انهم كانوا لا يعرفون شيئاً عن نسبهم وأصلهم . فكل ما كانوا يعرفونه هو أنهم جنود الاسلام . ولهذا كانوا يرمون بأنفسهم في المعارك وهم واثقون بأنهم سينالون فيها « النصر او الجنة » ... وهذا كان من أهم العوامل في تلك الفتوحات الواسعة التي حصلت عليها الدولة العثمانية في عنفوان شبابها .

---

(١) من محاضرة له ألقاها في جامعة بيروت الامريكية عام ١٩٤٠ .
(٢) ساطع الحصرى (المصدر السابق) ص ٤٨ .

يقول الاستاذ ساطع الحصري : ان اختلال أمور الدولة العثمانية بدأ باختلال نظام الانكشارية . فهذا الجيش فقد بالتدريج كل ما كان له من مزايا ، وتحوّل آخر الامر الى آلة فساد وفوضى . وتضاءل ارتباط الانكشارية بثكناتهم ، وصار الكثير منهم لا يذهب الى الثكنات الا لتسلم المرتبات التي كانت تسمى « العلوفات » . ثم أخذ الكثيرون يشتغلون بمهن مختلفة بعد أن يبيعوا تذاكر « علوفاتهم » الى الراغبين من الناس ، كما تباع الاسهم والسندات . ولكنهم لا يترددون أثناء ذلك أن يلجأوا الى التجمع والاحتجاج ، والصخب والشغب ، مندفعين في كل ذلك بتسويلات أرباب المنافع الخاصة وأبطال الدسائس والمؤامرات . فاذا دعوا الى الحرب تقاعسوا أو فروا من القتال . ولكي يستروا عار فرارهم ، يأخذون بنشر الاشاعات حيث يزعمون مثلا بأن قوادهم أرادوا أن يبيعوهم الى الاعداء « الكفار »[1] .

الدولة العثمانية في العراق :

استولت الدولة العثمانية على العراق فى عهد السلطان سليمان القانوني ، في عام ١٥٣٤م . وكانت الدولة في ذلك الحين في أوج قوتها . ولم يكد يستتب لها الامر في العراق حتى بدأت امارات الضعف وأمراض الشيخوخة تنخر في كيانها شيئاً فشيئاً . ومما يجدر ذكره أن الدولة العثمانية لم يكن من المقدر لها أن تبقى على قيد الحياة مدة طويلة بعد أن استفحلت فيها أمراض الشيخوخة . فهي لو تركت وشأنها لماتت منذ عهد مبكر . ولكن الذى أبقاها حية على الرغم من وهنها الشديد ، هو ما عرف في التاريخ الحديث باسم « المسألة الشرقية »[2] . فقد كانت بعض الدول الاوربية الكبرى ، كانكلترا وفرنسا ، تتبع تجاه الدولة العثمانية سياسة من لا يريد لها الموت ولا الحياة . كانت تلك الدول تخشى أن تموت

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٧ ــ ٤٨ .
(٢) محمد مصطفى صفوت (المسألة الشرقية ومؤتمر باريس) ...

الدولة العثمانية فجأة قبل أن يتم الاتفاق فيما بينهم على اقتسام تراثها . فكانوا يدأبون على اعطائها جرعات صغيرة من العلاج كلما وجدوها مشرفة على الموت . وهكذا بقيت الدولة العثمانية مدة طويلة تعالج سكرات الموت دون أن تموت .

مهما يكن الحال فقد كان العراق يعاني القسط الاوفى من هذا الضعف العام الذي ابتليت به الدولة العثمانية . كان العراق بمثابة المنفى بالنسبة للولاة والموظفين الاتراك . ولهذا أطلق عليه لقب « سيبريا تركيا »[1] . فقد كان الموظفون يمتنعون عن العمل فيه كمثل ما يمتنع اليوم موظفونا عن العمل في أهوار العمارة أو الجبايش . ولم يكن يقبل أن يعمل في العراق الا الموظف الذى لا يجد له عملا في مكان آخر ، أو الموظف الذى يتوقع أن يبقى فيه مدة قصيرة ليجمع منه ثروة ينتفع بها في مستقبل أيامه .

الصراع الايراني العثماني :

مما زاد في الطين بلة حدوث الصراع الطويل على العراق بين الدولة العثمانية والدولة الايرانية . فقد شاء القدر أن يقع العراق بين هاتين الدولتين المتنافستين عليه ، هذه تدعو الى مذهب السنة وتلك تدعو الى مذهب الشيعة . ومما يجدر ذكره أن سكان العراق أنفسهم منقسمون الى هذين المذهبين ، وقد اشتد النزاع الطائفي بينهم منذ صدر الاسلام . فجاء الصراع العثماني الايراني أخيرا ليزيد في النار اشتعالا .

بدأ الصراع العثماني الايراني اثر قيام الدولة الصفوية في ايران على يد الشاه اسماعيل الصفوي . فالمعروف عن سكان ايران أنهم كانوا قبل قيام الدولة الصفوية من أهل السنة في الغالب . ولم يكن فيهم من الشيعة الا قليل نسبيا . وكان اسماعيل الصفوي نفسه سنيا ومن أسرة سنية

(١) عبدالله الفياض (الثورة العراقية الكبرى) ص ٤٧ .

معروفة[1] . ولسبب نجهله أعلن تشيعه ، والتف حوله كثير من الاتباع في منطقة آذربيجان . وأتيح له أخيرا أن ينتصر وأن يؤسس له دولة قوية أخذت تنتقل من نصر الى نصر ، في أنحاء ايران .

اتخذ اسماعيل التشيع مذهبا رسميا لدولته الفتية ، وجعل من نفسه داعية للتشيع وحاميا له . وأخذ يقسر الايرانيين الذين يقعون تحت سيطرته على اتباع مذهب الشيعة بطرق شتى . ولم يتردد في سبيل ذلك أن يلجأ الى القتل الذريع والاضطهاد والتعذيب . وفي عام ١٥٠٨ استطاع أن يفتح العراق فصار يضطهد أهل السنة من سكان العراق ، وقتل بعض وجهائهم وفقهائهم ، وهدم قبور أئمتهم كقبر ابي حنيفة وعبدالقادر الكيلاني[2] .

ولقد كان يتولى الحكم في الدولة العثمانية آنذاك سلطان قوى المراس شديد الوطأة هو السلطان سليم ، الذى أطلق عليه لقب « ياوز » ومعناه البطاش . ولم يكد يسمع السلطان سليم بما حدث في العراق حتى امتلكه الغضب ، فاتخذ من نفسه زعيما لاهل السنة ، واستحصل على فتوى تعتبر الشيعة خارجين على الدين الاسلامي وأن الواجب يقضي بمحاربتهم وقتلهم[3] . وفي الاشهر الاولى من حكمه أمر بذبح جميع الشيعة اينما وجدوا داخل بلاده[4] . فكانت مذبحة كبيرة قتل فيها الالوف في الاناضول ونواحي حلب .

وبعد موت السلطان سليم تولى الحكم مكانه ابنه السلطان سليمان الذي يلقب بـ « القانوني » . والواقع أن هذا الرجل يختلف عن ابيه ، حيث كان أقرب منه الى العدل والعمران . وقد تم على يده فتح العراق فلم

---

(١) ابراهيم فصيح الحيدرى (عنوان المجد) ص ١١٦ .
(٢) ستيفن لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ص ١٨ ــ ١٩ .
(٣) ساطع الحصرى (المصدر السابق) ص ٤٠ .
(٤) ستيفن لونكريك (المصدر السابق) ص ١٩ .

يحاول الانتقام من الشيعة كما فعل أبوه ،وعمد الى تعمير جميع المراقد المقدسة ، السنية منها والشيعية .

لقد كانت تلك سياسة حكيمة ولكنها لم تدم طويلا مع الاسف . فالعراق أصبح واقعا بين دولتين كلتاهما تطمع فيه وتحاول الاستيلاء عليه . ولم يظهر بين حكام هاتين الدولتين من كان من طراز سليمان القانوني . والظاهر أن الوضع النفسي والاجتماعي الذي احاط بهؤلاء الحكام ، جعلهم يسيرون في سياسة العراق على مبدأ « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » .

استطاع الشاه عباس الصفوي أن يعيد احتلال العراق عام ١٦٢٣ ، فاخذ يضطهد أهل السنة وينشر الذبح فيهم . فجاء السلطان مراد الرابع ليفتح العراق من جديد ففعل بالشيعة مثلما فعل الشاه عباس بأهل السنة . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل ظل العراق مدة طويلة مهددا بهجوم الايرانيين عليه مرة بعد مرة . وكثيرا ما كانوا يحتلون جزءا منه ثم ينسحبون عنه . وفي كل مرة كان الوضع الاجتماعي والنفسي في العراق يتأزم وتثور فيه الاحقاد والضغائن ، اذ ينظر كل فريق من السكان الى خصمه نظرة البغضاء والعداء الكامن .

مما يجدر ذكره ان الناس في ذلك الحين لم يكونوا يعرفون ما يعرفه أهل عصرنا من مشاعر القومية أو الوطنية . لقد كانت النزعة الدينية ، المتمثلة بالتعصب المذهبي ، هي النزعة السائدة بين الناس . معنى هذا أن أهل العراق لم يكونوا يعدون الايرانيين أو العثمانيين أجانب غرضهم الاستيلاء على البلاد للانتفاع بخيراتها ، بل كان كل فريق منهم ينظر الى الدولة التي هي من مذهبه الديني كأنها الدولة المنقذة . فكان أهل السنة ينظرون الى الدولة العثمانية نظرة التأييد والولاء ، كمثل ما كان الشيعة ينظرون الى الدولة الايرانية . ولا تكاد الحرب تعلن بين الدولتين ، وكثيرا ما كان يحدث هذا في العراق ، حتى نجد أهل العراق قد انقسموا الى مؤيدين ومعارضين ، وارتفعت الايدي بالدعاء لنصر هذه الدولة أو تلك . ولم يكن مثل هذا الوضع يخلو من تبادل التهم والشتائم ، يلقيها كل فريق

على خصمه . فكل فريق في نظر خصمه خائن أو كافر ، « يجب سحقه ! » .

جاء في أحد الامثال الدارجة في العراق : « بين العجم والروم بلوة ابتيلنا . هذا مع العلم أن العراقيين كانوا يطلقون على العثمانيين اسم « الروم » . والواقع أن الصراع بين « العجم والروم » كان بلاءا عظيما ابتلى به العراق ، ولا تزال بقية من هذا البلاء موجودة تفعل فعلها في النفوس سرا وعلانية ، حتى يومنا هذا .

النتيجة العامة :

نستخلص مما سلف أن الوضع السياسي والاداري كان في العهد العثماني في أقصى درجات الانحطاط والفوضى . قد يصح أن نقول أن « الوالي » في العراق كانت كفاءته تقاس في الغالب بأربعة أمور هي :

(١) مقدرته في محاربة الدولة الايرانية أو صد غاراتها .
(٢) مقدرته في تأديب القبائل أو المدن العاصية في داخل العراق .
(٣) مقدرته في جمع أكبر مبلغ من المال ، عن طريق الضرائب والغرامات والمصادرات ، وارساله الى استانبول .
(٤) تشييده المساجد والمدارس الدينية ، والتظاهر بمظهر الورع والتقوى ، والقيام بالشعائر الدينية .

أما في غير ذلك من الامور فالوالي حر أن يفعل ما يشاء ، من غير رقيب أو محاسب الا قليلا . وهو يستطيع أن يجمع ثروة كبيرة لنفسه بشتى الوسائل ، ويتنعم بها كما يشتهي . والموظفون الذين تحت يده هم كذلك احرار فيما يفعلون ، كل في نطاق وظيفته . فالموظف لا يهمه الا أن يرضى رئيسه عنه ، وهو فيما عدا ذلك يستطيع أن يستغل المراجعين ويحلبهم حلبا . وقد اعتاد بعض الموظفين أن يتفقوا سرا مع اللصوص وقطاع الطرق ليقتسموا معهم ما يسرقون أو ينهبون .

مر السائح الالماني نيبور بالبصرة عند بداية تجواله في العراق عام ١٧٦٥ ، فأعطانا صورة واضحة عما كانت عليه الحكومة العثمانية

يومذاك من تفسخ عام . يقول نيبور ان الاغنياء في البصرة لا يتظاهرون بالفخفخة والترف لئلا يطمع فيهم الحكام فيبتزون أموالهم . وكان الاغنياء يحرصون على أداء الصلوات الخمس علانية ، اذ أن تقصيرهم في ذلك يجعلهم عرضة لان يتهمهم الحكام بقلة التدين ويفرضوا الغرامات الباهظة عليهم . لم يكن الحكام يهتمون للفقير فيما اذا كان قد صلى أم لا . أما الغني فصلاته مهمة جدا في نظرهم[١] ...

ان الجنحة البسيطة التى يقترفها أحد الاغنياء أعظم أهمية من جريمة كبيرة قد يقترفها أحد الفقراء . فاذا اقترف الغني الجنحة أمر « الباشا » بخنقه وبحجز جانب من ثروته . واذا دخلت النقود الى خزانة « الباشا » ، أصبح من الصعب استعادتها . فذلك يساوي في صعوبته اعادة المخنوق الى الحياة مرة أخرى[٢] .

وكان للانكشارية دور كبير في هذا التفسخ العام . فقد اعتادوا أن ينتهزوا الفرص ليغيروا على بيوت النصارى واليهود والبانيان ، فينهبوها في وضح النهار . ولم يكن المسلمون يسلمون من شرهم الا اذا انظموا اليهم ودفعوا لهم أتاوة معينة لحمايتهم .

كان للانكشارية امتيازات عظيمة في البصرة ، كما هو الحال في جميع المدن العثمانية . ومن هذه الامتيازات انهم لا يجوز توقيفهم أو ايقاع العقوبة عليهم الا من قبل رؤسائهم فقط . ولهذا صاروا يلحقون الضرر بكل من لا يدفع لهم الاتاوة ويسجل اسمه في دفاترهم .

يقول نيبور : ان لقب « الانكشاري » صار يطلق على جميع المسلمين في البصرة : من أكبر شخص فيهم الى أصغر حمال . انهم صاروا « انكشارية » باللقب ، ودفعوا الثمن فيه ، لكي يحافظوا به على أموالهم وأرواحهم[٣] .

---

(١) كارستن نيبور (المصدر السابق) ص ٢٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٧ ـ ١٩ .

بعد محاولة التجديد :

حاول السلطان العثماني محمود الثاني ، منذ عام ١٨٢٦ ، أن يجدد جهاز الجيش والدولة ، فقضى على الانكشارية في استنبول وأمر بالقضاء عليهم في جميع الاقطار التابعة له . وأخذ يفتح المدارس الحديثة لكي يتخرج منها الضباط والموظفون اللازمون لادارة الجهاز الجديد .

شهد العراق على أي حال شيئا من التجديد ، أو الاصلاح الظاهري ، في جهاز حكومته ، منذ منتصف القرن التاسع عشر . فقد صار « الافندية » المتخرجون من المدارس الحديثة يملؤون بالتدريج المناصب التي كان يملؤها الانكشارية و « المماليك » من قبل . ولا ننكر أن هؤلاء « الافندية » كانوا أقل شرا وتفسخا من أسلافهم ، انما هم لم يستطيعوا أن يكونوا حكاما صالحين حسب مقاييس الحضارة الحديثة . ان الادواء التي كانت تنخر في كيان الدولة ليس من السهل معالجتها بفتح عدد محدود من المدارس وتخريج أفراد يتمشدقون ببعض مصطلحات العلوم الحديثة ، ويتكبرون بها على الناس .

تحدثنا المدام ديولافوا ، التي تجولت مع زوجها في العراق عام ١٨٨١ ، عن مبلغ تفسخ الموظفين والضباط ، فذكرت عن أحد رؤساء الدوائر في بغداد انه تعهد تشييد بناية عامة ، فبناها مرتين ، اذ هو في المرة الاولى لم يضع لها أساسا ثم عمد الى احراقها . وحصل من جراء ذلك على مبلغ من المال كبير . وتقول ديولافوا ان قواد الجيش كثيرا ما يفتخرون بسفرات حربية غير حقيقية يقومون بها ليتقاضوا عنها المبالغ المقررة لها . وحدث مرة أن سار بعض الضباط الكبار بجيش لا وجود له . وبعد فترة قليلة أخبروا « الباب العالي » بأن الجيش قد أبيد عن بكرة أبيه . وهم انما فعلوا ذلك لتغطية ما كادوا يتعرضون له من فضيحة بيع اسلحة كثيرة والتصرف بمرتبات الجنود . وقد يحدث أحيانا أن يسير القواد جيشا ثم يتفقوا مع بعض شيوخ القبائل على نهب الجيش في أماكن معينة ثم يقتسموا

المنهوبات مع اولئك الشيوخ[1] .

يمكن أن تكون هذه القصص مختلقة أو مبالغا فيها ، كلها أو بعضها . ولـكننا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر وجود شيء من الصحة فيها قليلا أو كثيرا . فقد أدركنا بعض بقايا اولئك الموظفين ، وسمعنا من المعمرين حديثا كثيرا عن آخرين منهم . ونحن لا نستبعد تلك القصص التى تروى عنهم على وجه من الوجوه .

قيـل ان المناصب والوظائف الكـبيرة كانت تعـرض في اسـتنبول بما يشبه المزايدة ، حيث تمنح لمن يقدم رشوة أكبر[2] . والرجل الذى يقدم الرشوة يطمح طبعا الى استرجاع ما دفع ، مع « الفائض » المناسب ، من جيوب الرعية « المسكينة » .

لا ننكر وجود بعض الاتقياء الصالحين بين موظفي الدولة آنذاك ، ولـكن اولئك كانوا قليلين جدا ، ولعلهم يعدون نشازا بين زملائهم . والظاهر أن من العسير جدا على الموظف أن يكون نزيها غير متفسخ ، اذ هو لا يستطيع أن يحصل على ما يكفيه في معاشه اعتمادا على المرتب المقرر له . فقد كانت المرتبات قليلة وغير منتظمـة ،وكثيرا مـا تتراكم شـهورا عديدة[3] .

يحدثنا السيد محسن الامين أنه ، في عام ١٣١٩ هـ (الموافق لعـام ١٩٠١م)، سافر من العراق الى الشام فمر في طريقه بمدينة الرمادي ، وهناك أخذ مأمور النفوس يعترض طريقهم ولم يتركهم الا بعد أن دفعوا له الرشوة . ثم جاء اليهم المأمور يعتذر اليهم قائلا « لا تؤاخذوني فان دولتنا ترسـل المأمور وتقول له ارتش وخذ أموال الناس وافعل ما تشاء ... ومعاشي في

---

(١) مدام ديولافوا (رحلة مدام ديولافوا) ـ ترجمة علي البصرى ـ ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٢) مذكرات مدحت باشا ـ ترجمة يوسف حتاتة ـ ص ٢٣٤ . [نقلا عن : ابراهيم الوائلى (الشعر السياسي العراقى في القرن التاسع عشر) ص ٢٤ ـ ٢٥] .

(٣) ساطع الحصرى (المصدر السابق) ص ١٠٣ .

الشهر خمس مجيديات فهل تكفيني ثمن التتن ، فان لم أتعلق بكم وبسواكم ما أصنع ؟ » قالوا له : لا نؤاخذك[1] !

ويقول السيد محسن انه أثناء تجواله ببغداد مر بالبنك «الشاهنشاهي» البريطاني فرأى على بابه قطعة كتب عليها اسم البنك وأمامها اثنان من الهنود . ولما مر بالبنك في وقت آخر لم يجد القطعة . وتبين له انهم كانوا يضعون القطعة نهارا ثم يرفعونها ليلا لكي لا يسرقها اللصوص . ويقول السيد محسن : « فتعجبت من وقوع ذلك في بلد فيه والٍ ومشير وهو عاصمة البلاد »[2] .

مدحت باشا :

لكي ندرك مبلغ التفسخ الذي كانت الحكومة العثمانية تعانيه في العراق ، ننظر في سيرة مدحت باشا الذى عينته الدولة واليا على العراق عام **١٨٦٩** ، وبقي فيه زهاء سنتين .

لقد كان هذا الوالي نزيها دؤوبا على العمل محبا للاصلاح . وكان فوق ذلك مزوّداً بشيء من الثقافة الاوربية ، وقد حاول أن يقوم في العراق بعض الانجازات الحضارية . فأسس أول مدرسة حديثة فيه ، ومدرسة للصناعة ، ومعملا للنسيج ، وحديقة عامة ، ومستشفى للغرباء ، ومطبعة وجريدة رسمية . وساعد على تأسيس مدينتي الناصرية والرمادى ، ووسع مدينة كربلاء ، ووضع نظاما للبلدية في بغداد ، وأكمل تعمير « القشلة » التى لا تزال معمورة بدوائر الدولة . وأنشأ شركة أهلية للترام بين بغداد والكاظمية . وكذلك حاول اصلاح وضع الاراضي الزراعية وحقوق التصرف فيها . وقام بأعمال أخرى كثيرة يضيق المجال بنا عن ذكرها .

لم يهتم مدحت باشا بتعمير المساجد وتخصيص الاوقاف الكثيرة لها ،

---

(١) محسن الامين (أعيان الشيعة) ج ٤٠ ص ٧٠ ـ ٧١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

كما كان أسلافه يفعلون . انما أهتم بتعمير البلاد . وكانت أعماله من أوائل بوادر الحضارة الحديثة في العراق . وقد دهش منها الناس ، وقاومها بعضهم . ففي الفرات الاوسط اتفقت جميع القبائل تقريبا على العصيان . ولم يتمكن مدحت باشا من اعادة اخضاعها الا بعد جهود مضنية . وفي بغداد ثارت عليه محلة باب الشيخ ومحلة قنبر علي ، وبعض المحلات الاخرى ، احتجاجا على التجنيد الاجباري الذي فرضه مدحت عليهم . فحمل الاهالي الاسلحة وأخذوا « يهوسون » استعدادا للقتال وصاروا يتجولون في الطرقات ويأتون ببعض أعمال النهب والسلب وما أشبه . وتأهبوا للهجوم على محلات اليهود والنصارى وشرعوا يعيثون فيها ... ولكن مدحت باشا قضى على الفتنة بسرعة بالغة[1] . انه كان في الواقع من دهاة الرجال كمثل ما كان من المصلحين .

والغريب أن رجال الدولة في استنبول لم ينظروا الى الاعمال الاصلاحية التي قام بها الرجل في العراق ، وكأنّ ذلك لا يهمهم في قليل أو كثير ، انما نظروا في قلة المبالغ التي أرسلها اليهم من العراق . ولعله لم يرسل اليهم شيئا حيث أنفق واردات البلاد عليها . وهذا أمر لم يكن يرضيهم ، فأمروا بنقله من العراق حالا .

يقول المؤرخ عباس العزاوي في هذا الصدد : ان رجال الدولة في استنبول رأوا أن مشاريع مدحت باشا سوف تحرم الدولة من المبالغ الوفيرة التي كانت تتوقعها من العراق كل عام . فكانت الدولة العثمانية في هذا كالذين يتصرفون بالاوقاف ويستغلونها ، اذ هم يبتغون أن يقبضوا الايجارات منها ، في أقرب ساعة ، ولا يهمهم تدهورها وهلاكها بعدئذ[2] ...

اعتمد مدحت باشا في أكثر انجازاته العمرانية على تبرعات الاهالي ، ولم يكلف خزينة الدولة فيها شيئاً . ولكن مشكلته في نظر الدولة هي أنه لم يرسل اليها المبالغ التي اعتادت أن تقبضها من العراق كل

---

(١) عباس العزاوى (المصدر السابق) ج ٧ ص ٢٠١ ــ ٢١٢ .
(٢) المصدر السابق . ج ٧ ص ٢٧٠ .

عام • وهذا كان من أكبر عيوب الوالي في ذلك الحين •

مما يلفت النظر أن مدحت باشا عندما جاء الى العراق خطب في الاهالي خطبة طويلة مجد فيها السلطان والدولة العثمانية ، ووصفها بأنها تريد الرفاه والسعادة والعدل والرأفة لرعاياها جميعا من غير تفريق ••• ثم قال : « ولكن الخراب المستولي ، وعدم النشاط ، ناجم من تقصير الاهلين ، فلم يسلكوا ما سلكته الامم ، وانما ترك كل امرىء وشأنه ، وصارت الامة لا تأبه بما أخذت به الامم ••• ولا منجاة من هذه الورطة الا بالانقياد للمتبوع الاعظم [أي السلطان] ومن قدمه من أصحاب المناصب ، بأن يطاعوا ويسلم اليهم بما أرادوا • وهو [أي السلطان] قد حافظ على حقوق الاهلين عموما ، وراعى استراحتهم ، والعدل فيما بينهم • وأرسل الولاة لهذا الغرض ، فلا يتطلب أكثر من التسليم لهم والانقياد بالطاعة ، ليتمكنوا من السعي والحصول على المبتغى[1] ••• » •

يخيل لي أن مدحت باشا أدرك خطأ رأيه عندما أصدرت الدولة أمر نقله من العراق • وربما أدرك خطأه بوضوح أكبر عندما نفاه السلطان أخيرا وأمر بدس السم له ، حيث مات منفيا قتيلا[2] •

مجمل القول أن مدحت باشا كان أفضل الولاة العثمانيين الذين تولوا زمام الحكم في العراق • وقد حاول بعض الولاة أن يقلدوه في بعض الامور • ولكنهم كانوا يدركون في أعماق نفوسهم أن الدولة لا تريد الاصلاح من جهة ، وأن أهل العراق لا يفهمونه من الجهة الاخرى • وربما كان بعض الولاة أنفسهم لا يريدون الاصلاح ولا يفهمونه •

يقول الدكتور جون فانيس انه عندما جاء الى العراق في عام ١٩٠٣ ، أدرك بأن المجتمع العراقي في حاجة ماسة الى مدارس حديثة يجرى التعليم فيها باللغة العربية ، وليس باللغة التركية التى كانت سائدة في مدارس

---

(١) المصدر السابق • ج ٧ ص ١٦٢ ـ ١٦٣ •
(٢) صديق الدملوجى (مدحت باشا) ص ٢٢١ ـ ٢٢٨ •

ذلك العهد . ولما فاتح الوالي بقصده أجابه الوالي متهكما : « ما أنت واضاعة وقتك في تعليم الحمير »[1] .

بعد اعلان المشروطية :

نقصد بـ « المشروطية » تلك الحركة التى ظهرت ، في تركيا وايران ، تطالب بالدستور وبالنظام النيابي في الحكم . وقد نجح دعاة الحركة في استنبول في عام ١٩٠٨ و ١٩٠٩ . فعزلوا السلطان عبدالحميد ، وحاولوا اجراء الانتخابات في أقطار الدولة العثمانية . وكان الشعار الذى رفعوه في حركتهم « الحرية والعدالة والمساواة » .

لا ننكر أن جهاز الحكومة في العراق شهد بعض مظاهر الاصلاح اثر حركة « المشروطية » . وظهرت الجرائد في بغداد بكثرة ، حيث أخذت تنقد بعض الموظفين وتدعو الى اصلاح الجهاز الاداري في العراق . وقد لاحظنا هذا في جريدة « الرقيب » بصفة خاصة ، فهي كانت توجه النقدات اللاذعة هنا وهناك ، ثم تمدح الوالي في سبيل تحريضه على عزل بعض الموظفين المتفسخين . انها على أي حال لم تستطع أن تعلن رأيها بصراحة لتقول بأن الوالي ربما كان نفسه رأس الفساد .

والمشكلة أن أكثر الناس في العراق ، لاسيما العامة منهم ، اعتبروا « المشروطية » كأنّها تعنى الحرية المطلقة في كل ما يشتهي الانسان أن يعمله . قيل ان لصا سطا على بيت وقتل صاحبه . فلما قدم للمحاكمة وصدر عليه حكم الاعدام تعجب وقال ما معناه : أين هي الحرية التي تنادون بها ؟! انه ظن أن الحرية هي أن يسمح للانسان بأن يسطو ويقتل ويسرق كما يشاء . وذهب الكثيرون من الفقهاء الى أن « المشروطية » حرام أو كفر ، ما أنزل الله بها من سلطان . والظاهر أنهم كانوا يريدون أن يبقوا على ما اعتادوا عليه من حكومة متفسخة وخراب شامل . وهنا يظهر مصداق قول الرسول الاعظم : « كيفما تكونوا يُولّى عليكم » .

---

(١) جون فانيس (أقدم أصدقائي العرب) ـ ترجمة جليل عمسو ـ ص ٣٣٩ .

ناظم باشا :

عين هذا الرجل واليا على العراق في عام ١٩١٠ ، أي في عهد المشروطية . وقد أطلق عليه لقب « مدحت الثاني » لنشاطه ومحاولته للاصلاح . وقد بقي في العراق سنة واحدة تقريبا . وقام بعدة أعمال حسنة نجملها فيما يلي :

(١) فتح أول شارع في بغداد ، هو شارع النهر الذي أشرنا اليه سابقا .

(٢) جمع الكلاب السائبة ، حيث أمر الوالي بربطها بحبل وايداعها في محل معد لها قرب مقبرة اليهود ببغداد . ويقال ان الكلاب في أيام ناظم باشا كانت تهرب عند سماعها كلمة « حبل » . فكان الاطفال يركضون وراءها ويصيحون « حبل حبل » ، وهي تهرب مذعورة ...

(٣) تنظيف الطرق والازقة في بغداد ، حيث أمر الوالي باعداد عربات خشبية لجمع الاوساخ . ومنع أصحاب البيوت من رمي أقذارهم في الازقة ، بل يجب عليهم تسليمها لاصحاب العربات عند سماع أجراسهم تدق ...

(٤) كان الجنود من قبل لا تدفع لهم مرتباتهم بانتظام ولهذا كانوا ، قبل حلول الاعياد ، يهجمون على أسواق بغداد فينهبونها . وكان هذا يسمى في اللهجة البغدادية « فرهود » . وجاء الوالي ناظم باشا فمنع الفرهود وأمر بمنح الجنود مرتباتهم المتأخرة .

(٥) بنى الوالي سدا طويلا يحيط ببغداد من الجهة الشرقية ، لوقايتها من الغرق عند الفيضان . وقد حشد له جمعا كبيرا من العمال وأبناء القبائل . والسد لا يزال قائما ويعرف باسم « سدة ناظم باشا » ، وقد أنقذ بغداد من الغرق غير مرة .

(٦) جعل الوالي لشهر رمضان حرمة كبيرة . فكانت الشرطة تتجول في الطرقات والاسواق ، لتلقى القبض على كل من يتجاهر بالافطار نهارا .

وكان المقبوض عليه يجلد عشر جلدات ثم يحكم عليه بالحبس لمدة شهر[1] •

(٧) دفن الخندق الذى كان محيطا ببعض جهات بغداد • وكان قد حفر منذ عهد بعيد وراء سور بغداد لحمايتها من الغزو • وصار أخيرا موضعا للاقذار ومرتعا للعفن والجراثيم •

(٨) أسس غرفة التجارة في بغداد ، وأمر بوجوب تسجيل الشركات فيها ، والحصول على الاجازات التجارية منها • فكان الرئيس الاول للغرفة مركوريان مدير البنك العثماني ، والرئيس الثاني شاؤول معلم حسقيل[2] •

(٩) استطاع الوالي أن يجعل الامن مستتبا في البلاد نسبيا • ودعا الفقهاء الى اصدار الفتاوى لتحريم الغزو بين القبائل ـ كما سيأتي •

ان هذه الاعمال التي قام بها ناظم باشا في بغداد قد تبدو تافهة جدا في رأي من ينظر اليها بمنظار الحضارة الراقية التي كانت في ذلك الحين تشمل كثيرا من أقطار العالم • ونحن انما أتينا على ذكرها لكي يدرك القارىء مبلغ ما كانت عليه الحضارة في العراق قبيل الحرب العالمية الاولى من وضع عجيب •

اشتهر ناظم باشا في العراق بهمته الاصلاحية ، من جراء قيامه بمثل تلك الاعمال « التافهة » • ليت شعري اذن كيف كانت حالة غيره من الولاة الذين لم يشتهروا بالاصلاح ، أو الذين كانوا مشهورين بالفساد ، يا ترى ؟!

نكتة ختامية :

بعد أن انتقل ناظم باشا من بغداد عينت الدولة جمال باشا واليا مكانه • وكان هذا الوالي الجديد يشبه سلفه بثقافته الحديثة وهمته الاصلاحية الى حد غير قليل • ولكن الناس أبغضوه لانه كان يخالط الجالية الاوربية في بغداد ويشترك معهم في حفلاتهم الراقصة • فهو قد كان يسكن في قصر على دجلة قرب الباب الشرقي ، وهو القصر الذي كانت فيه وزارة الشؤون

(١) عبدالكريم العلاف (المصدر السابق) ص ١٧٧ ـ ١٨٠ •
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج ٨ ص ٢٠١ •

H

الاجتماعية منذ عهد قريب . وكان يسكن بجواره مدير البنك العثماني وهو رجل انكليزي . فكان جمال باشا يرقص مع زوجةهذا الرجل أحيانا ، وصار من جراء ذلك موضع الذم والتقبيح في نظر الاهالى . قال عنه أحد كتاب ذلك الوقت ما نصه : « اشتهر بالمخازي ، ورقص الدانص مع مدامة مدير البانق العثماني ... »[1] .

يبدو أن الاهالي كانوا يريدون من الوالي أن يكون ، كأسلافه من العثمانيين : يطيل لحيته ويتهجد بالادعية ، ويقيم الصلاة في المساجد ، ويخالط رجال الدين . وهم لا يبالون بعد ذلك أن يفعل بهم وببلادهم ما يشاء .

هذا هو ما كان عليه الناس ، حكاما ورعايا ، في العهد العثماني . ولا تزال بقية من هذا الوضع الاجتماعي كامنة في أعماق الكثيرين منا حتى هذه الساعة .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٨ ص ٢٢٥ .

الفصل السادس

الصراع الثقافي في العراق

كان العراق يعاني في العهد العثماني انحطاطا شديدا في حضارته . كما رأينا في الفصل السابق . وكان علاوة على ذلك مفتوحا تجاه الصحراء ، حيث تتسلل اليه منها القبائل البدوية ، حينا بعد حين ، وتستقر فيه تدريجا . وقد أصبح العراق من جراء ذلك كأنه بودقة اجتماعيه كبيرة تتفاعل فيها القبائل الجديدة القادمة من الصحراء مع سكان العراق الذين هم من بقايا الأقوام القديمة .

تأتي القبائل الى العراق وهي تحمل معها القيم البدوية ، فتتفاعل مع السكان القدماء وقيمهم المنبعثة من ظروفهم المحلية . فالقبائل الجديده لابد أن تتأثر بالسكان القدماء ، وهؤلاء السكان لابد أن يتأثروا بالقبائل . فهو تأثير متبادل طبع المجتمع العراقي بطابع معين ، وانتج فيه ما يسمى في علم الاجتماع بالصراع الثقافي (Clash of Cultures) .

أشار العالم الاجتماعي ثورنوالد الى ظهور مثل هذا الصراع الثقافي فيجميع البقاع التي يحتك فيهما البدو بالزراع في العالم[1] . وفي رأيي أن هذا الصراع واضح جدا في العراق ، وله فيه مظاهر شتى . ونحن لا نستطيع أن نفهم طبيعة المجتمع العراقي من غير أن نتعمق في دراسة هذا الصراع فيه .

---

(1) Encyclopedia of Social Sciences, Vol. VII, art. Nomads.

مما يجدر ذكره أن الصراع الثقافي ليس على وتيرة واحدة في جميع أنحاء العراق . فهو يختلف في كثير من مظاهره من ناحية الى أخرى ، حسب تنوع الظروف وطرق المعيشة فيها . ومن الممكن تقسيم العراق من هذه الناحية الى مناطق شتى ، نجملها فيما يلي :

(١) المنطقة الجبلية : وهي تقع في الزاوية الشمالية الشرقية من العراق ، ويسكنها الاكراد في الغالب . وفيها أقلية تركمانية تسكن في مدن وقرى واقعة على خط مستقيم تقريبا ، هو الخط الذى يكاد يفصل بين هذه المنطقة وبقية المناطق الاخرى من العراق . وفي المنطقة أقليات دينية متنوعة كالغلاة واليزيدية وبعض الطوائف المسيحية .

وهذه المنطقة لا تدخل في نطاق بحثنا . وهي جديرة ببحث خاص بها . وقد حاولت ذات مرة دراستها فلم أوفق الا قليلا ، وذلك لجهلي باللغات السائدة فيها . والمظنون على أي حال أن القبائل البدوية القادمة من الصحراء لم تتوغل في هذه المنطقة ، ولم تؤثر فيها تأثيرا ذا أهمية . فهي منطقة قد تأثرت بالقبائل الجبلية اكثر مما تأثرت بالقبائل الصحراوية . وأكاد أعتقد ان الصراع الثقافي الذي ظهر فيها يختلف من بعض الوجوه عن ذلك الذى ظهر في المناطق الأخرى من العراق .

(٢) منطقة ديالى : وهي تقع الى الجنوب من المنطقة الجبلية ، شرق بغداد . وهي على الرغم من صغر حجمها لها أهمية اجتماعية واقتصادية كبيرة . فهي منطقة بستانية على الاكثر ، وقد تشبه من بعض الوجوه غوطة الشام ودلتا مصر . ومما ساعدها على ذلك طبيعة النهر فيها . فهذا النهر الذي أخذت المنطقة اسمها منه يأتي من المنطقة الجبلية ، وهو فيها ذو مستوى مرتفع ، ثم ينخفض مستواه تدريجيا . ولهذا أصبح ذا منفعة مزدوجة للمنطقة . فقد خرجت منه قنوات عالية تصلح لاسقاء البساتين سيحا من جهة ، وهو من الجهة الاخرى قد صار « مبزلا » للبساتين حيث

تصب فيه المياه المتبقية فيها بعد الاسقاء .

ان الذين امتهنوا زراعة البساتين من سكان هذه المنطقة ، وهم كثيرون ، قد امتازوا عن غيرهم من أبناء القبائل المجاورة لهم بفروق غير قليلة . فهم أقرب الى قيم الحضارة من أولئك . فالمعروف عنهم مثلا أنهم لا يستنكفون من زراعة الخضر . وقد اعتادوا عليها منذ زمان بعيد . وهذا أمر له دلالة اجتماعية مهمة . فزراعة الخضر تعد حرفة « وضيعة » في نظر القبائل البدوية او التي هي قريبة العهد بالبداوة ـ كما سيأتي . وهناك فروق اجتماعية أخرى يصعب الخوض فيها في هذا المجال .

(٣) منطقة الجزيرة : وهي المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات الى الشمال من بغداد . وهي شبه صحراوية ، وتعد من الناحية الجغرافية امتدادا لبادية الشام اذ لا يفصل بينهما سوى الفرات . والمظنون أن أكثر القبائل البدوية القادمة من الصحراء تأتي الى هذه المنطقة في أول الامر ، ثم تهبط تدريجيا نحو الجنوب . فليس هناك من عقبة طبيعية تعرقل طريق القبائل القادمة الى العراق سوى نهر الفرات ، وهذا النهر يسهل عبوره خوضا من بعض النقاط عند انخفاض مياهه[١] .

يمكن القول بوجه عام أن القبائل التي تسكن منطقة الجزيرة هي أشد تمسكا بالقيم البدوية من القبائل الجنوبية ، اذ هي أقرب منها عهدا بحياة الصحراء . نستدل على ذلك من لهجتها التي هي قريبة من اللهجة الصحراوية ، وهي فوق ذلك تعتنق المذهب السنّي الذي هو المذهب السائد في صحراء العرب . اما القبائل الجنوبية فهي شيعية في الغالب . والواقع أن التشيع هو من العلامات التي نستدل بها على قدم السكنى في العراق فهو مذهب نشأ في العراق منذ صدر الاسلام ، ولم يستطع أن ينتشر في الصحراء المجاورة لاسباب سنأتي اليها في فصل قادم .

---

(١) التقرير الرسمي المرفوع الى عصبة الامم عن احوال الادارة العراقية في سنة ١٩٢٦ ـ تعريب عطا نعوم ـ ص ٥٥ .

(٤) منطقة الصحراء : وهي منطقة واسعة مترامية الأطراف تقع الى الغرب والجنوب الغربي من العراق • وهي لم تكن تعتبر جزءا من العراق قديما • والظاهر أنها اعتبرت جزءاً من العراق في العهد العثماني ، وذلك عندما وُضعت الحدود الفاصلة بين العراق وسوريا ونجد ، من أجل بعض الاغراض الادارية •

وهذه المنطقة لا تزال ذات طابع بدوي شامل ، وليس فيها من الصراع الثقافي الا قليل ، وتسكنها الآن قبائل بدوية أشهرها عنزة والضفير • وقد عانى العراق من غارات هذه القبائل شيئا كثيرا ، ولم تتوقف غاراتها الا في عهد متأخر ، وذلك بعد ما أصبحت الحكومة قادرة على مطاردتها وترويضها •

(٥) المنطقة الرسوبية : وهي تشمل وسط العراق وجنوبه • وقد أسميناها بهذا الاسم لان أرضها تكونت من ترسب الغرين الذى وضعته الانهار فيها على توالى الاحقاب • وهى في الواقع أكثر مناطق العراق أهمية من الناحية الاجتماعية والتاريخية • ومما يجدر ذكره أن الجغرافيين القدماء كانوا اذا ذكروا العراق عنوا به هذه المنطقة ، وربما ألحقوا بها بعض الاطراف القريبة منها أحيانا • وقد اعتادوا أن يميزوا منطقة « الجزيرة » عن العراق ، ويعدوها قطرا قائما بذاته[١] •

في رأيي أن المنطقة الرسوبية هى التى أعطت العراق طابعه الاجتماعي الذي اشتهر به منذ قديم الزمان • ولهذا فانى أعتبرها البودقة الرئيسة للمجتمع العراقي • وفيها تبلورت الشخصية التي تميز بها الفرد العراقي بوجه عام •

يجب أن لا ننسى أن هذه المنطقة هى موطن الحضارة التي كانت ، هي وحضارة مصر ، أقدم حضارتين في تاريخ العالم • وقد أطلقت عليها

---

(١) ثابت اسماعيل الراوى (العراق في العصر الاموي) ص ١٩ ـ ٢١ •

التوراة اسم « شنعار » . وعندما جاء العرب اليها عند الفتح الاسلامي أطلقوا عليها اسم « السواد » اشارة الى كثرة الزروع وازدحام السكان فيها . وقد عرفت في العصور القديمة باسم « مخزن غلال العالم »[1] .

من الخصائص الجغرافية لهذه المنطقة أن مجارى الانهار فيها قد تغيرت مرارا خلال العصور التاريخية[2] . فهي أكثر تغيرا في مجاري أنهارها من مناطق العراق الاخرى . وقد أدى ذلك الى توالى اندثار المدن فيها من جهة ، والى ظهور الاهوار فيها من الجهة الأخرى . فاذا تحول النهر في مكان ما ، أخذ الخراب يستولى على المدن الواقعة على مجراه القديم ، ونشأت الاهوار حول المجرى الجديد .

وهذه المنطقة علاوة على ذلك تتميز بكثرة ترسب الأملاح فيها . فمستوى الاراضي فيها أخفض من مستوى الانهار ، لا سيما في موسم الفيضان . وحين تتجول فيها تجد مساحات شاسعة منها غير صالحة للزراعة . فهي بقاع « سبخة » ذات نزّ وملح . ويعد الخبراء ذلك من أعظم المشاكل الزراعية في هذه المنطقة[3] .

معنى هذا كله أن المنطقة الرسوبية تحتاج الى عناية كبيرة ومستمرة بكري الانهار وتنظيم الري واصلاح الارض ، لكي تزدهر فيها الحضارة . فاذا بدأ التقاعس في ذلك أخذت البداوة تحل محل الحضارة فيها شيئا فشيئاً . ومعنى هذا ان الصراع الثقافي في هذه المنطقة أشد وضوحا واستفحالا مما هو في أية منطقة أخرى من العراق .

(٦) منطقة البصرة : وهى أقصى مناطق العراق من ناحية الجنوب ، وتقع على جانبي « شط العرب » الذي يتكون من التقاء دجلة والفرات .

---

(١) متي عقراوى (العراق الحديث) – تعريب المؤلف ومجيد خدورى – ص ٣ .

(٢) طه الهاشمي (جغرافية العراق) ص ٤٧ – ٥٣ .

(٣) متي عقراوي (المصدر السابق) ص ١١٢ – ١١٣ .

وتعد هذه المنطقة أعظم مزرعة للنخيل في العالم[١] . وقد ساعدها على ذلك مد الخليج وجزره . فالمد جعل في الامكان سقي بساتين النخيل سيحا . ويأتي الجزر بعده فيكون بمثابة « مبزل » لها يصفيها من الاملاح قليلا او كثيرا .

مما يلفت النظر أن سكان هذه المنطقة هم أضعف من غيرهم من سكان العراق في نزعتهم القبلية وفي تمسكهم بالقيم البدوية . وقد اطلق الباحث الانثربولوجي المعروف ، هنري فيلد ، على هذه المنطقة اسم « البقعة غير القبلية »[٢] . ويبدو أن الطبيعة البستانية قد أثرت فيها تأثيرا كبيرا قد يفوق ما رأيناه في منطقة ديالى .

نماذج قبلية حديثة :

في العراق الآن ثلاث قبائل كانت قد جاءت اليه من الصحراء في عهد متأخر . وكان مجيئها متتابعا واحدة تلو الاخرى ، وهي تميم وشمر وعنزة . وحين ندرس تاريخ هذه القبائل ، من حيث تأثرها بالمحيط العراقي الذي جاءت اليه ، يتضح لنا كيف تأثرت به القبائل الاخرى التي جاءت الى العراق في عهود سابقة .

ان أقدم تلك القبائل الثلاث عهدا بالمجيء الى العراق هي قبيلة تميم . فهي كانت قبل منتصف القرن الثامن عشر قبيلة بدوية تتجول وراء المراعي في الصحراء المتاخمة للعراق ، ثم جاءت فحلّت في شمال بغداد ، في منطقة عقرقوف ، منذ عام ١١٥٠هـ[٣] . وبعد هذا بمدة غير طويلة ، أي في بداية القرن التاسع عشر ، جاءت قبيلة شمر فسكنت في منطقة الجزيرة الى الشمال من عقرقوف[٤] .

---

(١) طه الهاشمي (المصدر السابق) ص ٥٥ .

(2) Henry Field (The Anthropology of Iraq) part I, No. 2, p. 253.

(3) Jamali (New Iraq) p. 121.

(٤) دائرة الاستخبارات البريطانية (تقرير سري عن العشائر والسياسة) ـ ترجمة عبدالجليل الطاهر ـ ص ١٥٣ .

والمعروف عن قبيلة شمر أنها كانت قبل ذلك تسكن في بادية الشام ، غرب الفرات . ولكنها عبرت الفرات الى منطقة « الجزيرة » بعد اندفاع عنزة نحوها من جهة نجد . ويبدو أن عنزة طاردت شمّر في بادية الشام ثم عبرت الفرات وراءها حيث أخذت تطاردها في منطقة « الجـزيرة » نفسها . وقد نشبت من جراء ذلك بين القبيلتين معارك هائلة لا تزال ذكراها ماثلة في الاذهان[١] .

استطاعت شمر في النهاية أن تنتصر في الحرب ، فطردت عنزة عبر الفرات . وبهذا صار الفرات حاجزا بينهما ، حيث استقرت عنزة في بادية الشام تاركة منطقة الجزيرة لعدوتها شمر .

الملاحظ أن عنزة ظلت محافظة على الكثير من قيمها البدوية . فهي لا تزال ، في الغالب ، قبيلة بدوية تتنقل وراء المراعي في الصحراء . وقد كانت الحكومة العراقية ، حتى عهد متأخر ، تدفع الاتاوة لها في سـبيل محافظة القوافل والسيارات المارة بمنطقة نفوذها[٢] .

أما شمر فوضعها يختلف بعض الاختلاف عن وضع عنزة . لقـد حاولت الحكومة العثمانية منذ عهد مدحت باشا ترويض شمّر وتشجيعها على امتهان الزراعة . وكان شيخها فرحان قد ذهب الى استانبول ودرس فيها . فلما رجع الى قبيلته أقطعته الحكومة بعض الاراضي لزراعتها ، وخصصت له مرتبا مقداره عشرون ألف « قرش » ، يأخذه من الحاصلات الزراعية . واجتمع حوله بعض فروع القبيلة ، فصاروا يزرعون ، وامتنعوا عن الغزو والنهب . بيد أن الحكومة العثمانية استكثرت عليه ذلك المرتب المخصص له ، فقطعته عنه . ومن ثم عادت القبيلة الى ديدنها القديم[٣] ...

مالت شمر الى الزراعة من جديد ، منذ تأسيس الدولة العراقية بعد الحرب العالمية الاولى . ونلاحظ الآن بعض رؤسائها يمتلكون الاراضي

(١) هاشم السعدي (جغرافية العراق الحديثة) ص ٩٨ ــ ٩٩ .
(٢) متي عقراوي (المصدر السابق) ص ٢٥٥ .
(٣) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ج ٧ ص ٢٣٦ .

الزراعية ، ويميلون الى حياة الاستقرار والترف . وقد نشأ منهم جيل جديد أخذ يدخل المدارس الحديثة ، ويسكن المدن ، وتظهر الاناقة عليه في الملابس والمراكب والمطاعم ...

وحين نأتي الى تميم نجدها قد سارت في هذا السبيل شوطا أبعد . فرؤساؤها الآن على درجة كبيرة من الاناقة والبذخ ، وأخذ بعضهم يمتهن التجارة بالاضافة الى الزراعة . وصار أبناؤهم يسكنون القصور العامرة ويلبسون الملابس الافرنجية ، ويرتادون الملاهي والنوادي ...

حدثني صديق مطلع أن تميم كانت في بداية القرن العشرين لاتعرف الزراعة ، بل كانت تعتمد في معاشها على رعي الغنم . وكان بعض رؤسائها الكبار يملكون عددا محدودا من الابل من أجل الفخار . أما شمر فكانت حينذاك تعتمد على الابل في معاشها . ولهذا فهي كانت تعيّر قبيلة تميم وتسميها « شاوية » ، وتعدها أحط منها في المكانة الاجتماعية .

لم تبدأ تميم باحتراف الزراعة الا قبيل الحرب العالمية الاولى . وهي بدأت بزراعة الحبوب أولا ، ثم أخذت تتجه نحو زراعة الخضر . أرجح الظن أن شمر ستسلك نفس الطريق الذى سلكته تميم من قبل . ولعل عنزة ستلحق بها كذلك .

يخيل لي أن القبائل البدوية التي جاءت الى العراق قبل تميم ، قد مرت بما يشبه مراحل التطور التي مرت بها تميم على وجه من الوجوه . فالواحدة منها تظل في بداية أمرها بدوية ترعى الابل ، ثم تصبح « شاوية » بعد مدة قصيرة أو طويلة . ثم تأخذ بزراعة الحبوب . فاذا استمرأت هذه الزراعة تجرأت على زراعة الخضر ، وربما تجرأت أخيرا على تربية الجاموس او احتراف بعض المهن الحضرية . انها سلسلة متصلة الحلقات ، يتلو بعضها بعضا . وكلما سارت القبيلة فيها خطوة أبعد هبطت مكانتها الاجتماعية في نظر القبائل القادمة الى العراق وراءها .

ان القبائل البدوية في الصحراء تحتقر الحضارة بشتى مظاهرها . وقد جاء في أحد أمثالهم قولهم : « البدوي اذا تحضر فسد » . فالقبيلة

البدوية تحاول الابتعاد عن امتهان الزراعة ، جهد امكانها ، ولعلها تدرك أن الزراعة رأس الخيط ، وأول التيار • فهي اذا انجرفت في التيار منذ بدايته ، ظلت منجرفة به الى النهاية •

الملاحظ على أي حال أن تميم قفزت من طور البداوة الى طور الحضارة خلال مدة قصيرة نسبيا • والسبب في ذلك أن تميم جاءت الى العراق في عهد متأخر ، وهو العهد الذي بدأت فيه بواكير الحضارة الحديثة تدخل العراق وتؤثر فيه شيئا فشيئا • أما القبائل التي جاءت في عهود سابقة فقد وجدت في العراق حكومة ضعيفة وحضارة منحطة ، ولهذا كانت تخطو نحو التحضر بتلكأ شديد •

دن المخلل :

أشرنا من قبل الى أن منطقة « الجزيرة » هي بمثابة « مدخل » العراق بالنسبة للقبائل البدوية القادمة من الصحراء • ولهذا كانت القبائل في هذه المنطقة أكثر تمسكا بالقيم البدوية ، وأقل اختلاطا بالاقوام القديمة من قبائل المنطقة الرسوبية •

ففي أقصى الشمال من منطقة « الجزيرة » تعيش بعض القبائل التي هي حديثة العهد بالمجيء من الصحراء • فهي لا تزال محافظة على حياة الرعي والترحل ، وتسكن في خيم مصنوعة من وبر الابل ، كما هو الحال في بدو الصحراء • وكلما هبطنا نحو الجنوب رأينا القبائل تبدأ بترك حياة الرعي وسكنى الخيم ، فتزرع الحبوب وتسكن الاكواخ المبنية من الطين •

وحين نتوغل جنوبا حتى نصل الى حافة منطقة الاهوار نرى الاكواخ المصنوعة من القصب تحل محل الاكواخ المصنوعة من الطين • وهناك تظهر زراعة الرز جنبا الى جنب مع زراعة الحنطة والشعير وما أشبه • والواقع أن الرز له قيمة اقتصادية عالية ، والقبائل تزرعه من أجل بيعه في الاسواق غالبا • وهذا أمر يؤدي الى شيوع الاقتصاد « النقدي » في تلك

القبائل ، وهو قد يبعدها عن قيمها البدوية القديمة .

واذا توغلنا نحو الجنوب خطوة أبعد ، حيث ندخل منطقة الاهوار ، نجد القبائل الحديثة والقديمة تختلط اختلاطا كبيرا . وهناك تظهر طرق للمعيشة تُعد « وضيعة » جدا في نظر القبائل البدوية الاصيلة ، كتربية الجاموس وصيد السمك وما أشبه .

وحين نصل الى أقصى الجنوب ، حيث تقع منطقة البصرة ذات البساتين الكثيرة ، نرى التماسك القبلي والقيم البدوية قد بلغت فيها غاية الضعف . فهي منطقة غير قبلية ـ على حد تعبير الاستاذ هنري فيلد .

يمكن تشبيه العراق بـ « دن المخلّل » ، أو ما يسمى في لغتنا الدارجة بـ « خنب الطرشي » . ففي الشمال منه تكون القبائل « طازجة » أي حديثة العهد بالمجيء من الصحراء . وكلما هبطنا نحو « القعر » وجدنا القبائل « الطازجة » تختلط بالقبائل « العتيقة » ، وهي تكاد تشابهها في الابتعاد عن القيم البدوية الاصيلة .

أنساب القبائل الجنوبية :

حين نتجول بين القبائل في المنطقة الرسوبية نراها كلها تقريبا تدعى الانتساب الى أصول بدوية قديمة . وقد تحاول كل واحدة منها الانتساب الى شخصية أو قبيلة عربية معروفة . فالخزاعل مثلا ينتسبون الى سليمان بن صرد الخزاعي ، وخفاجة تنتسب الى أبي عبيدة بن الجراح ، وآل ابراهيم الى ابراهيم بن مالك الاشتر ، وآل فتلة الى أنس بن مالك ، وبنو حكيم الى عمار بن ياسر ، وآل شبل الى شمر ، والغزالات الى عنزة[1] وزبيد الى حمير ، والبو محمد الى العزة ...

ان من دواعي الفخر لشيخ كل قبيلة أن يتحدث الى الناس عن سلسلة نسبه العربي . زرت مرة ، مع جماعة من الطلاب ، شيخ قبيلة

---

(١) عبدالجبار فارس (عامان في العراق الاوسط) ص ٧٧ ـ ٨٧ .

قرب عفك ، فذكر لنا اسماء آبائه واحدا بعد الاخر حيث بلغت بضعة عشر اسما ، وكان يحفظها حفظا دقيقا . ثم ذكر متى جاءت القبيلة الى العراق ، وأمجادها من قبل ومن بعد . والظاهر أن هذا دأب أكثر شيوخ القبائل في مختلف مناطق العراق ، وخصوصا في المنطقة الرسوبية .

قد يسأل سائل : الى أي مدى نستطيع أن نثق بصحة هذه الانساب القبلية ؟ وهي اذا كانت كلها صحيحة فاين ذهبت بقايا الاقوام القديمة اذن ؟

نحن نعرف أن سكان العراق ، عند الفتح الاسلامي ، كانوا يبلغون عدة ملايين . وقد يبالغ بعض المؤرخين فيقول انهم كانوا يناهزون ثلاثين مليونا . وهؤلاء السكان هم بقايا السومريين والاكديين والعموريين والكلدانيين والكاشيين والفرس وغيرهم ، وقد أطلق عليهم اسم « النبط » . فاين ذهب هؤلاء النبط ؟ وكيف اختفت أنسابهم أو أصولهم القديمة ؟

يخيل لي أن هؤلاء قد ذابوا في القبائل العربية التي جاءت من الصحراء الى العراق حينا بعد حين . فهم قد التحقوا بتلك القبائل عن طريق الحلف او الولاء ، ثم أخذوا ينسون أنسابهم القديمة بمرور الايام ، ويتخذون لهم انسابا عربية تبعا للقبائل التي التحقوا بها .

معنى هذا أن الانساب العربية العريقة التي يلهج بها شيوخ القبائل هي صحيحة في نطاق محدود . فهي صحيحة في نطاق الشيوخ ومن يتصل بهم بصلة القربى ، كأفراد أسرهم وأفخاذهم . أما عامة أبناء القبائل فربما كان الكثير منهم من أنساب وأصول أخرى .

أوضح مثال يمكن أن نأتي به في هذا الصدد هو قبيلة ألبو محمد في نواحي العمارة . فهذه القبيلة اليوم عبارة عن اتحاد كبير يضم عشرات الافخاذ والعشائر . وهم كلهم ينتسبون الى رجل واحد اسمه محمد بن حسن المروح ، وقد كان هذا الرجل من قبيلة العزة الساكنة في شمال بغداد الى الشرق من نهر دجلة ، ثم ترك قبيلته هذه في عام ١٧٤١ اثر خلاف وقع بينه وبينها فرحل الى منطقة العمارة وحل في عشيرة الفريجات

حيث تزوج من احدى أخوات شيخها . وقد أبدى الرجل حنكة وبسالة ، فاستطـاع أن يكوّن بذرة لقبيلة قوية كبيرة هي التي تعرف بقبيلة ألبـو محمد[1] .

ليس من السهل أن نتصور أن جميع ألبو محمد هم من سلالة محمد المذكور . أرجح الظن ان الكثيرين منهم هم من بقايا الاقوام القديمة ، ثم التحقوا بقبيلة ألبو محمد ، عن طريق الحلف والولاء ، لكي يحافظوا على كيانهم بها .

من طريف ما يذكر في هذه المناسبة أن الكاتب المعروف ابراهيم صالح شكر كان قائمقاما في قضاء قلعة صالح التابع للواء العمارة ، في عام ١٩٣٤ . وقد كان يشكك في عروبة قبيلة ألبو محمد ، فهو يميل الى أنهم من أصل هندي أو تركماني ، ويستدل على ذلك بأن ملامحهم تختلف عن ملامح العرب[2] ...

سكان الاهوار :

قلنـا ان المنطقة الرسـوبية في العـراق تكـثر فيها الاهـوار ، وذلـك تغير مجارى الانهار فيها . وقد أطلق عليهـا الجغرافيـون العرب اسم البطائح . والبطائح تعني في اللغة العربية القديمة ما تعنيه الاهوار في لغتنا العراقية الدارجة .

يبدو أن الاهوار هي الموضع الذي التجأت اليه بقايا الامم القديمة على الاكثر . يقول ثيسيغر : « فقد كانت هذه الاهوار ملجأ أمينا لبقـايـا الشعوب المغلوبة منذ أقدم عصور التاريخ ومن المتعذر جدا القيام بعمليات عسكرية في هذه الاهوار كما دلت الحرب العـالمية الاولى حينما حاولت القوات البريطانية القاء القبض على المعـدان الـذين سببوا لها أتعابا ... وتعيش اليوم بعض بطون ألبو محمد الكبيرة والقوية ، كالشدة وألبو نصر

---

(١) محمد باقر الجلالي (موجز تاريخ عشائر العمارة) ص ٥٨ـ٦١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

الله في الاهوار ••• وشبيه بهم عشائر بني أسد وبنى خيقان واكثر عشيرة الفرطوس • فهؤلاء جميعا من المعدان • ويدّعي كل بطن من هذه البطون على أنه ينحدر من سلالة عربية كما تنتسب العشيرة التي ينتمي اليها ، وان كان في الحقيقة يعود الى أصل آخر ، ما دامت القبائل العربية الكبيرة تمتص ، في كل مكان ، القبائل الضعيفة التي تحتمي بها من أجل المحافظة عليها ••• وعليه فليس من الحكمة أن نتقبل ما يقوله المعدان عن أنفسهم من أنهم ينحدرون من أصل عربي • وتعترف عشيرة الشغبانية وبعض أفراد الفريجات ، حتى يومنا هذا ، أنها من أصل صابئي »[١] •••

يقول ثيسيغر ان شيئاً شبيها بهذا حدث في عُمان ، فهناك توجد جماعة من البلوش اندمجوا في قبيلة الوهيبة العربية ، وسيدعون بمرور الزمن أنهم ينحدرون من عمود النسب الذي ينحدر منه نسب الوهيبة • فان الانتساب الى قبيلة عربية مشهورة له أهمية في الشرق الاوسط كأهمية الانتساب الى الأصل النورمندي في بريطانيا[٢] •

ان بعض الباحثين الانثربولوجيين يؤيدون تيسيغر في هذا الرأي ، كهنري فيلد وسيتن لويد • فسيتن لويد مثلا يلاحظ بعض الشبه بين سكان الاهوار والاقوام القدماء من حيث مقاييس الرأس والادوات الزراعية• وهو يقول عن سكان الاهوار : ان « حياتهم وظروفهم تشابه لحد بعيد حياة اولئك الاقوام القدماء ••• وأن مضائف شيوخهم الجميلة المدورة التي تشبه بناء الكنائس ، والمبنية كلها من القصب والطين ، تقرب لحد كبير جدا من ما يمثل الهياكل الاصلية للمعابد السومرية في الالف الرابع قبل الميلاد »[٣] •

---

(١) ولفرد ثسيكر (المعدان أو سكان الاهوار) ـ ترجمة باقر الدجيلي ـ ص ١٥ ـ ١٦ •
(٢) المصدر السابق ، ص ١٦ •
(٣) شاكر مصطفى سليم (الجبايش) ج ١ ص ٢٦ •

عملية « الكتبة » :

يقصد بـ « الكتبة » في الريف العراقي الآن ما يقرب من معنى الحلف أو الولاء في اللغة العربية القديمة . وقد بحث الدكتور شاكر مصطفى سليم موضوع « الكتبة » في أهوار الجبايش . ففي هذه الاهوار يسود نفوذ بني أسد . وهذه القبيلة القوية قد صارت منذ عهد بعيد نواة اتحاد قبلي مهم . فأخذت القبائل الضعيفة تنتمي اليها عن طريق « الكتبة » . وفي ذلك يقول الدكتور شاكر :

« فـ (الكتبة) ، والكلمة مأخوذة من الكتابة ، تستعمل اصطلاحا بمعنى تبني عائلة او اكثر أو فخذ كامل من قبل فخذ أو حمولة أخرى . وتوثّق عملية التبني بكتابة وثيقة تسجل هذه العملية . ويمنح التبني العائلة أو المجموعة أو الفخذ عين الامتيازات ويلقى عليها نفس التبعات التي للجهة المتبنّية . فيصبح المتبنَّى مساويا تماما للمتبني وجزءا منه . وأسباب مثل هذا التبني مختلفة كما يبدو أنه حدث على نطاق واسع في الماضي القريب ، لدرجة أن كثيرا من الافخاذ الحالية ، وحتى حمايل من (بنى أسد) كانت تعود أصلا الى أفخاذ وحمايل وعشائر أخرى .

« عندما كانت الحروب القبلية منتشرة وذات آماد طويلة في الماضي ، لجأت كثير من الفصائل الضعيفة من عشائر أخرى الى عشيرة (بني أسد) القوية لتعيش تحت حمايتها ثم انضوت تحت لوائها واندمجت فيها عن طريق التبني . وبما أن هذا الاندماج حدث منذ زمن طويل ، وبما أن الانتساب لاصل غريب يؤثر على الاعتبار الاجتماعي للفخذ او الحمولة المختصة ، فان من غير السهل أن نميز بوضوح بين من دخلوا عشيرة (بنى أسد) عن طريق التبني ومن كانوا أصلا ينتسبون اليها . ورغم هذا فمعروف عن كثير من الافخاذ والحمايل انها غريبة ، كما رأينا »[1] .

ان عملية « الكتبة » هذه لا تنحصر في منطقة الجبايش وحدها ، بل

---

(١) شاكر مصطفى سليم (الجبايش) ج ١ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

هي واسعة الانتشار في جميع أنحاء الريف العراقي . والواقع أنها ليست عملية بسيطة ، كما تبدو من مظهرها الخارجي ، بل هي ذات أثر اجتماعي كبير . وهي في نظرى من أهم عوامل انتشار القيم البدوية بين سكان العراق .

فالقبيلة الضعيفة التي تريد الانضمام الى قبيلة قوية ، عن طريق « الكتبة » ، تجد نفسها مضطرة الى اقتباس القيم السائدة في تلك القبيلة القوية . ان الذي يريد الانتساب الى قوم يجب أن يقلدهم في قيمهم الاجتماعية ، لكي يدخل في زمرتهم ويحسب منهم . انه قد ينجح في ذلك أو يفشل . ولكنه يحاول على أى حال .

الاتحادات القبلية :

اشتهرت المنطقة الرسوبية في العهد العثماني بظهور اتحادات قبلية قوية فيها . وكانت هذه الاتحادات تشبه الحكومات الصغيرة ، كما ذكرنا سابقا ، اذ كانت تقطع الاراضي الزراعية ، وتقيم الحدود ، وتجبى الضرائب والرسوم ، وتزاول معظم الاعمال الحكومية ، وكأنها مؤسسات رسمية قائمة بذاتها[1] . وكانت تتنازع فيما بينها وتتحارب ، اذ تطمح كل واحدة منها الى التوسع على حساب جاراتها . وكانت الحكومة العثمانية لا تبالي بذلك ما دامت الاتحادات تدفع المبالغ المفروضة عليها . وربما لجأت الحكومة أحيانا الى تشجيع النزاع والقتال بينها حسب المبدأ القائل « فرق تسد » .

كان الرئيس الاعلى للاتحاد القبلي يضمن الاراضي الواقعة تحت سيطرته بمبالغ سنوية معيّنة ، يدفعها الى الحكومة ، وهو حر بعد ذلك أن يفعل ما يشاء تجاه القبائل الخاضعة له . وكثيرا ما كان يقسو عليها في الجباية ، وله حرس خاص به ينفذ أوامره عليها .

وقد يقع الخلاف أحيانا بين الحكومة وهذا الرئيس حول دفع المبالغ

---

(١) عبدالرزاق الحسني (العراق قديما وحديثا) ص ١٥٤ .

المفروضة عليه . وقد تنشب الحرب بينهما من جراء ذلك . واذا شعرت الحكومة بالضعف تجاه الرئيس رضيت منه بالقليل على أي حال[١] . اما اذا شعرت بأنها أقوى منه قاتلته وأضرت به ، وربما حولت الرئاسة منه الى شيخ آخر .

أشهر الاتحادات التي كانت تسيطر على المنطقة في القرن الثامن عشر ، هى الخزاعل والمنتفق في جهة الفرات ، وبنولام وزبيد في جهة دجلة . وفي القرن التاسع عشر ظهر اتحاد ألبو محمد في نواحي العمارة من دجلة ، فاستقل هناك وكانت له سطوة كبيرة ، بحيث استطاع أن يملك المدافع ويستجلب الخبراء لاستعمالها في الحروب[٢] .

ومما ساعد الاتحادات القبلية على الاستفحال والسيطرة في المنطقة ، كثرة الاهوار فيها . فاذا جاءت جيوش الحكومة اليها لتأديبها انسحبت الى الاهوار ، وظلت هناك تقطع الطرق وتعبث بالامن . يقول المؤرخ عباس العزاوى : ان الوالى عمر باشا السردار عندما جاء الى العراق في عام **١٨٥٧** ، ظن أنه قادر أن يسيطر بجيشه على تلك المنطقة ، ثم تبين له خطأه أخيرا . وكان اكبر مانع له في ذلك وجود الاهوار ، فهي عثرة في طريق الجيش[٣] .

مراتب الشرف :

مما يجدر ذكره أن القبائل البدوية التي تعيش على الرعي والترحل ، كانت كثيرة العدد نسبيا في المنطقة الرسوبية ، ولكنها أخذت تقل تدريجا منذ منتصف القرن التاسع عشر . وهى الآن يندر وجودها في هذه المنطقة تقريبا .

انها تركت حياة البداوة واحترفت الزراعة ، ولكنها ظلت متمسكة

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج ٧ ص ٢٤٩ .

(2) Jamali (New Iraq) p. 128.

(٣) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج ٧ ص ١٢٤ .

بكثير من قيمها البدوية القديمة ، وهي تنظر الى القبائل الاخرى نظرة استعلاء وشموخ . ولكي تميز نفسها عن غيرها نجدها تستنكف من تربية الجاموس او زراعة الخضر أو صيد السمك بالشبكة . ان هذه الاعمال في نظرهم معيبة جدا ، اذ هي تجعل أصحابها كالبقالين المتجولين الذين يحملون بضائعهم في القرى والاسواق لبيعها[1] .

سألت أحد شيوخ القبائل « الاصيلة » في الفرات الاوسط : لماذا تحتقرون البقال ؟ فقال : ان البقال يعيش على الميزان ، وهذا عيب ! يبدو أن الشيخ أراد أن يقول : ان البقال يحمل الميزان بدلا من السلاح وهذا مخالف لخصال الرجولية والشجاعة .

ان الفرد ، من أبناء القبائل « الأصيلة » ، يقف على ساحل النهر وبيده « الفالة » ليصيد بها سمكة واحدة أو بضع سمكات . انه يستنكف أن يصيد السمك بالشبكة . فالشبكة تأتي له بالسمك الكثير ، وهو مضطر أن يبيعه في السوق . اما « الفالة » فلا تأتي له الا بالسمك القليل ، وهذا يكفي لغذائه وغذاء عائلته . ومما يجدر ذكره أن « الفالة » تعد من الاسلحة الحربية في الريف العراقي ، اذ هي حربة لها ثلاثة رؤوس حادة . وكثيرا ما تستعمل في القتال . اما الشبكة فهي من شأن « البقالين » المستضعفين .

هناك أربع فئات محتقرة في الريف . وأكثر هذه الفئات احتقارا هم الحاكة ، ويأتي بعدهم « الحساوية » اي الذين يزرعون الخضر ، ثم « البربرة » أي الذين يصيدون السمك بالشبكة . وأخيرا يأتي « المعدان » وهم الذين يعيشون على تربية الجاموس .

احتقار الحائك :

مما يلفت النظر أن هناك فرقا كبيرا في المنزلة الاجتماعية بين حياكة الحصر القصبية (البواري) وحياكة النسيج . فحائك الحصر لا يقل

---

(١) شاكر مصطفى سليم (المصدر السابق) ج ٢ ص ٥٦٢ ـ ٥٦٥ .

منزلة عن زارع الحبوب[1] . اما حائك النسيج فهو وضيع جدا لا يكاد يدانيه أحد في حقارته . فأبناء القبائل « الاصيلة » لا يزوجونه من بناتهم ، وهم من جانبهم لا يتزوجون من بناته . واذا نشب القتال فليس من المفروض أن يشترك الحائك فيه . انه يجلس مع النساء ، ولا يطلب منه الرجال آية مساهمة في معاركهم ، مهما كانت ضئيلة .

سأل الدكتور شاكر سليم أحد الخبراء بالعرف العشائري عن أسباب احتقار الحاكة ، فأجاب : أن الحاكة مغموزون في نسبهم ، ويكذبون كثيرا ، وهم ناقصو الذمة فقد سرقوا أقراط الحسين وشهدوا على مريم عندما ولدت ، وفعلوا أمورا مكروهة حفظها التاريخ[2] .

يبدو أن هذه أعذار مصطنعة جاءت بها القبائل لتبرير احتقارها للحائك . والواقع أن احتقار الحائك تراث بدوي قديم . وقد كان البدو منذ قديم الزمان اذا أرادوا شتم أحد قالوا له « حائك بن حائك » . ومنشأ هذا الاحتقار هو أن الحائك يحترف عملا هو من اختصاص المرأة في نظر البدو ، فهو يعيش بكد يمينه ، بدلا من ان يعيش من كد سيفه وقوة ذراعيه . وهم يضربون به المثل فيقولون : « كالحائك عمره ما قتل فارة » .

اما التمييز بين حياكة الحصر وحياكة النسيج فسببه في رأيي أن حائك الحصر هو كزارع الحبوب يظل متمسكا بالقيم البدوية القديمة ، فهو لا يجالس النساء ولا يمارس الميزان . انه ينتج عددا كبيرا من الحصر ، ويجمعها عنده ليأتيه التاجر بعدئذ فيشتريها منه دفعة واحدة . فهو لا يبيعها بالمفرد في الاسواق ، ولا يتنازل للمساومة على كل حصير منها مرة بعد مرة . وهو اذن يشبه زارع الحبوب في موسم الحصاد .

قبائل الفرات الاوسط :

شبهنا العراق من حيث اختلاط انساب القبائل فيه بـ « دنّ المخلل » ، واعتبرنا المنطقة الرسوبية فيه بمثابة بطن الدن . وهنا لابد أن نستدرك

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٦٢ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٦٣ .

فنستثني من ذلك قبائل الفرات الاوسط • فهذه القبائل تختلف اختلافا غير قليل ، من حيث نقاوة أنسابها وقوة تمسكها بالقيم البدوية ، عن أكثر القبائل القاطنة شرقا على ضفاف دجلة ، أو جنوبا داخل الاهوار •

ان الفرات الاوسط واقع على حافة الصحراء • وهو لذلك يمكن اعتباره « المدخل » الثاني للعراق بعد منطقة « الجزيرة » ، بالنسبة للقبائل البدوية القادمة من الصحراء • والواقع أن كثيرا من قبائل الفرات الاوسط قد جاءت الى العراق في عهد ليس ببعيد • انها أقدم عهدا بالمجيء الى العراق من قبائل « الجزيرة » ، ولكنها أحدث عهدا من قبائل دجلة وقبائل الاهوار •

وقد أشار الى هذا الشيخ فريق مزهر الفرعون ، حيث صنف القبائل العراقية الى صنفين رئيسين : أولهما يتألف من قبائل الفرات وقبائل « الجزيرة » • وهذه القبائل في نظره لا تزال تحافظ على سجاياها « العربية » الاصيلة • أما الصنف الثاني فهو يتألف من قبائل دجلة ، وهي قد فقدت كثيرا من عاداتها ومزاياها « الكريمة القديمة » من جراء اتصالها بالحكومة وترددها على المدن وامتزاجها مع الخليط[1] •••

ويبدو أن الدكتور شاكر سليم يؤيد هذا التصنيف • فهو يقول : « لان كثيرا من القبائل البدوية التى هاجرت من الجزيرة العربية الى العراق اتخذت الاهوار ملجأً ورعي الجاموس وسيلة للعيش ، فترتب على هذا انقطاع الصلة بينها وبين الحياة البدوية لعدة مئات من السنين • ولكن رغم هذا كله فان صفات بدوية ، طبيعية وحضارية ، يمكن أن تلاحظ بوضوح في سكان أهوار منطقة الفرات نتيجة الاتصال بالجزيرة العربية عن طريق الهجرة والتزاوج • وتكاد هذه الصفات أن تقسم سكان الاهوار ، ولو بصورة غير واضحة ، الى مجموعتين ؛ المجموعة الشرقية التي تقطن أهوار

---

(١) فريق مزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ج ١ ص ٢٢ •

H

دجلة ، والمجموعة الغربية التي تقطن أهوار الفرات »[١] .

ويذهب الى مثل هذا الرأي الاستاذ هنري فيلد . فهو يعتقد أن قبائل دجلة القاطنة جنوب الكوت قد انقطعت صلتها بالبداوة ، وليس فيها من البدو أحد ، ما عدا قبيلة بني لام التى هي شبه بدوية . ففي تلك القبائل نجد ميلا نحو اهمال الروابط القبلية ونحو الانهماك في الزراعة أو تربية الجاموس أو غير ذلك[٢] .

ينبغي أن نذكر أن قبائل الفرات الاوسط تنظر الى قبائل دجلة القاطنة الى الشرق منها نظرة لا تخلو من احتقار . وهي تطلق عليها اسم « الشروقيين » نسبة الى الشروق أي الشرق . وقد أصبح للشروقيين مؤخراً أهمية اجتماعية كبيرة اذ هم الآن يؤلفون الاكثرية بين المهاجرين من الريف الى المدن . والظاهر أن ضعف الروابط القبلية في قبائل دجلة كان من العوامل المساعدة على الهجرة .

ان قبائل الفرات تفاخر دائما بكونها أكثر حمية وأشد في نزعتها « الثورية » من قبائل دجلة . وعندما انتشرت الثورة في الفرات الاوسط عام ١٩٢٠ ، كانت قبائل دجلة هادئة ومؤيدة للحكومة . وقد فعلت مثل ذلك عام ١٩٣٥ و ١٩٣٦ . وقد سمعت آنذاك أحد شيوخ دجلة وهو يتساءل متعجبا : ماذا يجني هؤلاء من ثوراتهم المتلاحقة !؟ وكان يشير بذلك الى قبائل الفرات ، متجاهلاً قوة التراث البدوي فيها .

ان قبائل الفرات الاوسط تنظر الى المعدان مثل نظرتها الى الشروقيين . فهي تستنكف من مصاهرتهم وتحتقر أخلاقهم . وقد أشار الى هذا الاستاذ جعفر الخليلي ، فذكر بعض الفروق بين أخلاق المعدان واخلاق قبائل الفرات الاوسط ، ونقل رأيا سيئاً في المعدان عن الشيخ عبادي الحسين من آل

---

(١) شاكر مصطفى سليم (المصدر السابق) ج ١ ص ٢٠ .

(2) Henry Field (op. cit.) p. 260.

فتلة ، حيث قال : « حذار أن توافق المعيدي على ولوج أصبعه في ثقب الجدار فانه سيدخل سبابته في الثقب بينما يلوح بيده الاخرى لجماعته صائحا : الحقوا واسرعوا لنجعل من هذا الثقب بابا لولوج الدار »[١] .

يبدو أن قبائل الفرات الاوسط لها بعض الحق في احتقار المعدان . فالمعدان لم يستطيعوا أن يحافظوا على القيم البدوية محافظة كافية . يقول عنهم ثيسيغر : ان تقاليدهم تختلف عن تقاليد البدو الصارمة ، ولا يستطيعون مجاراتهم في حسن الضيافة ، وهم أقل منهم صبرا وجلدا ، وعادة الثأر تكاد تكون معدومة عندهم ، ولهم سمعة واسعة باللصوصية[٢] ...

سكان المدن :

كان معظم حديثنا ، في ما سبق من هذا الفصل ، يدور حول قبائل العراق المختلفة وكيف اختلطت أنسابها مع بقايا الاقوام القديمة . وينبغي الآن أن ندرس سكان المدن من هذه الناحية كذلك .

يجب أن نعلم قبل كل شيء بأن أكثر المدن في المنطقة الرسوبية قد تأسست في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، وهي : قلعة صالح ، العمارة ، المجر الكبير ، علي الغربي ، الكميت ، شيخ سعد ، الكوت ، النعمانية ، الصويرة ، العزيزية ، الناصرية ، الشطرة ، الرفاعي ، قلعة سكر ، الحمزة ، الشامية ، أبو صخير ، المسيب ، الهندية ، المحمودية .

وهناك مدن ثلاث أسست في القرن الثامن عشر هي الديوانية وسوق الشيوخ والزبير ، ومدينة واحدة أسست في بداية القرن التاسع عشر وهي الحي . وفي القرن العشرين اسست مدينة الهاشمية ومدينة الفيصلية[٣] .

---

(١) أ . س . ح (آل فتلة كما عرفتهم) ص ١١٣ . [أخبرني الاستاذ جعفر الخليلي أن هذا الكتاب من تأليفه . وهو في الواقع كتاب يحتوي على كثير من المعلومات الاجتماعية النافعة] .

(٢) ولفرد ثسيكر (المصدر السابق) ص ١٤ .

(٣) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ص ١٢٢ ــ ٢٠٥ .

ان هذه ظاهرة اجتماعية تلفت النظر في المنطقة الرسوبية . وقد أشرنا الى أهم أسبابها سابقا ، وهي تغير مجارى الانهار في هذه المنطقة . فالمدن تقع عادة على ضفاف الانهار ، فاذا تغير مجرى النهر مالت المدن الواقعة عليه الى الاندثار والزوال . وقد كان لهذه الظاهرة الاجتماعية أثر كبير في طبيعة المدن المؤسسة حديثا . فسكان هذه المدن هم على الاكثر من أبناء القبائل المجاورة . فهم « لملوم » حسب الاصطلاح القبلي ، اذ هم يأتون الى المدن من قبائل مختلفة . وقد يأتي اليها أيضا أناس غرباء في سبيل الارتزاق والتجارة . ولكن هؤلاء السكان جميعا مضطرون أن يلتزموا بالقيم والتقاليد السائدة بين القبائل المجاورة . وكثيرا ما تنشب المعارك بينهم وبين تلك القبائل ، وتنشأ ثارات واحقاد ، كما سنأتي اليه في الفصل القادم .

وحين نأتي الى منطقة « الجزيرة » أو منطقة ديالى ، نجد مجاري الانهار تكاد تكون ثابتة على مر الايام . وهذا جعل المدن فيهما باقية على قدمها ، فلم يطرأ عليها تغيير كبير من حيث مواقعها وأسمائها . وقد ورد ذكرها في كتب الجغرافيين القدماء بأسماء قريبة جدا من اسمائها الحالية . والمظنون أن الكثيرين من سكان هذه المدن هم من بقايا الاقوام القديمة . وهم قد « استعربوا » في لغتهم وقيمهم الاجتماعية من جراء احتكاكهم بالقبائل المجاورة لهم . وقد صاروا لا يختلفون عن تلك القبائل الا ببعض الفروق البسيطة في لهجاتهم ، أو في لون بشرتهم وشعرهم وعيونهم .

البودقة الاجتماعية :

تسكن في بعض المدن العراقية جاليات أجنبية جاءت اليها من مختلف الاقطار الاسلامية ، كايران وأفغانستان واذربيجان والهند . وهذه الجاليات تكثر في المدن الشيعية المقدسة ، لاسيما في كربلاء والكاظمية . واكبرها هي الجالية الايرانية .

والملاحظ أن الفرد من هذه الجاليات ، عند بداية استقراره في احدى

المدن العراقية ، يشعر بأنه غريب . فهو لا يتحسس بالقيم السائدة في محيطه الجديد . ولكنه بمرور الزمن يبدأ بالانصهار في البودقة الاجتماعية . واذا هو لم يستطع الانصهار فيها ، فان أولاده أو أحفاده لابد أن ينصهروا فيها على وجه من الوجوه . ونراهم أخيرا يكادون لا يختلفون في تفكيرهم وعاداتهم عن أقرانهم في المحلة التى يعيشون فيها .

يقول ابن خلدون : « ان الانسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه ، فالذي ألفه في الاحوال حتى صار خلقا وملكة وعادة ، تنزل منزلة الطبيعة والجبلة . واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرا صحيحا . والله يخلق ما يشاء »[١] .

ان هذا القول الذى جاء به ابن خلدون قبل ستمائة سنة تقريبا يكاد يشبه ما يقوله علماء الاجتماع الآن . فالانسان هو نتاج ظروفه الاجتماعية أكثر مما هو نتاج نسبه أو وراثته الطبيعية . فاذا نشأ الانسان في بيئة ، تسلط عليه منها ضغط اجتماعي ، أو « قسر اجتماعي » على حد تعبير دركهايم[٢] ، وصار يؤثر على تكوين تفكيره وعاداته من حيث يشعر او لا يشعر . والانسان لا يستطيع ان يتخلص من تأثير ذلك الضغط الاجتماعي عليه مهما حاول .

نلاحظ هذا في الايرانيين الذين يأتون الى المدن المقدسة ، فيسكنون فيها للتبرك أو طلب العلوم الدينية . فهؤلاء في بداية أمرهم بعيدون عن تفهم الروح القبلية والقيم المحلية السائدة في محيطهم الجديد ، وهم يتجنبون الاشتراك في المعارك التي تنشب فيه بين كل حين وآخر . ولكن أبناءهم الذين ينشأون في هذا المحيط سيتأثرون به حتما . انهم يلعبون منذ طفولتهم مع أترابهم من صبيان المحلة ، ويمارسون معهم أفانين العصبية والقيم المحلية ، فتنغرس هذه في أعماق نفوسهم . فاذا كبروا وجدوا المجتمع يشجعهم على مواصلة الخضوع لتلك القيم وعلى احترامها . فالفرد

(١) ابن خلدون (المقدمة) ص ١٢٥ .

(2) Harry Barnes (History of Sociology) p. 506.

منهم يجد الناس حوله يتعصبون ويتقاتلون ، ويتفاخرون ويتشاتمون ، حسب تلك القيم . واذا هو لم يقتد بهم ، اعتبروه جبانا « مخنثا » . وربما استضعفوه أو تجرأوا عليه وأهانوه . انه مضطر أن يكون مثلهم في تفكيره وسلوكه لكي ينال المكانة المحترمة بينهم .

الانسان لا يفكر بعقله المجرد ، بل هو يفكر بعقل مجتمعه . فهو ينظر في الامور ، ويميز بين الحسن والقبيح منها ، حسب ما يوحي به المجتمع اليه . ان تفكيره يجري في نطاق القوالب والخطوط التي صنعها المجتمع له . واذا جاءه أحد يحاول ارشاده الى تفكير آخر ، ظن انه جاء ليدله على طريق الخطأ أو الضلال .

لا ننكر وجود أفراد خرجوا على قيم مجتمعهم واطاره الفكري . وهذا أمر يكثر حدوثه في المجتمعات « المفتوحة » التي تتصارع فيها الافكار وتلتقي فيها الاتجاهات المختلفة . أما في المجتمعات « المغلقة » التي تعيش في عزلة نسبية ، وتسيطر عليها ثقافة اجتماعية موحدة ، فمن الصعب على الانسان أن يفكر أو يسلك خلاف ما اعتاد عليه ونشأ فيه .

لقد حدث هذا فعلا في العراق في العهد العثماني . فقد كان العراق حينذاك منعزلا و « مغلقا » الى حد كبير . فكان يصهر في بودقته كل من يأتي اليه من الاجانب ، كمثل ما صهر فيها بقايا الاقوام القديمة من سكان المدن وغيرهم .

ان البودقة تحتاج الى نار شديدة اللهب . وفي رأيي أن النار قد توافرت في العراق في العهد العثماني ، وأعني بها نار القتال والحرب الدائمة . وهذا ما سنبحثه باسهاب في الفصل القادم .

الفصل السابع

الحرب الدائمة في العراق

قلنا في فصل سابق أن أهم معالم الثقافة البدوية في الصحراء هو « الحرب الدائمة » . فالحرب في الحياة الصحراوية هي الاصل ، والسلم فيها عرض طاريء . وحين ندرس المجتمع العراقي في العهد العثماني نجد هذه الظاهرة موجودة فيه على نمط يكاد لا يختلف في أساسه الاجتماعي عما هو موجود في الصحراء . فقلما كانت تمر فترة في العراق دون أن يقع فيها قتال على وجه من الوجوه . وهذا القتال كان على أشكال مختلفة نذكرها فيما يلي على التوالي ، حسب أهميتها وسعة نطاقها :

(١) القتال بين القبائل بعضها مع بعض .
(٢) القتال بين القبائل والحكومة .
(٣) القتال بين المحلات في المدينة الواحدة .
(٤) القتال بين القبائل والمدن .
(٥) القتال بين المدن بعضها مع بعض .
(٦) القتال بين المدن والحكومة .

ولكي يأخذ القارىء صورة واضحة عن طبيعة المجتمع العراقي ، يجدر بنا ذكر هذه الاشكال المختلفة من القتال على شيء من التفصيل .

القتال بين القبائل :

لقد كان هذا أعم أشكال القتال في العهد العثماني واكثرها أهمية من الناحية الاجتماعية . أما أسبابه فكانت متنوعة أهمها : النزاع حول الاراضي وترع الري ، والنزاع بدافع الاحقاد الموروثة والثارات ، والنزاع حول قيم الحلف والجوار والدخالة والتسيار والنجدة ، وما أشبه . وربما حدث شجار بين شخصين ، لسبب تافه ، فيتوسع الشجار بينهما حتى تشترك قبيلتاهما فيه ، وقد يعلن الحرب بينهما من جرائه ، على منوال حرب البسوس .

عندما جاء ناظم باشا واليا على العراق في عام ١٩١٠ وجد أن أهم مشكلة يعانيها المجتمع العراقي هو القتال بين القبائل أو ما أسماه بـ « الغزو » فلجأ الى طريقة ظنها كافية لمنعه ، وهي أنه استحصل فتاوى من فقهاء الشيعة وأهل السنة جاء فيها : أن الغزو من عادات الجاهلية التي حرمها الاسلام ، وأن القبائل يجب أن يقلعوا عنه اطاعة لامر الله ورسوله . وعلى إثر اصدار هذه الفتاوى جمع الوالي شيوخ القبائل في بغداد وقرأ عليهم الفتاوى ، وهددهم بالتنكيل الشديد اذا هم عصوها . ثم أغدق عليهم الهدايا والخلع . وكان ذلك يوما مشهودا في بغداد .

فرح ناظم باشا بهذه النتيجة ، واستبشر الناس بها ، وخيل اليهم أن عهدا جديدا قد حل في العراق . ومما يجدر ذكره ان ناظم باشا لم يبق في العراق سوى مدة قصيرة ، تكاد لا تزيد عن السنة الواحدة . وكانت تلك المدة خالية تقريبا من أي قتال بين القبائل . ولما انتقل ناظم باشا من العراق ، وجاء جمال باشا خلفا له ، حاول أن يتبع طريقته ، فأصدر منشورا طويلا حذر فيه القبائل من الغزو ، وذكرهم بالفتاوى التي بلغهم بها سلفه[1] .

لم ينفع هذا المنشور شيئا ، فقد عادت القبائل الى سيرتها الاولى ، وصار الغزو شائعا كما كان . يزعم بعض الناس أن القبائل انما امتنعت عن الغزو خوفا من ناظم باشا ، فلما ذهب عنهم استهانوا بمن جاء بعده من الولاة ورجعوا الى ديدنهم القديم . وهذا زعم لا يخلو من سذاجة وقصر نظر .

(١) عباس العزاوى (تاريخ العراق بين احتلالين) ج ٨ ص ٢١٦ ــ ٢١٨ .

لقد اعتادت القبائل على الغزو منذ عهود بعيدة ، وساروا عليه جيلا بعد جيل ، فليس من المعقول أن يقلعوا عنه خوفا من ناظم باشا أو غيره • ان امتناعهم عن الغزو عاما واحدا ليس دليلا على شيء • فهي فترة قصيرة كانت بمثابة هدنة موقتة • وهي كثيرا ما كانت تقع في العراق ، من قبل ، بسبب وبغير سبب • وقد تقع في الصحراء نفسها أحيانا • وفي رأيي أن القبائل العراقية ربما عادت الى الغزو في عهد ناظم باشا نفسه لو انه بقي في العراق مدة أطول •

لم تقلع القبائل العراقية عن الغزو الا مؤخراً ، وذلك عندما أصبحت الحكومة العراقية قادرة بجيشها وأسلحتها الحديثة أن تسيطر على مناطق الريف المختلفة • والواقع أن القبائل لم تقلع عن الغزو نهائيا حتى يومنا هذا • فنحن لا نزال نشهد بعض حوادث القتال تقع بينها حينا بعد حين • ولكن هذه الحوادث على أي حال تسير الآن في سبيل التضاؤل يوما بعد يوم •

نماذج حديثة :

لعل من المفيد أن نذكر نماذج من المعارك القبلية التي وقعت منذ عهد قريب ، وهي :

(١) في عام ١٩٣٢ وقع قتال بين العفالجة والعماريين في أطراف الديوانية ، فخفت الشرطة لمنع توسع القتال وحقن الدماء • وقد خسر العفالجة سبعة قتلى ، والعماريون أربعة • وسقط من الشرطة قتيل واحد وثلاثة جرحى • وصودرت (٢٦) بندقية[١] •

(٢) في عام ١٩٣٧ نشب نزاع على الاراضي في نواحي العمارة بين الأزيرج والبزون • فهجم جماعة من البزون يقدر عددهم بخمسمائة مسلح على جماعة من الأزيريج فقتلوا منهم تسعة أشخاص وجرحوا سبعة عشر •

---

(١) عبدالرزاق الحسني (تاريخ الوزارات العراقية) ج ٣ ص ١٦٨ •

وهرب الباقون . ولما سمعت قبيلة الازيرج بذلك تهيأت للانتقام . وفي اليوم التالي تقدم جيش عرمرم من الأزيرج يقدر عدده باثني عشر ألف شخص مسلحين بالبنادق ، واشتبك مع قبيلة البزون في معركة دامية سقط فيها من الفريقين زهاء (١٨٠) قتيلا و (٤٠) جريحا . وقد تمكن جيش الأزيرج من حرق بيوت البزون ، ونهب بعض الاثاث وفرسين ، وأشياء أخرى من حوانيت العطارين .

وقد حسم النزاع بينهما أخيرا بواسطة مجلس تحكيم عشائري . واستطاع هذا المجلس أن يقسم الاراضي بين الفريقين حسب مقتضيات العرف العشائري ، واعتبر ديات القتلى والجرحى « دمدوم » . وهذا اصطلاح عشائري يقصد به احتساب قتلى كل قبيلة مقابل قتلى القبيلة الثانية . والظاهر ان هذا الحل لم يرض قبيلة البزون ، فتأزم الوضع بين القبيلتين من جديد في عام ١٩٤٦ ، وكاد يؤدي الى قتال عنيف لو لم تتخذ الحكومة الاجراءات اللازمة لقمع الفتنة[1] .

(٣) في عام ١٩٤١ حدث نزاع بين ألبو محمد وألبو علي في نواحي العمارة حول بضع جواميس سرقت وبضع جواميس أخرى قتلت مع كلب واحد.فصمم مجيد الخليفة، شيخ ألبو محمد، أن يضرب قبيلة ألبو علي ضربة قاضية . فحشد أفراد قبيلته وقدم انذاراً الى شيخ ألبو علي . ثم نفذ الانذار بهجوم شديد حيث أخذ اتباعه يقتلون أعداءهم ويحرقون بيوتهم وينهبون مواشيهم وأموالهم حتى وصلوا الى دار شيخهم وحاصروه ولم يكفوا عن القتال الا بعد وصول قوات الشرطة . وكانت حصيلة المعركة (٥٦) قتيلا و (٨١) جريحا . وقد أحرقت فيها (١٥٠) صريفة ونهبت (٢٥٠) دارا[2] .

(٤) في عام ١٩٤٥ حدث نزاع حول الاراضي بين قبيلة بني أسد وآل حسن في الجبايش فأدّى الى وقوع معركة اشترك فيها كل رجل

---

(١) محمد باقر الجلالي (موجز تاريخ عشائر العمارة) ص ٥٠ـ٥١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٥١ ـ ٥٢ .

بالغ ، حتى الشيوخ . وقد تصرفت فيها الحكومة بحزم ، فسحقت الحركة وأعادت النظام الى نصابه ، وعاقبت الفريقين بشدة[1] .

(٥) في عام ١٩٤٦ جرى قتال عنيف بين شمر وبين ألبو متيوت والجحيش ، في أنحاء الموصل . فوقعت مذابح طاحنة بين الفريقين . وقد تضاربت الآراء في منشئها والسبب الداعي لها[2] .

(٦) في عام ١٩٥٢ جرى قتال بين قبيلة العبيد وقبيلة العزة في الخالص ، وكان سببه نزاع حول الاراضي . فقد اغتنمت قبيلة العبيد فرصة ليلة عيد الفطر ، حيث تخلو دوائر الحكومة من الموظفين ، فهاجمت قبيلة العزة . واستمرت المعركة بينهما طيلة الليل ، سقط فيها من الفريقين ثمانية عشر قتيلا ، كان منهم ابن لشيخ العزة وابن لشيخ العبيد . ولم تستطع الحكومة قمع المعركة الا بعد لأي . وقد أدت هذه الواقعة الى تكرر المشاجرات والمصادمات في كل مكان يلتقي فيها شخص من احدى القبيلتين مع آخر من القبيلة الثانية . وقد يعمد بعض الاشخاص من احدى القبيلتين على ارتكاب جرائم السلب في أراضي القبيلة الاخرى لاجبار الحكومة على اتخاذ اجراءات انضباطية ضد القاطنين في تلك الاراضي نكاية بهم[3] .

(٧) في عام ١٩٦٤ وقعت معركة دامية بين فخذين من قبيلة الحميدات ، في الفرات الاوسط ، سقط فيها سبعة قتلى واثنان واربعون جريحا . وقد حدثني بذلك أحد المطلعين على الحادثة .

ان هذه وقائع أتينا بها على سبيل التمثيل لا الحصر . ولو حاولنا استقصاءها لضاق بنا المجال ، ولربما عجزنا فيه .

مما يجدر ذكره أن القبائل العراقية لا تزال ، كما كانت في العهد العثماني ، تعتز بحمل السلاح . فكل رجل بالغ فيها يهمه قبل كل شيء أن يملك بندقية خاصة به . وهو قد يفضل شراء البندقية على شراء أية حاجة ضرورية لعائلته أو لنفسه . وهو يعتبرها رمزا لرجوليته وشجاعته .

---

(١) شاكر مصطفى سليم (الجبايش) ج ١ ص ١٣٤ ــ ١٣٥ .
(٢) عباس العزاوي (عشائر العراق) ج ٣ ص ٢٧١ .
(٣) عارف رشيد العطار (الاجرام في الخالص) ص ٣٨ ــ ٣٩ .

وطالما رأينا شيوخ القبائل يتفاخرون فيما بينهم بعدد « التفاكة » من أتباعهم • وهم يقصدون بـ « التفاكة » حملة البنادق • واذا أراد الناس الاشادة بقوة شيخ من الشيوخ ذكروا عدد « التفاكة » الذين هم وراءه • واذا عزم الشيخ على القتال لسبب من الاسباب ، نصب الراية وأطلق « الهوسات » يستنجد بها حملة البنادق من أتباعه أو حلفائه • وهؤلاء يسرعون لنجدته حالا • وربما نشب القتال ، وسقط فيه القتلى والجرحى ، قبل أن تعلم الحكومة به أو تستطيع قمعه •

ان الحكومة العراقية الآن قادرة على قمع القتال بين القبائل ، كما أشرنا اليه آنفا • ولكن الامر قد يخرج عن حدود مقدرتها أحيانا ، وذلك لانتشار الاهوار ورداءة الطرق ووسائل المواصلات في بعض أنحاء الريف • وقد تضطر الحكومة أحيانا الى الالتجاء الى الخبراء بالعرف العشائري فتعقد منهم مجالس تحكيم لحسم الخصومات والمنازعات بين القبائل ، فهي قد تفضّل ذلك على استعمال القوة المجردة • وهذا أمر لا يخلو من حكمة وبعد نظر ، لأن القوة المجردة كثيرا ما تفشل في حسم نزاع قائم على الاحقاد والثارات القبلية •

من طريف ما يذكر في هذا الصدد أن نزاعا شديدا وقع بين شمر والعبيد قبل ثلاثين سنة تقريبا • فارتأت الحكومة أن توسط للصلح بينهما الشيخ حمد الباسل باشا • فاستقدمته من مصر • والظاهر أنه نجح في مسعاه • فقد كان هذا الرجل من شيوخ القبائل في الصعيد • وهناك تشابه كبير في العرف العشائري بين قبائل العراق وقبائل الصعيد ، اذ هي جميعا تستمد عرفها من تقاليدها البدوية القديمة • وكان الشيخ حمد علاوة على ذلك ذا شخصية محترمة جدا ، فكانت آراؤه موضع تقدير كبير لدى القبائل العراقية •

القتال بين القبائل والحكومة :

كان من النادر في العهد العثماني أن يأتي والٍ الى العراق دون أن يشتبك أثناء حكمه في معركة مع إحدى القبائل أو مع مجموعة من القبائل •

وربما انشغل الوالي طيلة حكمه بالقتال مع القبائل ، فهو لا يكاد ينتهي من القتال مع واحدة منها حتى يبدأ به مع أخرى . وقد رأينا كثيرا من الشعراء في العهد العثماني وهم ينظمون قصائد المديح لتمجيد الانتصارات التي ينالها الولاة في قتالهم مع القبائل[1] .

ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد أن الشيخ فريق الفرعون يعزو سبب هذا القتال المتواصل بين الحكومة والقبائل الى حب القبائل للحرية وميلهم الى الحصول على الاستقلال من الاستعمار العثماني . يقول الشيخ فريق : « ... كان العراقيون خلالها يطالبون السلطات العثمانية باستقلال العراق داخل حدوده الكاملة ، غير انهم كانوا لا يحسنون التعبير عما تكنه صدورهم وعما يدور في خلدهم ، وعما تتشوق اليه أرواحهم من الحرية ، فتراهم بين بضع سنوات واخرى يقومون بحركة ضد السلطة العثمانية مظهرين فيها استياءهم وهم لا يملكون التعبير أكثر من قولهم (ان هذه الحكومة ــ لا نريدها ــ) . وكلمة ــ لا نريدها ــ تعبر أحسن تعبير عن شعورهم بوجوب التحرر من أغلال الاستعمار وسيطرة الاجانب ، ولسان حالهم يقول : نريد حكومة منا لنحكم أنفسنا بأنفسنا[2] ... » .

يبدو أن الشيخ فريق أراد بهذا القول مدح القبائل العراقية ، وهو أحد شيوخها ، فنسب اليها هذه النزعة في حب الحرية والاستقلال . الواقع أن القبائل العراقية بوجه خاص ، وأهل العراق بوجه عام ، لم يكونوا يعرفون هذه النزعة أو يدركون لها معنى . فهي نزعة حديثة لم تظهر في العراق الا في عهد متأخر جدا ، وذلك بعد اتصال العراق بالحضارة الحديثة واقتباس بعض مفاهيمها ومصطلحاتها .

وقد فند السيد « فراتي » الرأي الذى جاء به الشيخ فريق فقال : « أما الصحيح فهو أن عشائر العراق كانت في اصطدام بالحكومة العثمانية

---

(١) ابراهيم الوائلي (الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر) ص ٢٢١ ــ ٢٥٨ .

(٢) فريق مزهر الفرعون (الحقائق الناصعة) ج ١ ص ٢٧ .

اما بسبب الضرائب أو بسبب مساندة العثمانيين لعشيرة دون أخرى لغرض سياسي ، أو بسبب تجريد عشيرة من ملكية الارض واسكان عشيرة أخرى في محلها ، أو بسبب حملة تأديبية تقوم بها الحكومة على أثر حدوث قتال أو اعتداء أو سلب أو غير ذلك ، أو حفر جداول وامرارها من أرض لايصالها الى أخرى ، وغير ذلك من الامور التي يعرفها الجميع ، أما أن تكون البواعث للثورة حركة استقلالية أو أغراضا تحوم حول الحرية ، كما كانت أغراض الثورة العراقية الكبرى ، أو الدعوة لتوحيد الكلمة بغية تغيير الحكم ونشدان الاستقلال ، فهذا فضلا عن أنه لم يفكر فيه أحد من العشائر مطلقا فان تلك الثورات ما دلت ولم تدل يوما ما على شيء من ذلك بتاتا ، وهذا بالطبع لا ينقص من قدر العشائر اذا لم تكن هذه العشائر قد عرفت فكرة الوحدة ومغزى الاستقلال يومذاك . كما لا ينقص من قدرنا حين نقول أننا لم نكن نعرف كيفية تكوين الدول من قبل أو لم نكن نعرف أكلة طيبة أو لباسا خاصا ثم عرفنا ذلك فيما بعد »[1] .

أميل الى الظن أنه حتى الثورة العراقية التي وقعت في عام ١٩٢٠ ، والتي أشار اليها السيد « فراتي » ، هي في حقيقة أمرها ليست سوى امتداد للمعارك التي قامت بها القبائل ضد الدولة العثمانية ، وربما كانت أسبابها الواقعية لا تختلف عن أسباب تلك المعارك من بعض الوجوه . اما نزعة الحرية والاستقلال التي ظهرت على الثورة في عام ١٩٢٠ ، فهي لم تكن سوى مظهر خارجي لا يدرك معناه سوى القليلين من المتعلمين ورجال الدين وبعض شيوخ القبائل . اما عامة أفراد القبائل الذين ساهموا في الثورة فكانوا يقاتلون فيها بنفس الروح التى كانوا يقاتلون بها في معاركهم السابقة .

ان القبائل العراقية كانت تنظر الى الحكومة كأنها العدوة الطبيعية لها . وهذه نظرة ورثتها من البداوة . فالثقافة البدوية ، كما قلنا في فصل سابق ، لها مركبات ثلاثة هي : العصبية والغزو والمروءة . وهذه المركبات

---

(١) فراتي (على هامش الثورة العراقية الكبرى) ص ٣٩-٤٠ .

كلها مضادة لوجود الحكومة ، كما لا يخفى • فليس في مستطاع حكومة أن تقوم بوظائفها بين أناس يتعصبون قبليا ، ويغزو بعضهم بعضا ، ويتبعون قيم الدخالة والنجدة والجوار والتسيار وما أشبه •

الواقع أن العداء بين الحكومة والقبائل كان عميق الجذور في العهد العثماني • فكانت الحكومة تضمر الكراهية والاحتقار للقبائل[1] ، وكانت القبائل من جانبها تضمر الحقد والضغينة للحكومة •

يقول الدكتور جون فانيس انه كان يتجول ذات مرة في أهوار العراق ، فنزل لدى احدى القبائل فيها وأعلن أنه جاء « دخيلا » اليها • ولكن شيخ القبيلة ارتاب في أمره عندما نظر الى لحيته الشقراء وعينيه الشهلاويتين ، وقال له : « انت تركي ، والترك لنا أعداء ، جئت تغشى جهاتنا للتجسس ، فحياتك بيدنا » • فقال الدكتور فانيس للشيخ انه ليس تركيا وانه طبيب يداوي الناس • فقال الشيخ : « أصحيح أنت طبيب ، اني سأمتحن ادعاءك • وآتيك بمريض ، فان شفيته كنت ضيفنا المكرم والا (فبخبخ) » • ووضع الشيخ اصبعه على حنجرته مشيرا الى الذبح •

شاء القدر أن ينجح الدكتور فانيس في معالجة المريض ، فنجى من القتل • وبات ليلته قرب الشيخ نفسه ، على كومة من المنهوبات التي افتخر الشيخ بأن أتباعه نهبوها من قبائل بعيدة[2] •

ان هذه القصة ترينا مبلغ الحقد الذى كانت القبائل تضمره للحكومة العثمانية • فهي تميل الى قتل موظفي الحكومة أو جنودها حتى لو جاء أحدهم اليها « دخيلا » • ومن النوادر التي تروى في هذا الصدد أن الوالي عمر السردار عيّن الشيخ منصور السعدون ، شيخ المنتفق ، قائمقاما في سوق الشيوخ ومنحه لقب « بك » ورتبة « مدير الاصطبل العامر » • فاستاءت قبيلته من ذلك ، ونظم شاعرها بيتين من الشعر يتهكم فيهما ويشير

---

(١) جون فانيس (أقدم أصدقائي العرب) ـ ترجمة جليل عمسو ـ ص ٣٣٩ •

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ •

الى هذه المفارقة العجيبة التي حدثت في قبيلته . وهي أن قبيلته اعتادت على ذبح عساكر الدولة ولكن شـيخها أصبح على حين غرة مديرا في تلك الدولة ، فماذا يخبىء القدر من مفارقات أخرى؟![1] .

يمكن القول ان القتال بين القبائل والحكومة لم يتوقف الا بعد الحركة الواسعة التى قام بها عدد من القبائل العراقية ضد الحـكومة في عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ . فقد حاولت القبائل حينذاك أن تقوم بـ « ثورة » مثل الثورة التي قامت بها في عام ١٩٢٠ . وقد أيدها في ذلك بعض رجال الدين في النجف وبعض رجال السياسة في بغداد[2] . فأرسلت الحكومة اليها جيشا قويا بقيادة رجل سفاك شديد المراس هو بكر صدقي . فاستطاع هذا الرجل أن يضرب تلك القبائل ، واحدة بعد الاخرى ، ضربات ساحقة .

أدركت القبائل أخيرا أن الاحوال قد تغيرت ، وان الحكومة قادرة على الغلبة والانتقام ازاء أية قبيلة تتمرد عليها . ومنذ ذلك الحين وجدنا القبائل العراقية تميل الى الدعة والخضوع . وبدأ شيوخ القبائل يحاولون التقرب من الحـكومة ، وكسب مرضاتها ، بدلا من اعلان الحرب عليها .

قال الملك فيصل ، في تقرير له سري أملاه قبيل وفاته في عام ١٩٣٣ : ان القبائل أقوى من الحـكومة ، فهي تملك أكثر من مائة ألف بندقية بينما الحـكومة لا تملك سوى خمسة عشر ألف بندقية . وقد علق الملك على ذلك قائـلا : « لا يوجد في بلد من بلاد الله حالة حكومة وشعب كهذه . وهذا النقص يجعلني أتبصر ، وأدقق ، وأدعو رجال الدولة ، ومديري دفة البلاد ، للتعقل وعدم المغامرة »[3] .

الواقع أن الحالة التي أشار اليها الملك في تقريره قد تبدلت كثيرا بعد وفاته . فقد صار الجيش العراقي كثير العدد قوى العدة ، وأمست القبائل تجاهه ضعيفة لا تقدر على شيء . وهذا أمر كانت له نتائج سياسية واجتماعية مهمة ، كما سيأتي في فصل قادم .

---

(١) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) ج ١ ص ٧٤ ــ ٧٥ .
(2) Stephen Longrigg (Iraq 1900 to 1950) p. 247.
(٣) عبدالرزاق الحسنى (المصدر السابق) ج ٣ ص ٢٨٨ .

علاقة القبائل بالحكومة :

ان القبائل على الرغم من ميلها الآن الى الخضوع للحكومة والانصياع لاوامرها ، لا تزال تحمل نحوها بعض بقايا العداء والضغينة القديمة • فالقبائل لم تتعود بعد على اعتبار الحكومة رمز الاستقرار والخير للبلاد • فهي لا تزال تعتبر الحكومة رمزا للضريبة والسوط والسجن والقهر والتسخير • ان هذا تراث قديم تمتد جذوره الى مئات السنين ، وليس من السهل ازالته من النفوس دفعة واحدة •

ومما يجدر ذكره أن كثيرا من أفراد القبائل لا يزالون حتى هذه الساعة يستنكفون أن يقدموا الشكوى الى الحكومة حول قضية قتل أو اغتصاب أو اعتداء تحدث بينهم • فهم يعدون ذلك منافياً لقيم الرجولية والعصبية • فالرجل منهم يفضل أن يأخذ ثأره من خصمه بنفسه • أما الذين يذهبون الى الحكومة يطلبون منها أن تأخذ بثأرهم فهم في نظره ضعفاء أذلاء « مخنثين » • ان الرجل « السبع » هو الذى يأخذ حقه بذراعه ، ولا يعتمد فيه على غيره •

رب حادثة قتل تقع في قبيلة ، وتأتي الشرطة للتحقيق فيها فلا تجد في القبيلة من يعاونها فيه • ان أفراد القبيلة قد يعرفون القاتل ، ولكنهم لا يخبرون عنه الشرطة ، اذ هم يبغون أن يقتلوه بأيديهم • فاذا قبضت عليه الشرطة وقدمته للمحاكمة ، انتظروه في باب المحكمة ليقتلوه عند خروجه وهو محاط بالشرطة من كل جانب • واذا لم يتمكنوا من ذلك ، ودخل القاتل السجن ، انتظروه حتى يقضي مدة سجنه • فاذا خرج من السجن تربصوا له وحاولوا قتله على أي حال •

شهدت ذات يوم جماعة من الريفيين ، وهم مسلحين بالهراوات والخناجر ، يبحثون عن صبي ضرب فتاة منهم • فهم يتساءلون بغضب « ما عندها أهل ؟! » • وكانوا يقصدون من ذلك أن الفتاة لها أهل ، أي عشيرة ، يأخذون بثأرها ، فكيف يجوز للصبي أن يعتدي عليها • اني لم أشهد بقية

القصة ، ولكنني أظن أن معركة عنيفـــة وقعت بين عشـيرة الفتاة وعشيرة الصبي من جراء ذلك .

ان اصطلاح « الاهل » يقوم مقام اصطلاح « الحـكومة » في الريف . فاذا قتل شخص ولم يطالب أحد بثاره ، تأسفوا عليه وقالوا عنه : « مسكين ما عنده أهل » . أما الحـكومة فلا تخطر ببالهم .

ومما يلفت النظر أن الشـــرطة أو الجنود قد يتعصب بعضهم على بعض في سبيل الثأر أحيانا ، كما يفعل أفراد القبائل فيما بينهم . فالشرطة والجنود هم على الاكثر من أبناء القبائل . وهم مهما طال تدريبهم على النظام وحفظ الامن لا يستطيعون أن ينسوا عصبياتهم القديمة ، أو هم قد يطورون عصبياتهم لـكي تلائم ظروفهم المستجدة . فقد يقع شجار بـين شرطي وجندي ، أو بين جندي وجماعة من الناس . فيتعصب كل فريـق لزميله . وربما نشبت من جراء ذلك معركة دامية .

حدث لي في عام ١٩٣٩ أن كنت مسافرا مع زملاء لي من الطلاب الى بابل . وفي القطار تشاجر أحد زملائي مع أحد الجنود وصفعه على وجهه . وشاء سوء الحظ أن يكون القطار مملوءا بالجنود ، فانتشر بينهم الخبر ، وتجمعوا يريدون الاخذ بثأر زميلهم منا ، بلا تفريق . كان كل جندي يحاول البحث عن أي طالب ليعتدي عليه ، ولـكن القدر ساعدنا في اللحظة الاخيرة فنجونا بجلودنا ، وأطلقنا سيقاننا للريح لا نلوي على شيء ...

كان الجنود من قبائل مختلفة ، ولـكن « العصبية الجندية » هي التي سادت بينهم في تلك الساعة . فاصبحوا كأنهم من قبيلة واحدة تجاه قبيلة أخرى معادية لهم هي قبيلتنا نحن الطلاب المساكين !

وقعت في بغداد في عام ١٩٣٦ واقعة عنيفة بين الجنود وجماعة من الاهالي . والى القارىء نص البيان الرسمي الذي أصدرته الحـكومة عنها :

« حـدث في اليوم الثالث ، من عيد الفطر ، أن مر أحد الخيالة من الاهلين ، من بين الاهلين المجتمعين في ساحة الشيخ معروف . وأثناء مروره راكبا أزعج الاهالي ، وكان من بينهم جندي ، اذ ديست قدمه . فتأثر من

تصرف الخيال بعض الاشخاص ، ومن جملتهم الجندي . فأخذوا بتعنيفه وضربه ، مما أدى الى أن ينتصر قسم من الاهلين من عشيرة الخيال للمعتدي وأن ينتصر الجنود الذين كانوا في الساحة للمعتدى عليهم . فحدثت مشاجرة ومضاربة تدخلت من أجلها الشرطة ، بعد أن أصيب قسم من الجنود والاهلين بجروح ، اثنان منها خطران ، والبقية طفيفة . وسارع على أثرها جنود الانضباط والرجال المسؤولون ، وأعيد الامن بعد برهة قصيرة . والتحقيقات مستمرة من قبل الشرطة والجيش لمعاقبة المعتدين بما يستحقون »[1] .

لقد شاع في حينه أن المعركة كانت أفظع جدا مما ذكره البيان الرسمي ، وأنها كانت بين الجنود والشرطة على الاكثر ، وقد سقط فيها ضحايا كثيرون ، حيث استعمل الشرطة والجنود فيها الاسلحة التي زودتهم بها الحكومة لحفظ الامن . انهم أقلقوا الامن بها بدلا من المحافظة عليه .

القتال بين المحلات :

كثيرا ما كان القتال ينشب بين المحلات المختلفة في المدينة الواحدة في العهد العثماني . فقد كان سكان كل محلة يشعرون بأن لهم عصبية خاصة بهم تميزهم عن سكان المحلات الاخرى . ويمكن القول ان العصبية « المحلية » الموجودة في المدن تشبه العصبية « القبلية » الموجودة في الريف ، من وجوه عدة . ان مفهوم « ابن محلتي » في المدن يقارب مفهوم « ابن عشيرتي » في الريف . وكان لكل محلة مشايخها وأبطالها وعنعناتها كمثل ما هو الحال في القبيلة الريفية تقريبا .

كل مدينة عراقية في العهد العثماني كانت لا تخلو من عداء أو نزاع يقع بين محلاتها المختلفة . وهذا النزاع قد يكون ضعيفا أو قويا تبعا لاختلاف الظروف في كل مدينة . ففي بغداد مثلا كان النزاع المحلي ضعيفا نسبيا ، وذلك لتمركز السيطرة الحكومية فيها من جهة ، ولكثرة

---

(١) عبدالرزاق الحسني (المصدر السابق) ج ٤ ص ١٨٩ .

الغرباء والتجار فيها من الجهة الثانية ، وتأتي مدينة النجف مقابل بغداد في هذا الشأن ، فقد بلغ النزاع المحلي في النجف غاية القوة ، وذلك للاسباب التالية :

اولا : ان النجف بعيدة عن بغداد أو الحواضر الاخرى التي تتمركز فيها سيطرة الحكومة ، وقد يصح أن نطلق على النجف صفة « القاصية » حسب مصطلح ابن خلدون . يقول ابن خلدون : فاذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظلها عن القاصية احتاج أهل المدن الى تنظيم أنفسهم على أساس من العصبية[1] ، وهذا هو ما حدث في النجف فعلا في العهد العثماني .

ثانيا : ان النجف تقع على حافة الصحراء ، ولعلها تقع في الصحراء ذاتها . وقد أصبحت موئل تموين لبعض القبائل البدوية التى تتجول في الصحراء بالقرب منها ، وكثيرا ما كانت المشاحنات والمنازعات تقع بين أهل النجف وتلك القبائل[2] . وهذا يجعل أهل النجف يشعرون بضرورة وجود عصبية قوية بينهم لتساعدهم على مدافعة القبائل البدوية عند الحاجة . وقد اشتدت هذه الحاجة في أواخر القرن الثامن عشر عندما أخذت القبائل الوهابية تغير على بعض المدن العراقية المتاخمة للصحراء ، فهب أهل النجف للدفاع عن مدينتهم ، ونجحوا فيه نجاحا غير قليل[3] .

ثالثا : قرب النجف من منطقة الفرات الاوسط ، وهذه المنطقة ، كما ذكرنا في فصل سابق ، تعتبر « المدخل » الثاني للعراق ، بعد منطقة الجزيرة ، بالنسبة للقبائل القادمة من الصحراء . وقد اشتهرت قبائل هذه المنطقة منذ عهد بعيد بكونها من أكثر القبائل العراقية تمردا على الدولة أو تحفزا للثورة عليها ، وقد أطلق أحد المسؤولين العثمانيين عليها لقب « قلب العراق النابض »[4] ولابد لاهل النجف من أن يتأثروا بالروح القبلية

---

(١) ابن خلدون (المقدمة) ص ٣٧٧ .

(٢) مجيد الموسوى (الحاج عطية أبو گلل) ص ٥٤ ـ ٦٦ .

(٣) محمد سعيد محبوبة (ماضى النجف وحاضرها) ج ١ ص ٣٢٦ ـ ٣٣١ .

(٤) وداي العطية (تاريخ الديوانية) ص ٩٩ .

الشديدة المسيطرة على هذه المنطقة .

رابعا : والنجف مدينة مقدسة جدا . فهي من ناحية تحتوي على مرقد الامام الاعظم : علي بن ابي طالب . وهي من الناحية الاخرى مركز التشيع في العالم كله ، حيث يقصدها الطلبة والزوار من مختلف انحاء العالم ، ويعيش فيها المرجع الديني الاكبر للشيعة في اكثر الاحيان . وكانت الدولة العثمانية تنظر الى النجف نظرة خاصة . فكان أمر تعيين القائمقام فيها يأتي من استانبول مباشرة ، وكانت حكومة بغداد تشعر بالعجز تجاه أهل النجف ، فلا تتدخل في شؤونهم الا في نطاق ضيق . وقد يتمرد أهل النجف على حكومة بغداد ، فلا تستطيع الحكومة أن تنزل بهم العقوبة الرادعة ، خشية أن يثور الرأي العام عليها . وقد تكتفي الحكومة بالخضوع الرمزي منهم ، وتتركهم يديرون شؤونهم حسب تقاليدهم المحلية ، كما حدث اثناء الحرب العالمية الاولى[1] .

نماذج واقعية :

كانت النجف في العهد العثماني منقسمة الى عصبيتين متعاديتين هما « الزقرت » و « الشمرت » وقد سألت الكثيرين من أهل النجف عن أصل هاتين اللفظتين فاختلفوا في تأويلها . ومهما يكن الحال فقد بدأ النزاع بين « الزقرت » و « الشمرت » منذ أخذت النجف تنمو وتصبح مركز التشيع في أواخر القرن الثامن عشر . وصارت المعارك الدامية تتوالى بين هاتين العصبيتين ولم تنقطع الا منذ عهد قريب .

يحدثنا الاستاذ محمد سعيد محبوبة أنه شهد بعينه احدى تلك المعارك في عام ١٣٢٣هـ . وكان بطل المعركة رجل اسمه « عزيز باقر شام » وكان من « الشمرت » . وبعد أن قتل رجالا مشهورين بالشجاعة والنجدة من « الزقرت » ، سقط قتيلا هو وولداه . فانتصر « الزقرت » وخمدت الفتنة . يقول الاستاذ محبوبة أنه رأى الاثاث والفرش الثمينة التي انتهبها

---

(١) عبدالله الفياض (الثورة العراقية الكبرى) ص ١٦ .

« الزقرت » من خصومهم[1] ...

ويحدثنا السيد محسن الامين عن معركة أخرى من هذا الطراز ، وكان سببها أن « الشمرت » أرادوا دفن ميت لهم ليلا في « وادي السلام » ، فخرج اليهم « الزقرت » لمنعهم ... وفي اليوم التالي هجم « الشمرت » على السوق فأغلق الناس دكاكينهم بسرعة . وتجمع الفريقان وتحصنوا ، وانتشر الخوف والرعب في المدينة وأغلق « الكليدار » أبواب الصحن الشريف لكي لا يدخله أحد الفريقين ويصعدوا الى المنائر فيطلقوا الرصاص منها . فالمنائر أعلى مكان في البلد ومن صعد اليها تكون له الغلبة . أما الحكومة فغاية عملها أن تغلق السراى ويدخل العسكر القشلة وتغلق أبوابها . يقول السيد محسن : « وبتنا في بعض الليالي والرصاص يمر فوق رؤوسنا وكان الفصل صيفا . وكنا أولا على السطح فلما سمعنا أزيز الرصاص فوق رؤوسنا نزلنا الى صحن الدار ، وجعل الرصاص يمر فوق رؤوسنا فانتقلنا الى الايوان ... »[2] .

ان هذا النموذج لسيطرة العصبية المحلية في النجف قد نجد ما يشبهه في أكثر المدن العراقية ، ولو بدرجة اضعف . ففي كربلا مثلا كان النزاع قائما بين محلاتها منذ عهد بعيد . وقد ظهر هذا النزاع بوضوح اثر انسحاب العثمانيين من كربلاء خلال الحرب العالمية الاولى ، حيث انقسم أهل كربلاء الى عصبيتين متحاربتين ، احداهما مع آل كمونه ، والاخرى مع آل عواد . وكانت بدايتها وقوع مناوشة في أحد الاسواق بين آل عواد والحميريين الذين هم حلفاء آل كمونه . فارسل الشيخ فخري كمونه انذارا شديد اللهجة الى آل عواد يأمرهم فيه بمغادرة كربلاء مساء ذلك اليوم ،والا فهو سيهدم دورهم ويخرجهم من المدينة قسرا . فاستنجد آل عواد بحلفائهم من القبائل الريفية . وجاءت القبائل وهي مستعدة للهجوم على كربلاء . فشاع الرعب في المدينة . وتحصن الفريقان في

---

(١) محمد سعيد محبوبة (المصدر السابق) ج ١ ص ٣٣٩ .
(٢) محسن الامين (أعيان الشيعة) ج ٤٠ ص ٥٨ ـ ٥٩ .

الدور وسطوح الاسواق ، وامتنع التجول ، ووقف أبطال المحلات في رؤوس الطرق . وأصبح وقوع الكارثة وشيكا !

حاول رجال الدين التوفيق بين الفريقين ، وعقد الصلح بينهما . وقد نجحوا في ذلك نجاحا موقتا . ولما علم الانكليز بالامر ، وكانوا قد احتلوا بغداد حينذاك ، أرسلوا أحد ضباطهم للسيطرة على كربلاء[1] . وتنفس الناس الصعداء ...

وهناك نموذج آخر من هذا النزاع نجده في السماوة . وقد حدثنا عنه عبد العزيز القصاب ، وكان قد عينته الحكومة العثمانية قائمقاما في السماوة في عام ١٩٠٩ . يقول القصاب انه عند وصوله السماوة وجد السوق الكبير فيها مقفلا ، والناس خائفين . وتفصيل القصة أن السماوة كانت تحتوي على ثلاث محلات هي :

(١) محلة القشلة : وتقع على الضفة اليسرى من نهر الفرات . وقد سميت بهذا الاسم لوجود « القشلة » فيها . ويسكن فيها الجنود والضباط وبعض المدنيين والتجار ، وتقع فيها دوائر الحكومة . وللقائمقام سيطرة عليها .

(٢) محلة الغربي : وتقع على الضفة اليمنى من النهر الى الشمال من السوق الكبير . ويسيطر عليها السركال رباط السلمان لكثرة أقاربه والمنتسبين اليه .

(٣) محلة الشرقي: وتقع على الضفة اليمنى من النهر أيضا ، الى الجنوب من السوق الكبير . ويسيطر عليها السيد طفار . وكان المتنفذون في غيابه عبدالله الشاهر وصبار الحسين اذ كانا من الشجعان الجريئين الذين يحسنون الرماية .

يقول القصاب ان النزاع كان مستمرا بين محلة الغربي ومحلة الشرقي ، وكان القتال ينشب بينهما لاتفه الاسباب . وهو يعزو عوامل القتال بينهما الى :

---

(١) عبدالرزاق الوهاب (كربلاء في التاريخ) ج ٣ ص ١٥ ـ ١٨ .

١ ـ ضعف الادارة .

٢ ـ انتفاع المتنفذين من دية المقتول منهم ، فان نصف الدية تعود لرئيسهم .

٣ ـ سوء سلوك الموظفين وانتفاعهم من الخلافات وخنوعهم للمتنفذين[1] .

الواقع أن المجال يضيق بنا لذكر مختلف النماذج حول سيطرة العصبية المحلية على المدن العراقية . وقد حاولت ذات مرة استقصاء هذه النماذج ، نقلا عن المصادر المتنوعة وتقارير الطلاب ، فاجتمع عندي منها عدد كبير جداً . وربما أتيح لي ذكر بعض هذه النماذج على شيء من الاسهاب في كتاب قادم .

وعلى كل حال فاننا نستطيع أن نتصور شدة استفحال العصبية المحلية في المدن العراقية اذا درسنا وضع تلك العصبية في بغداد . فهذه المدينة كانت ولاتزال أكثر المدن العراقية تحضراً ، وكان النزاع المحلي فيها أضعف مما هو في أية مدينة أخرى ، كما أشرنا اليه آنفا . لكنها مع ذلك كانت تعاني معارك محلية دامية بين آونة وأخرى .

من طريف ما يذكر في هذا الصدد أن المستشرق الفرنسي ، لويس ماسنيون ، كان في بغداد عام ١٩١٢ ، وشهد معركة فظيعة بين محلة باب الشيخ ومحلة الحيدرخانه . وكان سبب المعركة خروج المواكب من المحلات المختلفة عند وصول الخبر الى بغداد حول هجوم ايطاليا على طرابلس ونشوب الحرب بينها وبين الدولة العثمانية . وقد خرجت المواكب في سبيل التظاهر لتأييد الدولة العثمانية وجمع التبرعات لمساعدتها في الحرب . وفي باب المعظم التقى موكب باب الشيخ بموكب الحيدرخانة . فوقع تصادم بينهما وقتال ، كان النصر فيه لموكب باب الشيخ[2] .

---

(١) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) ص ٦٨ ـ ٧٠ .

(٢) لويس ماسنيون (لهجة بغداد العربية) ـ ترجمة أكرم فاضل ـ ص ٨ .

ويقول السيد علي بزركان انه شهد بنفسه ، في حداثته ، معارك حامية الوطيس بين محلة الحيدرخانة والميدان وبين محلة العمار وألبو شبل . وقد شارك فيها الصبيان والشبان ، وقامت النسوة بوظيفة التشجيع . واستعمل المتحاربون الهراوات الغليظة والاحجار الكبيرة . وكانت المعارك تنشب لاسباب تافهة جدا ، وهي تقع تحت سمع الحكومة وبصرها ، فلا تمنعها الحكومة ولا تقضي عليها[1] ...

ويحدثنا الدكتور مصطفى جواد انه حضر معركة ببغداد عام ١٩٢٠ ، بين محلة بني سعيد ومحلة الكرد وباب الشيخ . فخرجت الشرطة اليهم وفرقتهم واعتقلت جماعة من الشبان ، وعاقبتهم بعقوبات مختلفة[2] .

بين المدن والقبائل :

ان المحلات المتنازعة في المدينة الواحدة قد تنسى أحقادها وعصبياتها الخاصة ، اذا هدد المدينة خطر عام . فهي تتحد عندئذ جميعا ضد عدوها المشترك ، حسب المبدأ البدوي القائل : « أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب » .

والخطر العام الذي يهدد المدينة قد يأتي من جهات ثلاث : فهو قد يأتي من قبل قبيلة مجاورة . وهو قد يأتي من قبل مدينة أخرى ، قريبة أو بعيدة . وهو قد يأتي في بعض الاحيان من قبل الحكومة . فاذا جاء الخطر من أية جهة من هذه الجهات الثلاث ، تجمع أهل المدينة كلهم تحت رئاسة رئيس كبير منهم ، وأرسلوا يستنجدون بحلفائهم من أبناء القبائل او المدن الاخرى . ثم أخذوا يستبسلون في الهجوم والدفاع ، كأنهم أبناء محلة او قبيلة واحدة .

مما يجدر ذكره أن القبائل كانت تنظر الى المدن كأنها قبائل مثلها .

---

(١) علي آل بزركان (الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية) ص ٥٧ .
(٢) مصطفى جواد (مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار البغدادى) ص ٩٩ .

وكانت المدن تنظر الى نفسها مثل هذه النظرة . وقد تنشأ بين القبائل والمدن من المحالفات أو الاتفاقات العشائرية مثلما يحدث بين القبائل بعضها مع بعض . وقد تنشب المعارك بين مدينة وقبيلة ، أو تستفحل الثارات والاحقاد بينهما ، كما يحدث بين قبيلة وأخرى .

ذكر السائح نيبور حادثة وقعت في احدى مناطق الفرات الاوسط عام ١٧٦٥ ، وهي أن سفينة كانت تسير في النهر ، وهي مثقلة بالبضائع والركاب ، فارتطمت في قاع النهر . وأخذ بعض الاعراب يقومون بتفريغ حمولتها،فمالت الى جانب،وقتل من جراء ذلك أفراد من الاعراب.وقد دهش نيبور عندما علم بأن الاعراب أخذوا يطالبون مدينة السماوة ومدينة القرنة بدية قتلاهم . وكانت حجتهم في ذلك أن بعض ركاب السفينة كانوا من أهل هاتين المدينتين(١) ... وقد كان المفروض على أهل المدينتين أن يدفعوا دية القتلى لقبيلتهم ، فاذا امتنعوا عن ذلك فربما كانت النتيجة تطور عداء أو قتال أو ثأر بينهم وبين القبيلة .

لو درسنا تاريخ أية مدينة من المدن العراقية لوجدناه غير خال من معركة ، وقعت بينها وبين بعض القبائل المجاورة ، في يوم من الايام . من الامثلة على ذلك ما وقع بين مدينة النجف وقبيلة بني حسن ، وما وقع بين مدينة بلد وقبيلة شمر ، وما وقع بين مدينة كبيسة وقبيلة عنزة ، وما وقع بين مدينة الديوانية وقبيلة الخزاعل ...

يحدثنا الحاج ودّاي العطية عن معركة وقعت بين مدينة الديوانية وقبيلة الخزاعل خلال الحرب العالمية الاولى ، وكان سببها أن أهل الديوانية استولوا على الاسلحة والمعدات الحربية التى تركها العثمانيون عند انسحابهم من المدينة ، وقسموها فيما بينهم . وجاءت قبيلة الخزاعل تطالبهم بقسم من تلك المعدات ، فتنكروا لها وزجروها وأظهروا قلة اكتراث بها . فأضمرت

---

(١) كارستن نيبور (مشاهدات نيبور) ـ ترجمة سعاد العمرى ـ ص ٧٠ ـ ٧١ .

القبيلة العداء لهم . وحدث ذات يوم أن ذهب بعض أهل الديوانية الى النجف يحملون جنازة ميت منهم لدفنها هناك . وكانوا مسلحين وعدتهم ثمانون رجلا . فاعترضتهم القبيلة في الطريق ، وحدثت معركة تشتت فيها شمل أهل الديوانية وقتل منهم ثلاثة رجال[1] ...

لا ننكر أن هذه المعارك بين القبائل والمدن قد زالت الآن ، وذلك بعد أن أصبحت الحكومة قادرة على ضبط الامن وردع المعتدين . لقد وقعت معركة بين مدينة الحي وقبيلة المياح في عام ١٩٥٤ . وهي كادت أن تكون شاذة ، وكان لها صدى كبير في أنحاء العراق . وكان سبب المعركة أن آل ياسين ، شيوخ قبيلة المياح ، يملكون الاراضي المحيطة بمدينة الحي . وقد ضيقوا الخناق على المدينة وحاولوا منعها من التوسع خارج حدودها القديمة . ولم يجرأ موظفو الادارة على العمل لتوسيع المدينة وفك الحصار عنها . وقد أعلن السيد سعيد قزاز ، من وزراء الداخلية السابقين ، أمام المحكمة العسكرية العليا الخاصة ، أنه كان في جدال مستمر مع الشيخ عبدالله الياسين من أجل تخصيص مقبرة لاهل الحي في أراضيه[2] ...

وقد حدثت ذات يوم مشادة كلامية ، بين جماعة من آل ياسين وأحد الباعة من أهل الحي ، تطورت الى اصطدام بين الفريقين . وبعد خمسة أيام هجم نحو مائة من قبيلة المياح صباحا على السراجين والصاغة في سوق الحي . فهبّ بعض أهل الحي لنجدة اخوانهم . فكانت معركة دامية سقط فيها جريحان من القبيلة ، وخمسة عشر جريحا من أهل الحي ، وقد توفى أحدهم بعدئذ ...

وقد أسرع محمد الحبيب ، شيخ قبيلة ربيعة ، ليتوسط في الصلح بين الفريقين . وقد تم الصلح بينهما أخيرا ، ولكنه كان صلحا ظاهريا

---

(١) ودّاي العطية (المصدر السابق) ص ١٤١ ــ ١٤٢ .
(٢) عبدالرزاق الحسنى (المصدر السابق) ج ١٠ ص ١٠٨ .

سرعان ما انقلب الى كارثة في عام ١٩٥٦[١] ، عند اشتداد المظاهرات في الحي ضد الاعتداء الثلاثي على مصر .

بين المدن والحكومة :

الواقع أن القتال بين الحكومة والمدن كان نادر الحدوث في العهد العثماني . وهذا على النقيض مما كان يقع من معارك متواصلة بين الحكومة والقبائل . ويبدو أن أهل المدن كانوا يشعرون بالعجز تجاه مدافع الحكومة وجيوشها الجرارة . فهم يخافون على دورهم وأسواقهم أن تهدم بالمدافع وتنهب من قبل الجنود . اما القبائل فكانت لا تعير ذلك أهمية كبيرة ، فليس لديها من الدور الثابتة والأسواق العامرة ما تخشى عليه . وهي تستطيع أن تهرب من جيوش الحكومة ومدافعها ، فتلجأ الى الاهوار او تتوغل في فيافي الصحراء .

لم يقع بين الحكومة والمدن من المعارك في العهد العثماني الا عدد محدود جدا . وكان أشهر تلك المعارك تلك التي جرت في عهد الوالي نجيب باشا عام ١٨٤٢ ، في مدينة كربلاء . وخلاصتها أن شخصا اسمه السيد ابراهيم الزعفراني ترأس جماعة من أهل المدينة أطلق عليهم اسم « اليرمازية »[٢] . وقد تقوت هذه الجماعة ونما عددها بمرور الايام ، حيث كان يلجأ اليها ، أو ينتمي اليها ، كل من يهرب من وجه الحكومة من انحاء العراق المختلفة . وقد سيطرت الجماعة على المدينة منذ عهد داود باشا . ولما جاء الوالي علي رضا باشا الى العراق أرسل جيشا الى كربلا وحاصرها . فخرج فقهاء البلد ووجهاؤها اليه ودفعوا له سبعين ألف « قران » ، فرضي الوالي وترك كربلاء[٣] . وعندما جاء الوالي نجيب باشا

---

(١) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٨٦ ــ ٨٧ .

(٢) « يرماز » كلمة تركية معناها الذين لا ينفعون لشيء ، ويقصد بهم الاشرار من طبقات المجتمع [انظر : رحلة فريزر ــ ترجمة جعفر الخياط ــ ص ١٧٨] .

(٣) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) ج ٧ ص ٦٥ .

عزم على تأديب كربلا وارجاعها الى سيطرة الحكومة . فأنذرها بوجوب الخضوع ونـزع السـلاح ، وأمهلها شـهرا كاملا . فلم تستجب كربلا لانذاره . فوجه اليها جيشا قويا ومعـه المدافع . وحاصـر المدينة ثلاثة وعشرين يوما . وقد تحصّن الاهالي داخل المدينة بحماية سورها المنيع . ولكن المدافع أحدثت ثغرة في السور من جهة « باب الخان » . فذهب بعض الاهالي الى القبائل المجاورة ، كآل فتلة وآل يسار وآل زغبـة ، يستنجدون بها . واشتدت المعركة حيث بلغ عدد القتلى فيها عدة آلاف[1]. وقد انتصر الجيش العثماني فيها أخيرا . ودخل في حضرة العباس فقتل من لاذ به . ونهب المدينة مدة أربع ساعات . ثم نادى منادى الامان[2] ...

وأثناء الحرب العالمية الاولى أعلنت العصيان على الحكومة العثمانية ثلاث مدن عراقية ، هي كربلا والنجف والحلة . فأرسلت الحكومة جيشا بقيادة « عاكف بك » الى الحلة اولا ، وكأنها أرادت أن تجعلها عبـرة لغيرها . فاحتلت المدينة وشنقت من أهلها سبعين رجلا . ثم هدمت احدى محلاتها ، وسبت بعض نسائها . وكانت واقعة فظيعة اشتهرت بـ « واقعة عاكف » . وأراد عاكف أن يتوجه الى كربلا ليفعل بها ما فعل بالحلة ، ثم يتوجه من بعد ذلك الى النجف . ولكنه لم يفعل[3] ... والمظنون أن الحكومة العثمانية خشيت من هياج الرأي العام عليها أثناء الحرب ، ان هى انتقمت من النجف أو كربلاء مثل ما انتقمت من الحلة . وعلى أي حال ، فقد بقيت النجف مستقلة زهاء عامين ، حيث صارت تحكم نفسـها بواسطة رؤساء محلاتها . وربما فعلت كربلاء مثلها . وقد أخذ الفارّون من الجندية ، خلال الحـرب ، يلوذون بالنجف فيجـدون فيها الامـان والحماية . وكان من جملة هؤلاء الفارين والد كاتب هذه السطور .

وقد أتيح لي أن ألتحق بالوالد مع العائلة حينذاك ، وكنت صبيـا

---

(١) سلمان هادي الطعمة (تراث كربلاء) ص ٢٧٢ .
(٢) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج ٧ ص ٦٦ .
(٣) مجيد الموسوي (الحاج عطية أبو گلل) ص ١٠٣ .

صغيرا . ولا أزال أذكر ما كانت عليه النجف في تلك الفترة من وضع اجتماعي عجيب . فكانت كل محلــة من محلاتها الاربع لها رئيس خاص بها ، وهو يحكمها حسب التقاليد العشائرية ، وله أعوان مسلحون ينفذون أوامره . وقد تنشب أحيانا بعض المنازعات بين « الزقرت » و « الشمرت » ، فتغلق الدكاكين ، ويلجأ الناس الى بيوتهم ، وينطلق الرصاص من كل جانب .

القتال بين المدن :

لم يكن القتال بين المدن قليل الحــدوث في العهــد العثماني . فاذا تجاورت مدينتان ، وكانت المسافة بينهما غير كبيرة ، فقد ينشأ بينهما خصام حول بعض الامور ، وقد يتطور الخصام الى قتال او عداء طويل الامد ، كمثل ما حدث بين راوة وعانة ، أو بين بلد والدجيل . وقد ينشأ العداء بين مدينتين متباعدتين ، حين تكون هناك مناسبات أو مواسم عامة يشترك فيها أهل المدينتين ، كمثل ما حدث بين الكاظمية والنجف في موسم زيارة « الاربعين » وغيرها .

تروى في العراق نكتة تشــير الى العــداء المستحكم بين أهل راوة وعانة . وخلاصتها أن رجلا من أهل عانة كان يقرأ كتابا قديما ، وكان يعثر فيه بين كل حين وآخر على عبارة « قال الراوي ... » . فغضب الرجل من ذلك وأسرع الى القلم ليشطب به اسم « الراوي » ويضع مكانه اسم « العاني » . فصار الكتاب مملوءا بعبارة « قال العاني ... » .

وهناك نكات وقصص أخــرى كثيرة تــروى حول موضوع العــداء الموجود بين مدينة وأخرى في العراق . ولعل من المجدي في هذا الشــأن أن استعرض باختصار قصة العداء الذي أشتد بين أهل الكاظمية وأهل النجف . وهو عداء اشتهر أمره في العراق منذ زمن غير قصير . وهــو يصور لنا طبيعة الوضع الاجتماعي الذي كان سائدا في العراق في العهد العثماني .

عداء الكاظمية والنجف :

بدأ هذا العداء منذ السنوات الاولى من القرن العشرين . وسببه أن رجلا من أهل الكاظمية كان يتعهد نقل الجنائز من الكاظمية الى النجف ، وكان جريئا شجاعا يحمل البندقية لكي يستطيع أن يحمي بها الجنائز في طريقها الى النجف . وحدث ذات يوم أن تعرض له في الطريق جماعة من أهل النجف ، فوقعت مصادمة بينه وبينهم ، واستطاع أن يقتل منهم رجلين ، ثم رجع الى الكاظمية سالما . واستعد أهل النجف لاخذ الثار ، فعثروا على رجل من أهل الكاظمية فقتلوه . ولما وصل الخبر الى الكاظمية اجتمع رؤساء محلاتها ليناقشوا الامر ويطالبوا بالثأر أو الفصل ، حسبما تقتضيه التقاليد العشائرية السائدة .

استقر رأى الرؤساء أن يؤسسوا في الكاظمية « حلفا » عشائريا ، كما هو الحال في النجف وفي اكثر المدن العراقية . والظاهر أن الكاظمية لم ينشأ فيها مثل هذا الحلف من قبل لقربها من بغداد ، مقر الوالي ومركز الجيش والسيطرة الحكومية . وبعد مناقشة حادة اختلف الرؤساء حول من يولـّونه مشيخة الحلف . فكان رئيس البلدية ، السيد جعفر عطيفة ، يريد تولي المشيخة على الجميع ، ولكن بعض الرؤساء عارضوه وعنّفوه . فهو في نظرهم غني وافر الثروة ولكنه ليس له عشيرة أو عائلة قوية تسنده . فغضب السيد جعفر من ذلك وذهب الى الوالي سرا يخبره بوجود مؤامرة في الكاظمية يراد بها عصيان الحكومة والتمرد عليها . وقد صدق الوالي بقولـه بعد أن قبض منه رشوة كبيرة . فأصدر الوالي أمـرا بنفي رؤسـاء الكاظمية الى الاناضول ...

مهما يكن الحال فقد ظل العداء بين النجف والكاظمية قائما ، وصار الثأر بينهما مستمرا . وفي عام ١٩٢٩ وقعت معركة عنيفة بين أهل الكاظمية والنجف اثناء زيارة « الاربعين» في كربلاء ، قتل فيها رجل من أهل النجف اسمه « دعبول » . وهجم أهل الكاظمية على مخيم النجف فقطعوا أطنابه وأراقوا أباريق القهوة فيه . ثم ذهبوا الى صحن العباس يهزجون أهازيج النصر والفخار ...

كنت في كربلاء عندما وقعت الواقعة . وقد شهدت في اليوم التالي أهل الكاظمية يخرجون في موكب عام واحد اشترك فيه جميع محلاتهم . وهذا خلاف ما اعتادوا عليه من قبل ، اذ كانوا يخرجون في مواكب متعددة حسب تعدد محلاتهم . وكانوا في ذلك اليوم لا يلطمون صدورهم كما جرت العادة عليه ، بل كانوا يلوّحون بأيديهم وكأنهم يشيرون بها اشارة التحدي والمغالبة ، ويهزجون قائلين «حيّ روايا الكواظم حيّ أهاليها ....».

وقد شبهتهم بقبيلة تهزج أهازيج النصر بعد معركة نالت الغلبة فيها على قبيلة أخرى .

وفي عام ١٩٤٥ حاول بعض الوجهاء في الكاظمية انهاء حالة العداء والثأر بينهم وبين أهل النجف . فاجتمعوا في دار أحدهم ذات ليلة ، يناقشون الطريقة التي ينبغي أن يتم الصلح بها بين المدينتين . وقد نشب خلاف بينهم حول الموضوع : فهل يجب أن يذهب أهل الكاظمية الى النجف ، ام يأتي أهل النجف الى الكاظمية ؟ واستقر رأيهم أن يستدعوا أحد الخبراء بالعرف العشائري ليحسم هذا الخلاف بينهم .

أيقظوا الشيخ حسن السهيل ، شيخ بني تميم ، من نومه وجاءوا به الى مكان الاجتماع . وكان رأي الشيخ أن العرف العشائري يقضي على الفريق الذي أراق أباريق القهوة أن يذهب الى خصمه يسترضيه ويناشده الصلح . وقد استنكر هذا الرأي أحد رؤساء الكاظمية . انه قال بأن الصلح يجب أن يتم في كربلا ، حيث يأتي اليها أهل الكاظمية وأهل النجف معا ...

لم يكن الاجتماع على أي حال مجديا ، وانتهى من غير طائل . وظل ثأر « دعبول » قائما حتى هذه الساعة ـ مع الاسف الشديد !

ان من يدرس تفاصيل هذه القضية يدرك مبلغ استفحال القيم البدوية في المجتمع العراقي . فاذا كانت هذه القيم مؤثرة في العراق في منتصف القرن العشرين ، فليت شعري كيف كان تأثيرها في القرن الماضي او الذى قبله ؟! واذا كان هذا وضعها بين أهل المدن ، فكيف يمكن أن يكون وضعها بين أبناء القبائل ؟!

الفصل الثامن

تكوين الشخصية في الريف

الشخصية بمعناها العلمي عبارة عن تركيب نفسي يتألف من صفات مختلفة ، وهو يميل نحو الانسجام والتوافق مع الثقافة الاجتماعية السائدة . فكل انسان يملك شخصية خاصة به تميزه عن غيره من الناس . والناس يختلفون في نمط شخصياتهم تبعا لتفاوت مقدرتهم على التجاوب مع الثقافة الاجتماعية السائدة . فمنهم من ينجح في ذلك ومنهم من يفشل . واكثر الناس في الواقع هم ناجحون وفاشلون في آن واحد . واختلافهم ينشأ عن نسبة النجاح والفشل في تكوين شخصياتهم .

ان العوامل النفسية والاجتماعية التي تؤثر في الانسان منذ ولادته هي التى تجعل شخصيته على النمط الذى نلاحظه فيها عند كبره في الغالب . فنحن حين نرى انسانا ذا صفات سيئة لا يجوز أن نضع كل اللوم عليه في ذلك . فهو صنيعة ظروفه وعوامله النفسية والاجتماعية . ولو كنا في مثل ظروفه لاتصفنا بمثل صفاته على أكثر الاحتمال .

كان المفكرون القدماء يعتقدون أن الانسان يكون في صفاته حسنا او قبيحا حسب نضوج عقله وسلامة تفكيره . وهذا رأي اتضح خطأه أخيرا في ضوء البحوث العلمية الحديثة . ان التفكير نفسه يخضع للعوامل النفسية والاجتماعية المحيطة به . ان نمط التفكير ، بعبارة أخرى ، هو أحدى الصفات التي تتألف منها الشخصية ، وهو اذن مثلها صنيعة الظروف المحيطة

به . وقد أشرنا من قبل الى أن الانسان حين يفكر انما يجري في تفكيره على نمط ما أوحى اليه المجتمع الذى نشأ وعاش فيه . فاذا وجدناه أحيانا يخالف مجتمعه في بعض آرائه ، فمرجع ذلك الى تأثير عوامل جاءت اليه من مجتمع آخر ، عن طريق السفر أو القراءة أو السماع أو غيره . أما الانسان المحصور في نطاق مجتمعه الضيق ، وهو لا يعرف غيره ، فليس من الممكن أن يخالف مجتمعه في التفكير الا نادرا[١] .

رأي ونقد :

لاحظ المؤرخ عباس العزاوي أن كثيرا من القبائل البدوية التي جاءت من الصحراء الى العراق فقدت بعض صفاتها الحميدة ، كالصدق والصراحة والامانة وغيرها ، مع العلم انها ظلت متمسكة بتقاليدها البدوية القديمة كالغزو والعصبية والثأر . ويعتقد العزاوى أن من الممكن توجيه تلك القبائل وارشادها ، عن طريق التعليم والتلقين ، لكي تبقى محافظة على صفاتها الحسنة وتترك الصفات السيئة[٢] .

الواقع أن هذا الرأى الذى جاء به العزاوى جميل من الناحية النظرية ، ولكنه من الناحية العملية صعب التحقيق ، او هو يكاد يكون مستحيلا . ان التعليم ، او التلقين ، قد يملأ ذهن الانسان بالافكار العالية ، ولكنه لا يستطيع أن يؤثر في شخصية الانسان تأثيرا فعليا . فالشخصية هي نتاج الظروف الواقعية ، كما ذكرنا آنفا . فنحن اذا ملأنا ذهن الانسان بالافكار العالية ، ولم نحاول تغيير ظروفه الواقعية ، أدى ذلك الى ظهور بعض معالم ازدواج الشخصية فيه ، اذ هو يأخذ بالتحذلق بالاقوال

---

(١) ان هذا موضوع مهم من مواضيع علم الاجتماع الحديث . وقد كان مقررا في منهج الصف الرابع من قسم الاجتماع بجامعة بغداد ، وقمت بتدريسه بضع عشرة سنة متتابعة . ولكنه ألغي مؤخرا — مع الاسف الشديد

(٢) عباس العزاوى (عشائر العراق) ج ٣ ص ١٩ — ٢٣ .

« الرنانة » التي علمناه بها ، بينما هو في حياته العملية يجري على الضد منها حسب ظروفه[1] . وقد صدق من قال : « غيّر ظروف الانسان تتغير أخلاقه ! » .

ظروف الريف العراقي :

الهدف الاعلى لكل فرد من أبناء القبائل العراقية هو أن يتبع القيم البدوية بحذافيرها . وهذه القيم هي مناط المفاخرات والمشاتمات في الريف . ومعنى ذلك أنها تبعث في كل فرد ميلا قويا نحو الاتصاف بصفات الفخار ، والابتعاد عن صفات الشتيمة . ولكن المشكلة أن الظروف في الريف العراقي تضطر الفرد احيانا الى الانحراف عن القيم البدوية ، قليلا او كثيرا .

أكثر الظروف الموجودة في الريف العراقي غير موجودة نسبياً في الصحراء . واذا علمنا أن القيم البدوية نشأت في الصحراء ، وتكيفت للحياة فيها ، أدركنا مشكلة تلك القيم عند انتقالها الى الريف العراقي .

يمكن إجمال الظروف الريفية بما يلي :

(١) وجود سيطرة الحكومة . فهذه السيطرة ولو كانت في العهد العثماني ضعيفة ، انما هي كانت موجودة على كل حال ، وكان لها أثر لا يستهان به في المجتمع الريفي .

(٢) وجود الأسواق التي تعرض فيها المنتجات الزراعية ، ويشترى الريفيون منها حاجاتهم . وكان للمرابين في هذه الاسواق أثر فعّال .

(٣) بداية بعض بوادر الاقطاع في الريف ، حيث صار بعض رؤساء

---

(١) ان موضوع ازدواج الشخصية في العراق سنبحث فيه باختصار في فصل قادم . وسنبحث فيه بتفصيل في كتاب قادم عنوانه « ازدواج الشخصية في العراق قديما وحديثا » .

القبائل والاتحادات القبلية الكبيرة يتعسفون في معاملة أتباعهم ، ويميلون الى حياة الترف .

(٤) ظهور « دافع الربح » وحب المال لدى بعض الريفيين ، لا سيما المتصلين منهم بالاسواق والمدن . فهم يصيرون بقالين أو مرابين أو عمالا في بعض المواسم .

(٥) استفحال بعض الامراض المتوطنة في الاوساط الريفية كالملاريا والبجل والبول الدموي والزحار والسل وأمراض الديدان المختلفة .

(٦) استغلال المرأة الريفية ، وارسالها الى الاسواق للبيع والشراء . فهي قد تتأثر بأخلاق الحضر ، وربما انزلقت في مهاوى الرذيلة .

الضيافة في الريف :

يحاول الشيخ الريفي أن يتشبه بالشيخ البدوى في جميع قيمه واخلاقه . فهو يود أن يكون شجاعا كريما يحمي الجار والدخيل واللاجيء والضعيف ، ويجلس في المضيف ليحل مشاكل قبيلته ، وهو يقود القبيلة في الحرب ويمثلها في المفاوضات . ولكن الى أي مدى يستطيع الشيخ الريفي أن يكون كالشيخ البدوي ؟

ان أول مظهر للتشابه بين الشيخ الريفي والشيخ البدوي هو في قيم الضيافة . إن المضيف الريفي ليس خيمة كبيرة كما هو الحال في الصحراء ، بل هو كما وصفه سيتن لويد يشبه الهياكل السومرية القديمة ، حيث يبنى من القصب والطين ، ويكون طوله وعدد « حناياه » حسب مكانة الشيخ وتقاليد اسرته . والشيخ الريفي لا يجوز أن يستأجر عمالا محترفين لبناء مضيفه ، بل يجب أن يطلب من أبناء قبيلته أن يتعاونوا في بنائه . وليس على الشيخ الا تقديم الطعام لهم أثناء البناء .

ولكن المضيف الريفي يكاد لا يختلف في أكثر تقاليده وقيمه الاجتماعية عن المضيف البدوي . ففيه تقدّم القهوة حسب القواعد المتعارف عليها . وفيه يقدم الطعام لكل ضيف مهما كان . وكلما كان الضيف رفيعا

في مكانته الاجتماعية كثر عدد « الذبائح » التي تنحر له . واذا سمع أهل القرية رنين الهاون التي تدق فيها القهوة أدركوا أن هناك ضيفا حل في مضيف شيخهم ، فيتهافتون للسلام على الضيف ، وهم يتوقعون أن يشاركوه في طعامه « احتراما له » .

ان أهل القرية يتمنون أن يكون الضيف رفيع الشأن لكي يكون الطعام المقدم له وفيرا ، وهم عندئذ سينعمون بتناول اللحم والرز وغيرهما من أفانين الطعام الدسم الذى لم يعتادوا أن يتناولوه في بيوتهم الا نادرا .

ان سمعة الشيخ الريفي ترتفع وتشيع أخبارها كلما كان طعامه في المضيف أدسم وأوفر . يقال مثلا عن مشتت الخليفة . شيخ ألبو محمد ، ان أرض مضيفه بقيت بعد وفاته ، لمدة ثلاثين سنة ، لا ينبت فيها أي نبات لكثرة ما أريق فيها من السمن أثناء تقديم الطعام للضيوف[1] . وهناك أسرة من آل فتلة اشتهرت باسم « ألبو هدلة » . وقد جاءتها هذه الشهرة لان الطعام كان « يهدل » من الصحون التي كانت تقدم في مضيفها[2] .

منذ عشرين سنة تقريبا زار بضعة رجال من وجهاء ايران احدى قبائل الفرات الاوسط ، وحلوا ضيوفا عند شيخها . فقدم لهم كمية هائلة من الطعام تكاد تكفي للمئات من الناس . فدهش الايرانيون من ذلك ، ولم يعرفوا السبب فيه . الواقع أن الشيخ انما قدم الطعام الوفير احتراما لضيوفه ، وقياما بواجب الضيافة لهم حسب التقاليد السائدة في الريف العراقي . وهذا الطعام سوف لا يذهب سدى ، بل سيأكله أهل القرية ، ويتخمون به بطونهم الخاوية . ان الضيافة في الريف ، كما هي في البداوة ، لها وظيفة اجتماعية مهمة . فالشيخ ينال بها السمعة ، واتباعه ينالون بها ما يحتاجون اليه من الطعام « اللذيذ » .

يقول السيد أحمد فهمي : ان أكثر أهل القرى في الريف العراقي يعيشون في حالة من البؤس والحرمان ، ولا يتذوقون اللحم الا

---

(١) محمد باقر الجلالي (موجز تاريخ عشائر العمارة) ص ١٥ .
(٢) أ . س . ح (آل فتلة كما عرفتهم) ص ٥٥ .

عندما يأتي الى شيخهم ضيف محترم • فهم عند ذلك يتهافتون على المضيف دون أن يدعوهم أحد • ولكنهم عندما يُدعون الى الطعام لا يلبون الدعوة الا بعد النداء عليهم مرارا « قم ، قم ، فلان » • فهم يتظاهرون بالتمنع والتعفف • وتلك ظاهرة تلفت الانظار[1] •

انهم جاؤا الى المضيف بقصد الاكل ، ولكن تقاليدهم البدوية تدفعهم الى اخفاء قصدهم وعدم التظاهر به • فهم يزعمون انهم جاؤا لتحية الضيف ولكن بطونهم تهوى الطبيخ و « تقرقر » في سبيله •

ان الرجل الريفي قد يعاني صراعا نفسيا من هذه الناحية ، كمثل ما يعانيه من نواح أخرى كما سيأتي • فهو قد ورث من البداوة عزة النفس والأنفة ، ولكن ظروفه المعاشية السيئة تجعله في بعض الاحيان شرها ذليلا •

الدخالة في الريف :

الشيخ الريفي يود أن يكون مشهورا بحماية الجار والدخيل واللاجىء كمثل ما يكون مشهورا بالكرم والضيافة • وهناك قصص كثيرة تروى عن أهمية الدخالة في الريف كتلك التي تروى عنها في البداوة •

يروى أن رجلاً من احدى القبائل الريفية لاذ « دخيلاً » بشيخ قبيلة أخرى • وصادف أن ابن الشيخ قتل ابن الدخيل فتألم الدخيل من ذلك وعزم على ترك القبيلة التي قتل ابنه فيها • ولما عرف الشيخ بالأمر استشاط غضبا وشعر بما سيحل به من العار نتيجة ذلك • فأسرع الى قتل ابنه ، ثم طلب من الدخيل أن يبقى في دخالته ما دام قد أخذ بثأر ابنه[2] •

لقد خسر الشيخ ولده ، ولكنه كسب بذلك فخارا بين القبائل • ولو انه خضع لعاطفة الابوة وحافظ على حياة ولده لانحطت سمعته وأمسى محتقرا •

---

(١) أحمد فهمي (تقرير حول العراق) ص ٢٤ •
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦ ــ ٢٧ •

هنا نقف لنسأل : هل يستطيع الشيخ الريفي ان يكون حاميا للدخيل في جميع الاحوال على منوال ما يفعل الشيخ البدوى في الصحراء ؟

الواقع أن الشيخ الريفي يحاول جهد امكانه ان يكون كالشيخ البدوي في حماية الدخيل . ولكنه قد يعجز عن ذلك أحيانا بسبب وجود الحكومة . فاذا هرب هارب من وجه الحكومة والتجأ دخيلا الى أحد الشيوخ ، ثم أخذت الحكومة تهدد الشيخ لكي يسلم لها دخيله ، فماذا يفعل الشيخ تجاه ذلك ؟ انه يقع بين نارين . فاذا سلم الدخيل حل به العار ، واذا أصر على حمايته حل به غضب الحكومة . والشيوخ يختلفون في هذا الشأن ، فمنهم من يؤثر العار على غضب الحكومة ، ومنهم من يؤثر العكس من ذلك .

ذكر الحاج ودّاي العطية أن مطلق الكريدي شيخ الخزاعل غلبته الحكومة بعد عصيانه لها وأخذت تطارده . فلجأ دخيلا الى نصيف بن درويش شيخ ربيعة . ولكن الشيخ نصيف غدر به وسلمه الى الحكومة . وقد اعتذر بأن الحكومة اضطرته الى ذلك ، فلم يقبل الناس هذا العذر منه ، وصارت صحيفته وصحيفة قبيلته ملطخة بالعار والفضيحة . وقد استطاعت قبيلة الخزاعل أخيرا أن تنتقم من قبيلة ربيعة فغزتها وأوقعت بها قتلا ونهبا كثيرا . ثم انتهت الخصومة بين القبيلتين بتوسط بعض رؤساء زبيد ودفعت ربيعة الدية للخزاعل[1] ...

وهناك قصة أخرى على الضد من هذه . ففي عام ١٩٢٧ قتل عبدالعباس المزهر من آل فتلة أخاه ، والتجأ دخيلا الى أحد شيوخ بني ركاب . فحماه الشيخ من مطاردة الشرطة ، حتى اضطر أن يخفيه مع عائلته ونسائه[2] ...

---

(١) ودّاي العطية (تاريخ الديوانية) ص ٤٩ ـ ٥٠ .
(٢) عبدالجبار فارس (عامان في الفرات الاوسط) ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

ظهور الاستبداد في المشيخة :

حين نقارن بين المشيخة البدوية والمشيخة الريفية نلاحظ ظهور بعض الفروق بينهما ، لا سيما بعد اشتداد سيطرة الحكومة في الريف العراقي ، منذ منتصف القرن التاسع عشر .

من هذه الفروق أن الشيخ الريفي أخذ يميل نحو الاستبداد والظلم ، قليلا أو كثيرا ، بخلاف سلفه البدوي . فالشيخ البدوي لا يستطيع أن يكون مستبدا بأمره أو مستغلا لابناء قبيلته ، أو قاسيا في معاملته لهم . وهو لو فعل ذلك لنفرت القبيلة منه وانفضت من حوله ، ثم التفت حول منافسه من اخوانه أو أبناء عمه ، حيث تجعله شيخا مكانه . ان الشيخ البدوي هو كما وصفه ابن خلدون : متبوع لا قاهر[١] . فهو يستمد وجاهته ورئاسته من التفاف قبيلته حوله واحترامها له ، فليس لديه قوة ، أو حرس خاص ، يفرض بهم أمره على القبيلة .

أما في الريف العراقي فقد بدأ الحال يتغير لدى بعض الشيوخ ، لاسيما اولئك الذين يرأسون قبائل او اتحادات قبلية كبيرة . فالشيخ منهم يتعهد للحكومة بالتزام جباية الضرائب من العشائر والافخاذ الخاضعة له . وهو قد يؤلف له حرسا خاصا به ، ويتخذ عددا كبيرا من العبيد ، ليساعدوه في جباية الضرائب وفرض العقوبات والمغارم على اتباعه .

مما يذكر عن بعض الشيوخ الكبار أن لهم سجونا ووسائل للتعذيب والعقوبة . وهم يتخذون أبراجا للاغراض الحربية تسمى « المفاتيل » . واستطاع فيصل الخليفة شيخ ألبو محمد أن يجلب الخبراء ليصنعوا له المدافع . وكان للشيخ محمد العريبي حرس مسلحون بالبنادق يبلغ عددهم (٥٥٠) رجلا ، ويطلق عليهم اسم « الحوشية » . وهؤلاء ليس لهم من عمل سوى تنفيذ أوامر الشيخ وجباية الاموال له[٢] .

كان بعض الشيوخ الكبار لا يترددون عن ايقاع العقوبة الصارمة على

---

(١) ابن خلدون (المقدمة) ص ١٣٩ .
(٢) محمد باقر الجلالي (المصدر السابق) ص ١٥٤ .

من يخالف أمرهم أو يقصر في دفع المبالغ المفروضة عليه . يذكر مثلاً عن وادي بن شفلح شيخ زبيد أن الحكومة العثمانية عيّنته رئيسا عاما على قبائل الفرات الاوسط في عام ١٨٣٣ ، وعينت له كاتبا هو الملا جاسم الهندي . وكان الشيخ وادي ذا كرم حاتمي ، فانجذبت اليه القبائل . ولكنه كان قاسيا جدا في جباية الضرائب . وقد بلغ تعسفه فيها الى درجة أنه أقام في كل ناحية من منطقته بيادر العاقول ، وهو نوع من الشوك ، وأخذ يأتي بالشيوخ الذين تخلفوا عن دفع الضرائب ، فيأمر بشدهم بالحبال كما تشد الاباعر والحمير ، ويدوس بهم بيادر العاقول ، تعذيبا لهم وتحقيرا[١] .

يبدو أن بعض الشيوخ الكبار استطاعوا أن يكونوا قساة الى هذه الدرجة اعتمادا على تأييد الحكومة لهم . فالحكومة العثمانية أصبحت منذ منتصف القرن التاسع عشر قادرة ، في كثير من الاحيان ، على تنصيب الشيوخ وعلى عزلهم . والشيخ يحتاج أحيانا الى « فرمان » سلطاني لكي يكون به شيخا . والحكومة لا تبالي ما يصنع الشيخ في داخل منطقته مادام يؤدي المبلغ الذى تعهد لها بجبايته ، كله أو بعضه ، ويظهر الطاعة والاحترام لموظفي الحكومة .

جاء في جريدة الرقيب البغدادية الصادرة في ٢٥ شباط من عام ١٩٠٩ : أن الحكومة أحالت قسما من أراضي قبيلة جحيش الى شيخ البو سلطان ، فأثار هذا العمل ثائرة الجحيش وتأهبوا لقتال ألبو سلطان . فلم تكترث الحكومة لذلك ، وقال قائمقام المنطقة : « بأسهم بينهم » . وكانت النتيجة أن وقعت الواقعة بين القبيلتين ، وقتل وجرح منهما نحو ألف أو يزيدون[٢] .

يمكن القول ان الشيخ الريفي صار في مثل هذا الوضع لا يخلو من بعض مظاهر ازدواج الشخصية . فالقيم البدوية تدفعه من جانب نحو الشهامة والمروءة ، وسطوة الحكومة تدفعه من الجانب الاخر نحو

---

(١) ودّاي العطية (المصدر السابق) ص ٤٠ ــ ٤٢ .
(٢) عبدالله الفياض (الثورة العراقية الكبرى) ص ٢٤ .

H

الاستبداد والظلم . والظاهر أن الشيوخ كانوا متفاوتين في درجة هـذا الازدواج لديهم . فمنهم من كان أكثر ميلا الى جانب المروءة ومنهم كان أكثر ميلا الى جانب الاستبداد .

أخلاق الشيوخ :

مهما يكن الحال فقد أخذ الشيخ الريفي بوجه عام يجنح نحو أخلاق الترف والتملق تجاه الحكومة ، وأخذ يهمل بالتدريج أخلاق العزة والصراحة التي اتصف بها أسلافه البدو . وصارت المجاملات المزيفة تنتشر بـين الشيوخ . وانتشرت بينهم كذلك عادة الكلام المبطن . وهو الذى يعرف عندهم بـ « الحسچة » .

يقول الاستاذ جعفر الخليلي : ان هذا الكلام يختص بالشيوخ عادة . ولهم تفنن فيه . فهم يأتون فيه بالكنايات وضرب الامثـال ، ويصيبون بها الهدف من طريق غير مباشر . واذا أرادوا وصف شخص منهم باللباقة والذكاء وسرعة النكتة قالوا عنه انه « حسچاوي » . وهم يفهمون المعاني الحقيقية في كلام « الحسچة » غالبا . فاذا لم يفهمها الشخص اعتبروه بليدا[1] .

صار كثير من الشيوخ ينغمسون في حياة الترف واللذة ، المشروعة وغير المشروعة . واتخذوا لهم دورا مشيدة الى جانب مضايفهم القصبية ، وربما اتخذ بعضهم الدور العامرة في المدن . ومال بعضهم الى اختيار الفتيات الجميلات ليتزوجوهن رغم أنفهن أو أنف أهلهن . يبدو أن الامـوال الكثيرة التي صارت تتوافر لدى البعض منهم ، من جراء التزامهم جباية الضرائب ، أغرتهم بالاندفاع في هذا السبيل .

يقال مثلا عن الشيخ مبدر الفرعون من آل فتلة أنه كان مترفا يميل الى اللذات ويبذل فيها مبالغ كثيرة . ذكر السيد علي بزرگان عنه أنـه

(١) أ . س . ح (المصدر السابق) ص ١١٠ .

كان يبذل في كل ليلة على الراقصات والمومسات خمسين ليرة ذهبية[1] . والمظنون ان هذا خبر مبالغ فيه ، انما هو لا يخلو من بعض الحقيقة على أي حال . سمعت عن بعض الشيوخ أنهم كانوا مولعين بالراقصات الغجريات ، وقد بلغ الطرب بأحدهم ذات ليلة ، عندما انطفأ الضوء أثناء الرقص ، أن صار يحرق الاوراق النقدية من أجل الاضاءة .

لا أنكر أن هذا كان أمرا قليل الحدوث بين الشيوخ في العهد العثماني ، غير انه على قلته يدل على بداية ظهور التغير في طبيعة المشيخة الريفية . وقد ازداد هذا التغير استفحالا بعد تشريع قانون « التسوية » في عام ١٩٣٢ . فقد بدأت الحكومة العراقية منذ ذلك الحين بمسح الاراضي الزراعية ، وتحديدها ، وتسجيلها بأسماء الشيوخ . فصار الشيخ الريفي ميالا الى ترك قريته والى سكنى العاصمة ، حيث أخذ يخالط « الافندية » ويقلدهم في حياة الترف ، شيئا فشيئا . وسنعود الى ذكر ذلك على شيء من التفصيل في كتاب قادم .

اخلاق الفلاح العراقي :

عندما تتغير أخلاق الشيوخ في الريف ، فلابد أن يتأثر بهم أتباعهم أو يقلدوهم فيها . ولعلني لا أغالي اذا قلت ان الفلاح من أبناء القبائل قد تغيرت أخلاقه ، أو تفككت ، أكثر مما تغيرت أخلاق الشيوخ . فالفلاح أصبح واقعا تحت ضغط شديد يدفعه نحو اهمال الاخلاق البدوية القديمة . وهذا الضغط قد جاءه من نواح عديدة نجملها فيما يلي :

(١) ضغط الموظفين والجباة : ان من أهم الامور التي يخشاها الفلاح العراقي في حياته هو أن يأتيه الموظفون والجباة ليحصوا أغنامه أو يخمنوا حاصلاته الزراعية في سبيل فرض الضريبة عليه . فهو يحاول التهرب منهم أو الكذب عليهم لكي يتخلص من جزء من الضريبة بقدر الامكان . وهو

---

(١) علي آل بزركان (الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية) ص ٣٤ .

يحلف لهم بأغلظ الايمان لـكي يجعلهم يصدقون بقوله في هذا الشأن • وهو قد اعتاد أن يكون ذليلا خنوعـا تجاههم ، يتحـمل منهم الصفعـات والاهانات ، فلا يعترض أو يحتج •

ان الفلاح العراقي قد يكون عزيز النفس أبيا أنوفا تجاه أقرانه من أبناء القبائل • ولكنه لا يكاد يلمح موظفي الحكومة قادمين اليه حتى يتقمص أمامهم شخصية أخرى • فهو يدرك أن الانفة تجاه الحكومة قد تجر عليه أشد البلاء •

والمشكلة في الفلاح العراقي أنه لا يخشى من موظفي الحـكومة فقط ، بل هو يخشى أيضا من جلاوزة الشيوخ الـكبار • فهم جميعا يطلبون منه أن يدفع أكثر مما يقدر عليه ، ولابد له من أن يتخذ صفات الـكذب والتملق واليمين الـكاذبة ويتظاهر بالمسكنة ، لـكي يدرأ عن نفسه بعض المصيبة • وقد زادت المصيبة عليه منذ عام ١٩٣٥ عندما بدأت الحـكومة تفرض التجنيد الاجباري عليه • فهو عندئذ أصبح يعاني ضغطا مثلث الجوانب ، وكل جانب منه يدفعه نحو التفكك الخلقي دفعا •

(٢) وهناك ضغط آخر يقع على الفلاح من جراء فقره المدقع • فالفلاح لا يملك أرضاً خاصة به ، انما هو يزرع في بقعة من الارض يخصصهـا الشيخ له ، والحاصل الزراعي منها يقسم الى أقسام ثلاثة : يذهب أحدها الى الشيخ ، ويذهب الثاني الى الحكومة • اما القسم الثالث فهو حصة الفلاح[١] وهي حصة قليلة جدا لا تكفيه لمعاشه ومعاش عائلته عادة • فهو مضطر أن يسرق من حصة الحكومة والشيخ كلما اتيحت له الفرصة • وهو غالبا مـا يفعل ذلك •

أصبح هذا النوع من السرقة عادة متأصلة في خلق الفلاح لا يمكن أن يتجنب عنها • فهي ضرورية له لكي يبقى هو وعائلته على قيد الحياة • اننا نعتبرها خيانة وهو يعتبرها من مقتضيات العيشة •

من الطرائف التي تروى في هذا الصدد أن « سيدا » معمما من سلالة

---

(١) أحمد فهمي (المصدر السابق) ص ١١٠ ـ ١١١ •

الرسول امتلك أرضا وجمع الفلاحين للعمل فيها . وأخذ الفلاحون يخونونه ويسرقون من حصته كعادتهم مع الشيوخ . ولما اكتشف « السيد » خيانتهم دعا الله أن ينزل عليهم العقاب الشديد . وشاءت المصادفة أن يموت كبيرهم في اليوم التالى . فهرب الفلاحون جميعا من أرض هذا « السيد » الذى يستجيب الله لدعائه عاجلا . وشاع خبره بين القبائل فلم يجرأ أحد منهم أن يعمل معه في زراعة الارض . واضطر « السيد » أن يترك الزراعة ويتخذ له مهنة أخرى . أدرك أنه يستطيع أن يكون « قديسا » بين أبناء القبائل ، يتبركون بدعائه وينذرون له النذور ، ولكنه لا يستطع أن يكون بينهم صاحب أرض يعملون له في زراعتها .

ينبغي أن نذكر أن هذا النوع من الخيانة الذي اعتاد عليه الفلاح العراقي يندر وجوده في البداوة . فالبدوي يود أن ينهب مجابهة عن طريق القوة والغلبة والشجاعة . وهو يستنكف أن يسرق عن طريق الخيانة والمخاتلة . فذلك في نظره من صفات الاذلاء المستضعفين .

(٣) وهناك ضغط ثالث يقع تحت وطأته الفلاح العراقي هو ضغط المرابين وأصحاب الدكاكين في القرى والمدن القريبة منه . ففى هذه القرى والمدن يوجد أشخاص يعيشون ، ويجمعون الثروة ، عن طريق استغلال الفلاح . فهم يقدمون له النقود أو البضائع التي يحتاجها قبل موسم الحصاد ، ويضيفون عليها ربا فاحشا ، وقد يربطونه بسند موثق . والفلاح لا يبالي بما يسجلون عليه في دفاترهم أو سنداتهم ، ما دام يقبض الشيء الذى هو في حاجة اليه فورا .

لقد ورث الفلاح من سلفه البدوي صفة تجعله يفكر في يومه ولا يحسب حساب غده ، حسب المثل القائل « ابذل ما في اليد يأتيك ما في الغد » . إنه يأمل أن يسدد جميع ديونه في موسم الحصاد ، وهو واثق بأن الله وأولياءه سيساعدونه في ذلك على أي حال .

من الامثال الشائعة في الريف العراقي قولهم « الدين رزق » . ولهذا تجد الديون تتراكم على الفلاح في أكثر الاحيان ، حتى اذا حل موعد الوفاء وجد نفسه عاجزا عن الاداء . وهو عندئذ يضطر الى اعادة تسجيل

الدين عليه مع اضافة ربا جديد اليه ، أو هو يعمد الى الاستدانة من شخص آخر لكي يوفي دينه القديم . وهذا هو ما يعبرون عنه في الريف بقولهم انه « يلبس كلاو بكلاو »[1] .

ان الفلاح لا يلجأ في أول الامر الى بيع شيء من ممتلكاته لوفاء ديونه المتراكمة ، ولكنه عندما يضايقه المرابي ، أو يطارده بوسائله المتنوعة ، يلجأ الى بيع بعض أبقاره او زوارقه أو بنادقه أو ما أشبه ليوفي به دينه ، كله أو بعضه[2] .

يقول السيد عبدالجبار فارس انه شهد بنفسه فلاحا في قرية البدير كان قد استدان ثلاث دجاجات ليقدمها طعاما لضيف حل عنده . فتراكم الدين عليه مرة بعد مرة حتى اضطر أخيرا الى بيع ثور ليسدد بثمنه دين الدجاجات الثلاث[3] .

الواقع أن المرابين كثيرا ما يستغلون الشيوخ والسراكيل كمثل ما يستغلون الفلاح العادي . يقول الاستاذ جعفر الخليلي انه شاهد بأم عينه قضية ادارية رفعها أحد التجار على أحد السراكيل لتحصيل مبلغ من الدين عليه ، وكان أصل الدين خمس ليرات ذهبية ، ولكن السركال دفع للتاجر ربا بلغ خمسا وأربعين ليرة ذهبية على مدى عشر سنوات ، وبقي الدين كما كان[4] .

وحدث ذات يوم أن اشترى سركال بالدين حذاءاً ثمنه دينار واحد ، واضطر بعد مدة أن يسدد ثمن الحذاء بدفع « طغار من الشلب » ثمنه خمسة عشر دينارا[5] .

يقول الاستاذ جعفر الخليلي ان التجار يستغلون شيوخ العشائر بهذه الطريقة ويجنون بها ثروات طائلة . فالشيوخ لا يسجلون حساباتهم

---

(١) شاكر مصطفى سليم (الجبايش) ج ٢ ص ٤٤٢ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٤٦ .
(٣) عبدالجبار فارس (المصدر السابق) ص ٦١ .
(٤) أ . س . ح (المصدر السابق) ص ٦٥ .
(٥) عبدالجبار فارس (المصدر السابق) ص ٦١ .

ولا يضبطون مصروفهم . والارباح التي يأخذها التاجر منهم تبلغ في بعض الاحيان نصف المحصول الزراعي اذا لم تكن أكثر .. ولقد عرفت رجلاً كان فيما مضى بقالا متجولا في المهناوية وقد أصبح الآن تاجرا وصاحب عقار وأموال لا يستهان بها . بفضل هذا النوع من المعاملات التجارية »[١] .

لا حاجة بنا الى القول بأن هذه الظاهرة الاجتماعية تضطر الرجل الريفي الى اتخاذ عادة التسويف والمماطلة والختل والكذب . وربما اضطرته الى انكار ما عليه من ديون والى التهرب منها . وقد تحدثت الى بعض التجار الذين يتعاملون مع البدو والريفيين . فهم يكادون يجمعون على أن الرجل البدوي أمين جدا ، وهم يصفونه بأنه « حقاني » . فاذا استدان مبلغا منهم ورجع الى البادية ، فانه لابد أن يعود لتسديد دينه في أقرب فرصة متاحة له . أما الرجل الريفي فهو على النقيض من ذلك في أكثر الاحيان .

دافع الربح :

أشار الدكتور متي عقراوي الى أن روح الكسب والطمع التي أخذت تعرف حديثا عند الغربيين بـ « دافع الربح » بدأت تلعب دورا محسوسا في القبائل التي تسير في طريق التحضر في العراق[٢] .

هنا أود أن أقف قليلا لالفت نظر القارىء الى طبيعة الصراع النفسي الذي يعانيه الرجل الريفي في العراق من جراء وقوعه بين دافعين متناقضين هما : دافع الربح وكسب المال من ناحية ، ودافع المحافظة على التقاليد البدوية والاعتبار الاجتماعي من الناحية الاخرى . فهذا الصراع قلما يعانيه الرجل البدوي ، اذ هو ببطولته وقوة سيفه يستطيع أن يكسب المال والاعتبار الاجتماعي في آن واحد . ان الغزو الذي اعتاد عليه البدوي في

---

(١) أ . س . ح (المصدر السابق) ص ٦٥ .
(٢) متي عقراوي (العراق الحديث) ـ تعريب المؤلف ومجيد خدوري ـ ص ٢٥٩ .

حياته الصحراوية يحتوي على أمرين : ابداء الشجاعة والحصول على الغنيمة .

والقبائل البدوية التى جاءت الى العراق في العهد العثماني ظلت دائبة على الغزو . ولكنها أخذت تتركه تدريجيا من جراء ازدياد سيطرة الحكومة ونمو معالم الحضارة • ولقد أخذ الكثيرون من أهل الريف حديثا ، لاسيما بعد الحرب العالمية الاولى ، يميلون نحو احتراف بعض المهن الحضرية ، حيث بدأوا يفتحون الدكاكين ، أو يعملون بالاجرة ، أو يشتغلون بالربا والتجارة • وهؤلاء صاروا يفقدون مكانتهم الاجتماعية في نظر قبائلهم •

من المشاكل التي يعانيها المجتمع الريفي أن الاعتبار الاجتماعي فيه يحتاج الى مال . فالمضيف مثلا ، وهو أهم دعائم الاعتبار الاجتماعي في الريف ، يجب أن يتوافر فيه الطعام والفراش لكل ضيف يأتي اليه • وكلما ازداد عدد الضيوف فيه ارتفعت منزلة صاحبه في نظر قومه • فمن أين يأتي صاحب المضيف بالمال لينفقه على ضيوفه ؟

ان المحصول الزراعي قد لا يكفي في ذلك أحيانا . وصاحب المضيف مضطر أن يهمل مضيفه او يلجأ الى طريقة « غير لائقة » لكسب المال له • وكلا الامرين من الصعب تحمله في المجتمع الريفي .

لدينا الآن في الريف العراقي تياران متناقضان : أحدهما يتمثل في رجال من أولى الشرف والنسب ، وقد أصيبوا بضائقة مالية فأهملوا مضائفهم أو أغلقوها ، فخسروا بذلك مكانتهم الاجتماعية • والآخر يتمثل في رجال من أولى أصل وضيع أو مهنة محتقرة ، ولكنهم كسبوا ثروة وفتحوا مضائف خاصة بهم فنالوا شيئاً من المكانة الاجتماعية قليلا أو كثيرا .

لقد كان هذا من النادر حدوثه في العهد العثماني • هناك مثل شائع في الريف يأتون به في ذم الرجل الوضيع الذي يحاول أن يكون شريفا عن طريق الثروة . فهم يقولون عنه انه « مثل بقال زبيد » • ومنشأ المثل أن بقالا حل في قبيلة زبيد فأثرى وفتح مضيفا وترك عمله ، وصار يقصده أفراد

القبيلة ويحسم الدعاوى ، ويزجر من لا يطيع أمره بالضرب . فسمع هلوس العلوان شيخ القبيلة بأمره ، فطرده من القبيلة[١] ...

يبدو أن الريف العراقي الآن قد كثر فيه أمثال هذا البقال ، دون أن يُطردوا أو يُضرب بهم المثل الشائن . ذكر الدكتور شاكر مصطفى سليم أن هناك عددا غير قليل من أهل الجبايش استعملوا ثرواتهم كوسائل لرفع مركزهم الاجتماعي . وهو يأتي على ذلك بمثل بارز هو عبودة السلمان . فقد كان هذا الرجل في بداية أمره فراشا في دار الحكومة في قرية الجبايش ، فاتخذه أحد مدراء الناحية واسطة للرشوة . وفي الحرب العالمية الثانية أصبح موزعا للسكر . واذا به يصبح رجلا غنيا يشار اليه بالبنان . فبنى مضيفا رائعا وأخذ بعض الوجهاء من قبيلة بني أسد يجتمعون عنده ويشربون قهوته . وصار يعاون المحتاجين من أفراد عشيرته . فحصل من ذلك على سمعة طيبة[٢] ...

ان هذا الرجل استطاع أن يحصل بثروته على مكانة اجتماعية عالية ، لانه حاول أن يجارى التقاليد القبلية ، وأن يعاون بماله المحتاجين ، ويبذل الطعام . وهنا يواجهنا سؤال : هل هذا في مستطاع جميع الذين هم مثله من الاثرياء أصحاب الاصل الوضيع ؟

الظاهر أن « دافع الربح » حين يسيطر على الرجل الريفي يجعله في أكثر الاحيان ميالا الى اهمال التقاليد القبلية والى البخل والتكالب على جمع المال . ولهذا نجد النزعة الفردية تطغى عليه فتجعله مرابيا أو غشاشا أو أنانيا قاسيا . وقد ذكر الدكتور شاكر مصطفى سليم بعض الامثلة الواقعية عن رجال من الاشراف في الجبايش ، انشغلوا بادارة دكاكينهم ومعاملاتهم التجارية ، فأهملوا مضايفهم وتقاليدهم القبلية ، وصاروا يتشاجرون مع بعض السفلة والعبيد حول مبالغ من المال زهيدة . وهذا أيد الاعتقاد السائد لدى الناس هناك بأن مهنة الكسب لا تتفق مع الحياة القبلية ،

---

(١) عبدالجبار فارس (المصدر السابق) ص ٦٩ ــ ٧٠ .
(٢) شاكر مصطفى سليم (المصدر السابق) ج ٢ ص ٤٦٠ .

وأنهما في الحقيقة ضدان لا يمكن أن يجتمعا[١] ...

لاحظ الاستاذ داريل فورد مثل هذا في نيجريا في أفريقيا ، وقال : ان التأثير الناتج من الاتصال بأساليب الحضارة الحديثة يؤدى في أكثر الاحوال الى ظهور النزعة الفردية التى تفكك تماسك المجتمع القديم وتخلق تضاربا في مصالح افراده[٢] .

وضع المرأة الريفية :

ان المرأة حسب القيم البدوية أوطأ منزلة من الرجل ، فهي غير قادرة مثله على الغزو والقتال . ولذا فهي اختصت بالاعمال التي يستنكف الرجل من القيام بها ، كادارة شؤون البيت ونصب الخيم ، والحياكة والخياطة وما أشبه . ولكن الرجل البدوى لما اتصف به من مروءة وفروسية لا يسيء معاملة المرأة ، وهو قد يحترمها أحيانا . فهو لا يضربها . ولا يقسرها على الزواج برجل لا ترضاه ، ولا يستحوذ على مهر زواجها . والمرأة البدوية حرة في طلب الطلاق من زوجها اذا وجدت فيه ما لا ترتضيه منه . يقول السيد عبدالجبار الراوي ان « الطلاق عند البدو ذا عقدتين : احداهما بيد الرجل ، والاخرى بيد المرأة »[٣] .

ان المرأة البدوية تبقى محتفظة بهذه الامتيازات عند انتقالها مع قبيلتها الى العراق . وهى تظل كذلك ما دامت القبيلة باقية في طور الترحل والبداوة . ولا تكاد القبيلة تحترف الزراعة حتى يتغير فيها وضع المرأة . فالمرأة عندئذ تهبط في منزلتها الاجتماعية هبوطا فظيعا وهى تبدأ بفقدان الامتيازات التي كانت لها من قبل . وكلما توغلت القبيلة في طريق التحضر ، فأخذت تربى الجاموس ، أو تزرع الخضر ، او تمتهن « البقالة » ، ازدادت منزلة المرأة فيها هبوطا .

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٧٠ – ٤٧١ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٦٩ .
(٣) عبدالجبار الراوي (البادية) ص ٢٦٨ .

يمكن القول على أي حال ان المرأة في أكثر أنحاء الريف العراقي ، وخصوصا في مناطق الاهوار ، أصبحت كأنها من قبيل الحيوان أو الرقيق ، تُستغل اقتصاديا وتعرض للبيع والشراء باسم الزواج •

تقول الاستاذة صبيحة الشيخ داود : « ان النظرة الاقتصادية التي ينظر بها الرجل للمرأة في الريف جعلتها مرهقة جدا بأعباء فوق مقدرتها في كثير من الاحيان • فهي تعمل دائبة تحت ظروف قاسية لا يحتملها الرجل نفسه • بل ان الرجل ينوط بها أصعب شؤون العمل • فهي دائبة الانحناء ، تجتث الاعشاب والطفيليات ، وتقوم المعوج وتجني المحاصيل • ولقد سمعت من رجل لا يرتقي الشك الى قوله ، وقد أمضى معظم حياته في أنحاء كثيرة من ريف العراق ، أنه رأى مرة فلاحة تسحب المحرات الى جانب حمار هزيل في أرض صلبة عجز الحمار عن سحب السكة وحده ، بينما يمسك زوجها من المحرات موضع القيادة »[1] •

والرجل قد لا يكتفي بذلك ، بل يستغل المرأة بطريقة آخرى ، حيث يرسلها الى الاسواق تحمل بعض المنتجات اللبنية أو الحقلية لبيعها هنالك • وهو ينتظرها آخر النهار لكي تأتي له بشيء من النقود أو الحاجات التي أوصى بشرائها من السوق • وربما أسرع الى ضربها اذا لم تأت له بما كان متوقعا منها •

نجد هذا واضحا بين المعدان بشكل خاص ، لاسيما بين اولئك الذين يسكنون في ضواحي بعض المدن منهم • فالرجل منهم يقضي معظم نهاره في المقهى ، أو يحضر صلاة الجماعة في المسجد ، ويستمع الى الواعظين فيه ، بينما نساؤه يعملن له كادحات منذ مطلع الفجر ، ويجلبن له الدخل الوفير • ان ثروة الرجل بين المعدان تقاس بعدد نسائه وجواميسه • فالجاموس ينتج اللبن والقيمر ، والمرأة تبيعهما في السوق •

يمكن أن نقول مثل هذا عن الريفيين الذين بدأوا يزرعون الخضر •

---

(١) صبيحة الشيخ داود (أول الطريق) ص ٢٢٥ •

فالرجل منهم يستنكف أن يبيع الخضر بنفسه في الاسواق ، اذ هو لا يحب أن يكون « بقالا » . وهو لذلك يرسل المرأة الى الاسواق بدلا منه .

أوضاع الزواج :

لكي ندرك مبلغ استغلال المرأة في الريف العراقي ندرس الاوضاع التي يتم فيها زواجها . فهو زواج في شكله الظاهري ، انما هو في حقيقة أمره لا يخلو من معنى البيع أو المقايضة أو ما أشبه . وفيما يلي نذكر أوضاع الزواج في الريف باختصار :

اولا : ان الحق الاول في زواج المرأة الريفية هو لابن عمها . فهو يتزوجها بغير مهر أو بمهر رمزي . واذا أراد رجل غريب التزوج بها وجب عليه ترضية ابن عمها بمبلغ من المال يدفعه له ، وكأنه يدفع له تعويضا عن خسارته .

ثانيا : ان الاب الفقير يفضل أن يزوج ابنته لرجل غريب لكي يحصل منه على مبلغ من المال ينفعه . وقد جرت العادة أن يستحوذ الاب على ثلثي مهر ابنته ، أو عليه كله . وهو قد يساوم على زيادة المهر ، ثم يعطي ابنته لمن يدفع فيها مبلغا أكبر . انه يشعر بأنه يخسر خسارة مادية عندما يزوج ابنته ، لانها كانت تعمل له قبل زواجها . وهو اذن يريد أن يعوض بعض هذه الخسارة بالاستحواذ على مهرها ، كله أو بعضه . ومما يذكر عن بعض الآباء أنهم اغتنوا من جراء تزويج بناتهم لرجال غرباء .

ثالثا : كثيرا ما يجرى الزواج في الريف على أساس من المقايضة الصريحة ، وهو ما يعرف عندهم « گصة بگصة » ، حيث يتفق رجلان على أن يتزوج كل منهما أخت الآخر من غير مهر . وهناك قصص تروى عن بعض رجال كبار في السن ولهم بنات جميلات ، فالرجل منهم يعرض ابنته للمقايضة مع من يعطيه فتاة صغيرة ليتزوجها بنفسه .

رابعا : ان المرأة الريفية تقدم في بعض الاحيان كجزء من التعويض

في « الفصول العشائرية » أو في قضايا « الحشم » . فقد تتفق قبيلتان متعاديتان على صلح يتضمن تقديم عدد من النساء أو الحيوانات أو مبالغ من المـال ، على سبيل التعويض عن الخسائر في الارواح والاموال التى منيت بها احدى القبيلتين . يروى معروف الرصافي أنه شـهد في مدينة علي الغربي عـام ١٩٢٨ ، قضية عشائرية خلاصتها أن رجلا ريفيا تحرش بامرأة وراودهـا عن نفسها ، فحكم عليه بأن يعطي أخته بلا مهر الى أخي المرأة[(١)] .

خامسا : ان الاب الذى يملك بنات كثيرات وليس له ولد يعاونـه ، قد يبحث عن شاب فقير ليزوجه بأحدى بناته من غير مهر ، على شرط أن يسكن الشاب مع زوجته في بيت أبيها . ويطلق عليه عندئذ لقب « قعيدي » . واذا أراد هذا الشاب أن ينفصل مع زوجته عن بيت أبيها ، وجب عليه أن يدفع المهر المتفق عليه سابقا . اما اذا أراد تطـليق زوجته فهـو لا يدفـع شيئاً[(٢)] .

سادسا : وقد يحدث أحيانا أن ينذر الاب احدى بناته منذ صغرهـا لسيد من سلالة النبي ، أو لمرقد من المراقد المقدسة . فاذا كبرت البنت ذهب بها أبوها فقدمها الى السيد ، او الى أحد سدنة المرقد . وهذا يستطيع أن يتنازل عن حقه فيها لقاء مبلغ معين يتفق عليه .

سابعا : والمرأة الريفية قد تهدى أحيانا على منوال ما يهدى الحيوان أو أي شيء له قيمة اقتصادية . ذكر الدكتور جون فانيس أنه حل ذات مرة في قبيلة من المعدان وأخذ يداوي مرضاهم فأحبه شيخ القبيلة ورجاه أن يبقى عندهم لـكي يداوي الامراض الشائعة بينهم ، وقال له « ولـكي أحملـك على البقاء عندنا سأقدم لك أبنة أخي عروسا ، فان مجيء طبيب ماهر مثلك الى هذه البقاع نادر جدا »[(٣)] .

ثامنا : اذا تزوج رجل امرأة في الريف ودفع مهرها ، ثم وجد فيهـا

---

(١) معروف الرصافي (آراء الرصافي) ص ١٣ .
(٢) شاكر مصطفى سليم (المصدر السابق) ج ١ ص ١٠٨ـ١٠٩ .
(٣) جون فانيس (أقدم أصدقائي العرب) ص ١٥٠ .

عيبا جسميا أو نفسيا ، فله الحق أن يرجعها الى أهلها ويطالب بالمهر الذى دفعه فيها . اما اذا كانت المرأة ذات عيب خلقي ، وأثيرت حول سلوكها الشبهات ، جاز له قتلها ، وقد يعاونه أهل زوجته في ذلك « غسلا للعار » .

تاسعا : اذا تزوجت المرأة الريفية ثم غاب عنها زوجها مدة طويلة ، فقد يحاول ولي أمرها تزويجها لرجل آخر طمعا بمهر جديد . تقول الاستاذة صبيحة الشيخ داود انها في خلال عملها في محكمة الاحداث رأت فتاة ريفية لا يتجاوز عمرها الاربعة عشر عاما ، وهي تقف أمام المحكمة « متهمة » بالزواج ثلاث مرات دون طلاق . فقد كانت أمها تزوجها مرة بعد مرة طمعا بمهرها[١] .

وروى معروف الرصافي أنه شهد في العمارة ، عام ١٩٣٢ ، امرأة ريفية يؤتى بها الى المتصرف ومعها زوجها وأخوها . وكان زوجها يشكو من أن أخاها زوجها لرجل آخر أثناء غيابه في البصرة ، طمعا في مهرها[٢] ...

ومنذ أشهر معدودة حدثت في بعض نواحي كربلا حادثة تلفت النظر ، هي أن رجلا ريفيا كانت له أخت جميلة ، فحاول استغلالها عن طريق تزويجها مرة بعد مرة ، لبضعة رجال ، دون أن يجري طلاقها منهم . وكان في كل مرة يحصل على مهرها ... وبعد أن اكتشف أمره ألقى عليه القبض وقدم للمحاكمة ، وعرضت قضيته في تلفاز بغداد .

غسل العار :

في الريف العراقي عادة شائعة جدا هي قتل المرأة عند الاشتباه بسلوكها ، وتسمى بـ « غسل العار » . وهذه العادة موجودة في كثير من المناطق في البلاد العربية ، ولكنني أميل الى الظن بأنها في الريف العراقي أوسع انتشارا وأشد وطأة منها في أى منطقة أخرى من الوطن العربي .

---

(١) صبيحة الشيخ داود (المصدر السابق) ص ٢٢٣ .
(٢) معروف الرصافي (المصدر السابق) ص ١٤ .

والسبب في ذلك يعود في رأيي الى استفحال ظاهرة « التناشز الاجتماعي » في الريف العراقي •

ان « التناشز الاجتماعي » اصطلاح لجأت الى استعماله لتوضيح ما يقع في الريف العراقي من تناقض او تصادم بين القيم البدوية التي حملتها القبائل القادمة اليه من الصحراء ، والظروف الواقعية التي تسيطر على تلك القبائل فيه • وهذا أمر لاحظناه فيما سبق من هذا الفصل ، ولكنه يلاحظ بشكل أوضح في موضوع « غسل العار » •

المعروف عن البدو أنهم اعتادوا منذ قديم الزمان على قتل المرأة عند الاشتباه بسلوكها • ويقول الدكتور فاضل الجمالي : « ان المرأة غير المتزوجة اذا اكتشفت أنها حامل ، أخذها بعض اقربائها الى مكان بعيد عن المخيم ، فقتلوها ودفنوها ، دون أن يسأل أحد عن السبب • واذا حاول أحد من البدو نشر اشاعة سيئة حول سلوك امرأة ، طلبوا منه الدليل •فاذا جاء به قتلوا المرأة ، والا فهو يجب أن يؤدي غرامة لمحاولته تدنيس شرفها »[1]•

هنا ينبغي أن نذكر أن من النادر في الصحراء أن تقتل امرأة لسوء سلوكها • ان ظروف الحياة البدوية تساعد المرأة على المحافظة على عفتها وحسن سمعتها • فالرجل البدوي عفيف في الغالب ، وهو لا يحاول اغراء المرأة أو التحرش بها الا نادرا • والمرأة من الجهة الاخرى تعيش بين أبناء قبيلتها ، وهي قلما تحتك بغيرهم • واذا اضطرتها الظروف أحيانا الى الانتقال وحدها الى موضع بعيد ، وجدت اينما ذهبت من يحميها ويصونها •

يقول الدكتور بولس هاريسن : « كنت في ركب راحل من واحة الهفوف قاصدا ساحل الخليج الفارسي ، مسيرة عدة مراحل ، وكانت تحاذي الركب فتاة أعرابية على جمل لها تسير والقافلة على بعد مسافة نصف ميل • وكانت اذا حل الركب تنيخ بعيرها ، وتضرب خيمتها في نفس المسافة عن القافلة • وكان يأخذ لها العشاء أحد رجال القافلة كل مساء • فلم

(1) Jamali (New Iraq) p. 37.

يتعرض لها أحد ، أو يمسها بسوء أو أذى »[1] .

معنى هذا أن المرأة في الصحراء قلما تكون معرضة الى الاغراء أو الزلق . ولهذا فمن النادر أن نجد البدو يستعملون عادة « غسل العار » في نسائهم . ولـكن المشكلة تبدأ بالظهور عندما ينتقل البدو الى الريف العراقي ويأخذون باستغلال المرأة وبارسالها الى الاسواق بائعة او شارية . فهناك تكون المرأة معرضة للاغراء في السوق ، أو في طريقها اليه .

لا ننكر أن المرأة الريفية تظل محافظة على عفتهـا وحسن سمعتهـا تجاه الظروف الجديدة ، ولكن مقدرتها في هذا الشأن محدودة على أى حال . فهي بشر كغيرهـا من الناس ، وليست مصنوعة من « حديد » .

الواقع أن نسبة الزلق بين نساء الريف قليلة جدا ، وهي تتفاوت بين منطقة وأخرى منه . انما هي على كل حال أعلى جدا من نسبة الزلق بين نساء البدو . ومن الممكن القول ان هذه النسبة تزداد في القبيلة الريفية تبعا لازدياد استغلال المرأة فيها وارسالها الى الاسواق .

والقبائل الريفية من جانبها تتفوت في شدة تمسكها بعـــادة « غســل العار » . فبعض القبائل تتساهل فيها ، والبعض الآخر منها تتزمت فيها الى درجة عجيبة . وقد انتقلت هذه العادة الى بعض أهل المدن ، لاسيما اولئك الذين هم من أصل ريفي ، أو لهم اتصال وثيق بأهل الريف .

ذكرت احدى الصحف البغدادية منذ بضع سنوات أن رجلا في قرية سلمان باك قتل أخته لانها « اتصلت » بزوجها قبل ليلة زفافها . وشهدت في احدى محلات الـكاظمية حادثة من حوادث « غسل العار »تعاون فيهـا أهل المحلة على قتل امرأة منهم ، فحرضوا أخاها الصغير عليها ، وساعدوه بالمال ، وظلوا يساعدونه عند دخوله السجن . وبعدما خـرج من السجن أصبح في نظر المحلة رجلا « شريفا » يشار اليه بالبنان .

ان قصص « غسل العار » في العراق كثيرة جدا تكاد لا تحصى . وقد قدم لى أحد طلابي تقريرا يتضمن من هذه القصص ما يدهش ويذهل .

---

(١) جون فانيس (المصدر السابق) ص ١١٠ .

وحدثني صديق لي ، وهو قد كان من الاطباء الشرعيين في بغداد منذ زمن بعيد ، قصصا عجيبة في هذا الموضوع • فهو قد شرّح كثيرا من جثث النساء اللواتي قتلن من أجل « غسل العار » • وظهر له من التشريح أن بعضهن لم يزلن يحتفظن ببكارتهن ولكن أهلهن أسرعوا لقتلهن لمجرد الشبهة ، أو بتأثير اشاعة رعناء •

المعروف في بعض مناطق الريف العراقي أن الرجل فيها يسرع الى قتل المرأة فورا لمجرد ريبة تثار حولها ، صدقا أو كذبا • فهو لا يميل الى التحقيق او التدقيق في أمرها كما يفعل البدو ، ولعله يرى المرأة غير جديرة بذلك • فهو يقتلها حالا ليغسل بدمها عاره وعار قبيلته • وهو قد يقطع أحد كفيها فيعلقه على باب بيته ، أو باب المضيف ، ليبرهن به على أنه رجل « شريف » • أما اذا تقاعس عن قتلها صار موضع الاهانة بين الناس ، وقد لا يقدمون له القهوة اذا جلس في مضيف ، ولا يردون له التحية فيه •

هناك قصة تروى في هذا الصدد ، وقد سمعتها من رواة عديدين ، وهي أن رجلا ريفيا كان جالسا في مقهى ، فقال له أحد الجالسين « على عقالك قشة » • فأسرع الرجل الى بيته وقتل احدى نسائه • ولما رجع الى المقهى أعاد عليه جالس آخر نفس القول ، فأسرع الرجل الى البيت ليقتل فيه امرأة أخرى ••• وقد تبين له أخيرا أن القشة كانت على عقاله فعلا •

أظن ان هذه القصة لا تخلو من مبالغة ، ولعلها مختلقة من أساسها ، ولكنها على أي حال لا تخلو من مغزى اجتماعي • فهي تدل على تسرع الرجل الريفي في قتل المرأة لمجرد كلمة بسيطة تقال له وفيها اشارة الى سوء سلوكها •

لقد ورث أهل الريف عادة « غسل العار » من البادية • وهي عادة ملائمة لحياة البادية ، انما هي غير ملائمة لحياة الريف • وقد وقعت المرأة الريفية ضحية لهذا « التناشز الاجتماعي » •

الامراض في الريف :

من أهم الفروق الظاهرة بين المجتمع البدوي في الصحراء والمجتمع الريفي في العراق هو قلة الامراض في الاول منهما وكثرتها في الثاني . وهذا الفرق له أهمية نفسية واجتماعية غير قليلة .

ان الامراض قليلة جدا في البادية على الرغم من قلة اعتناء البدو بنظافة أبدانهم وملابسهم ومساكنهم[١] . والسبب في ذلك أنهم يعيشون في خيام متنقلة ، فلا يبقون في مكان واحد مدة طويلة . والرمال التي يتنقلون فوقها طاهرة تلفحها الشمس والرياح دائما . ولهذا فمن الصعب على الجراثيم المرضية أن تنمو في محيطهم . وكذلك من النادر أن تنتشر بينهم أوبئة كاسحة أو أمراض معدية .

من الممكن القول ان الغسل والاعتناء بالنظافة لا يألفهما البدو ولا يعرفون لهما معنى . فالماء نادر في الصحراء وهم لا يحتاجون اليه الا لشربهم وشرب أنعامهم ، اما استعماله في الغسل والتنظيف فهم قد يعجبون منه أو يستنكرونه . حدث مرة أن قال أحد الحضر في مجلس بدوي انه يستحم في السنة مرة أو مرتين . فدهش الحاضرون من ذلك وقالوا له : « هل انت بطة ! » .

وهم اعتادوا أن يمشوا حفاة الاقدام في الغالب . وهم لا يغسلون ملابسهم بل يظلون يلبسونها من غير غسيل حتى تتهرأ عليهم . وهم كذلك لا يغسلون أوانيهم ، أو أيديهم بعد تناول الطعام . وقد يعمد بعضهم الى مسح يده بعد الاكل بلحيته أو بستار الخيمة . ذكر الدكتور جون فانيس أن رجلا من الحضر زار بدويا فقدم له البدوي لبنا في اناء لامع . ولما عاود الرجل زيارته في العام التالى قدم له لبنا في اناء وسخ . ولما سأله الرجل عن السبب ، أجابه قائلا : « أجل ، لقد مات كلبنا وا أسفاه ، لقد كان الكلب يلحس الآنية المعدنية بلسانه فينظفها »[٢] .

---

(1) Hashim Witry (Health Service In Iraq) p. 23 — 24

(٢) جون فانيس (المصدر السابق) ص ١١٦ .

والبدو لا يستعملون المراحيض ، ويتقززون منها . انما هم يتغوطون على الارض في الخلاء . ومن هنا كان المرحاض في اللغة العربية يسمى بـ « الخلاء » . وهم كذلك يبصقون ويتمخطون كيفما اتفق . يقال ان جماعة من البدو شاهدوا حضريا يتمخط في منديل فحسبوه يخزن مخاطه في المنديل لـكي يستعمله دواءا لبعض الامراض .

وهم يرمون نفايات طعامهم بأيديهم بعيدا ، ولا يهتمون بوضعها في مكان خاص بها كما يفعل الحضر . وهناك قصة تروى في هذا الصدد . خلاصتها أن شيخا بدويا كان يفرض الاتاوة على الحجاج الذين يمرون بمنطقته . وكان يستثنى البدو منهم فلا يفرض عليهم أية أتاوة . وحـدث ذات يوم أن مر به رجل حضري يحذق اللهجة البدوية ، فادعى أنه بدوي بغية اعفائه من الاتاوة . ولكن الشيخ ارتاب في أمره فأراد امتحانه . فقدم له تمرا ليأكله . وأخذ الرجل يأكل التمر ويضع النوى في مكان قريب منه ، دون أن يرميه بعيدا كما يفعل البدو . عند هذا أمره الشيخ أن يدفع الاتاوة حالا ...

قصدي من ذكر هذه العادات البدويـة أن أتوصل منها الى نتيجـة اجتماعية مهمة ، هي أن هذه العادات ينقلها البدو معهم عندما يأتون الـى العراق ويحترفون الزراعة فيه . فهي عـادات لا تضر البـدو في حياتهـم الصحراوية ، كما أشرنا اليه آنفا ، ولعلها ملائمة ومنسجمة مع مقتضيات تلك الحياة . ولـكنها عندما تنتقل الى العراق تصبح غـير ملائمة وذات ضرر كبير على الصحة .

ان هذا هو أحد مظاهر ما أسميناه بـ « التناشز الاجتماعي » في العراق . فالعادات تنتقل من الصحراء الى العراق ، ويبقى الناس متمسكين بها ، على الرغم من كونها غير ملائمة للمحيط الجديد الذي انتقلوا اليه . خذ مثلا اثنتين من تلك العادات هما : حفي الاقدام والتغوط على الارض . فهاتان العادتان لا تضران البدو في حياتهم الصحراوية . فالرمال التي يمشون عليها نظيفة تكاد تخلو من الجراثيم المرضية . وهم اذا تغوطوا في بقعة ما خارج مخيماتهم تركوها بعد مدة قصيرة ، فلا ينالهم منها أي ضرر صحي .

ان الضرر الصحي ينشأ لدى القبائل التي تنتقل الى العراق وتستقر في قرى زراعية شبه ثابتة . وهناك نجد تينك العادتين تؤديان الى انتشار مرض الدودة الشصية (الانكلستوما) انتشارا واسع النطاق . ان هذا المرض ينتقل من شخص الى آخر عن طريق بيوض الدودة الشصية . فالفلاح المصاب بهذا المرض حين يتغوط على الارض قرب قريته يتيح لبيوض الدودة الموجودة في غائطه أن تختلط بتراب الارض . فاذا مشى على الارض فلاح حافي القدم استطاعت البيوض أن تدخل في شقوق قدمه . وكثيرا ما تكون قدم الفلاح مشققة . ومن هناك تنتقل البيوض الى أوعيته الدموية ، ومنها تذهب الى الرئة فالقصبات فالحلق ، ومن ثم تنزل الى المري والمعدة . وهي قد تستقر في نهاية مطافها في أمعاء الفلاح ، فيبتلى بالمرض[١] . وهذا الفلاح عندئذ سيكون مصدرا جديدا للمرض ... وهكذا دواليك !

مما يجدر ذكره أن تينك العادتين ليستا مقتصرتين على الريف العراقي فقط ، بل هما موجودتان في المدن أيضا ، ولكن على نطاق أضيق . يقول الدكتور دو الذي كان مدير صحة خانقين في عام ١٩٢٠ : « لقد بنينا عددا من المراحيض في البلدة ولكن الاهالى بالرغم من ذلك لا يزالون يتبعون عادتهم القديمة ، أعني التبول في الشوارع والتغوط على ساحل الانهر[٢] ... » .

من يريد أن يعرف مبلغ انتشار هذه العادة في العراق فليذهب الى مدينة كربلا أثناء زيارة « الاربعين » ، حيث يجتمع فيها نصف مليون أو أكثر من أهل الريف والمدن ، ليرى بأم عينه ما يحدث في الازقة وعلى ضفاف نهر الحسينية من أعاجيب ...

تشير بعض الاحصاءات التى أجريت في عام ١٩٢٦ الى أن مرض الدودة الشصية منتشر بين سكان العراق بنسبة (٣٧) بالمائة تقريبا[٣] .

---

(١) متي عقراوي (المصدر السابق) ص ٢٢٦ .
(٢) المصدر السابق . ص ١٨٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

ويرجح في ظني أن نسبة انتشاره في الريف هي أعلى جدا من نسبته في المدن . ومشكلة هذا المرض أن المصابين به قد لا يشعرون به ولا يعطلهم عن العمل . يقول الدكتور هاشم الوتري : ان الكثير من الفلاحين هم في شبه مجاعة دائمة ، وطعامهم يتالف من مواد غليظة ذات حجوم كبيرة ولكنها غير مغذية ، فيصابون من جراء ذلك بتمدد المعدة وبعض الاضطرابات الهضمية الاخرى . فاذا ابتلوا بعدئذ بمرض الدودة الشصية ، كانت له فيهم نتائج خطيرة كبرى[1] .

يمكن القول على أي حال إن مرض الدودة الشصية هو أحد الامراض الثلاثة التي تسبب فقر الدم وضعف المناعة في أهل الريف بوجه خاص ، وأهل العراق بوجه عام . والمرضان الآخران هما الملاريا والبول الدموي (البلهارزيا) . مما يذكر أن نسبة انتشار البول الدموي في جنوب العراق قد تناهز ال (٨٠) بالمائة من السكان . « وهناك بعض أقسام لواء الديوانية تعوّد الناس فيها البول الدموي فان وجد شخص غير مصاب بالمرض اعتبر ذلك أمراً غير طبيعي »[2] .

أما الملاريا فأمرها ربما كان أفظع . يقول الدكتور هاشم الوترى في عام ١٩٤٤ : ان الملاريا هي أكثر انتشارا في العراق من أي مرض آخر[3] . ومما يجدر ذكره أن الملاريا أخذت تقل في العراق مؤخرا ، بعد استعمال عقار ال « دى دى تي » في رش المستنقعات . أما قبل ذلك فقد كانت مألوفة ، وتعتبر اعتيادية ، لدى الكثيرين من سكان العراق ، خصوصا في منطقة البصرة وكربلا . وهم كانوا يسمونها « الباردة والسخونة » . وكان من النادر أن نجد شخصا لم يبتل بها ، مرة واحدة على الاقل ، في حياته .

خلاصة القول أن هذه الامراض الثلاثة كانت ، ولا تزال ، تسبب ضعف المناعة في السكان ، لاسيما في أهل الريف . فكانت من العوامل

(1) Hashim Witry (op. cit) p. 18.

(٢) متي عقراوي (المصدر السابق) ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ .

(3) Hashim Witry (op. cit) p. 16.

الفعالة في اصابتهم بالامراض المعدية والاوبئة الفتاكة ، كالسل والبجل والتيفوئيد والزحار والهيضة والطاعون والجدرى وغيرها . وهنا يجدر أن نذكر أن انتشار الامراض في الريف يلعب دورا فعالا في تكوين الشخصية فيه . فهي قد جعلت الشخص الريفي ينظر الى الدنيا نظرة تختلف عن نظرة سلفه البدوي اليها . انه أصبح محتاجا الى ملجأ نفسي يلجأ اليه عند ابتلائه بالمرض . فهو يريد مرقدا مقدسا يبث فيه آلامه وينذر له النذور لكي يساعده على الشفاء . وهو يريد وليا من اولياء الله الصالحين لكي ينفخ على رأسه ويتوسط له عند الله . وسنعود الى بحث هذا الموضوع بتفصيل في الفصل القادم .

أدرك الشخص الريفي أن « السيف » وحده لا ينفعه في أكثر الاحوال كما ينفع الشخص البدوي . وهو عند ابتلائه بالمرض ، يجد نفسه عاجزا عن حمل المسحاة ، علاوة على عجزه عن حمل « السيف » . فالدنيا قد تغيرت حوله ، ولابد أن تتغير نظرته اليها تبعا لذلك .

الخلاصة :

نلخص هذا الفصل بالقول ان القبائل البدوية عند مجيئها الى العراق تقع تحت وطأة ظروف قاسية لم يكن لها عهد بها من قبل ، في حياتها الصحراوية القديمة . فهي أصبحت تعاني في العراق ضغوطا نفسية واجتماعية تجعلها غير قادرة على الاستمرار في التمسك بالقيم البدوية الاصيلة ، قليلا أو كثيرا .

تأتي القبائل الى العراق وهي تحمل معها الثقافة البدوية بمركباتها وخصالها . فهي تظل معتزة بهذه الثقافة ، وتكن لها احتراما كبيرا . ولكن الظروف التي تحيط بها في العراق تضطرها الى الانحراف عن بعض الخصال البدوية . وربما صح القول ان هذا يؤدي الى ظهور الصراع في تكوين الشخصية الريفية . فالشخص الريفي يميل في أعماق نفسه الى أن يكون كسلفه البدوي في جميع خصاله . ولكنه يجد نفسه عاجزا عن ذلك في كثير من الاحيان .

الفصل التاسع

مظاهر التدين في العراق

يميل الكثيرون من الفلاسفة والعلماء الى القول بأن النفس البشرية تحتاج الى التدين كمثل ما يحتاج البدن الى الغذاء . ان التدين يشبه أن يكون غذاءاً نفسياً للانسان . فالانسان مهدد بالاخطار والمشاكل دائما ، وهو يخشى الموت . فهو اذن في حاجة الى عقيدة وطقوس دينية تساعده على مواجهة تلك الامور المرعبة وعلى تقوية عزيمته وبعث الطمأنينة في نفسه تجاهها .

ان الانسان يختلف في هذا عن الحيوان . فالحيوان يعيش في لحظته الحاضرة ، ولا يدرك ماذا يخبىء له القدر من كوارث . اما الانسان فهو يملك المقدرة على التفكير والاستنتاج ، فاذا رأى غيره يصاب بكارثة تخيل أن الكارثة ستحل به عاجلا او آجلا . واذا وجد الناس قبله قد ماتوا كلهم ، أو هم على وشك الموت ، أدرك بأن الموت لابد أن يصيبه أيضا . ولهذا فهو يحتاج الى وسيلة للامل والتفاؤل ليتمكن بها من مواجهة الموت أو الكارثة .

توغل الباحثون في اكثر بقاع الارض ، ودرسوا مختلف الشعوب فيها ، البدائية منها والمتحضرة ، فلم يجدوا بينها شعبا غير متدين على وجه من الوجوه . ان العقائد والطقوس الدينية تختلف من شعب الى آخر ، ولكنها موجودة في جميع الشعوب على أي حال .

قد يظهر أحيانا ، في بعض الشعوب المتحضرة ، أفراد لا يؤمنون بدين، أو ينتقدون الاديان . والظاهر أن عدد هؤلاء أخذ في التكاثر منذ بداية العصر الحديث . ولكنهم على كل حال قلائل بالنسبة الى الجمهور الاكبر من سكان العالم . ويمكن اعتبارهم من قبيل الشذوذ عن القاعدة العامة . ولا ندري ما هو مصيرهم في المستقبل ، فهل سيظلون في ازدياد أم يقلون ؟ علم ذلك عند الله !

مهما يكن الحال فان هؤلاء ، على الرغم من تظاهرهم بعدم التدين ، لا يخلون من شيء من التدين كامن في أعماق نفوسهم ، قليل او كثير . فاذا حلت بهم الكارثة او أدركهم الموت ، نظروا الى السماء يستمدون منها شيئا من الرجاء والثقة بالخلاص . وقد فطن الى ذلك القدماء . فهم اذا كانوا في سفينة مشرفة على الغرق ، وكان بينهم أحد « الدهريين » ، رأوه مثلهم يرفع يديه نحو خالق الكون داعيا بحرقة أن ينجيه من الهلاك .

هنا يجب أن نذكر أن مظاهر التدين لا يمكن أن تكون متماثلة في جميع البشر . فهي تتنوع حسب تنوع الثقافات الاجتماعية فيهم ، وحسب طبيعة المشاكل والاخطار التي يواجهونها . فاذا ظهر دين في قوم من الاقوام ، وجدناهم لا يستطيعون أن يحافظوا على تعاليمه الاولى مدة طويلة من الزمن . انهم مضطرون أن يغيروا فيها أو يطوروها لكى تلائم ظروفهم المستجدة .

خذ دين الاسلام مثلا فهو قد كان في بداية أمره قريبا من الفطرة ، وليس فيه مثل هذه التعقيدات العقائدية والطقوسية التي نلاحظها الآن سائدة في شتى أقطار العالم الاسلامي . فكل فئة من المسلمين في هذه الاقطار قد أخذوا جانبا من التعاليم الاسلامية الاولى ، فغالوا فيه وعقدوه ، بينما هم أهملوا منه الجوانب الاخرى . وهذا من وجهة النظر الاجتماعية أمر طبيعي لا يمكن تجنبه .

اننا نظلم الناس حين نقسرهم جميعا على اتباع عقائد وطقوس متماثلة. وقد جاء في القرآن قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ،

ولا يزالون مختلفين »[1] • ومما يجدر ذكره أن لفظة « الامة » في لغة القرآن تعني غير المعنى المتعارف عليه في لغتنا الراهنة • فالمقصود بـ « الامة » في القرآن فئة من الناس تعتنق دينا معينا • ومعنى الآية القرآنية اذن هو أن الناس مختلفون في أديانهم ، ولا يزالون مختلفين •

ولابن خلدون رأي في هذا الصدد مهم • فهو عندما استعرض الخلاف الشديد الذي وقع بين الصحابة بعد وفاة النبي قال : « ••• واعتقد مع ذلك ان اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الامة ليقتدي كل واحد بمن يختاره منهم ويجعله امامه وهاديه ودليله ••• »[2] • ان ابن خلدون يشير بهذا الى الحديث النبوي القائل « اختلاف أمتي رحمة » • فالامة الاسلامية قد اختلفت بعد نبيها الى شيع وطوائف ، كمثل ما اختلف غيرها من الامم • وتلك سنة الله في عباده جميعا ، وفيها منفعة ورحمة لهم •

بين البداوة والريف :

أشرنا في فصل سابق الى أن التدين في البادية منسجم ومتكيف مع الثقافة الاجتماعية السائدة هناك • فما دامت الثقافة البدوية ذات طابع قائم على « التغالب » والحرب الدائمة ، فلابد أن يكون التدين البدوى متأثرا بهذا الطابع • وعندما تنتقل القبائل البدوية الى الريف العراقي نجد تدينّها يأخذ بالتغير تدريجا حسب الظروف الجديدة التي لم يكن للقبائل بها عهد من قبل •

الملاحظ في الطقوس والعقائد الدينية الموجودة الآن في البادية أنها لا تزال قريبة من الفطرة • فهى تكاد لا تتجاوز الايمان بالله ورسوله ، والقيام بالصوم والصلاة والحج ، على طريقة لا تختلف كثيرا عن تلك التي كان عليها « الاسلاف » في صدر الاسلام • أما من حيث الاخلاق العملية ، فالبدو لا يختلفون أيضا عن أسلافهم ، اذ هم لا يزالون يتمسكون

---

(١) القرآن • سورة هود ، آية ١١٨ •
(٢) ابن خلدون (المقدمة) ص ٢١٨ •

بقيم العصبية والثأر والغزو وما أشبه ، وهم يحسبون أنهم فيها لا يخالفون أمر الله ورسوله .

لاحظ بعض الباحثين في العهد العثماني ظاهرة اجتماعية لفتت أنظارهم دون أن يعرفوا لها تعليلا . وهي أن كثيرا من القبائل البدوية أخذت تعتنق مذهب التشيع بعد مجيئها الى العراق بزمن قصير أو طويل . وقد أشار الى هذا السيد ابراهيم فصيح الحيدري في كتابه « عنوان المجد » الذي ألفه في عام ١٢٨٦هـ ، أي قبل مائة سنة تقريبا . فهو قد ذكر في كتابه أسماء بعض القبائل التي تشيّعت ، أو « ترفّضت » على حد تعبيره ، وعين تاريخ ذلك بشكل تقريبي . فهو يقول مثلا ان قبيلة تميم تشيّعت منذ ستين سنة ، والخزاعل منذ مائة وخمسين سنة ، وزبيد منذ ستين سنة ، وكعب منذ مائة سنة ، وربيعة منذ سبعين سنة .

ثم ذكر الحيدري أسماء قبائل أخرى دون أن يعين تاريخ تشيّعها ، كآلبو محمد ، وبني عمير ، والخزرج ، وشمر طوقة ، والدفافعة ، وبني لام ، وآل أقرع ، وآل بدير ، وعفك ، والجبور ، وجليحة[1] .

يرى بعض الباحثين أن هذا التحول الواسع نحو التشيع انما حدث بتأثير الدعاية القوية التي انبعثت من المراكز الشـــيعية في العراق كالحلة وكربلا والنجف . وهذا رأي لا يخلو من وجاهة . فالمعروف عن المراكز الشيعية أنها كانت ، ولا تزال ، تحتوى على الكثير من المدارس الدينية ، وهى تنتج الخطباء والفقهاء على نطاق واسع ، وترسلهم الى القبائل الريفية . وهؤلاء لابد أن يكون لهم شيء من التأثير في تلك القبائل . ولكننا نود أن نسأل في هذا الصدد : لو أن هؤلاء الخطباء والفقهاء قد ذهبوا الى القبائل البدوية في الصحراء ، فهل كان في مقدورهم أن يؤثروا فيها مثل هذا التأثير الذى أحدثوه في القبائل الريفية ؟

إن أية دعاية ، مهما كان نوعها ، لا يمكن أن تؤثر في قوم الا اذا كانت الظروف الاجتماعية فيهم ملائمة لها . ان الدعاية كالنبتة تحتاج الى

---

(١) ابراهيم فصيح الحيدرى (عنوان المجد) ص ١١٠ ــ ١١٤ .

تربة صالحة لنموها • واذا هي وضعت في تربه غير ملائمة فهي لا تستطيع أن تعيش أو تنمو •

في رأيي أن الظروف النفسية والاجتماعية التي كانت تحيط بالقبائل في العراق هي التي جعلتهم يتأثرون بالدعاية الشيعية على ذلك النطاق الواسع • ولو أن ظروفهم الجديدة كانت مماثلة لظروفهم القديمة ، لظلوا متمسكين بعقائدهم وطقوسهم القديمة على الرغم من كل دعاية تسلط عليهم •

من الطريف أن ننقل في هذه المناسبة رأيا جاء به الشيخ عثمان بن سند البصري في كتاب له اسمه « مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود » ، وكان قد كتبه في عام ١٢٤٢هـ • فهو يقول عن قبيلة زبيد المعروفة في العراق ما نصه :

« ••• وكان شيوخ هذه القبيلة من أهل السنة ، ولكنهم الآن روافض ، وذلك بسبب أن الشيعة عندنا لهم دعاة وخطباء يدورون على قبائل العربان ويعظونهم ويدسّون عليهم دسائس الرفض ، والاعراب عوام مغفلون لا يعرفون الدين ولا العقائد ، فلهذا ضل منهم خلق كثير وتمذهبوا بسب الصحابة • فلو أن الله يلهم الدولة العلية أن تتنبه لهذا الخطب الجسيم الذى عاقبته لا ترجع على الدين فقط ، بل أكثر ضرره على الملك والسياسة ، فان الدولة متى كانت متمذهبة بمذهب ، وخرج بعض رعاياها عن ذلك المذهب ، يخشى أنهم يجرون عليها عراقيل وفتنا داخلية تعجز عن اطفائها ••• فكان ينبغي للدولة العلية أن تجعل جواسيس في البادية عند العربان لمنع دسائس الروافض عنهم ، أو ترسل علماء من أهل السنة لتعليم هؤلاء العوام حتى اذا تمسكوا بمذهب أهل السنة والجماعة يصير نقلهم الى مذهب آخر بطيئا لا بسرعة كما هو مشاهد في هؤلاء العوام الخالي الذهن ••• »[١] »

---

(١) ابن سند البصري (مطالع السعود) ـ اختصار أمين الحلواني ـ ص ١٦٩ ـ ١٧٠ •

ان الشيخ البصري يرى أن الدعاية المجردة كافية لتثبيت الناس على مذهب ديني هم فيه ، أو لتحويلهم عنه الى مذهب آخر . والواقع أن أكثر المفكرين في العصور القديمة هم على مثل هذا الرأي ، ولا يزال بعضهم عليه حتى يومنا هذا . فهم يحسبون أن الانسان يتأثر كل التأثر ، في عقيدته أو اخلاقه ، بالموعظة والكلام المجرد . انهم يجهلون حقيقة الانسان ، وكيف أنه يتأثر بظروفه الواقعية اكثر مما يتأثر بالافكار المثالية التي يوعظ بها . فالموعظة لا تجدي شيئا الا اذا كانت ملائمة للظروف الواقعية ومنسجمة معها .

التشيع في العراق :

لكي نفهم الظروف التي جعلت القبائل في العراق تميل الى التشيع ، ينبغي أن ندرس شيئا من تاريخ التشيع في العراق . والواقع أن هذا موضوع طويل معقد ، سنحاول البحث فيه بتفصيل في كتاب قادم . وقد يكفي هنا أن نقول بأن العراق هو الموطن الذي نشأ فيه التشيع في بداية أمره ، ومنه انتشر الى الاقطار الاخرى .

كان بعض الباحثين في القرن الماضي يرون أن التشيع ذو منشأ فارسي . وقد اتضح خطأ هذا الرأي مؤخرا(١) . فالفرس كانوا في الغالب من أهل السنة والجماعة ، وقد ظلوا على ذلك حتى القرن العاشرالهجري ، ونبغ من بينهم أكثر علماء السنة(٢) . وهم لم يتشيعوا الا قسرا على يد الدولة الصفوية ، كما أشرنا اليه في فصل سابق .

ان التشيع نشأ بين القبائل العربية التي كانت تسكن الكوفة ، ثم أخذ ينتشر تدريجا بين أهل السواد ، أي بين الموالى الذين يسكنون المنطقة الرسوبية في العراق . وقد كان التشيع في بداية أمره لا يختلف عن غيره

---

(١) آدم متز (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى) ــ ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريدة ــ ج ١ ص ٩٦ .
(٢) ابن خلدون (المقدمة) ص ٥٤٣ ــ ٥٤٥ .

من المذاهب الاسلامية الا في اتجاهه السياسي ، اذ كان مذهبا ثوريا يؤيد العلويين في ثورتهم على الدولة الاموية .

وعندما ظهرت الدولة العباسية ، وقضت على الدولة الاموية ، اعتبر ذلك في حينه انتصارا للتشيع . فالعباسيون كانوا في العهد الاموى من الشيعة ، وكانوا يشاركون أبناء عمهم العلويين في الثورة على الامويين . وقد وصف ابن خلدون الدولة العباسية بكونها دولة شيعية[1] . ولكن تشيّع هذه الدولة لم يستمر طويلا . فلما نشب النزاع العنيف بين العباسيين والعلويين انقسم الشيعة في العراق الى فرقتين ، احداهما التزمت جانب العباسيين وهى التي أطلق عليها اسم « أهل السنة والجماعة » ، والثانية التزمت جانب العلويين وهى التي ظلت متمسكة باسم « الشيعة » .

يقول الشيخ عبدالعزيز الدهلوي : ان أهل السنة كانوا هم الشيعة المخلصين ولكنهم تركوا لقب « الشيعة » تحرزا من الالتباس ، وكراهة للاشتراك الاسمي مع الشيعة « السبئية » . فما ورد في بعض الكتب كتاريخ الواقدى والاستيعاب من أن فلانا كان من الشيعة مثلا لا ينافى ما ورد في غيرها من أنه من رؤساء أهل السنة والجماعة ، حيث المراد بالشيعة هناك الشيعة الاولى ، وكان أهل السنة منهم[2] ...

مهما يكن الحال فان هذا الانقسام الذي حدث بين الشيعة وأهل السنة كان ذا تأثير كبير في طبيعة المجتمع العراقي . ويمكن القول أن ليس في الاقطار الاسلامية كلها قطر يشبه العراق من حيث استفحال النزاع بين هاتين الطائفتين فيه . فبعدما كانت هاتان الطائفتان فرقة واحدة في أول الامر ، أصبحتا مختلفتين في كثير من العقائد والطقوس . وقد أخذ الاختلاف بينهما يزداد ويتراكم جيلا بعد جيل . وهذا أمر طبيعي لا داعى للاستغراب منه . فمن شأن النزاع بين البشر أنه يؤدى بمرور الايام

(١) ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ...) ج ٣ ص ٣٦٩ .

(٢) عبدالعزيز الدهلوي (مختصر التحفة الاثنى عشرية) ـ تلخيص محمود شكري الالوسي ـ ص ٧ .

الى ظهور التطرف والغلو لدى المشتركين فيه . فكل فريق منهم يتطرف من جانبه ويغالى في التمسك بالفكرة التي يعارضها الفريق الآخر . ثم يشتد التطرف فيهما كلما طال بينهما النزاع والجدال .

ان هذه ظاهرة اجتماعية عامة لا تقتصر على النزاع الطائفي فقط ، بل هي تشمل جميع أنواع النزاع البشري . فالتطرف الذي نشهده الآن في نزاع الاحزاب أو الدول أو الشعوب أو غيرها ، لا يختلف في كثير من وجوهه عما شهدناه في نزاع الشيعة وأهل السنة .

يشجب بعض المفكرين الاديان لانها في رأيهم تثير العداوات والخصام بين الناس . نسي هؤلاء أن النزاع أمر طبيعي في البشر ، فاذا لم يتنازع البشر بدافع التعصب الديني تنازعوا بدافع تعصب اخر . قد يجوز القول ان الانسان ورث تنازع البقاء من جده الحيوان !

الدين والمجتمع :

ليس من قصدنا هنا أن نفاضل بين مذهب التشيع ومذهب التسنن أو نبرهن أيهما أحق من الآخر وأكثر قربا الى روح الاسلام . فهذا من اختصاص رجال الدين وعلماء الكلام . وهم كانوا ولا يزالون يتجادلون فيه من غير جدوى . اما نحن فمقصدنا في هذا الصدد هو أن ندرس ذينك المذهبين من حيث علاقة كل منهما بالمجتمع . وهذا موضوع مهم من مواضيع علم الاجتماع الحديث يسمى بـ « علم الاجتماع الديني »

أكاد اعتقد أن من العوامل التي أدت الى زيادة الفجوة والاختلاف بين التشيع والتسنن هو مورد الرزق الذى يعيش عليه رجال الدين في كل منهما . فرجل الدين السني يعتمد في رزقه على الحكومة ، بينما زميله الشيعي يعتمد على العامة . وهذا جعل كلا منهما ينظر الى الحياة بمنظار يختلف عن منظار الاخر .

تغلب على أهل السنة نزعة الطاعة للحكومة واحترام أوامرها . فهم

يعتقدون أن السلطان ظل الله في الارض ، وأن طاعته من طاعة الله ، وهم يستندون في ذلك على قوله تعالى : « أطيعوا الله ورسوله وأولي الامر منكم » . فأولو الامر يجب أن يطاعوا وان كانوا فساقا أو جائرين[١] .

أما الشيعة فهم ينظرون الى الحكومة نظرة انتقاد واحتقار . انهم يلتزمون « التقية » تجاهها ، ولكنهم لا يحبون التقرب اليها ، أو قبول أي عطاء أو مرتب منها . ان تراثهم الثوري القديم جعلهم يفترضون في السلطان أن يكون كعلي بن ابى طالب في عدله وزهده . وحين يجدون السلطان غير قادر على ذلك ، يثلبونه ويستهينون به .

يمكن القول ان الشيعة تخلصوا من ربقة الحكومة فوقعوا في ربقة العامة . فرجال الدين فيهم يعيشون على ما يردهم من الزكاة والخمس ، وما يوصى لهم الاموات من ثلث أموالهم ، وغير ذلك . وهذا أمر له جانبه الحسن وجانبه السيء ، كأي أمر آخر من أمور الحياة البشرية[٢] .

الجانب الحسن :

لعلني لا أغالي اذا قلت ان فقهاء الشيعة هم من أكثر الناس دأبا في طلب العلوم الدينية واللغوية ، وفي التنافس عليها . فهم لا يعتمدون على مرتبات مخصصة لهم يأخذونها من الحكومة ، بل يعتمدون على ما يردهم من الناس من أموال . والناس بطبيعتهم حريصون على أموالهم ، فهم لا يعطونها الا لمن يثقون بعلمه وتقواه من الفقهاء . ولهذا أصبح كل فقيه شيعي واثقا بأن مصيره المعاشي والاجتماعي منوط بمبلغ تبحره في العلم وزهده عن الدنيا .

من يزر النجف يجد ذلك واضحا فيها . فهذه المدينة تعد الآن مركز التشيع في العالم الاسلامي كله ، حيث يتجمع فيها الفقهاء والطلاب من مختلف الاقطار الشيعية . وقد زرت النجف غير مرة وحظيت فيها بمقابلة

(١) أبو يوسف (كتاب الخراج) ص ١٠ ــ ١١ .
(٢) علي الوردي (وعاظ السلاطين) ص ٣٩٤ .

المرجع الديني الاكبر : السيد محسن الحكيم . وأعترف أني لم أشهد انكبابا على طلب العلم وتنافسا فيه ، كمثل ما شهدت لدى هؤلاء الناس .

الواقع أن الكثيرين منهم يعانون الشيء الكثير من الحرمان وشظف العيش . فالموارد التي تردهم لا تكفي لان يعيشوا بها عيشة مرفهة ، ولكنهم على الرغم من ذلك منكبون على دراستهم انكبابا يدعو الى الاعجاب . فكل واحد منهم يأمل أن ينال بعلمه وزهده رضا الناس . وتلك هي الغاية التي يسعى اليها طيلة حياته ، فاذا وصل اليها بعد كفاح طويل صار مجتهدا كبيرا يشار اليه بالبنان . انما هو لا يجوز أن يستغل مكانته العالية فيميل الى حياة الترف او الاستعلاء . فاذا ظهرت عليه بعض بوادر الترف في ملبسه أو مسكنه ، أثيرت حوله الاقاويل وبدأ يفقد مكانته العالية شيئا فشيئا .

زار أحد الصحافيين المصريين بعض المجتهدين الكبار في النجف ، فكتب في صحيفة مبديا اعجابه بحياة الزهد والبساطة التي يحياها أولئك المجتهدون ، مع العلم أن لهم نفوذا كبيرا على عشرات الملايين من الناس ، وتجبى لهم الاموال من كل مكان . لم يدر هذا الصحافي أنهم حصلوا على ذلك النفوذ الواسع بزهدهم ، ولو كانوا مترفين لفقدوا نفوذهم .

الجانب السيء :

مما يجدر ذكره أن فقهاء الشيعة هم ورثة المعتزلة في نزعة التفلسف وحرية التفكير(١) . ولهذا وصلوا في تطوير فقههم الى درجة كبيرة من الدقة والتشعيب . ومما ساعدهم على ذلك أنهم لم يسدوا باب الاجتهاد في الفقه . ومن يشهد حلقات الدراسة عندهم قد يعجب بما يجد فيها من مجادلات فقهية عميقة .

ولكن هذه الظاهرة لا تخلو من جانب سيء في الوقت نفسه . فالمعروف عن فقهاء الشيعة أنهم لا يتفلسفون الا في نطاق حلقاتهم الدراسية

---

(١) آدم متز (المصدر السابق) ج ١ ص ٩٧ .

أو مجادلاتهم الخاصة بهم وهم قد يصلون فيها الى مدى بعيد من حرية التفكير وسعة الاجتهاد . ولكنهم لا يستطيعون أن يعلنوا ذلك على العامة ، خشية أن يثور هؤلاء عليهم وينفضوا عنهم . ان العامة بوجه عام ميالون للخرافة في شؤونهم الدينية . وكثيرا ما يبتدعون طقوسا وعقائد جديدة ، حسب مقتضيات ظروفهم وحاجاتهم النفسية والاجتماعية . والملاحظ أن فقهاء الشيعة يدركون ذلك في أكثر الاحيان ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا ازاءه . فهم يخافون من العامة خوفا شديدا ، ولا يحبون معارضتهم في شيء الا قليلا .

أشار الى هذا السيد هبةالدين الشهرستاني في مجلة « العلم » التي كان يصدرها قبيل الحرب العالمية الاولى . فقد كتب فيها مقالا عنوانه « علماؤنا والتجاهر بالحق » جاء فيه ما نصه :

« وأما في القرون الاخيرة فالسيطرة أضحت للرأي العام على رأي الاعلام ... فصار العالم والفقيه يتكلم من خوفه بين الطلاب غير ما يتلطف به بين العوام وبالعكس ، ويختار في كتبه الاستدلالية غير ما يفتي به في الرسائل العملية ويستعمل في بيان الفتوى فنونا من السياسة والمجاملة خوفا من هياج العوام . حتى أنه بلغنا عن فقيه سأله أحد السوقيين عن يهودي بكى على الحسين (ع) فوقعت دمعته على ثوبي ، هل نجس الثوب ام لا ؟ فأجاب المسكين خوفا منه : ان جواب هذه المسألة عند الزهراء (ع) . وسأل سوقي آخر فقيها عمن يشج رأسه للحسين (ع) ، فأجابه كذلك ، الى غير ذلك . لكن هذه الحالة تهدد الدين بانقراض معالمه واضمحلال أصوله ، لان جهال الامم يميلون من قلة علمهم ونقص استعدادهم وضعف طبعهم الى الخرافات وبدع الاقوام والمنكرات . فاذا سكت العلماء ولم يزجروهم أو ساعدوهم على مشتهياتهم غلبت زوائد الدين على أصوله ، وبدعه على حقائقه ، حتى يمسى ذلك الدين شريعة وثنية همجية تهزأ بها الامم..»[1].

---

(١) مجلة العلم ، السنة الثانية ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

حين نرى العامة يميلون الى ابتداع عقائد وطقوس دينية جديدة لا يجوز أن نلومهم في ذلك ، فهم مضطرون اليه لكي يواجهوا به الاخطار والمشاكل التي يعانونها في حياتهم ، كما أشرنا اليه في بداية هذا الفصل .

يبدو أن العامة على مختلف طوائفهم وأديانهم متشابهون في ذلك . فهم قد يختلفون في طراز عقائدهم وطقوسهم التي يبتدعونها ، انما هم لا يختلفون من حيث الدافع الذى يحفزهم الى ابتداعها .

نجد ذلك واضحا في الشيعة وفي أهل السنة على حد سواء . فنحن اذ نتجول في الاقطار السنية المختلفة ، باستثناء مناطق الصحراء منها ، نجد فيها عقائد وطقوسا تكاد لا تختلف في أساسها الاجتماعي عن تلك التي رأيناها لدى الشيعة في العراق . ويمكن القول ان التصوف قد قدم للناس في تلك الاقطار ما يحتاجون اليه من عقائد وطقوس تسليهم ، وتبعث فيهم الطمأنينة والتفاؤل ، تجاه مشاكل الحياة وأخطارها .

الواقع أن هناك تشابها غير قليل بين التشيع والتصوف من هذه الناحية . فأينما توجهنا في الاقطار السنية او الشيعية ، رأينا مراقد «مقدسة» يزورها الناس ويتوسلون بها وينذرون لها النذور . وكذلك نجد أشخاصا « مقدسين » يتبرك بهم الناس ويرجون منهم العون في الملمات والشفاء من الامراض . فالسادة يقومون بمثل هذه الوظيفة النفسية عند الشيعة ، بينما يقوم بها مشايخ الصوفية عند أهل السنة ...

من الامور التي لفتت نظري في مصر هو أن موسم زيارة « السيد البدوي » في طنطا يكاد لا يختلف كثيرا عن موسم زيارة « الحسين » في كربلا . وقد شهدت المتصوفة يحتفلون بمولد السيدة زينب والسيد الحسين في القاهرة ، فيقومون بحلقات الذكر او يخرجون بالمواكب والرايات ، على منوال يشبه من بعض الوجوه ما يفعله الشيعة في العراق احتفالا بوفيات أئمتهم .

أشار ابن خلدون في مقدمته الى التشابه الموجود بين عقائد المتصوفة وعقائد الشيعة . فهو يقول : « وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ، ومعناه رأس العارفين ، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله اليه . ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان ... وهو بعينه ما تقوله الرافضة في توارث الائمة عندهم . فانظر كيف سرقت طباع هؤلاء القوم هذا الرأي من الرافضة ، ودانوا به . ثم قالوا بترتيب وجود الابدال بعد هذا القطب كما قال الشيعة في النقباء ، حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم ونحلتهم وقفوه على علي رضى الله عنه . وهو من هذا المعنى أيضا . والا فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بنحلة ولا طريقة في لبوس ولا حال ... ثم جعلوا القطب لتعليم المعرفة بالله لانه رأس العارفين ، وأفردوه بذلك تشبيها بالإمام في الظاهر ، وأن يكون على وزانه في الباطن ... فتأمل ذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في الفاطمي [أي المهدي المنتظر] وما شحنوا كتبهم في ذلك ... وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم . والله يهدى الى الحق »[1] .

وللدكتور كامل الشيبي ، أحد أعضاء قسم الفلسفة بجامعة بغداد ، بحوث مستفيضة في هذا الموضوع ، حيث أظهر فيها مبلغ الترابط والتشابه بين عقائد الشيعة وعقائد المتصوفة[2] .

حاول بعض فقهاء السنة انتقاد التصوف وشجب عقائده وطقوسه ، حيث اعتقدوا أنه من البدع التي لم يأت بها الاسلام . ولكن محاولتهم هذه باءت بالفشل . ومن أشهر من انتقد التصوف ابن تيمية . فهذا الرجل قد قاوم التصوف والتشيع معا ، ودعا المسلمين الى العودة الى التعاليم الفطرية

---

(١) ابن خلدون (المقدمة) ـ تحقيق علي عبدالواحد وافي ـ ج ٣ ص ١٠٧٤ ـ ١٠٧٥ .

(٢) راجع كتابه (الصلة بين التصوف والتشيع) . وسيصدر له قريبا كتاب آخر في مثل هذا الموضوع .

الاولى التي جاء بها الاسلام . ولكن رأيه لم يلق رواجا الا في صحراء العرب بعد بضعة قرون من وفاته . وذلك عندما ظهر محمد بن عبدالوهاب في منتصف القرن الثامن عشر يدعو الى مثل ما دعا اليه ابن تيمية . اما في بقية الاقطار الاسلامية فقد ظل الناس كما كانوا ينحون منحى التصوف . او التشيع ، حسب مقتضيات ظروفهم . انهم يعانون في حياتهم شتى انواع الامراض والمظالم والمضايقات ، وهم اذن في حاجة الى ما يساعدهم على مجابهتها أو تحملها .

التوزيع الطائفي في العراق :

من الظواهر الاجتماعية التي تلفت النظر في العراق هي أن التوزيع الطائفي في مناطقه المختلفة يعتمد على مدى اتصال كل منطقة منها بالبداوة . ففي منطقة « الجزيرة » ، وخصوصا في الجزء الشمالي منها ، نرى القبائل والمدن كلها على مذهب أهل السنة . وهي تكاد تشابه في عقائدها وطقوسها بدو الصحراء . قد نجد هناك جيوبا صغيرة يسكنها بعض الغلاة ، وهي تكاد تكون شاذة في نظر الذين يحيطون بهم ، كالشبك قرب الموصل ، والنصيرية قرب عانة .

وحين نهبط قليلا نحو الجنوب نجد الناس محافظين على تسننّهم ، غير أن التصوف أخذ يتغلغل بينهم . ولكننا لا نكاد نصل الى وسط العراق حتى نلاحظ أن التسنن بدأ يختفي في بعض القبائل والمدن ليحل التشيع محله . وهناك نرى التشيع يظهر على بعض القبائل دون البعض الآخر منها . وربما وجدنا احدى القبائل تعتنق المذهبين في آن واحد ، حيث يعتنق بعض فروعها مذهب التسنن ، بينما يعتنق البعض الآخر مذهب التشيع . وقد يشاهد مثل هذا في المدن أيضا ، حيث يختلف المذهب بين مدينتين متجاورتين ، أو بين محلتين من مدينة واحدة .

يتضح هذا بوجه خاص في منطقة ديالى . فالاختلاط الطائفي قد بلغ فيها أقصاه . وربما جاز القول بأن التعايش السلمي بين الطائفتين هناك غير

قليل • وليس من النادر أن نرى محلة سنية تشارك محلة شيعية في بعض مواكبها ومجالسها الحسينية ، وقد تشاركها أيضا في تقديس بعض مراقدها وأئمتها •

وحين ننتقل من وسط العراق الى جنوبه ، حيث المنطقة الرسوبية الكبرى ، نرى التشيع قد ضرب نطاقه في كل مكان • فقلما نجد في هذه المنطقة قبيلة أو مدينة أو محلة سنية • ان هذه المنطقة هي الموطن الذى نشأ فيه التشيع في بداية أمره • وفيها تتركز الدعاية الشيعية تركزا شديدا •

هناك في أقصى الجنوب من المنطقة الرسوبية ، وفي منطقة البصرة ، بعض الجيوب السنية الصغيرة كمدينة الزبير وأبي الخصيب واحدى محلات سوق الشيوخ وغيرها • وهؤلاء قد جاءوا من البادية في عهد متأخر ، ولا يزالون على اتصال بقبائل البادية • وهناك أفراد قلائل من أهل السنة يسكنون في بعض مدن المنطقة الرسوبية كالناصرية مثلا • والملاحظ أنهم بدأوا يتأثرون بالدعاية الشيعية شيئا فشيئا • فأخذوا يشاركون في مواكب الشيعة ويحضرون مجالسهم ، وربما أخرج بعضهم مواكب خاصة بهم • وهذا يدل على أنهم سائرون في سبيل التشيع تدريجيا •

وسائل الدعاية الشيعية :

للشيعة طقوس دينية يتميزون بها • وهذه الطقوس كانت في الماضي من أعظم وسائل الدعاية تأثيرا في النفوس • نذكر فيما يلي أهمها :

(١) زيارة المراقد المقدسة : فقد بذل الشيعة أموالا طائلة في تشييد مراقد أئمتهم ، فطلوا منائرها وقببها بالذهب « الوهاج » وزخرفوا داخلها زخرفة جميلة جدا يندر أن نجد لها مثيلا في جميع انحاء العالم • وهذه كانت ذات أثر بليغ في جذب الناس الى التشيع • فاذا زار الفرد تلك المراقد انبهر بها وبما يشيع فيها من جو روحاني هائل • وهو كلما أكثر من زيارته لها توغل تأثيرها في أعماق نفسه •

(٢) المواكب الحسينية : فقد اعتاد الشيعة في العشرة الاولى من شهر محرم أن يخرجوا بالمواكب العظيمة احياءا لذكر مقتل الحسين . وهذه المواكب تسير في الطرقات وفيها الاعلام والطبول والبوقات ، وتقرأ فيها القصائد العامية الحزينة ، وتلطم فيها الصدور ، أو تضرب الظهور بالسلاسل. وفي اليوم العاشر تخرج « مواكب التطبير » حيث يلبس أصحابها الاكفان وتسيل الدماء من رؤوسهم ، ثم يجرى بعدئذ تمثيل الواقعة التي قتل فيها الحسين في كربلا ... وبذلك يبلغ هياج العواطف أقصاه .

(٣) مجالس التعزية : ان كل وجيه أو غني من الشيعة يميل الى اقامة مجلس يقرأ فيه مقتل الحسين لمدة عشرة أيام ، خصوصا في شهر محرم وشهر صفر من كل عام . ومن يشهد هذه المجالس ويستمع الى القصائد الحزينة التي يلقيها الخطباء فيها ، والى وصفهم مقتل الحسين وأولاده واخوته وأقربائه ، يحس بالميل الى البكاء . وقد تفنن خطباء الشيعة في ذلك تفننا عجيبا بحيث استطاعوا أن يحدثوا في كل مجلس يخطبون فيه عويلا شديدا . وهؤلاء الخطباء يتحدثون الى الناس على قدر عقولهم وباللغة التي يفهمونها . وكثيرا ما ينشدون الاشعار العامية بصوت حزين منغّم فيحدثون أثرا بالغا في النفوس .

ان هذه الوسائل أصبحت الآن مستهجنة في نظر المتعلمين من الشيعة . والكثيرون من فقهاء الشيعة لايرتضونها ، وقد أعلن بعضهم شجبها وتحريمها . وهي في الواقع قد صارت تنفر الناس من التشيع بدلا من جذبهم اليه . ولكننا يجب أن لا ننسى أنها كانت في العهود الماضية ملائمة لعقول الناس وقادرة على التأثير فيهم . فهي كانت من أهم وسائل الدعاية ، اذ هي تدفع الناس الى المشاركة العاطفية ، وتستدر منهم الدموع ، وتتيح لهم مجال التنفيس عما يعانونه من كبت وألم .

ذكرت الليدى درور أن امرأة مسيحية شهدت مأساة الحسين وهي تمثل في مسجد الكاظمية الكبير يوم عاشوراء ، وراقبت الجماهير وقد طغى

عليهم الاسى ، فتأثرت من ذلك تأثرا كبيرا ، وسرعان ما أخذت دموعها تنسكب غزيرة . فرأتها امرأة من الشيعة وهتفت قائلة : « حمدا لله لقد اهتدت الى الحق فأصبحت شيعية ! »[1] .

وقد فطن الدكتور جوزيف الى مبلغ تأثير تلك الوسائل الشيعية في الهند ، اذ وجد التشيع ينتشر بين الهنود منذ زمن بعيد . فالشيعة هناك يفعلون كما يفعل اخوانهم في العراق من حيث اقامة المجالس والمآتم ، والخروج بالمواكب والرايات يدورون بها في الشوارع . وهو يقول ان الشيعة يظهرون بذلك فداحة الظلم الذى وقع على أئمتهم ، فيحدثون به في الناس تأثيرا نفسيا عميقا ، لان الانسان ميال بطبعه الى الانحياز نحو جانب المظلوم ولو كان مبطلا ، والى النفرة من الظالم ولو كان محقا[2] ...

الاوتار الحساسة :

عندما تأتي القبائل البدوية الى العراق تقع تحت تأثير الدعاية الشيعية. وهذه الدعاية ذات وسائل ناجحة جدا كما رأينا ، اذ هى تضرب على الاوتار الحساسة في قلوب أبناء القبائل ، فتجذبهم الى التشيع دفعا قويا .

هناك أمران تؤكد عليهما الدعاية الشيعية كل التأكيد ، هما ذكر مناقب أهل البيت وذكر المظالم التي وقعت عليهم . فخطباء الشيعة وشعراؤهم قد برعوا غاية البراعة في وصف تلك المناقب والمظالم . ويمكن القول ان اثنين من ائمة أهل البيت قد تمثلت فيهما تلك المناقب والمظالم بوجه خاص ، هما علي بن ابي طالب وابنه الحسين . ولهذا كانت اكثر الخطب والقصائد الشيعية تدور حول هذين الامامين . فهي تطنب في ذكر الخصال الممتازة التى اتصف بها علي بن ابي طالب ، كالشجاعة والفصاحة والعدالة والزهد. ثم تأتي بعدئذ الى ذكر ما وقع لهذا الامام العظيم من نكبات ، وكيف قتل في النهاية غيلة على يد مجرم أثيم . وهى تفعل مثل ذلك في شأن

---

(١) ليدي درور (في بلاد الرافدين) - ترجمة فؤاد جميل - ص ٩٢

(٢) مجلة العلم ، السنة الثانية ، ص ٢٥٠ - ٢٦٠ .

الحسين . ومما يجدر ذكره أن مقتل الحسين يقدّم مادة دسمة للدعاية الشيعية . وقد استثمرها الخطباء والشعراء الى أبعد الحدود ، وحصلوا منها على نتائج هائلة .

الواقع أن هذه الوسائل الدعائية تلائم القبائل الريفية ، وتنسجم مع ظروفهم الاجتماعية والنفسية . فهي من جهة تقدّم لهم قصصا رائعة تتمثل فيها قيم الرجولية والشجاعة والإباء والمروءة ، وتثير فيهم نزعات الثقافة البدوية الكامنة في أعماق نفوسهم . وهى من الجهة الاخرى تقدم لهم قصصا مفعمة بالحزن والاسى ، فتتيح لهم بها مجالا للتنفيس عما يعانونه في حياتهم من أمراض ومظالم ومضايقات .

لو أن هذه الوسائل الشيعية قد استخدمت بين القبائل البدوية في الصحراء لما أنتجت فيهم هذا التأثير الذي شـــهدناه في القبائل الريفية . فالبدو يحبون الاستماع الى ذكر المناقب ، ولكنهم لايحبون أن يستمعوا الى ذكر المظالم والمآسي . انهم في الصحراء لا يتحملون أي ظلم ، وهـــم يواجهون القتل والموت من غير اكتراث ظاهر . وقليلا ما يبكون على أحد منهم مات أو قتل . فالبكاء في نظرهم من شيم النساء . أما الرجال فشيمتهم الصبر والتحفز لامتشاق الحسام والاخذ بالثأر .

روى لي صديق عن أحد شيوخ بني تميم أن شيخا بدويا سأله عن عقيدة الشيعة ما هي ؟ فأجابه قائلا : هي حب علي بن أبي طالب وتفضيله على جميع الناس بعد النبي . فانتفض الشيخ البدوي قائلا : « نحن كلنا شيعة . انه علي أبو حسين راكب الميمون . من هو مثله ! » .

ان هذا الجواب قد يعطينا صورة مختصرة للعقيدة الدينية عنـــد البدو . فهم في الواقع يحبون عليا حبا جما ويعجبون بشجاعته وفصاحته ومروءته . فهو في نظرهم نموذج للفارس العـــربي . ولكنـــهم مع ذلك لا يستطيعون أن يكونوا شيعة بالمعنى المعروف في العراق . انهم يقفون في تشيعهم لعلي عند حد الاعجاب والحب فقط . اما البكاء عليه وعلى اولاده أو التوسل بقبورهم ، فذلك أمر لا يفهمونه ولا يستسيغونه . فهم يعتقدون

أن من مفاخر الرجال الابطال أن يموتوا قتلا ، ومن العيب أن يموت الرجل منهم على فراشه •

مواطن القسم :

ذكرنا في فصل سابق أن الفرد البدوي يغلب عليه الصدق والصراحة والامانة والوفاء عادة • ولهذا فهو لا يلجأ الى القسم في أقواله ومواعيده الا قليلا • إن أعظم قسم يحلف به البدوى هو أن يقول ، بعد أن يتناول عودا صغيرا من الارض : « وحق هذا العود والرب المعبود »[1] وهو قد يتهم بالقتل مثلا ، فاذا طولب باليمين اعترف بجريمته ولم يحلف كذبا[2] •

ولكن البدو عندما ينتقلون الى العـراق يفقـدون هذه الخصلة شيئا فشيئا • فهم يقعون تحت وطأة الجباة والجلاوزة والمرابين ، فيضطرون الى اتخاذ عادة الكذب والايمان الكاذبة لكي يخففوا بها وطأة الضغط الواقع عليهم • الواقع أن الايمان الكاذبة منتشـرة في الريف انتشـارا فظيعا ، وخصوصا بين اولئك الذين يتعاطون البيع والشراء مع أهل المدن • فانت لا تكاد تسأل أحدهم عن جودة بضاعته أو ثمنها ، حتى يأتي لك بأغلظ الايمان لكي يجعلك تصدق بقوله ، وكثيرا ما يكون في قوله كاذبا • وهذه ظاهرة نلاحظها في نساء الريف بوجه خاص • فهن يأتين بالمنتجات الحقلية أو اللبنية الى الاسواق لبيعها • وهناك تسمع الايمان المغلظة تتوالى وهي تملأ الجو بشكل غريب •

ان هذا الوضع الاجتماعى يؤدى الى ضرورة وجود نوع من القسم يطمئن اليه الناس ولا يجوز الكذب فيه • فما دام الناس قد اعتادوا على الايمان الكاذبة بالله وبرسوله وبالائمة المقدسين ، فلابد أن يظهر بينهم يمين خاص يخافون من الحلف به كذبا •

حين نتجول في الريف نرى في بعض أنحائه مراقد مقدسة يقصدها

---

(١) عبدالجبار الراوي (البادية) ص ٢٣٤ •
(٢) عباس العزاوي (عشائر العراق) ج ١ ص ٤٠٦ •

الناس للحلف عندها ، وهم يعتقدون أن الكذب فيها يوقعهم في مرض أو كارثة . وهذه المراقد هي كما يلي ، حسب أهميتها الاجتماعية :

(١) مرقد العباس بن علي في كربلاء .

(٢) مرقد السيد محمد قرب بلد .

(٣) مرقد عبدالله بن علي جنوب قلعة صالح .

(٤) مرقد علي الشرقي قرب الكميت .

(٥) مرقد علي اليثربي بن موسى الكاظم قرب بدرة .

وهناك مراقد أخرى كثيرة أقل أهمية من هذه . وهي جميعا يقصدها الناس من الانحاء القريبة منها ، ليؤدوا القسم عندها في عقودهم التجارية أو محالفاتهم القبلية أو ما أشبه . وقد اشتهر كل مرقد منها بأن صاحبه له « شارة » ، أي أنه قادر أن يصيب الكاذب في يمينه بالمرض . والظاهر أن الكاذب قد يحل به المرض بتأثير الايحاء النفسي الذى يسيطر عليه بعد أداء اليمين .

جاء في أحد الامثال الدارجة : « الإمام الذى لا يشوّر يضربه الناس بالخرق » . معنى هذا أن صاحب المرقد الذى ليس له « شارة » يصيب الناس بها سوف لا ينال منهم سوى الاستهانة . فهم يحلفون به كذبا من غير خوف . اما اذا كانت له « شارة » فهم يحترمونه ولا يكذبون عنده . وكلما كانت « شارته » أفظع كان احترام الناس له أكثر .

العباس بن علي :

مرقد العباس بن علي في كربلا هو أعظم مكان للقسم في المنطقة الرسوبية من العراق . فالعامة في هذه المنطقة يصفون العباس بأن رأسه « حار » ، ويقصدون بذلك أنه حاد المزاج شديد الغضب يصيب بـ « شارته » حالا من غير ابطاء . فهم قد يتجرأون على الحلف كذبا بالنبي والأئمة الكبار ، ولكنهم لا يتجرأون على الكذب تجاه العباس . سألت بعضهم عن سبب ذلك فقال : ان النبي والائمة معصومون وهم لا

يؤذون أحدا اذا تجرأ عليهم ، اما العباس فهو غير معصوم ورأسه حار .

تقول الليدي درور : « ... ولو أقسم الشيعي حانثا بالحسين لما ناله عقاب ، فالإمام وديع يصفح ، لكن العباس عصبي المزاج وعسكري صارم ، يؤمن بالضبط والربط ، لذلك لن يجسر أحد على أن يقسم به حانثا . ألم تر في سقف مسجد الامام العباس رأس رجل معلق به ؟! قيل انه أقسم باسم العباس زورا ، فما كان من الرأس الا أن يطير عن الجسد ويلتصق بالسقف . فان أقسم امرؤ بالعباس زورا فلا معدى من أن يصيبه مثل هذا »[1] .

الواقع أن العباس لا يقتصر تأثيره على مجال القسم فقط ، بل يتعدى ذلك الى مجالات أخرى عديدة . فالملاحظ أن القبائل في المنطقة الرسوبية لديها عقائد وتقاليد كثيرة تدور حول العباس ، كفاتحة العباس ، وخطة العباس ، وراية العباس ، وسيف العباس ، وعصا العباس ، وخبز العباس ، وغير ذلك . وهم اذا أرادوا وصف انسان بقلة التدين قالوا انه « نسي العباس » . ذكر الدكتور شاكر مصطفى سليم أن سالم الخيون شيخ بني أسد بعد ما رجع من الهند ، وكان منفيا فيها خمس سنوات ، لاحظ بعض أفراد قبيلته أنه قد تفرنج وترك تزمته الديني ، فقالوا عنه : انه نسي السادة والعباس ، وزيّن لحيته ، ويشرب العرق ، ويحكى بالسياسة ، ويربى الكلاب[2] .

ان هذه ظاهرة اجتماعية تلفت النظر . فما هو السبب فيها ؟ ولماذا صار العباس بهذه المنزلة الرفيعة بين القبائل الريفية ؟

يرجح في ظني أن القبائل انما أولعت بالعباس هذا الولع الشديد لانها وجدت فيه مثالا رائعا للفروسية البدوية . والظاهر أنهم لم يستطيعوا أن يعبروا عن مكنون أنفسهم تعبيرا واضحا ، حيث رأيناهم يصفون العباس بأن رأسه حار وأنه شديد الغضب و « شارته » عاجلة ، وغير ذلك . انما هم

---

(١) ليدى درور (المصدر السابق) ص ٨٤ .
(٢) شاكر مصطفى سليم (الجبايش) ج ١ ص ٢٠٥ .

في حقيقة أمرهم يرون في العباس شخصية الفارس المغوار الذي يقدرونه غاية التقدير حسبما توحى به قيمهم البدوية القديمة .

وحين ندرس أخبار العباس في كتب التاريخ نستطيع أن ندرك السبب الذى جعل القبائل تعجب بالعباس . وفيما يلي بعض تلك الاخبار :

اولا : روى المؤرخون أن الإمام عليا أرسل الى أخيه عقيل يسأله أن يختار له زوجة لكي تنسل له غلاما « فارسا » . والمعروف عن عقيل انه كان عارفا بأنساب العرب خبيرا بها . فأوصى عقيل أخاه بأن يتزوج فاطمة بنت حزام الكلابية ، وقال يصفها : « ليس في العرب أشجع من آبائها ولا أفرس » . فتزوجها الامام ، فولدت له العباس .

ثانيا : كان العباس في عنفوان شبابه ذا صفات بدنية عظيمة حسب مقاييس البداوة . يقول أبو الفرج الاصفهاني في وصفه : انه كان فارسا وسيما ، قويا جسيما ، اذا ركب الفرس المطهّم تكاد رجلاه تخطان الارض .

ثالثا : أبدى العباس في معركة كربلا ، دفاعا عن أخيه الحسين ، بطولة لا تضاهي . فكان في الواقع حامل الراية وبطل المعركة . وقد أطلق عليه لقب « ساقي عطاشى كربلا » لانه استطاع أن يخترق الحصار المضروب على معسكر الحسين ويصل الى ساحل النهر . وقد أبى أن يروي ظمأه من الماء ، بل عمد الى قربته فملأها به ثم رجع ليسقى بها نساء الحسين وأطفاله .

رابعا : كانت أم العباس من قبيلة كلاب ، كما أسلفنا . وقد صادف أن كان في معسكر الاعداء رجال من تلك القبيلة ، وكانوا أولى قيادة ونفوذ في ذلك المعسكر ، كشمر بن ذى الجوشن ، وعبدالله بن حزام الذي هو خال العباس . وقد استطاع عبدالله هذا أن يأخذ من الامير ابن زياد أمانا خاصا للعباس وأخوته . وحاول أن يقنع العباس لكي ينجو هو واخوته من الموت المحتوم . وأيده في ذلك شمر بن ذي الجوشن . فذهبت

مساعيهما أدراج الرياح ، حيث أصر العباس أن يموت هو وأخوته مع الحسين . فضرب بذلك مثلا رائعا في الشهامة والاباء .

خامسا : كان الحسين يحب العباس حبا جما ، فطلب منه أن يستجيب لنداء أخواله وينجو بنفسه . كان الحسين موقنا بأنه مقتول لا محالة ، فلا فائدة اذن من أن يقتل العباس معه . ولكن العباس أبى أن يتخلى عن أخيه الحسين وقال : لا نتخلى عنك ولا نبقى بعدك [1] !

ان مناقب « الفروسية » هذه التي تجلت في سيرة العباس لا بد أن يكون لها تأثير بالغ في نفوس القبائل الريفية . وقد اعتاد خطباء مجالس « التعزية » على ترديدها في خطبهم المنبرية ، وربما زادوا فيها وبالغوا . ثم يأخذون من بعد ذلك بترتيل القصائد الشجية في مدحها . ولست أظن أن هناك انسانا يستمع الى ذلك ولا يتأثر به ، على وجه من الوجوه .

قديس آخر :

يأتي بعد العباس من حيث التأثير على القبائل الريفية قديس آخر هو السيد محمد بن الامام علي الهادي . وهو مدفون بالقرب من مدينة بلد في المنطقة الوسطى من العراق .

أشرنا من قبل الى أن المنطقة الوسطى من العراق تسكنها قبائل شيعية وسنية معا . ومما يلفت النظر أن هذه القبائل كلها تقدّس السيد محمد وتطلق عليه لقب « سبع الدجيل » . فهو يقوم في هذه المنطقة مقام العباس في المنطقة الرسوبية .

يقع مرقد السيد محمد على بعد بضعة أميال من مدينة بلد ، وليس حوله مساكن او بساتين . ولهذا فان زواره يسكنون عادة في الغرف المعدة لهم في الصحن المحيط بالمرقد . وهم يستطيعون أن يحصلوا من السدنة على جميع ما يحتاجون اليه من قدور وأواني وأفرشة ومهود للاطفال . والزوار يستعملونها دون أن يتمكن أحد من سرقتها . ان أبناء القبائل

---

(١) محسن الامين (أعيان الشيعة) ج ٣٧ ص ٧٥ ـ ٧٧ .

قد اعتادوا على سرقة أي شيء يقع تحت أيديهم ، ولكنهم لا يسرقون من السيد محمد شيئا ولو كان ثمينا . فهم يعلمون بأن هـذه السرقة ستجر عليهم الكارثة . ولهذا نرى القدور والاواني متروكة في كل مكان ، داخل الصحن أو خارجه ، دون أن يمسها أحد .

الواقع أن لمرقد السيد محمد وظيفـة نفسية واجتماعية مهمـة بين القبائل المحيطة به . فهم يلجأون اليه لشفاء أمراضهم وقضاء حاجاتهم وحل مشاكلهم . وهم ينذرون له النذور ولا يحلفون به كذبا . فاذا كان العباس له « رأس حار » فان السيد محمد « سبع » والويل لمن يتجرأ عليه أو يستهين به في شيء .

يقول النوري في كتابه « النجم الثاقب » : ان السيد محمد له كرامات متواترة حتى عند أهل السنة وأعراب البادية ، وأنهم يبجلونه ويخشون بطشه ولا يحلفون به كاذبين . وتساق له النذور من النواحي ، وتفصل أكثر الدعاوى في سامراء وضواحيها بالحلف به . ورأيت غير مرة شـخصا أنكر ما عليه من دين ، فلما استحلف بالسيد محمد دفـع المبلغ ولـم يحلف به[1] .

وذكر المجتهد المعروف السيد حسن الصدر أنه شهد بعينه احدى كرامات السيد محمد ، وهي أن لصا أراد أن يسرق أغناما كانت مودعة داخل سياج من الطين بجوار صحن المرقد . فلما نقب اللص السـياج وحاول ادخال جسمه منه مات حالا . وقد رآه السيد حسن جثة هامدة وهى على وضعها في النقب[2] .

وهناك قصص أخرى كثيرة يتناقلهـا الناس حـول كرامـات السيد محمد ، في أمر شفاء الامراض ، او قضاء الحاجات ، أو انزال العقوبـة الرادعة[3] . ويبدو أن الكثير من هذه القصص لا يخلو من صحة . فقد

---

(١) محمد علي الغروي (محمد بن الامام علي الهادي) ص ٤٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨ ـ ٨٠ .

دلت البحوث العلمية الحديثة أن للعقيدة الجازمة تأثيرا كبيرا في النفس البشرية • فاذا اعتقد الانسان مثلا بأنه سيصاب بمرض من جراء جناية اقترفها تجاه قديس ، فان ذلك سيؤدي به الى الوسوسة والتوهم ، وكثيرا ما ينتهي أمره الى الابتلاء بما خاف منه • ومثل هذا قد يحدث للانسان حين يعتقد بأنه سيشفى من مرض ابتلى به •••

ان النفس البشرية عالم عجيب مملوء بالاسرار ، وليست الخوارق والكرامات التي تنسب الى القديسين الا من بعض هاتيك الاسرار •

السادة في العراق :

« السادة » يؤلفون طبقة محترمة في المجتمع العراقي • وهم الذين ينتمون في النسب الى النبي محمد • ويطلق عليهم أحيانا اسم « اولاد الرسول » أو « فروخ الزهراء » • والواقع أن هذه الطبقة موجودة في جميع الاقطار الاسلامية ، ولهم فيها مكانة اجتماعية عالية • وهم يلقبون في مصر والحجاز والمغرب بـ « الاشراف » • ولهم في مصر نقابة خاصة بهم[1] ، ورئيس وسجل لانسابهم ، وقد خصص لكل شخص منهم مرتب « رمزي » يتسلمه في أوقات معينة •

وللسادة بين القبائل الشيعية في العراق امتيازات ومنزلة رفيعة جدا قد لا نجد ما يقاربها في الاقطار الاسلامية الاخرى • فالسيد في القبائل العراقية له « حق الخمس » في الحاصلات الزراعية ، وهو يطالب به من غير توسل أو استجداء • وهو يسميه « حق جدي » • واذا اشتهر أحد السادة بقوة « شارته » ازدادت منزلته ارتفاعا بين القبائل ، فحلفوا باسمه ، وتبركوا بدعائه ، ونذروا له النذور الوفيرة • واذا تمرض أحدهم ذهب الى السيد فأخذ منه خيطا أخضر فشده على رسغه لينال به الشفاء •

يروى عن سيد معروف أنه غضب ذات يوم على أحد الشيوخ وهدده بالكارثة • وشاءت المصادفة أن تحترق بيادر الشيخ بعد برهة قصيرة•

---

(١) حسن النجار (الاشراف) ص ٧٢ ـ ٧٣ •

فاعتبر الناس ذلك « شارة » للسيد فأصبح في نظرهم « مقدسا » وتضخمت ثروته . وقد صار أولاده من بعده يتمتعون بقدسية أبيهم . وقد أدركت أحد اولاده ، فوجدته يكسب المال الوفير في الريف لينفقها على شهواته في المدينة ...

يقول الدكتور شاكر مصطفى سليم حول منزلة السادة في قرية الجبايش : « وينظر أهل الجبايش ، كما يفعل بقية شيعة العراق ، الى السادة كرجال مقدسين يجب أن يوضعوا فوق بقية البشر كافة . فما داموا (اولاد رسول الله) فان احترامهم وتقديسهم واجب ديني . ويقسم أهل الجبايش الايمان بالسادة ، وخاصة في عدد قليل منهم معروفين بتقواهم وورعهم . ومن المفضل ، في حالات ارسال وفد لخطوبة فتاة أو لفصل قضية أو تسوية خلاف أو في ارسال وفد (مشية) لتطييب خاطر شخص متألم أو غضبان ، أن يترأس مثل هذا الوفد سيّد ، لانه لا يرد اذا طلب شيئا . ويجلس السادة في مكان الصدارة من المضايف ويعطون الافضلية والاسبقية اينما ذهبوا وحلوا . ولا يأخذ سراكيل القرية حصتهم من المحصولات الزراعية من السادة الذين يزرعون في أرضهم »[1] .

يبدو أن السيد بين القبائل يشبه أن يكون « مصونا غير مسؤول » . فهو يستطيع أن يصفع أو يهين أو يعتدي على أى رجل ريفي مهما كانت مكانته الاجتماعية . والرجل لا يجوز أن يغضب أو يردّ على السيد بما لا يليق . وقد أدى ذلك بالكثيرين من السادة الى أن يكونوا من أولى الغضب السريع والمزاج الحاد . والناس يصفون السيد بأن فيه « عرق بني هاشم » . وقد ينسبون اليه الجنون أحيانا لشدة غضبه ، وجاء في أحد أمثالهم قولهم « السيد بلا جنون كالعنزة بلا قرون » .

في زيارتي الاخيرة الى ناحية عفك لاحظت ظاهرة اجتماعية لفتت نظري ، وهي وجود باحات صغيرة مسيجة بجدران من الطين وعليها علم أخضر . وقد رأيت ثلاثة او أربعة منها في الطريق بين عفك والدغارة .

---

(١) شاكر مصطفى سليم (المصدر السابق) ج ١ ص ١٢٥ .

ولما سألت عنها قيل لي انها الموضع الذي غسل فيها جثمان أحد السادة المعروفين بعد موته . فالجثمان قد نقل الى النجف لدفنه ، ولكن موضع غسله أصبح مقاما مقدسا ينذر الناس له النذور ويتبركون به . ومن يدري فلعل بعض هذه المواضع سيكون في يوم من الايام مزارا مقصودا تقام عليه قبة ، ويكون له سدنة .

كثرة القبب :

ذكر السائح الالماني نيبور أنه أثناء سفره في منطقة الفرات الاوسط عام **١٧٦٥** لاحظ كثرة القبب ، أو الابنية الصغيرة المشيدة على قبور أشخاص يعدّون من الاولياء ، وهي توجد بجوار القرى ، وأحيانا في الاراضي الخالية[١] .

الواقع أن هذه القبب لا تزال موجودة بكثرة في شتى انحاء الريف العراقي . والكثير منها مجهول الاصل ، فلا يعرف أحد من هو المدفون فيه . وربما كان البعض منها خاليا من أي دفين . والملاحظ أن بعض هذه القبب يزعم الناس أنها مراقد « بنات الحسن » . ولعلهم يعنون بهن بنات الحسن بن علي بن ابي طالب . وهذا زعم يصعب علينا تصديقه . فبنات الحسن لم يكن بهذه الكثرة ، وهن مدفونات في المدينة في أرجح الظن .

ان أهل الريف في حاجة الى قبور مقدسة لكي يلجأوا اليها في شفاء أمراضهم وحل مشاكلهم . وهذه الحاجة تؤدي الى ظهور القبور المقدسة بينهم على أي حال ، حسب المبدأ القائل : « الحاجة أم الاختراع » .

يروي الاستاذ جعفر الخليلي أن رجلا اسمه مزعل الفحام كان فقيرا كادحا فتفتق ذهنه عن حيلة يدرأ بها الفقر عن نفسه وعائلته ، فأعلن ذات يوم أن « الخضر » ظهر له في النوم وأخبره بوجود قبر لاحد الاولياء في بيته . وشاع خبر الحلم بين الناس فأصبح بيت مزعل مزارا كبيرا ،

(١) كارستن نيبور (مشاهدات نيبور) ـ ترجمة ـ سعاد العمري ـ ص ٧٢ ـ ٧٣ .

وتولى مزعل نفسه سدانة المزار ، فصار رجلا محترما تغدق عليه النذور والهدايا[١] .

وتروى قصة أخرى شبيهة بهذه وقعت قبل خمس وأربعين سنة تقريبا ، وهي أن فلاحا من قرية القريشات القريبة من النجف رأى في الحلم كأن وليا اسمه « السيد محمد » مدفون بجوار بيته . ولم تمض أيام على شيوع خبر الحلم حتى أقبل الناس على القبر يتبركون به . وأثرى الفلاح من جراء ذلك مما دعا غيره أن يحلم بقبر ولي آخر اسمه « السيد ابراهيم » . ثم ظهر قبر ثالث ورابع ... حتى ازدحمت القرية بالقبور المقدسة !

ومنذ زهاء مائة سنة ظهر قبر مقدس قرب مدينة الهندية قيل انه لحفيد الامام جعفر الصادق اسمه « صگبان » . والغريب أن هذا الاسم أعجمي ومعناه « حارس الكلب » وكان يطلق في العهد العثماني على نوع من الجنود . وليس من المعقول أن يسمى حفيد جعفر الصادق بهذا الاسم . ولكن الناس لم يهتموا بذلك وانثالوا على القبر يتبركون به[٢] .

وهناك قصة يتناقلها أهل العراق ، وقد يذكرونها في مجال النكتة ، وخلاصتها أن رجلين ، في احدى النواحي الريفية ، عثرا على جثة حمار ميت فدفناه وأقاما عليه قبة ، وصارا سادنين لها . فصار أهل الريف يقصدونها للتبرك ، وينذرون لها النذور ويحلفون بها . وحدث ذات يوم أن تخاصم السادنان ، فاندفع أحدهما يحلف بصاحب القبة . فقال له زميله متعجبا : « ألسنا نحن الذين دفناه بأيدينا ؟! » .

يبدو أن هذه القصة لا تخلو من مبالغة ، أو هي مختلقة من أساسها . ولكنها على اي حال قد لا تخلو من دلالة اجتماعية . فهي تدل على أن الناس في حاجة الى قبة يتبركون بها ، ولا يهمهم من يكون المدفون تحتها .

وهذه الحاجة الى القبب ، أو القبور المقدسة ، لا يقتصر وجودها

---

(١) جعفر الخليلي (أولاد الخليلي) ص ١١ ـ ١٤ .
(٢) علي الوردي (الاحلام بين العلم والعقيدة) ص : م ـ ن .

على الريف العراقي وحده ، بل هي موجودة في جميع أرياف العالم التي تشبه الريف العراقي في ظروفه الاجتماعية . وكثيرا ما توجد في المدن أيضا ، عندما تتشابه ظروفها مع ظروف الريف .

ذكرت احدى المجلات المصرية عن ظهور قبر مقدس في مدينة بني سويف عام ١٩٥٩ . واتضح من التحقيق الذي قامت به المجلة أن صاحب القبر لم يكن سوى شاب مجنون كان يخاف من الموت خوفا شديدا ، ويغمى عليه كما رأى جنازة مارة به . ولكنه بعد موته أقيم على قبره مزار يقصده الناس في حاجاتهم ويتبركون به . وأخذ بعض الناس يلمحون من بعيد انوارا تتلألأ فوق قبره ...[١] .

وذكرت مجلة « العربي » الكويتية في احدى استطلاعاتها الصحفية المصورة ، عن مدينة السويس في مصر ، فقالت ما نصه : « ان السويس وحدها بها (٣٧) مسجدا ، وهي كمعظم مدن مصر لها (شيخ) خاص بها ! يتبرك به أهلها ويحكون عنه الاساطير والمعجزات ! . ورغم أن السويس بها أكثر من (شيخ واحد) ، الا ان (سيدي الغريب) هو اكثرهم شهرة .. لدرجة أن أهالي الاسماعيلية يفدون في أسبوع مولده ليحضروا الاحتفالات ويقدموا الهدايا والنذور . وفي العادة كل شخص يدفن في مقبرة خاصة داخل المسجد . وأحيانا تجد أكثر من مقبرة . وعندما دخلنا مساجد الغريب والاربعين ، كنا نسأل عن أصل هذا الشيخ ـ الاصل التاريخي ـ وكان أئمة المساجد يجيبوننا بصراحة : لقد بحثنا عبثا في كل مكان عن هذه التواريخ ، فلم نجدها ، ولم تستطع حتى وزارة الاوقاف أن تصل الى شيء ، وليس لدينا من المعلومات الا ما يتناقله الناس جيلا بعد جيل ... »[٢] .

يبدو أن قبر « سيدى الغريب » في مدينة السويس هو كقبر

(١) مجلة آخر ساعة ، العدد الصادر في ١١ـ٢ـ١٩٥٩ .
(٢) مجلة العربي . العدد الصادر في كانون الاول عام ١٩٦٣ ، ص٨٦ .

« صكبان » أو قبور « بنات الحسن » في العراق . فالناس ليسوا في حاجة الى التحقيق التاريخي حول من يكون صاحب القبر . انهم في حاجة الى القبر ذاته ، وكفى ! .

دفن الاموات في النجف :

منذ بداية القرن الثامن عشر تقريبا أخذ الشيعة ينقلون جنائز موتاهم الى النجف لتدفن هناك في مقبرة عرفت باسم « وادى السلام » . وعندما زار نيبور النجف في عام ١٧٦٥ خمّن عدد الجنائز التي تنقل الى النجف سنويا بما يتجاوز الالفين[١] .

وقد أخذ هذا العدد يتزايد على توالي الاعوام . وعندما بدأت وسائل النقل الحديثة تستخدم بعد الحرب العالمية الاولى صار اكثر أموات الشيعة ، من جميع أنحاء العالم ، يدفنون في النجف . ولعلني لا أغالي اذا قلت ان مقبرة « وادي السلام » هي أعظم مقبرة في العالم كله .

وقد نشأت في النجف من جراء ذلك تقاليد وأنظمة معقدة ، يشرف عليها رجال مختصون بها ، ويعيشون عليها . وقد قام أحد الطلاب ببحث مسهب في هذا الموضوع عام ١٩٥١ ، وقدم لي فيه تقريرا يحتوي على أمور ووقائع عجيبة . ورجاني الطالب أن يكون تقريره « سريا » لا يعلم به أحد . ولولا ذلك لاطلع القارىء على ظاهرة مهمة من ظواهر المجتمع العراقي[٢] .

أشار الدكتور شاكر مصطفى سليم الى هذا الموضوع في مناطق الاهوار في العراق فقال : « ويعتقد سكان الاهوار أنهم يستطيعون أن يضمنوا حماية الامام علي بن ابي طالب في الحياة الآخرة اذا ما دفنوا جواره

(١) كارستن نيبور (المصدر السابق) ص ٧٦ ــ ٧٧ .

(٢) لست أدري اين هو الطالب الآن ، وماذا حل به . وأني أرجو منه ، اذا اطلع على كتابى هذا ، أن يخبرني عن رأيه : فهل هو لا يزال مصرا على كتمان تقريره ،ام ماذا ؟

في أرض مدينة النجف المقدسة . ولذا فالجثث تجلب من أطراف منطقة الاهوار مهما نأت وصعب الوصول منها الى مدينة النجف بالزوارق والسيارات والقطارات . فان تعذر جلب جثة الميت بعد موته توا فان الجثمان يودع (كأمانة) في مدفن قريب لمدة من الزمن حتى يصبح في مقدور عائلة الميت أن تنقل جثمانه الى أرض النجف المقدسة . ومن ألزم واجبات أفراد الحمولة الواحدة أن يساعد بعضها بعضا في نقل أمواتهم الى النجف ان كانت تلك المساعدة عن طريق جمع المال أو المشاركة الفعلية في النقل[١]» .

مما يجدر ذكره أن الفقراء الذين يصعب عليهم نقل ميتهم الى النجف ، قد يدفنونه في احدى المدن المقدسة القريبة منهم . واذا تعذر عليهم ذلك دفنوه في جوار قبر أي سيد أو عالم أو زاهد معروف[٢] . وفي بعض الاحيان قد تساعد « البلدية » على نقل جنائز الفقراء الى النجف[٣] ، وقد يتبرع بعض الاغنياء في هذا السبيل أحيانا أخرى ، اذ هم يعتقدون أن في ذلك ثوابا عظيما لهم .

حاول أحد المصلحين من رجال الدين ، هو السيد هبةالدين الشهرستاني ، أن يمنع الناس من ذلك في عام ١٩١٢ ، وأعلن حرمته ومخالفته لشريعة الاسلام . واستفتى المجتهدين من فقهاء الشيعة فيه فأفتى الكثيرون منهم وفاقا لرأيه . ولكن العامة لم يأبهوا لهذا التحريم ، وظلوا ينقلون موتاهم الى النجف . وقد حاول بعضهم قتل الشهرستاني حيث اعتبروه كافرا أو زنديقا . وهذا يشبه ما حدث في عام ١٩٣٠ عندما أعلن السيد محسن الامين حرمة المواكب « الحسينية » وما يجرى فيها من أمور « شائنة » . فقد هاج العامة عليه واعتبروه كالشهرستاني كافرا زنديقا .

إن اصرار العامة على دفن أمواتهم في النجف مستمد من اعتقادهم

---

(١) شاكر مصطفى سليم (المصدر السابق) ج ١ ص ٣٧ .
(٢) عبدالجبار فارس (عامان في الفرات الاوسط) ص ١٠٤ .
(٣) عبدالعزيز القصاب (من ذكرياتي) ص ٨٧ .

بأن الميت سيحصل على حق « الدخالة » من الإمام علي بن ابي طالب . فليس من المعقول في نظرهم أن يمتنع الامام عن حماية رجل قصده ونام في جواره وذمامه . وقد انتشرت بين العامة « أساطير » كثيرة تصوّر لهم كيف يأتي الإمام لنجدة الميت ولمعاونته والتشفع له ، عند حساب « منكر ونكير » ، أو عند قيام القيامة ونصب الميزان .

انهم يتخيلون يوم القيامة كجلسات المحاكم التي اعتادوا عليها في حياتهم . ولكنه على نطاق اكبر جدا . وهناك يجلس الله على عرشه العظيم ، ويجلس النبي محمد الى يمينه والإمام علي الى يساره . وهذان لابد أن يتشفعا للمحبين لهم والمدفونين بجوارهم .

ان دفن الاموات بجوار المراقد المقدسة مستمد في الواقع من نفس المبدأ الذي جعل الناس يلجأون الى تلك المراقد في حياتهم من أجل شفاء أمراضهم وقضاء حاجاتهم . فهم قد اعتادوا على الالتجاء الى « الوسطاء » يبعثونهم في حاجاتهم الى الحكام . وكلما كان الوسيط أعظم جاها لدى الحكام ازداد احتمال النجاح في وساطته . وهم يحسبون الله كحكام هذه الدنيا ، اذ هو في نظرهم لا يقضي حاجة لهم ، أو يغفر لهم ذنوبهم ، الا بتأثير الوسطاء والشفعاء .

جاء في الحديث المأثور « المرء مدفون بعمله » . ولكن العامة لايفهمون هذا الحديث ولا يستطيعون أن يقتنعوا به في قرارة أنفسهم . ليس في مقدور العامة أن يقيموا عقائدهم على أساس من المنطق او التفكير المجرد . انهم يقيمونها بالاحرى على أساس ما اعتادوا عليه في حياتهم الاجتماعية .

أشارت مجلة « العربي » الى عادة الناس ، في مدينة السويس وحواليها ، من حيث دفن موتاهم في مسجد « سيدى الغريب » وغيره ، ثم قالت : « لقد رجانا أحد الائمة المقيمين بهذه المساجد أن تتبنى حملة صحفية لازالة هذه المقابر من المساجد حتى لا تتعلق أذهان الناس وايمانهم بخرافات لا صحة لها . ولكننا نؤثر أن ندع هذه المهمة لوزارة الاوقاف

بمصر • فان أجهزتها قادرة على التمييز بين الاصالة والخرافة »[1] •

يخيل لي أن وزارة الاوقاف المصرية لو فعلت ذلك لفشلت فيه كما فشل الشهرستاني في العراق قبلها • ان الناس في حاجة الى من يتشفع لهم بعد الموت كمثل ما هم في حاجة الى من يتشفع لهم في الحياة •

سيف الاصلاح :

منذ عهد قريب حدثت مذبحة طائفية في مدينة تيرى في باكستان ، وهي ذات علاقة وثيقة بموضوع هذا الفصل • وخلاصتها أن مدينة تيرى ، والمناطق المجاورة لها ، تحتوى على كثير من الشيعة الذين اعتادوا أن يقيموا المواكب « الحسينية » في عاشوراء من كل عام • والغريب أن هذه المدينة فيها مدرسة دينية يدرس فيها المذهب الوهابي ، ويقيم فيها كثير من طلبة العلم ، واسمها « مدرسة الهدى » •

وقد أخذ الوهابيون يضايقون الشيعة ويهددونهم لكي لا يقيموا المواكب حسب عادتهم في كل عام • فالمواكب في نظرهم « بدعة » ومروق عن الاسلام • وفي عام ١٩٦٢ استعد الوهابيون لمنع المواكب بالقوة • وفي يوم عاشوراء هجم الوهابيون على المواكب بضراوة ، واستخدموا في هجومهم الاسلحة والمعاول والمجارف والفؤوس والخشب • فسقط المئات من الجرحى والقتلى • وكانت مذبحة فظيعة • ومما يلفت النظر ان عددا من أهل السنة قد قتلوا فيها لانهم كانوا يشاركون الشيعة في مواكبهم ، كما هو الحال في بعض مناطق العراق •

وقد تألم من هذه الحادثة مرجع الشيعة الاكبر ، السيد الحكيم • فأبرق الى السفير الباكستاني في بغداد ، والى بعض المسؤولين في باكستان ، يدعوهم الى اتخاذ الاجراءات الرادعة في هذا الشأن[2] •••

---

(١) مجلة العربي ، العدد الصادر في كانون الاول عام ١٩٦٣ ، ص ٨٦ •

(٢) أحمد الحسيني (الامام الحكيم السيد محسن الطباطبائي) ص ١٢٣ ــ ١٤٧ •

ان هذه الحادثة تشبه من بعض الوجوه ما فعله الوهابيون في كربلا عام ١٨٠٢ ، وفي مدينة الطائف عام ١٩٢٤ ، وفي بعض المدن الاخرى التي استطاع الوهابيون غزوها او السيطرة عليها . وقد اصطدموا ذات مرة مع المصريين حول موكب « المحمل » الذى اعتاد الحجاج المصريون أن ينقلوه معهم الى الحجاز في موسم الحج ...

ان الوهابيين يريدون أن يرجعوا بالمسلمين الى التعاليم البسيطة التي جاء بها الاسلام في بداية دعوته ، من غير زيادة ولا نقصان . وهذا أمر يصعب تحقيقه ، او هو يكاد يكون مستحيلا ، في أكثر الاقطار الاسلامية . انه قد يسهل تحقيقه في الصحراء ، لتشابه ظروفها قديما وحديثا . اما في الارياف والمدن ، فالظروف قد تغيرت كثيرا ، وأصبح الناس فيها في حاجة الى ما يساعدهم على تحمل تلك الظروف .

لا يزال الوهابيون يعتقدون أن في مقدورهم اصلاح عقائد الناس عن طريق السيف والمذابح . وقد استخدم هذه الطريقة كثير من السلاطين قديما ، فكانت النتيجة على الضد مما أرادوا . ان استخدام السيف في تغيير عقيدة ما يؤدي الى استفحال تلك العقيدة في قلوب أصحابها والى زيادة تمسكهم بها .

هدم الوهابيون مراقد بعض الائمة في البقيع وظنوا بأنهم قضوا عليها قضاءا تاما . وما دروا أن تلك المراقد قد ازداد عمرانها في القلوب . إنها أزيلت من على وجه الارض ، فنمت في أعماق النفوس . وسيأتي اليوم الذي تشيّد فيه تلك المراقد من جديد ، وفيها من الذهب والزخرفة أضعاف ما كانت عليه قبل الهدم .

ان من يريد اصلاح عقائد الناس ينبغي أن يصلح في الوقت نفسه احوالهم المعاشية وظروفهم الاجتماعية والنفسية . فالعقائد انما نشأت نتيجة لتلك الاحوال والظروف . وهي لم تنشأ نتيجة المنطق والتفكير المجرد . ان من العبث أن نطلب من الناس أمرا لا يفهمونه . ومن الظلم أن نفرض عليهم ما لا طاقة لهم به .

كلمة لابد منها :

أرجو القارىء أن لا يفهم من قولي هذا أننا ينبغي أن نترك العامة يفعلون في عقائدهم الدينية ما يشتهون دون أن نحاول اصلاحهم . الواقع أن الاصلاح الديني ، في مثل تلك الاوضاع التي شهدناها في العراق ، ضروري . ولكنه في الوقت ذاته مهمة صعبة . فلا يجوز أن يؤمن المصلح بفكرة مجردة تخالج ذهنه ، فيتحمس لها ويحاول ارغام الناس على اتباعها بحد السيف .

ان الاصلاح الديني ، كغيره من أنواع الاصلاح الاجتماعي ، فن له أصول وقواعد ، ويجب أن يسار فيه على أساس من العلم رصين .

ليس هنا مجال البحث في قواعد الاصلاح الديني . وقد يكفي في هذه المناسبة أن نقول أن هناك على الاقل ثلاثة شروط يجب ان تتوافر في الاصلاح ، وهي :

اولا : إن الاصلاح يجب أن ينبعث من الداخل ولا يجوز أن يأتي من الخارج . وأعني بذلك أن الطائفة الدينية التي يراد اصلاحها ينبغي أن تهتم هي نفسها باصلاح عيوبها . وهنا ينبغي أن لا ننسى أن من المشاكل التي ابتلينا بها في العراق هي أن كل طائفة فيه اعتادت أن تنظر في عيوب غيرها ، وتنسى عيوبها . وقد آن الاوان لكي نترك هذه العادة فنعمل على اصلاح أنفسنا قبل النظر في إصلاح الآخرين . إن الاصلاح الذي ينبعث من داخل الطائفة وهو بطبيعته اكثر نفعا وأقل ضررا من الاصلاح الذي يأتي من الخارج . وكثيرا ما يؤدي الاصلاح الآتي من الخارج الى إثارة الاحقاد والخصومات بين الطوائف ، والى جعل كل طائفة تزداد تعصبا لعقائدها العتيقة .

ثانيا : إن الذي يحاول الاصلاح يجب أن يتجنب فيه طريقة الارغام والاعتداء على الناس ، بل عليه أن يتبع معهم طريقة اللطف والرحمة والمجادلة بالحسنى . وهذه هي الطريقة التي أمر بها الاسلام : « وادع الى

سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ... »[1] .
فالواقع أن مداراة العواطف البشرية هي خير طريقة للتأثير في الناس ولجذبهم نحو عقيدة ما . اما الارغام في سبيل العقيدة فهو ينفر الناس منها بدلا من جذبهم اليها . وقد حدثنا التاريخ عن كثير من العقائد أنها انتشرت بين الناس من جراء ما وقع عليهم من اضطهاد وقسوة في سبيلها .

ثالثا : ان الاصلاح يجب أن تراعى فيه مقتضيات المجتمع وظروفه . فالعقائد هي ظواهر اجتماعية اكثر مما هي أفكار مجردة . وقد اخطأ المفكرون القدماء حين ظنوا بأن الانسان حيوان عاقل . الواقع أن الانسان حيوان اجتماعي ، وهو يسير في مختلف أنماط سلوكه وتفكيره حسبما تملي عليه ظروفه الاجتماعية والنفسية . اما العقل الفردي فليس سوى صنيعة من صنائع المجتمع ، ومظهر من مظاهر الثقافة السائدة فيه .

---

(١) القرآن ، سورة النحل ، آية ١٢٥ .

الفصل العاشر

الوضع الاجتماعي في المدن

أشرنا استطرادا في فصول سابقة الى بعض ملامح الوضع الاجتماعي في المدن العراقية ، ورأينا كيف انتشرت فيها القيم البدوية من جراء اتصالها بالقبائل المجاورة لها . ونريد الآن أن نركز البحث في المدن بوجه خاص . والذي يدعونا الى هذا التركيز هو ان المدن العراقية بدأت منذ منتصف القرن الماضي تنمو في عدد سكانها وعمرانها نموا سريعا . ومعنى هذا أنها أصبحت منبعا للقيم الحضرية ، حيث أخذت تقاوم بها تيار القيم البدوية الذي كان سائدا في العراق سابقا .

يمكن القول ان صراع البداوة والحضارة في العراق يتمثل في قطبين متقابلين هما : الصحراء من جانب ، والمدن من الجانب الآخر . أما الريف فيقف وسطا بينهما . ففي القرون الماضية كان مدّ البداوة يأتي من الصحراء فيتغلغل في الريف ، ثم يأخذ بالانتشار في المدن . أما في الوقت الحاضر فقد انعكس التيار ، حيث أخذ مد الحضارة ينبعث من المدن فيتغلغل في الريف ، ثم صار مؤخرا يمتد نحو الصحراء شيئا فشيئا .

قبل مائة عام ، كانت نسبة البدو الرحل الى مجموع السكان في العراق تناهز الـ (٣٥) بالمائة . ثم اخذت هذه النسبة تهبط تدريجيا على توالى الاعوام حتى أصبحت الآن تناهز الـ (٢) بالمائة . أما نسبة أهل

المدن فكانت حينذاك تناهز الـ (٢٤) بالمائة من سكان العراق ، والمظنون أنها الآن لا تقل عن نصف السكان . وهذه النسبة في ازدياد مستمر عاما بعد عام .

والملاحظ أن الريف ، في هذه المائة سنة الاخيرة ، كان يبتلع البدو الرحل من جهة ، وكان يمد المدن ببعض سكانه من الجهة الاخرى . وهذه ظاهرة ذات أهمية اجتماعية بالغة . فهي تشير الى التطور السريع الذى جعل سكان العراق يتحولون ، على مراحل متتابعة ، من طور البداوة الى طور الحضارة . وقد استفحل هذا التطور وتنوعت نتائجه ومشاكله في الآونة الاخيرة ، عندما أخذت معالم الحضارة الحديثة تتوغل في الانحاء المختلفة من العراق وتؤثر في جميع سكانه على درجات متفاوتة .

ما هي المدينة :

قبل أن نبدأ بدراسة الوضع الاجتماعي في المدن ينبغي أن نعرف ماهي المدينة ، وكيف يمكن أن نميز بينها وبين القرية الريفية .

ليس هناك في الواقع حد واضح يفصل بين المدينة والقرية . وقد اختلفت آراء المختصين في هذا الموضوع . فمنهم من حاول التمييز بينهما على أساس عدد السكان . ففي الولايات المتحدة مثلا جرت العادة في دوائر الاحصاء على ان يكون عدد سكان المدينة (٢٥٠٠) نسمة أو أكثر ، فاذا نقص العدد عن ذلك كانت قرية . وفي فرنسا جرت العادة على أن يكون العدد (٢٠٠٠) نسمة . وفي بلجيكا (٥٠٠٠) نسمة[1] ...

يبدو أن هذا المقياس في التمييز بين المدينة والقرية الريفية غير نافع لنا في العراق . والمرجح في رأيي أن نتخذ في العراق مقياسا آخر ، هو المقياس الاجتماعي . وأقصد به مدى انتشار المهن الحضرية بين السكان .

---

(1) Gist and Halbert (Urban Sociology) p. 4.

فاذا كان أكثر السكان يحترفون الزراعة في الحقول ، اعتبر موطن سكناهم قرية . أما اذا كانوا يحترفون التجارة والصناعة وشتى أنماط العمل المأجور ، اعتبر موطن سكناهم مدينة . ونحن مع ذلك لا نستطيع أن نعد هذا المقياس دقيقا ، انما هو على أي حال ينفعنا في التمييز بين المدينة والقرية في العراق لغرض البحث الذي نحن بصدده .

ان بلدة خرنابات في ديالى مثلا قد يعتبرها بعض الباحثين قرية ريفية . فهي قليلة السكان ، والكثير منهم يحترفون زراعة البساتين . ولكني أميل الى اعتبارها مدينة ، حسب المقياس الاجتماعي المشار اليه آنفا . ان زراعة البساتين في نظري تختلف عن زراعة الحبوب السائدة في القرى الريفية ، فهي تشبه أن تكون مهنة حضرية ، حيث يغلب عليها « دافع الربح » ويضعف فيها أثر الاعتبارات القبلية . والملاحظ بالاضافة الى ذلك أن خرنابات تحتوي على الكثير من أصحاب الدكاكين والصناع والكسبة والعمال . وهم في الغالب يسكنون في بيوت ثابتة ، وقد بني بعضها بالآجر ، وشاعت فيها أدوات الترف ومبتكرات الحضارة الى حد غير قليل .

الصراع الثقافي في المدن :

ان الصراع الثقافي ظاهرة اجتماعية عامة في العراق كما رأينا في الفصل السادس من هذا الكتاب . ولكن هذا الصراع يشتد ويستفحل في المدن بوجه خاص . وقد ازداد شدة في الآونة الاخيرة ، لان المدن هي المكان الذي تظهر فيه معالم الحضارة الحديثة ومنه تنتشر الى غيره من الاماكن الاخرى . ولهذا صار أهل المدن تحت وطأة تيارين متناقضين : أحدهما يدفعهم نحو التمسك بالقيم البدوية التى ورثوها من آبائهم ، والآخر يدفعهم نحو الاخذ بالقيم الحضرية التي بدأت تنتشر بينهم شيئا فشيئا . فالى أي مدى يستطيعون أن يوفقوا بين هذين التيارين في أنفسهم ؟!

مما يجدر ذكره أن هذا الصراع الثقافي يتفاوت في شدته بين مدينة وأخرى حسب عوامل شتى ، نذكر فيما يلي أهمها :

H

أولا : مبلغ سيطرة المدّ البدوي على المدينة .

ثانيا : شدة انعزالها عن المجتمع الخارجي .

ثالثا : سعة أسواقها وكثرة الغرباء والمسافرين فيها .

رابعا : مدى سيطرة الحكومة فيها .

خامسا : كيفية مجيء الحضارة الحديثة اليها .

لنأخذ على سبيل المثال مدينة « الدجيل »(١) التي تقع الى الشمال من بغداد ، على بعد زهاء سبعين كيلو مترا منها . وهي مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها (١٥٠٠) نسمة . وقد انقسم سكانها الى عصبيتين متعاديتين هما : الخزرج والمحاويل . فالخزرج يسكنون في الجهة الغربية منها ، بينما يسكن المحاويل الجهة الشرقية (٢) .

والملاحظ في هذه المدينة أنها منعزلة نسبيا عن المجتمع الخارجي ، غير أنها متصلة اتصالا وثيقا بالقبائل المجاورة . ولهذا كان المد البدوي مسيطرا عليها الى درجة كبيرة . وطالما كانت المعارك في العهد العثماني تنشب بين الخزرج والمحاويل ، وقد يشترك فيها أحلافهم من القبائل المجاورة . واذا جاء غريب يريد السكنى في المدينة وجب عليه أن « يتكاتب » مع احدى العصبيتين لكي ينال حمايتها .

زرت المدينة في العام الماضي مع جماعة من الطلاب والطالبات ، فكانت زيارتنا حدثا هاما في تاريخ المدينة لفت اليه الانظار . الواقع أن أهل المدينة

---

(١) كانت هذه المدينة تسمى « سميكة » ثم أطلق عليها مؤخرا اسم « الابراهيمية » نسبة الى ابراهيم بن مالك الاشتر المدفون بالقرب منها . وقد حدث مثل ذلك لمدن أخرى في العراق حيث غيرت أسماؤها من أجل بعض الاعتبارات التاريخية . وهذا أمر نرجو أن لا يستمر ، اذ أن أسماء المدن من صنع المجتمع . وقد يؤدى تغييرها الى الخلط والالتباس في أذهان الناس من غير مبرر .

(٢) عبدالرزاق الحسني (العراق قديما وحديثا) ص ١١٥ .

قاموا بواجب الضيافة نحونا ، حسبما تقتضيه تقاليدهم القبلية ، ولـكنهم كانوا في قرارة أنفسهم يستنكرون وجود طالبات سافرات يمشين مع الطلاب جنبا الى جنب . ولعلهم كانوا يتساءلون فيما بينهم عن ماهية هذا « العلم » الذي جعل الطـلاب والطالبات يسافرون معـا من أجـل رؤية بلـدة صـغيرة كبلدتهم ... !

لاحظنا أن عمران المدينة لا يزال على ما كان عليه في العهد العثماني . فأكثر بيوتها مؤلفة من طابق واحد ، وهي مبنية من الطين وقليل من الآجر . وقد تناثرت فيها دكاكين قليلة هنا وهناك . ويبدو أن أصحاب الدكاكين ليسوا من الطبقة العالية في المدينة . فرؤساء المدينة ووجهاؤها لا يزالون يحافظون على عنعناتهم القبلية ، اذ هم يستنكفون أن يكونوا « بقـالين » يسـتعملون « الميزان » .

بدأت معالم الحضارة الحديثة تظهر في المدينة منذ عهد قريب . وهي تتمثل في ناحيتين بارزتين : أولاهما نمو نفوذ الحكومة ، والثانية ظهور فئة من المتعلمين المزودين بالثقافة الحديثة .

فمن الناحية الاولى وجدنا أثر الحـكومة يظهر في أحد أطراف المدينة ، وهو الطرف الذي يقع في أول المدينة من ناحية القطـار . فهناك شـيدت الحكومات بنايات حديثة لدوائرها ومدارسها . وقد أخذ بعض وجهاء المدينة يقلدونها في ذلك فيبنون لانفسهم دورا حديثة بالقرب من دوائر الحكومة . وصار من دواعي الفخار بينهم أن يتقربوا من الحكومة ، وأن يدخلوا أبناءهم في مدارسها .

مهما يكن الحال فان الحـكومة استطاعت أن تقمع النزاع العنيف الذى كان سائدا في الماضي بين الخزرج والمحاويل . وقد حدثني من أثق به أن هذا النزاع بدأ الآن يتحول الى طور جديد . الواقع أنه لا يزال موجودا في أعماق النفوس ، ولـكنه غير معلن أو ظاهر على منوال ما كان في الماضي . وكثيرا ما يتخذ الآن شكل المكايدات والدسائس الخفية ، حيث يتهامس به الناس ويتحـدثون به في مجالسهم الخاصة ، غـير أنهم لا يفصحون عنه تجاه الغريب ، وربما انكروا وجوده بينهم وتظاهروا بشجبه .

يتضح هذا بشكل خاص لدى « الافندية » من أهل الدجيل . فهؤلاء قد تزوّدوا بالثقافة الحديثة في مدارس بغداد ، ثم رجعوا الى مدينتهم فأصبحوا فيها معلمين أو موظفين . وقد تحدثت الى بعضهم حيث سألتهم عن مدى تغلغل العصبية القبلية في مدينتهم فاستنكروا ذلك علانية . ولـكنني لم أكد أتمادى في النقاش معهم حتى تبين لي أنهم يضمرون خلاف ما يظهرون .

لا ريب أن هؤلاء أقل من غيرهم تمسكا بالعصبيةالقبلية وبالقيم البدويه الاخرى . ولابد أن هذه القيم ستزداد ضعفا فيهم بمقدار ما يزداد اتصالهم بالحضارة الحديثة . ولـكنهم على الرغم من ذلك لا يستطيعون أن يتخلصوا دفعة واحدة من بقايا التراث الاجتماعي الذي نشأوا فيه . يمكن القول ان الصراع الثقافي يتضح فيهم أكثر مما يتضح في غيرهم من أهل الدجيل .

نمـوذج آخر :

تقع الى الشمال من الدجيل مدينة « بلد » ، وبينهما مسافة قصيرة تبلغ ستة عشر كيلو مترا تقريبا . وهذه المدينة أكثر سكانا وأشد اتصالا بالمجتمع الخارجي من الدجيل . انها تقع بالقرب من مرقد مقدس يقصده الزوار من شتى الانحاء ، هو مرقد السيد محمد . وهي علاوة على ذلك قريبة من شاطيء دجلة حيث تمر وسائل النقل النهرية بشتى أنواعها . ولعل هـذا من الاسباب التي جعلت أهل بلد أكثر حذقا للتجارة وانهماكا فيها من أهـل الدجيل . والملاحظ أن الـكثيرين منهم أخذوا في الآونة الاخيرة يهاجرون الى بغداد ، وصار بعضهم من كبار التجار فيها ، وظهر بينهم عدد غير قليل من الموظفين الكبار وأصحاب الشهادات العالية .

ينقسم أهل بلد الى عصبيتين متعاديتين هما ألبو حسب‌الله والبلداويون. ولـكن كل واحدة من هاتين العصبيتين لا تتكتل في محلة خاصة بها كما هو الحال في الدجيل أو غيرها من المدن العراقية . فأتبـاع العصبية الواحـدة منتشرون في مختلف انحاء المدينة ، انما هم لا يكادون يسمعون « الصيحة » حتى يسرعوا الى سلاحهم ويركضون نحو مصدرها من غير تردد .

وإذا داهم المدينة خطر عام اجتمع أهل المدينة كلهم في عصبية واحدة . وقد اعتاد أهل بلد أن يطلقوا على أنفسهم اسم « ألبو واحد » اشارة الى اتحادهم تجاه الخطر المشترك . وقد ظهرت عصبيتهم الموحدة هذه بأجلى مظاهرها عندما هاجمتهم قبيلة شمر في أواخر القرن التاسع عشر . انهم لا يزالون يذكرون تلك الواقعة باعتزاز وفخار ، ويدّعون أنهم ردوا قبيلة شمر على أعقابها ، ووصلوا الى خيمة شيخها ، فهرب الشيخ منهم واكتفوا منه بطعن خيمته إذلالاً له .

ان العصبية القبلية قد تطورت في بلد كمثل ما تطورت في الدجيل ، اذ هي الآن تجري في الخفاء ويتخذ الناس فيها طريقة المكايدات والدسائس بدلا من اشهار السلاح . فاذا حدث حادث من شأنه اثارة الضغائن القبلية لم يسرع الناس الى سلاحهم كما كانوا يفعلون قديما ، انما يحاول كل فريق منهم رمي التهمة على خصمه ، وهو قد يستخدم الرشوة أو الوساطة أو غيرها لكي يجعل الحكومة تقف الى جانبه ضد خصمه في النزاع .

حدث هذا في بلد في عام ١٩٤١ عندما قتل أحد الموظفين فيها . فقد أخذ كل فريق من أهل بلد يسعى بكل جهده نحو الصاق تهمة القتل بالفريق الآخر . وحدث مثل هذا في عام ١٩٥١ عندما ألقيت قنبلة على دار مدير الناحية ...

يجب أن لا ننسى على أي حال أن هذا التطور في العصبية القبلية لم يقض على المعارك العنيفة قضاءا تاما . فلا تزال بقية منها تقع بين آونة وأخرى . وهي تحدث عادة حين يصطدم أهل المدينة بأهل مدينة أخرى .

في عام ١٩٤٤ بينما كان أهل بلد في كربلا أثناء زيارة « الاربعين » ، حيث خرجوا بموكبهم وراء موكب أهل البصرة ، حدثت معركة بين أهل البصرة وأهل الشنافية . فثارت نخوة أهل بلد انتصارا لاهل البصرة ، وأبدوا في المعركة شجاعة فائقة ، اذ استعملوا فيها أعمدة الاعلام . وكانت الغلبة لهم فيها أخيرا حسبما يزعمون .

ومنذ عهد قريب نشبت معركة عنيفة بين أهل بلد والشروقيين في سوق

البزازين في بغداد . وقد نشأت المعركة من جراء مشاجرة بين تاجر بلدي وآخر شروقي . فتعصب كل فريق لصاحبه ، واشتدت المعركة بينهم حيث استعملوا فيها « المقاييس الحديدية » . وصادف أني كنت مارا بالسوق آنذاك ، فلمحت « المقاييس الحديدية » من بعيد وهي تتهاوى على الرؤوس ، فأطلقت ساقي للريح ...

ان هذه المعركة لها دلالتها الاجتماعية ، اذ هي تشير الى مبلغ الصراع الثقافي في اولئك الذين اشتركوا فيها . فهم قد ساروا في سبيل التحضر وأصبحوا تجارا في السوق يسود بينهم « دافع الربح » من جهة . ولكنهم من الجهة الاخرى لم يستطيعوا أن يتخلصوا من عصبيتهم القديمة . انهم بدو وحضر في آن واحد . وتلك هي المشكلة الكبرى التي يعانيها أهل المدن العراقية في الوقت الحاضر .

مظاهر الضيافة في المدن :

كان الكثيرون من أهل المدن في العهد العثماني يعتزون ببعض مظاهر الضيافة والكرم على نمط قريب مما يفعله أهل الريف والبادية . ويتضح هذا بشكل خاص في أهل المدن الصغيرة الذين لهم علاقات وثيقة بالقبائل المحيطة بهم . فالوجيه من أهل هذه المدن يستمد وجاهته ومكانته الاجتماعية في أكثر الاحيان من سعة مضيفه ومن تقديم القهوة فيه .

والمضيف في المدن يطلق عليه اسم « الديوان » ، وهو يبنى عادة من نفس المواد التي يبنى منها دار صاحبه ، ويكون موقعه قرب باب الدار لكي يسهل على الضيوف الدخول اليه والخروج منه من غير حرج . أما بقية الدار فتسمى بـ « الحرم » وتخصص للنساء . ومن هنا جاء تسمية المرأة في العراق بـ « الحرمة » .

مما يجدر ذكره أن وضع الضيافة في المدن قد جرى عليه تطور في الآونة الاخيرة كمثل ما جرى على العصبية القبلية وغيرها من القيم البدوية . فقد أخذ عدد الدواوين يتقلص في كثير من المدن لاسيما تلك التي بدأت

تسير في سبيل الحضارة الحديثة . ففي مدينة بلد مثلا كان عدد الدواوين خمسة قبل ثلاثين سنة ، وكانت قبل ذلك أكثر . أما الآن فليس في بلد سوى ديوان واحد ، هو ديوان علي حسين العبود . ويقال أن هذا الديوان الوحيد يسير الآن في طريق الزوال . فصاحبه يجد مشقة كبيرة في سبيل المحافظة عليه تجاه الظروف الحضرية المستجدة ، وربما جاء عليه يوم يضطر فيه الى غلقه .

الظاهر أن ما حدث في بلد يحدث الآن في أكثر المدن المماثلة لها في المستوى الاجتماعي . فالوجهاء في هذه المدن قد انفتحت أمامهم وسائل جديدة يستطيعون أن يدعموا بها مكانتهم الاجتماعية ، كجمع الثروة وتشييد الدور العامرة والتقرب من الحكام واقامة الولائم الفاخرة وغيرها . فهذه الوسائل أصبحت تمنح صاحبها جاها أعلا مما يمنحه الديوان القديم .

وهناك ناحية أخرى ينبغي أن لا ننساها في هذا الصدد ، وهي أن أصحاب الدواوين القدماء اذا ماتوا قد لا يظهر من أبنائهم من يحل محلهم في المحافظة على دواوينهم . فالكثيرون من أبنائهم دخلوا المدارس وصاروا « أفندية » ، وهم اذن قد يرون من الافضل لهم أن يرتقوا سلم المجد عن طريق الشهادات العلمية والمناصب العالية ، بدلا من الجلوس في الدواوين وتحمل عنعناتها « العتيقة » .

لدينا الآن مقياس يمكن أن نقيس به مبلغ هذا التطور الذى حدث على مظاهر الضيافة في المدن ، هو ظهور المطاعم والفنادق فيها . فالمعروف عن أكثر المدن الصغيرة في الماضي أنها كانت لا تسمح بفتح مطاعم أو فنادق فيها . فاذا تجرأ أحد وفتح فيها شيئا من ذلك جاء اليه وجهاء المدينة فوبخوه وطردوه ، اذ هم يعتبرون عمله ماسا بسمعتهم وسمعة مدينتهم . ان دواوينهم كافية لتقديم الطعام والمأوى لكل مسافر أو غريب يقصد مدينتهم .

أما الآن فقد بدأ الحال يتغير تغيرا واضحا ، وأخذت المطاعم والفنادق تفتح في كل مدينة في العراق مهما كانت صغيرة . من الامور التي لفتت نظري في مدينة عفك ، أثناء زيارتي لها قبل بضعة أشهر ، هو وجود فندق

صغير يبدو عليه أنه بني حديثا • وكان مغلقا في النهار ، وقد علمت أنه لا يفتح أبوابه الا ليلا • والملاحظ أنه باكورة تيار جديد في المدينة ، ولابد أن ينمو هذا التيار بمرور الايام •

تقاليد الكرم البدوي :

كانت المطاعم والفنادق في العهد العثماني يكاد يقتصر وجودها على المدن الكبيرة من ذوات الاسواق الواسعة أو المواسم التي تحتشد فيها الجماهير الغفيرة من الزوار ، كبغداد والبصرة والموصل وكربلاء والنجف والكاظمية وما أشبه • أما الدواوين في هذه المدن فلم تكن تعنى بتوفير الطعام والمأوى لضيوفها ، كما هو الحال في دواوين المدن الصغيرة ، بل كانت بمثابة مجالس محلية تقدم فيها القهوة عادة ، ويرتادها اهل المحلة لقضاء أوقات فراغهم في شتى الاحاديث والمناقشات •

ولكن هذه المدن الكبيرة لم تكن تخلو على أي حال من بعض تقاليد الكرم والضيافة البدوية • من هذه التقاليد ما يسمى في اللهجة البغدادية بـ « الوير » ، ومعناه أن يدفع الرجل ثمن ما يأكله أحد أصدقائه أو يشربه ، في المطعم أو المقهى • فاذا دخل شخص في مقهى مثلا ، وجيء له بالشاي ، صاح من كان حاضرا من أصدقائه « وير » !•• وهو يقصد بذلك أن ثمن الشاي سيكون على حسابه • وطالما حدث التنافس بين الجالسين في المقهى حول من يكون السابق في الدفع • وربما وقع في باب المقهى من التدافع والتنافس على الدفع أمر عجيب •

من الطرائف التي تروى في هذا الصدد أن المرحوم ضاري شيخ زوبع كان جالسا ذات يوم في احدى مقاهي الكاظمية ، وسمع الجالسين يصيحون « وير » مرة بعد مرة كلما جاء الى المقهى أحد أصدقائهم • ولم يكن الشيخ يعهد ذلك من قبل لقلة ارتياده للمقاهي ، فسأل عن معنى « الوير » ، فلما عرف المقصود منه هتف يخاطب ساقي المقهى : « أنا أخو فاطمة ، ورور على الحاضرين كلهم ! » • وقد دفع فعلا حساب الجميع •

ان عادة « الوير » هذه قد اتسعت مع اتساع المدن في العراق ، فأصبحت تشمل دفع أجرة الباص والسينما والملاهي وما أشبه . وبدأنا نشهد في الباصات وأبواب السينمات والملاهي تنافسا على الدفع شبيها بذلك الذي يحدث على أبوات المقاهي والمطاعم .

انها عادة ذهب زمانها ، ولكن الكثيرين من الناس لا يزالون متمسكين بها ولا يحبون أن يتخلوا عنها . وهي قد توقع بعضهم في مواقف محرجة . فأنا مثلا أميل الى ارتياد المقاهي ، اذ هي من أهم مصادر الدراسة للمجتمع العراقي . وكثيرا ما أتورّط عندئذ في مشاكل أو مواقف محرجة لا أدري كيف أتخلص منها . يجب عليّ عند الخروج أن أسابق غيري على الدفع . والعادة تقضي بأن أهرول وأصيح وأتدافع لكي لا أظهر بمظهر البخيل في نظر الجالسين . وهذا أمر يصعب القيام به أحيانا لما فيه من خفة ، ولكنني مضطر أن أقوم به ، والله الساتر على كل حال !

وهناك عادة أخرى تشبه عادة « الوير » من بعض الوجوه ، وهي لا تخلو من حراجة أيضا . فأنت اذا زرت بيتا وقدم لك صاحب البيت شيئا من الشراب والطعام ، وجب عليك أن تمانع وتتعزز ، ووجب عليه أن يصر ويلح . وصاحب البيت لا يرحمك حتى ولو كنت مصابا بقرحة في المعدة ، فهو يقدم اللقمة الى فمك ويؤكد عليك أن تأكلها . واذا تناولتها قدم لك اللقمة الاخرى ، وهكذا دواليك ... هو يقسم عليك بأغلظ الايمان أن تأكل ، وأنت تقسم أن لا تأكل ...

وقد يحدث مثل هذا عند تقديم هدية الى أحد . فهو ينبغي أن يتمنع عن قبولها ويتظاهر بقلة الاكتراث . وكلما زاد المهدى في الحاحه زاد هو في تمنعه . انه قد يكون في حاجة الى الهدية ويرغب بها من صميم قلبه ، ولكن العرف الاجتماعي يقضي عليه بأن يظهر خلاف ما يبطن . وهو اذا قبل الهدية أخيرا زعم أنه فعل ذلك استجابة لالحاح المهدى ، ثم يمط شفتيه ليبدي اشمئزازه وأنفته من قبول الهدية .

واذا أهدى طعام الى بيت ، صاحت أم البيت أنهم ليسوا في حاجة الى

الطعام ، وانهم سيرمونه الى الدجاج . وهي كثيرا ما تكون كاذبة في ذلك ، فلا يكاد أهل البيت يختلون بالطعام حتى يتهافتوا عليه ويتلاقفوه ...

عندما كنت في الولايات المتحدة لاحظت أن الناس هنالك يفعلون عكس ما نفعله نحن تجاه الهدية . فالفرد منهم اذا أهديت اليه هدية ، مهما كانت تافهة ، وجب عليه أن يبدي فرحه بها ويذكر مبلغ أهميتها له . انه يقول ذلك من باب المجاملة ، وربما رمي الهدية بعدئذ في سلة المهملات . وهو عندما يدعى الى طعام لا يتوقع من صاحب الدعوة أن يلح عليه في تناوله . حدث لي ذات مرة ، في بداية عهدي بالحياة الامريكية ، أني زرت بيتا وكان صاحب البيت يتناول عشاءه فدعاني الى مشاركته في الطعام . والواقع أني كنت آنذاك راغبا في الطعام ، ولكني كنت أتوقع من صاحب البيت الحاحا واصرارا حسبما اعتدت عليه في العراق . فأخذت أتمنع وأتعزز من غير جدوى ، ولم أحصل منه الا على السكوت . وقد فاتني من جراء ذلك طعام لذيذ !

لقد ورثنا تلك العادة من البداوة . فهي مستمدة من قيم الانفة والعزة والاباء التي هي من خصال الثقافة البدوية كما أشرنا اليه في فصل سابق . وهي في الواقع لا تقتصر على مجال الضيافة والاهداء فقط ، بل هي تشمل أيضا مجالات أخرى . وكثيرا ما تلاحظ في المجاملات . فاذا كانت جماعة من الناس على وشك الدخول في مكان أو الخروج منه ، أصرّ كل واحد منهم على تقديم غيره أمامه ، وقد يقع بينهم من التدافع في سبيل ذلك ما يعرقل السير .

واذا تزاحم شخصان على أمر دون أن يكون بينهما معرفة سابقة ، ثم قال أحدهما « تفضل » اسرع الآخر فرد عليه بالقول « تفضل أنت » . أما اذا لم يبتدىء أحد منهما بكلمة « التفضل » فربما انقلبت المزاحمة بينهما الى ما يشبه التحدي والمغالبة . يمكن القول ان الفرد العراقي يشبه البدوي من هذه الناحية ، فهو يود أن يكون هو المتفضل على غيره ، ولا يود أن يكون غيره متفضلا عليه .

الولائم في المدن :

لا يزال الـكثيرون من وجهاء المدن الـكبيرة يستمدون مكانتهم العالية من كثرة ولائمهم وكثرة المدعوين اليها . وهذا تراث بدوي قـديم ، انما هو فقد معناه ووظيفته الاجتماعية ، وأصبح موئلاً للاسراف والتباهي وقلة الفائـدة .

فاذا مات أحد منهم ، أو تزوج ، أو عاد من الحج ، أو احتفـل بختان ولد له ، أو ما أشبه ، أولمت الوليمة العامرة وبذل فيها الطعام الدسم ، ودعي اليها العدد الـكبير من الناس . وقد لاحظت في بعض أصحـاب الولائـم أنهم قد يساومون الحمال على المبلغ التافه وقد يأكلون من الباعة بعض ديونهم ، ولـكنهم في اقامة الولائم يكادون يشبهون حاتم الطائي . فهم ينحرون الذبائح العـديدة ، ويملؤون بالطبيخ قدورا ضخمة . ثم يقفون أثناء تقديم الطعام موقف الخدمة ، فيشمّرون أردانهم ويتصايحون بالاوامر والنواهي كأنهم من شيوخ البدو .

أشرنا من قبل الى أن الضـيافة في الريـف والبداوة تؤدي وظيفة اجتماعية مهمة . فهي تتيح الفرصة لابناء القبيلة أن يتناولوا الطعام الدسم الذي لم يعتادوا على تناوله في حيـاتهم الاعتيادية . أما في المـدن العراقية فالولائم لا تؤدي مثل هذه الوظيفة الا قليلا . معظم المدعوين اليها هم من زملاء صاحب الوليمة وأصدقائه ، وهم من الذين اعتادوا على تناول الطعام الدسم في بيوتهم أكثر الاحيان .

لا ننكر أن أصحاب الولائم يسمحون للفقراء أن يأتوا الى ولائمهم من غير دعوة . وقد نلاحظ في أكثر الولائم وجود فقراء يتناولون الطعـام بنهم وشراهة ، الى جانب الاغنياء والوجهاء . والواقع أن هذا كان يجري على نطاق واسع في العهود الماضية ، بيد أنه أخذ يتضاءل الآن من جراء ما حدث من تطور في نظام الولائم مؤخرا .

كانت الولائم في الماضي تستعمل طريقة « السفرة » وهي تشبه من بعض الوجوه الطريقة المتبعة في مضائف الريـف . فالسفرة قطعـة من

القماش طويلة تفرش على الارض وتوضع فوقها أواني الطعام . وقد اعتاد المدعوون أن يجلسوا متزاحمين حول السفرة حيث يتناولون الطعام بأيديهم . فاذا فرغت الاواني من الطعام ملئت من جديد . وكلما انتهت من الاكل جماعة حلت محلها جماعة أخرى .

أما الآن فقد بدأ أصحاب الولائم يستعملون فيها الكراسي والمناضد ، وكذلك الملاعق والسكاكين . وأخذت أفانين الترف والاناقة تشيع فيها . وهذا جعل الولائم ذات طابع خاص لا يلائم الا المتأنقين والمترفين من الناس . فاذا دخلها الفقراء وأخذوا يتناولون الطعام بأصابعهم الخمسة على طريقتهم القديمة ، صاروا في نظر المحيطين بهم كأنهم نشاز ، وربما بعثوا فيهم التقزز والاشمئزاز .

أعرف جماعة من الفقراء في الكاظمية يطلق عليهم لقب «السوارية» . وهم كانوا في الجيل الماضي كثيرين ، وكانوا اذا سمعوا بخبر وليمة تقام في المدينة ، تباشروا بها وهيأوا بطونهم لها ، حتى اذا حان موعد الوليمة تهافتوا عليها تهافتا عجيبا . وكان المفروض في صاحب الوليمة أن يرحب بهم على كل حال . يبدو أن هؤلاء يدركون الآن أن عصرهم « الذهبي » قد ولّى . فهم لا يلقون الآن من أصحاب الولائم ذلك الترحاب الذي اعتادوا عليه في الماضي . ولعلهم يلقون بدلا عنه العبوس والامتعاض .

طريقة الاكل :

اعتاد الكثيرون من أهل المدينة على طريقة في الاكل تشبه طريقة أهل الريف والبادية . وتتمثل هذه الطريقة في السرعة في تناول الطعام وقلة العناية بمضغه من ناحية ، وفي ملء المعدة بالطعام الكثير جدا من الناحية الاخرى .

هناك أمثال بدوية شائعة في الريف ، ولها أثرها في المدن أيضا ، وهي قولهم : « أكل الرجال على قدر أفعالها » ، وقولهم : « كل مثل السباع وقم قبل الرجال بساع » ، وقولهم : « كل مثل الجمال وقم قبل

الرجال ... الخ . والواقع أن هذه الامثال منبثقة من طبيعة الحياة البدوية . ومنسجمة مع تقاليد الضيافة عندهم . فالبدو قد اعتادوا في أكثر أوقاتهم أن يكتفوا من الطعام بأيسره وأبسطه كاللبن والتمر والخبز ، وهم لا يتناولون الطعام الدسم الوفير الا حين يأتي الى شيخهم ضيف محترم ، أو في مناسبات الافراح والمآتم وما أشبه . ونجدهم عندئذ يتقدمون الى الطعام جماعة وراء أخرى ، ولابد لهم من أن يسرعوا في تناول الطعام لكي يتيحوا لمن يأتي بعدهم أن يأكل منه قبل أن يبرد .

وللبدو في تناول الطعام طريقة خاصة بهم ، وهي التى تسمى « الاكل بالخمسة » ، حيث يكورون اللقمة الضخمة بأصابعهم الخمسة ثم يقذفونها الى الفم ويبلعونها كلمح البصر . فاذا انتهوا من الاكل انطرحوا أرضا ليساعدوا المعدة على الهضم . وقد ورث أهل الريف هذه العادة من البادية ، ومنهم انتشرت الى أهل المدن ، وهي احدى مظاهر المد البدوي بينهم ، وقد أدت بهم الى الابتلاء بداء توسع المعدة وكثير من الاضطرابات الهضمية الاخرى .

أشار الدكتور هاشم الوتري الى الاضرار الصحية الناتجة عن تلك العادة في تناول الطعام عند أهل الريف[1] . والواقع أن هذه العادة هي أشد ضررا في أهل المدن منها في أهل الريف . فالفرد الريفي هو كالبدوي لا يستعمل طريقة « الاكل بالخمسة » الا في مناسبات معينة ، حيث توضع أمامه أكوام الطبيخ . وهو ينتهز الفرصة عندئذ ، فيلتهم من الطعام أكبر كمية ممكنة ليعوض بها عن جوعه المزمن الذى يعانيه في سائر الايام .

أما في المدن فالامر يختلف عن ذلك في كثير من الاحيان . ان مستوى المعيشة في المدن أعلا منه في الريف . وفي المدن فئة كبيرة من الناس قادرة على أن توفر في بيوتها الطبيخ الدسم دائما . فالفرد منهم قد يستعمل طريقة « الاكل بالخمسة » يوما بعد يوم ، وفي غذائه وعشائه معا ، وكأنه بالمقارنة الى أهل الريف في وليمة دائمة .

(1) Hashim Witry (Health Service In Iraq) p. 18.

ان الطعام المفضل لدى أهل المدن هو عين الطعام المفضل لدى أهل الريف ، وهو يتألف في الغالب من طبيخ الرز المصفى المشبع بالسمن المغلي ، وهم يخلطونه بالمرق واللحم ، ويتناولونه بنهم عجيب . ومما يجدر ذكره أن هذا النوع من الطعام هو من أكثر الاطعمة ضررا ومن أقلها فائدة . ولكنهم مولعون به ولا يجدون لذة في غيره . وترى أحدهم بعد تناول طعامه منه يكاد يتلوى من التخمة ، والرياح تخرج من فمه مرة بعد مرة .

الواقع أن هذه ليست عادة جميع سكان المدن ، بل هي عادة الاغنياء وأكثر أفراد الطبقة الوسطى . أما الفقراء فهم يكادون لا يختلفون عن أهل الريف ، اذ هم يأكلون في سائر أوقاتهم أيسر الطعام وأبسطه . وهم ينتهزون فرصة الولائم لكي يتخموا بها بطونهم .

مفخرة القدور الضخمة :

من المفاخر التي يتباهى بها الكثيرون من أهل المدن هي ضخامة القدور التي يطبخ بها طعامهم ، ووفرة السمن الذي يوضع فيها . والرجل عادة يخجل أن يشتري من السوق مقادير قليلة من المواد الغذائية لبيته . فاذا فعل ذلك اعتبره أهل السوق بخيلا وأخذوا يتقوّلون عليه ويذمونه . انهم قد يعذرون الفقير اذا فعل ذلك ، ولكنهم لا يعذرون الغني أو الذي هو من الطبقة الوسطى . فمن مقتضيات الوجاهة أن يطبخ الرجل في بيته طعاما أكثر مما تحتاج اليه عائلته . وهذه عادة قديمة نشأت لدى الناس من جراء توقعهم مجيء ضيف اليهم على حين غرة . والملاحظ في الازقة كثرة ما يراق من بقايا الطبيخ عند أبواب البيوت . وربما تعمد بعضهم ذلك لكي يلفت الانظار الى وفرة الطعام في بيته .

أستطيع أن أقول بأن أهل المدن يعانون عقدة نفسية في شأن الطعام ، ويمكن تسميتها بـ « عقدة الطبيخ ». وهذه العقدة قد تستفحل في بعض الفقراء الذين يحاولون أن يرفعوا من مكانتهم الاجتماعية ، وأن يقلّدوا الاغنياء في ضخامة قدورهم وكثرة البذل على طعامهم . أعرف رجلا من هؤلاء ، اذ

كان ديدنه أن يشترى من المواد الغذائية مقادير أكثر مما يتحمل دخله الضئيل . وهو قد اعتاد أن يحمل هذه المقادير عاليا اذا سار في السوق نحو بيته ، وكأنه يقول للناس « انظروا » . انه يضيّق على نفسه وأولاده في هذا السبيل . وكان الاحرى به أن ينفق دخله في أمور أنفع . ولكن « العقدة » لا تسمح له بذلك .

من القصص التي لا أنساها قصة أرملة عجوز كانت تسكن في محلتنا القديمة . فقد شتمتها احدى جاراتها ذات يوم ووصفتها بأنها فقيرة جدا بحيث صار بيتها لا عهد له بالطبيخ ولم يوضع فيه قدر على نار . وقد كانت الارملة كذلك فعلا ، ولكنها لم تستطع تحمل الاهانة . وكانت تلك الشتيمة بمثابة نقطة تحول في حياتها ، فصار معظم حديثها يدور حول شؤون الطبيخ ، اذ هي تحاول به أن تبرهن لاهل المحلة بأن القدور منصوبة في بيتها دائما وأن قول الجارة كان كذبا . فكنت أراها في صباح كل يوم تذهب الى السوق وبيدها سلة ، ثم ترجع لتحدث أهل المحلة عن غلاء أسعار المواد الغذائية . وهي قد تقطع حديثها فتسرع الى بيتها متظاهرة بأنها تريد الاطمئنان من وضع طبيخها على النار خشية أن يحترق[1] ...

روح الجيرة في المدن :

كان المبدأ السائد بين أهل المدن في الماضي هو : « الجار قبل الدار » ، وكانوا دائما يردّدون الحديث القائل : « جارك ثم جارك ثم اخاك » . ولا يزال الكثيرون منهم يذكرون جيرانهم القدماء ويتعصبون لهم ويسرعون الى نجدتهم في الملمات .

اذا جاء المحلة شخص غريب واتخذ له مع عائلته دارا فيها ، سألوا عنه لكي يتحققوا من أخلاقه وأخلاق عائلته . فاذا وجدوه « شريفا » اعتبروه واحدا منهم . اما اذا تبيّن لهم بعد ذلك أنه « غير شريف » ،

---

(١) علي الوردي (الاحلام بين العلم والعقيدة) ص ١١٣ .

حاولوا « تهزيمه » من محلتهم ، بكل وسيلة ممكنة . وهم قد يعمدون عند ذاك الى مضايقته ورمي الاحجار على داره ، أو تلطيخ بابه بالغائط .

ان القادم الجديد الى المحلة مشغول في يومه الاول بنقل أثاثه ، ولهذا فان جيرانه يقدمون له الطعام المطبوخ في ذلك اليوم معاونة له . فاذا أكل من الطعام أصبح مرتبطا مع جيرانه بحق « الزاد والملح » فلا يجوز له بعد ذلك أن يخونهم .

مما يجدر ذكره أن روح الجيرة هذه أخذت تضعف وتتفكك من جراء التوسع الذي حدث على المدن في الآونة الاخيرة . فلقد أدى هذا التوسع الى أن ينتقل الناس من بيوتهم القديمة الى بيوت جديدة في الضواحي . والواقع أن المحلات الحديثة التي أخذت تنمو في الضواحي لم تستطع أن تحافظ على روح الجيرة القديمة كل المحافظة . فالناس ينتقلون اليها فرادى ، وقد تسيطر عليهم عندئذ النزعة « الفردية » . فاذا اختار أحدهم أرضا ليبني عليها داره ، فهو لا يبالي عادة أي نوع من الناس يجاورونه . وربما اتضح له أحيانا أن أمرأة سيئة السيرة قد أصبحت جارة له ، فيعلن عند ذاك تذمره ويبدأ بالشكوى ، انما هو لا يستطيع أن يفعل تجاهها مثلما كان أسلافه يفعلون في محلاتهم القديمة .

ان سكان الضواحي لا يزالون يحملون في أعماق أنفسهم بقية من روح الجيرة القديمة ، ولكن هذه البقية ليست كافية لان تجعلهم متعاونين في السراء والضراء . وقد أدى ذلك الى ظهور مشكلة اجتماعية بين سكان الضواحي ، هي مشكلة « البيوت المشبوهة » فيها . وقد استفحلت هذه المشكلة في بغداد بعد الغاء المبغى العام ، حيث انتشرت البغايا في بعض المحلات الجديدة على نطاق واسع وضج الناس بالشكوى دون جدوى ...

ان هذه المشكلة موجودة في جميع المدن الكبيرة في البلاد المتمدنة ، ولكن الناس هناك لا يهتمون بها كثيرا . أما عندنا فالناس يولونها اهمية كبرى ، إذ أن قيم « الجيرة » و « شرف المحلة » لا تزال عميقة الجذور في تكوين شخصيتهم .

ضعف الحياة البيتية :

ان الحياة البيتية في المدن العراقية ضعيفة غير متماسكة . وأقصد بالحياة البيتية رابطة التآلف والتعاشر بين أعضاء البيت الواحد ، أي بين الرجل وزوجته وأولاده ، وهي التي تسمى في اللغة الانكليزية بالـ « Home life »[1] .

فالرجل لا يجالس زوجته وأولاده الا قليلا . فهو لا يكاد يتناول طعامه في البيت ، بعد الفراغ من عمله ، حتى يتناول عباءته ويخرج الى المقهى أو الديوان أو ما أشبه . ان البيت مخصص للنساء عادة ، والرجل لا يحب أن يبقى معهن فيه . وهن من جانبهن لا يردن أن يبقى الرجل معهن فيعكر عليهن صفوهن . أما الاطفال فالمتوقع منهم أن لا يبقوا في البيت كذلك . فهم يخرجون الى الزقاق ليلعبوا فيه مع أقرانهم من أبناء الجيران . وكثيرا ما نجد الامهات يدفعن أطفالهن الى ذلك دفعا . وهكذا أصبح اعضاء البيت متفرقين ، لا يجتمعون الا في أوقات محدودة هي أوقات الطعام والمنام في الغالب .

يمكن القول ان ضعف الحياة البيتية ظاهرة عامة في العراق ، ولكنها في المدن قد تكون أشد وضوحا للاسباب التالية :

(١) الحجاب الشديد : وهو قد أدى الى حجر المرأة في البيت . فأصبح البيت المجال الوحيد الذي تستطيع المرأة أن تنطلق فيه . وقد اعتادت النساء أن يتزاورن في البيوت . فاذا زرن بيتا كان المفروض على الرجل أن يتركه لكي لا يضيّق على حريتهن فيه . وعندئذ تنطلق النساء في الحديث المتشعّب حول شؤونهن الخاصة وشؤون أقربائهن وجيرانهن ، بلا قيود أو حدود . وبهذا يستطعن التنفيس عن الضيق الذي يعانينه بين جدران البيت .

(٢) ازدحام البيت : وهذا أمر نلاحظه في كثير من البيوت في المدن العراقية ، حيث تحتشد عدة عائلات في البيت الواحد عادة . وقد تسكن

---

(١) متى عقراوى (العراق الحديث) ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

كل عائلة في غرفة أو بضع غرف منه • وبذا تصبح ساحة البيت بمثابة مجمع نسوي صاخب • والرجل مضطر تجاه ذلك أن ينشد الراحة والهدوء خارج البيت •

(٣) استعلاء الرجل : فهو قد ورث من البداوة نزعة الاستعلاء على المرأة والاستنكاف من مجالستها • فاذا اعتاد أحد الرجال على المكوث مع النساء في البيت عُدّ في نظر أقرانه « مخنثا » أو ذا ميول أنثوية • انه رجل والمفروض فيه أن يجالس أقرانه من الرجال •

(٤) وضع البيت : فالمعروف عن البيت العراقي بوجه عام انه مهمل وليس فيه من الاناقة ووسائل الراحة والبهجة ما يجذب الرجل الى المكوث فيه • وقد اعتادت المرأة العراقية أن تهتم بالقدور والمواقد أكثر مما تهتم بتجميل البيت واشاعة البهجة فيه • وكثيرا ما نرى المرأة في المدن العراقية تفاخر بجهاز عرسها ، من حيث غلاء ثمنه والاسراف فيه • ولكنها لا تبالى بما ينتج عنه من فائدة عملية • فلا تكاد تمضي على العرس مدة قصيرة حتى نجد الجهاز قد أهمل ، وشاعت الفوضى والقذارة في البيت •

حين نقارن بين وضع البيت في العراق ووضعه في بعض البلاد المجاورة ، كسوريا وتركيا وايران ، نجد بينهما فرقا واضحا • فالمرأة في تلك البلاد تحاول أن تجعل بيتها جذابا وأنيقا جهد امكانها • فهي تجمل البيت ، وتجمل نفسها معه ، لكي تتيح للرجل أن يستريح فيه من وعثاء عمله • أما المرأة العراقية فقد اضطرتها ظروفها أن تهمل نفسها وتهمل بيتها في أكثر الاحيان •

لا ننكر ان المرأة العراقية الحديثة بدأت تعتني بنفسها وبيتها مؤخرا ، اذ هي تأثرت في ذلك بقيم الحضارة الحديثة • ونحن نشهد الآن بوادر انقلاب في وضع البيت العراقي • والواقع أن هذا من أهم ما ينبغي أن تهتم به وزارة التربية في مدارس البنات • فالحياة البيتية هي الركيزة التي يقوم عليها كيان المجتمع الصالح وتنمو فيه الشخصية السوية •

يجب أن تزول من البيت العراقي « عقدة الطبيخ » وأن تحل محلها

حياة الالفة والطمأنينة . وقد ورد في الحديث : « رحم الله من جعل في بيته جنته » .

التماسك العائلي :

بينما نرى الحياة البيتية في المدن العراقية ضعيفة ، نرى التماسك العائلي فيها قويا جدا . فأفراد العائلة على الرغم من قلة تعاشرهم واجتماعهم في البيت ، نجدهم في الوقت نفسه يشعرون بالرابطة القوية تربط بينهم تجاه الغريب . فهم يقفون في السراء والضراء متضامنين ومتماسكين . واذا أصيب أحد منهم بنكبة أحاطوا به يساعدونه فيها .

ان التماسك العائلي في المدن العراقية هو أحد مظاهر التراث البدوي فيها . فالعائلة تشعر كأنها عشيرة صغيرة تجاه غيرها . وكل عار أو فخار يصاب به أحد افرادها لابد أن يصيب بقية الافراد فيها . وهذا أمر نستطيع أن نستنتجه من الشتائم العامية . فاذا استمعنا الى احد من العامة يشتم غيره رأيناه لا يقصر شتائمه على الشخص المشتوم بل يشمل بها أباه وأمه واخوته وسائر أقربائه . وأقل شتيمة يجابه بها شخص هي أن يقال له : « كلب يا ابن الكلب » . ولا حاجة بنا الى ذكر بقية الشتائم فهي معروفة ...

وعلى أي حال فان التماسك العائلي قد أدى الى ظهور نوع من التأمين الاجتماعي بين أفراد العائلة . فاذا ترملت امرأة أو تيتّم طفل أو أصاب الهرم رجلا ، ظهر في العائلة من يتكفل بمعاشهم ورعايتهم . واذا بقي هؤلاء من غير رعاية صار الموسرون من أفراد العائلة موضع التجريح والانتقاص في نظر الناس . فالمفروض في كل موسر أن يعاون المحتاجين من أفراد عائلته بكل جهده ، ولا يقبل منه عذر اذا قصر في ذلك .

وكذلك يجب على أفراد العائلة أن يهبوا هبة رجل واحد عندما يصاب أحد منهم باعتداء أو اهانة . وقد يقع بين العائلات من الثارات والاحقاد مثل ما يقع بين القبائل في الريف والبداوة .

شهدت في الكاظمية منذ عهد غير بعيد حادثة لها دلالة اجتماعية كبيرة . وخلاصتها أن رجلا من عائلة معروفة في محلة الانباريين قتل على يد عشيرة ريفية . فأسرع أحد شبان تلك العائلة الى مقهى يجلس فيه أحد

رجال العشيرة ، فقتله حالا. والواقع أن هذا الرجل المقتول لا ضلع له بحادثة القتل الاولى ، ولعله لم يكن يعرف عنها شيئا . ولكنه قُتل من أجل الثأر على الطريقة البدوية .

معنى هذا أن التماسك العائلي في المدن العراقية له جانبان : سلبي وايجابي . فالجانب السلبي يتمثل في العصبية الشديدة تجاه العصبيات الاخرى . أما الجانب الايجابي فيتمثل في التضامن والتعاون عند العجز والمرض والمصيبة . وليس من السهل فصل هذين الجانبين أحدهما عن الآخر .

مما يجدر ذكره أن هذا التماسك العائلي أخذ يضعف تجاه « النزعة الفردية » التي جاءت بها الحضارة الحديثة . وقد اتضح ذلك في أوساط المتعلمين ، وأخذ غيرهم يتأثرون بهم شيئا فشيئا .

وضع المرأة في المدن :

يختلف وضع المرأة من مدينة الى أخرى حسب اختلاف ظروف المدينة ومبلغ سيطرة المد البدوي عليها . ففي المدن الصغيرة التي لها اتصال وثيق بالقبائل المجاورة ، نجد وضع المرأة يشبه وضع المرأة الريفية من وجوه كثيرة . فهي تسفر عن وجهها ، وتشارك الرجال في بعض أعمالهم وتخالطهم وتتحدث اليهم ، كما تفعل المرأة الريفية . والملاحظ في الوقت ذاته أن عادة « غسل العار » شائعة في هذه المدن كشيوعها في القبائل الريفية تقريبا .

فاذا نمت المدينة واتسعت أسواقها وكثر تردد الغرباء عليها ، أخذ الحجاب ينتشر بين نسائها تدريجيا . فاذا صارت المدينة مركزا تجاريا كبيرا ، كما هو الحال في بغداد والبصرة والموصل ، رأينا الحجاب يشتد فيها الى درجة مفرطة . فهناك تقاس عفة المرأة بمقدار تشددها في التستر واعتكافها في البيت . فاذا أراد الناس وصف فتاة عفيفة قالوا عنها « انها بنت بيت لم ير أحد اصبعا منها ولم يسمع لها صوتا » . وكانوا يقولون : « ان للمرأة حقا في الخروج من دارها مرتين طول عمرها . المرة الاولى عندما تزف الى زوجها

فتذهب من دار أهلها الى داره ، والمرة الثانية عندما تموت فتخرج جنازتها من البيت الى القبر !! »[1] .

مما يجدر ذكره أن هؤلاء الذين يتزمتون في الحجاب الى هذه الدرجة المفرطة ، قد ضعفت لديهم عادة « غسل العار » في الوقت ذاته . فمن النادر أن يعمد أحد منهم الى قتل امرأة له عند الاشتباه بسلوكها . يبدو أنهم استعاضوا بالحجاب الشديد عن عادة « غسل العار » . فهذه العادة هي بمثابة التهديد للمرأة ، أما الحجاب فهو بمثابة السجن لها . فالمرأة اذا كانت سافرة تخالط الرجال وتشاركهم في بعض أعمالهم ، كما هو الحال في الريف والمدن الصغيرة ، وجب تهديدها بخنجر « غسل العار » لكي لا تنحرف عن الطريق المستقيم . أما اذا كانت محجبة ومسجونة في البيت حيث لا يسمح لها بمخالطة الرجال ، كما هو الحال في المدن الكبيرة ، فليس هناك اذن سبب يدعو الى تهديدها .

هذا هو ما كان الحال عليه في العهد العثماني ، أما الآن بعد أن أخذت معالم الحضارة الحديثة تنتشر في المدن ، فقد ظهر فيها تيار جديد له أهمية اجتماعية بالغة . ففي المدن الكبيرة أخذت المرأة الحديثة تقفز قفزات سريعة من الحجاب الشديد الى التبرج المفضوح . وقد حدث هذا خلال مدة قصيرة جدا . ففي العقد الثالث من القرن الحالي كانت المرأة لا تخرج من بيتها الا بعباءتين ، حيث تضع احداهما على كتفها والاخرى على رأسها ، وهي لا تبصر طريقها الا من خلال ثقب صغير أو من وراء غطاء يسمى « البوشيه » ، بينما هي الآن قد كشفت عن شعرها وبعض صدرها وساقيها ، وتزينت بأحدث ما جاءت به الحضارة الحديثة من أفانين والاعيب .

ومما يلفت النظر أنه في الوقت الذى حدث فيه هذا التحول السريع من الحجاب الى التبرج في المدن الكبيرة ، نجد في بعض المدن الصغيرة تحولا معاكسا له ، حيث أخذت المرأة فيها تنتقل من السفور الى الحجاب .

في عام ١٩٥١ ، قدم لي أحد الطلاب تقريرا عن مدينة هيت ذكر فيه

---

(١) عبدالرزاق الهلالي (تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني) ص ٥٩ .

أن الحجاب أخذ ينتشر في هذه المدينة منذ عهد ليس ببعيد • فلقد كانت المرأة الهيتية في الماضي سافرة كغيرها من نساء الارياف والمدن الصغيرة • ولكنها بدأت تميل نحو الحجاب من جراء احتكاكها بالنساء الحضريات • اذ هي صارت تقلد هؤلاء النساء ، وكأنها اعتبرت الحجاب فيهن من مظاهر المنزلة العالية والنفوذ • والسبب في ذلك هو أن الحجاب جاء الى هيت عن طريق نساء الموظفين ، فكانت المرأة الهيتية تنظر اليه كأنه « موضة » حديثة ترفع من شأن صاحبتها • ولهذا أخذت نساء الوجهاء في هيت يطلبن من أزواجهن شراء العباءات لهن كما يفعل الموظفون لنسائهم • وأخذت هذه « الموضة » منذ ذلك الحين تنتشر بين نساء هيت شيئا فشيئا •

يغلب على ظني أن هذا الذى حدث في هيت يحدث في كثير من المدن الصغيرة في العراق • ولكننا يجب أن نعلم أن تلك مرحلة موقتة في هذه المدن ، وهي سوف لا تستمر فيها مدة طويلة • ان « موضة » التبرج التي انتشرت في المدن الكبيرة لابد أن تمتد الى المدن الصغيرة عاجلا أو آجلا • فهي من معالم التيار الحضاري الكبير الذى أخذ يسيطر على المجتمع العراقي • وهو تيار ساحق لا يمكن الوقوف في وجهه •

ان السفور البدوي ، الذي كان منتشرا بين أكثر النساء في العهد العثماني ، هو اليوم سائر في سبيل الزوال • انه كان في الواقع سفورا وقورا محتشما يكاد يخلو من مساوىء الحجاب ومساوىء التبرج • ولكنه على الرغم من ذلك لا يستطيع أن يصمد تجاه « الموضات » الحديثة •

اللحية والشوارب :

اللحية في الثقافة البدوية لها مكانة عالية • فهي في نظر البدو من أهم العلامات الفارقة التى تميز الرجل عن المرأة • وكانوا ينظرون الى الكوسج نظرة لا تخلو من احتقار ، وقد يعدونه ناقص الرجولة • والمعروف عنهم قديما أنهم اذا أرادوا اذلال رجل عمدوا الى لحيته فحلقوها أو نتفوها ، وكأنهم يقصدون من ذلك أن يجعلوه كالمرأة • ومن هنا جاء قول الشاعر :

من حلقت لحية جار له
فليسكب الماء على لحيته

وقد ورث أهل المدن في العراق هذه العادة من البداوة ، وظلوا متمسكين بها حتى عهد قريب . فكان الرجل منهم اذا رجا أحدا في حاجة أمسك بلحيته متوسلا بها ، واذا تعهد بشيء جعل لحيته ضمانا له حيث يقول انه في حالة عجزه عن انجاز عهده سوف « يزيّن لحيته » أي يحلقها .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر جاءت الى العراق « موضة » حلق اللحية . والظاهر أنها جاءت عن طريق « الافندية » الذين تخرجوا من المدارس الحديثة في استنبول ، فأخذ بعض أهل المدن يقلدونهم فيها . وحدث من جراء ذلك صراع بين أنصار اللحية وخصومها . والتزم رجال الدين جانب أنصار اللحية ، وافتوا بتحريم حلقها . ولايزال الكثيرون منهم يقولون بهذا الرأي حتى يومنا هذا .

يمكن القول بأن العناية بالشوارب أخذت تحل محل العناية باللحي عند بعض أهل المدن ، لاسيما « الاشقياء » منهم . فهؤلاء صاروا يهتمون باطالة شواربهم وبفتلها ، ويعدونها من أبرز معالم الرجولة فيهم . واعتاد الرجل منهم أن « يبرم » طرف شاربه عند الفخار أو النجدة . ومن هنا جاء اصطلاح « البرم » في اللهجة البغدادية ، فاذا قالوا عن شخص انه أخذ « يبرم » بنفسه عنوا بذلك أنه أخذ يفاخر بها .

أصبحت الشوارب مناط المروءة والوفاء عند الرجال ، على نمط ما كانت اللحية قديما . فاذا قصد الناس رجلا منهم في حاجة قالوا له : « نريدها من شاربك » . وهو اذا تعهد لهم بشيء قال لهم : « خذوه من شاربي » ، وهو لا يستطيع عندئذٍ أن ينكث بعهده .

هناك قصة طريفة تروى عن أحد الرجال المعتزين بشواربهم ، وهي أنه أراد شراء بضاعة من السوق ثم تحسس في جيوبه فلم يجد فيها ما يكفي لدفع ثمنها ، فانتزع شعرة من شاربه وقدمها لصاحب الدكان ضمانا له . وقبلها منه صاحب الدكان من غير تردد وأعطاه البضاعة بكل سرور ، اذ هو كان واثقا بأن الرجل سيدفع دينه ويسترجع الشعرة على كل حال . وقد كان هناك بالقرب من الدكان رجل آخر يشهد الحادثة فأراد استغلال شواربه كما فعل الرجل الاول ، فانتزع منها بضعة شعرات وقدمها لصاحب

الدكان . ولكن صاحب الدكان رفض قبولها لانه كان خبيرا بأقدار الرجال ويستطيع أن يميز الشوارب « الاصلية » عن غيرها .

والمعروف عن المرأة أنها كانت تنظر الى الشوارب المفتولة نظرة تقدير واعجاب . فكانت تنادى الرجال عند الاستنجاد بهم في الملمات : « يا حلوين الشوارب » . ويحكى عن امرأة أنها تزوجت رجلا ، ثقة منها بشواربه المفتولة ، ثم تبين لها أخيرا أنه غير جدير بتلك الشوارب ، فأنشدت تقول :

شفت شواربه وتغزّرت بيه
لوما شواربه ماكنت ألفّيه

مهما يكن الحال فقد أخذت الشوارب المفتولة تفقد مكانتها العالية في المدن العراقية بعد الحرب العالمية الاولى ، حيث حلت محلها الشوارب « المقطومة » على طريقة « شارلي شابلن » ... ثم شاعت أخيرا « موضة » حلق الشوارب كلها دون ابقاء أي أثر منها .

أخذ الرجال الآن يعتنون بشعر رؤسهم بدلا من الاعتناء بشواربهم . وهذا أمر يعتبره أهل الجيل الماضي من قبيل التخنث أو التشبه بالنساء . فهؤلاء يريدون من الرجل أن يظل محافظا على مظاهر رجولته على منوال ما كان يفعل الرجال قديما .

أعرف رجلا مسنا من بقايا الجيل الماضي ، وطالما جلست اليه استمع الى ما يحدثني به عن ذكريات الايام الغابرة . انه ينظر الى شبان هذا الزمان باحتقار شديد . فاذا مروا به أطلق الحسرة تلو الحسرة على تلك الايام « المجيدة » التى كان الرجل فيها رجلا بمعنى الكلمة « وليس كهؤلاء الشبان المائعين الذين لا يستطيعون أن يذبحوا دجاجة وكل همهم أن يحلقوا شواربهم ويمشطوا رؤسهم ثم يتغنجوا كالنساء » . انه يقول في أسف وحرقة « الرجال راحوا » ، وهو يعني بهم اولئك الرجال من أصحاب الشوارب المفتولة الذين كانوا اذا مشوا هزوا الارض بأقدامهم .

الفصل الحادي عشر

ازدواج الشخصية في المدن

ان ازدواج الشخصية موضوع شائك معقد ، وكنت قد تطرقت اليه في كتاب « شخصية الفرد العراقي » الذي أصدرته في عام ١٩٥١ ، فثار حوله جدل وضجة غير قليلة . كان من رأيي يومذاك أن ازدواج الشخصية ظاهرة اجتماعية موجودة في كثير من المجتمعات البشرية ، وهي قد تكون ضعيفة أو قوية تبعاً لتفاوت الظروف في كل مجتمع . وسببها وقوع المجتمع تحت تأثير نظامين متناقضين من القيم ، فيضطر بعض الافراد من جراء ذلك الى الاندفاع وراء أحد النظامين تارة ، ووراء الآخر تارة أخرى . فهم يناقضون أنفسهم دون اكتراث ظاهر .

وقد ذهبت الى الظن بأن المجتمع العراقي يعاني من هذا الازدواج قسطاً كبيراً . ولهذا وجدنا الفرد العراقي من أكثر الناس هياماً بالمثل العليا ودعوة اليها في خطاباته وكتاباته ومجادلاته ، ولكنه في الوقت نفسه من أكثر الناس انحرافاً عن تلك المثل في واقع حياته .

رأي بعض النقاد :

لابد لي من الاشارة هنا الى أن هذه الفرضية التي جئت بها في عام ١٩٥١ لم تلق قبولاً لدى الكثيرين من النقاد والاساتذة في العراق . فانبرى بعضهم يهاجمها بشدة ويعتبرها بدعة « تهريجية » غير قائمة على أساس صحيح من العلم .

وكان من هؤلاء أحد المختصين بعلم النفس ، وهو من حملة شهادة الدكتوراه . فقد ألقى في عام ١٩٥٨ محاضرة عامة في قاعة كلية العلوم فنّد فيها موضوع ازدواج الشخصية في العراق . وفيما يلي نص ما قال في هذا الصدد :

« كثيراً ما سألني طلابي بدار المعلمين العالية عندما نناقش موضوع الشخصية ، هل صحيح أن الفرد العراقي مزدوج الشخصية ؟ فأقول : لا ، بكل تأكيد . ان الشخصية المزدوجة مريضة نفسياً ومرضها مزمن . والشخص المنقسم الشخصية له أكثر من شخصية واحدة . وليس هناك أية علاقة أو ارتباط بين الشخصيتين . والشخص نفسه لا يشعر بهذا التناقض بسبب النسيان المزمن الذي أصابه . ان الشخص المريض بهذا المرض ، كما يقول وايت استاذ علم النفس في جامعة هارفرد ، في كتابه (الشخصية الشاذة) صفحة ٢٩٩ ، ينسى من هو وأين يعيش . لا يعرف نفسه ولا يتذكر ما حدث له في السابق . فهل وجد أحدنا شخصاً عراقياً تنطبق عليه هذه الأعراض ؟ ثم ان الافراد الذين يصابون بهذا المرض قليلون جداً . لقد عمل تيلر ومارتن احصائية بعدد من أصيبوا بمرض انقسام الشخصية فلم يجد أكثر من ٧٦ مريضاً . ومن هنا نفهم بأن هذا المرض نادر الوجود. لقد ذكر مارتن في كتابه (الشخصية المنقسمة) امرأة مصابة بمرض انقسام الشخصية . وقد كان لها ثلاث شخصيّات : (١) شخصية الفضيلة والطهارة ، (٢) شخصية الاستقلال المتطرف والطموح ، (٣) شخصية اللعوب الطروب ... »[1] .

هذا هو ما قاله الأستاذ الفاضل . ويؤسفني حقاً أن أرى استاذا جامعياً يميل الى الجزم والقطع في آرائه العلمية . فهو قد أجاب من سأله عن وجود ازدواج الشخصية في العراق قائلاً « لا ، بكل تأكيد ! » وهو لو أطلع على ما جاء به علماء الاجتماع في الموضوع لربما غيّر رأيه القاطع هذا .

---

(١) انظر جريدة الشعب البغدادية بعددها الصادر في ٣٠ نيسان ١٩٥٨ .

ان المنهج العلمي لا يعرف القطع والجزم والتأكيد ، بل هو يميل الى التشكيك والظن والترجيح ، عند ابداء رأى من الآراء . وبغير هذا لا يمكن للعلم أن ينمو ويتطور يوماً بعد يوم .

يبدو أن الاستاذ كان عند القاء محاضرته العامة متأثرا بمفاهيم علم النفس . ولعله سهى عن وجود مفاهيم أخرى لعلم آخر ، هو علم الاجتماع . ومما يجدر ذكره أن بعض المفاهيم في العلوم المختلفة قد تتشابه لفظياً ولكنها من حيث المعنى مختلفة . وهذا أمر ينبغي أن يفهمه الباحثون لكي لا يتسرعوا في اعطاء الاحكام القاطعة عن موضوع لا اطلاع لهم عليه .

الواقع أن هناك فرقاً كبيراً بين ما يقصده علماء النفس من ازدواج الشخصية ، وما يقصده علماء الاجتماع . فالازدواج يعتبر من الناحية النفسية مرضاً نادراً يعتري بعض الأفراد من جراء عوامل وظروف خاصة بهم . وهذا المرض شذوذ في تكوين الشخصية حيث يتقمص صاحبه شخصية معينة تارة ، ويتحول عنها الى شخصية ثانية تارة أخرى . وهو ينسى أثناء تقمصه احدى الشخصيتين ما فعل اثناء تقمصه الشخصية الثانية . وقد يحدث أحياناً أن يكون المصاب بهذا المرض النفسي ذا ثلاث شخصيات أو أكثر ـ كما أشار اليه الاستاذ الفاضل .

اما ازدواج الشخصية بالمعنى الاجتماعي فهو أمر آخر . فهو ليس مرضاً نفسياً ، انما هو ظاهرة اجتماعية . وهو يحدث في كثير من الناس حين يظهر لديهم صراع ثقافي ، كما قال الباحثان الاجتماعيان بيج ومكايفر . فقد أطلق هذان الباحثان على ظاهرة ازدواج الشخصية اسم « الثنائية الثقافية » (Cultural Ambivalence) . وهما يقولان في هذا الصدد : عندما يتعرض الفرد لمطاليب ثقافات اجتماعية متناقضة ، لاسيما في مراحل نموه الاولى ، قد لا يتمكن من تكوين شخصية متكاملة في نفسه . فهو يحاول أن يوفق بين تلك المطاليب المتناقضة دون جدوى . ولهذا فهو قد يصبح ذا شخصية مزدوجة ، قليلاً أو كثيراً[1] .

---

(1) MacIver and Page (Society) p. 580.

وقد أشار الى مثل هذا الباحث الاجتماعي كيمبل يونغ ، عندما استعرض صراع القيم في المجتمع الامريكي ، فقد ذكر أن الفرد هناك يعاني صراعاً بين القيم المسيحية « الوديعة » التي ورثها من أسلافه المتدينين والقيم الاقتصادية « العنيفة » التي يواجهها في محيطه الجديد . وقد تنشأ لديه من جراء ذلك شخصية مزدوجة أو منشقة (Schizoid, or Split, personality) [١]

مما يجدر ذكره أن علماء الاجتماع لم يعنوا بموضوع ازدواج الشخصية عناية كبيرة . فهم أشاروا اليه اشارات عابرة دون أن يتعمقوا في دراسته . ولعل السبب في ذلك هو أن ظاهرة الازدواج لم تنتشر في مجتمعاتهم بمقدار ما انتشرت في مجتمعنا . ولكني ألاحظ على أي حال أنهم بدأوا في الآونة الأخيرة يهتمون بهذا الموضوع أكثر مما كانوا يفعلون من قبل . ففي عام ١٩٦٢ صدر في الولايات المتحدة كتاب اجتماعي يحتوي على فصل له علاقة وثيقة بموضوع الازدواج وعنوانه « ثقافتنا المزدوجة » (Our Schizoid Culture) [٢] . وفي عام ١٩٦٣ صدر كتاب آخر يحتوي على فصل في مثل هذا الموضوع ، وعنوانه « الثنائية الاجتماعية » (Sociological Ambivalence) [٣] .

مهما يكن الحال فاننا ينبغي أن لا نكون مقلدين للباحثين الأجانب تقليداً أعمى ، ونتبعهم في جميع ما يهتمون به أو يهملونه من مواضيع . ان مجتمعنا يختلف عن مجتمعهم في كثير من النواحي ، والواجب العلمي يقضي أن ندرس مجتمعنا في ضوء ظروفه الخاصة به . وربما توصلنا في دراستنا الى نتائج تختلف عما توصلوا اليه .

---

(1) Kimbal Young (Social Pshychology) p. 145.

(2) Cuber and Harroff (Readings In Sociology) p. 69 — 77.

(3) Edward Tiryakian (Sociological Theory, Values, and Sociocultural Change) p. 91 — 120.

الجدل والازدواج :

ليس هنا مجال الإسهاب في بحث ازدواج الشخصية في العراق[١] . يكفى أن أقول في هذه المناسبة أن ازدواج الشخصية ظهر في العراق منذ زمان قديم ، وقد كان ظهوره واضحاً في صدر الاسلام . وربما كان ذلك من الاسباب التي جعلت الكثيرين من الناس يصفون أهل العراق بأنهم « أهل الشقاق والنفاق » . ولاتزال هذه السمعة لاصقة بالعراق حتى يومنا هذا ، وطالما رأينا أهل العراق أنفسهم يلهجون بها في بعض المناسبات ...

يغلب على ظني أن من العوامل الفعالة التي ساعدت على استفحال ازدواج الشخصية في العراق هو ما اتصف به أهل العراق من ميل للجدل وولع به . الواقع أن النزعة الجدلية كانت ، ولا تزال ، قوية في العراق . ولعلها أقوى فيه منها في أي بلد عربي أو اسلامي آخر . ومن المجدي أن أستعرض شيئاً من تاريخ هذه النزعة في العراق ، وكيف نشأت وتأصلت فيه .

ان من الخصائص التي تميز بها المجتمع العراقي في صدر الاسلام هو أنه كان الموطن الذى قضى فيه علي بن ابي طالب معظم أيام خلافته . وهذا الرجل كان في خلافته ، كما هو معروف ، مثالاً رائعاً للزهد والعدل والتقوى . ولكن أهل العراق لم يفهموا كنهه في حياته ولم يقدّروه حق قدره . فقد كان في أواخر أيامه يشكو منهم مر الشكوى ، وقال عنهم انهم ملأوا قلبه قيحاً . وبعد ما مات سرعان ما ندموا على ما فعلوا معه ، وأدركوا أنهم فقدوا به إماماً قلما يجود الدهر بمثله . وعندئذٍ أخذوا ينثالون على تقديسه وتمجيده ويغالون في ذكر مناقبه .

صار العراق موطن المعارضة للدولة في العهد الاموي ، وأخذت الثورات تتوالى في العراق مما جعل الولاة يضيقون الخناق على أهل العراق

---

(١) خصصت لهذا الموضوع كتابا قائما بذاته عنوانه « ازدواج الشخصية في العراق قديما وحديثا » . وسأحاول نشره قريبا ان شاء الله .

ويضطهدونهم . واتخذت الدولة سبّ علي شعاراً لها تخطب به على المنابر ، وقد أدى ذلك بأهل العراق الى أن يزدادوا تعلقاً بعلي وتقديساً له ، حيث أصبح حب علي شعاراً لهم يعلنون به نقمتهم على الدولة[1] .

معنى هذا أن التراث الفكري في العراق أصبح مطبوعاً بطابع المثالية العلوية . فأخذ أهل العراق يحلّقون في تفكيرهم المثالي تحليقاً عالياً ، حيث تخيّلوا به نظاماً للحياة السياسية والاجتماعية مستمداً من السيرة الفاضلة التي اتصف بها علي . وهذه السيرة كان من الصعب جداً تحقيقها بعد وفاة صاحبها ، خصوصاً بعد أن انقلبت الخلافة الى ملك ، كما أشار اليه ابن خلدون[2] .

أخذ أهل العراق يتطرفون في تفكيرهم المثالي ، في الوقت الذى كانت فيه حياتهم الواقعية تبتعد تدريجياً عما تقتضيه طبيعة ذلك التفكير . فظهرت من جراء ذلك فجوة واسعة بين مثلهم العليا وواقعهم الاجتماعي . ومما ساعد على توسيع هذه الفجوة ظهور مذهب الاعتزال في العراق . وهذا المذهب يعتمد في نشر عقائده على الجدل المنطقي والأدلة العقلية . وقد أتيح للمعتزلة أن يسيطروا على التفكير العراقي فترة طويلة من الزمن ، وتمكنوا في عهد ثلاثة من خلفاء بني العباس ، هم المأمون والمعتصم والواثق ، أن يستميلوا الدولة الى جانبهم ، فأثاروا في العراق قضايا جدلية كبرى ، وجعلوا الناس يتجادلون حول العقائد الدينية في كل مجلس يجتمعون فيه .

وجاء المتوكل أخيراً فحاول القضاء على المعتزلة ، وأخذ يضطهدهم . وقد أعانه الحنابلة في ذلك ، فملأوا بغداد بالمظاهرات وصاروا يطاردون كل من يشتبهون به ، من المعتزلة أو ممن يميل الى مثل آرائهم . ولكنهم على أي حال لم يستطيعوا أن يقتلعوا من المجتمع العراقي نزعة الجدل التي

---

(١) علي الوردي (مهزلة العقل البشري) ص ٨١ ـ ٨٥ .
(٢) ابن خلدون (المقدمة) ص ٢٠٢ ـ ٢٠٩ .

تغلغلت جذورها في أعماق النفوس • ان الاضطهاد يؤدي الى عكس المقصود منه في أكثر الاحيان !

كان مبدأ الحنابلة يتلخص في قولهم « من تمنطق فقد تزندق » • ولكن هذا المبدأ لم يكتب له النجاح في العراق على الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها الحنابلة في سبيله • فلم تمض عليه سوى مدة قصيرة حتى ظهر أبو الحسن الأشعري • وقد كان لهذا الرجل دور كبير في تدعيم النزعة الجدلية في العراق ، وفي إعادتها الى ما كانت عليه من صولة وقوة •

كان الأشعري في بداية أمره معتزلياً ، ثم أعلن اعتناقه لمذهب التسنن • واستطاع أن يقيم العقائد السنية على أساس من الجدل المنطقي وعلم الكلام • وعندئذٍ أخذ الشيعة يفعلون في عقائدهم مثل ذلك • وبهذا صار العراق كأنه ساحة حرب يستخدم فيها سلاح المنطق بدلاً من سلاح السيوف • وأخذت كل طائفة تدافع عن عقائدها ، وتهاجم عقائد خصومها ، عن طريق الأقيسة المنطقية والأدلة العقلية •

حين ندرس الوضع الفكري الذي كان سائداً في العراق في القرن الرابع الهجري نجد ذلك واضحاً فيه كل الوضوح • ففي هذا القرن بلغت الحضارة الاسلامية أوج ازدهارها ، وكذلك بلغت فيه النزعة الجدلية أوج قوتها • فكانت بغداد حينذاك عاصمة العالم الاسلامي ومركز الجدل المنطقي في آن واحد •

وبقيت النزعة الجدلية قوية فعالة في العراق على توالي القرون • فهي قد امتزجت بالنزاع الطائفي وكانت من أهم معالمه • فكان العوام من الطائفتين يتحاربون بالخناجر والهراوات ، بينما كان الفقهاء يتحاربون بالأدلة العقلية • وعندما حل العهد العثماني بالعراق ، ازدادت النزعة الجدلية فيه من جراء النزاع الطويل بين الدولة العثمانية والدولة الايرانية • فلقد كانت الحضارة في ذلك العهد منحطة جداً ، كما رأينا سابقاً ، ولكن النزعة الجدلية لم تنحط بانحطاطها • وكانت الدولتان المتنازعتان تبذلان كثيراً من الجهود والأموال في سبيل تدعيم تلك النزعة بين سكان العراق •

وكانت كل دولة منهما تعد ذلك نوعاً من الدعاية السياسية لها .

يمكن القول إن النزعة الجدلية لا تزال قوية في العراق حتى يومنا هذا . انها قد تحولت الآن عن طابعها الديني القديم قليلاً أو كثيراً ، فصارت تدور حول مواضيع حديثة ، سياسة أو اجتماعية أو اقتصادية أو غير ذلك ، انما هي لا تزال واضحة الاثر في شخصية الفرد العراقي . وليس من الصواب أن ندرس المجتمع العراقي دون أن نلتفت الى هذه الناحية المهمة فيه .

مشكلة النزعة الجدلية :

اذا استفحلت النزعة الجدلية في شعب جعلته أكثر من غيره ميلاً للاطلاع والقراءة ، وأوسع أفقاً من الناحية الذهنية . ولكنها من الناحية الأخرى تجعله مشتت الأهواء والآراء ، لا يستقر على مبدأ واحد مدة طويلة ، ولا يعجب بزعيم أو يلتف حوله ويستمر على تأييده .

إن النزعة الجدلية تجعل الناس مثاليين في تفكيرهم أكثر مما ينبغي ، فاذا انتشر بينهم رأي ، أو ظهر زعيم ، فلابد أن يجدوا فيه نقصاً على وجه من الوجوه . فهم يتحمسون له في البداية ، ثم تقل حماستهم له شيئاً فشيئاً ، اذ هم يستخدمون تجاهه أقيستهم المنطقية ومثلهم العليا ، فيرونه أوطأ مما تخيلوه عنه في أول الأمر . وعند هذا يبدأون بالنفرة منه وبالانفضاض من حوله .

من عيوب النزعة الجدلية أنها تعلّم الفرد أن يطلب من غيره أعمالاً لا يستطيع هو أن يحققها في نفسه ، فهو يريد من غيره أن يكون مثالياً في أعماله حسبما يقتضيه الجدل المنطقي ، ونراه عندئذٍ شديد النقد سليط اللسان يفترض في من ينتقدهم أن يكونوا معصومين من الخطأ . فاذا بدرت منهم زلة صغيرة ضخّمها بأدلته العقلية . أما زلاته التي يقترفها هو نفسه فهو ينساها ، وقد يأتي بالادلة ليبرهن على أنه لم يفعل سوى الصواب .

ان الفرد الجدلي يطالب بالحقوق أكثر مما يقوم بالواجبات . وأدلته

العقلية طوع أمره في ذلك ، اذ هو يأتي بها في سبيل ما يطلب من الناس ، وهو كذلك يأتي بها ضد ما يطلب الناس منه • فهو يريد أن يأخذ أكثر مما يعطي • لا ننكر أن هذه هي طبيعة الانسان في كل زمان ومكان ، بيد أن الفرد الجدلي يختلف عن غيره بكونه يحمل سلاحاً صارماً هو سلاح المنطق ، فاذا تقاعس عن القيام بواجباته كما تقاعس غيره ، وضع اللوم على غيره وبرّأ نفسه منه • فهو قادر أن يبرهن على أنه قام بواجباته خير قيام • والويل لمن يتحداه أو ينكر عليه ذلك ، اذ هو يشهر عليه سلاحه المنطقي ، ولا يتركه الا بعد أن يثخنه بالجراح •

جاء في الحديث المأثور : « اذا أراد الله بقوم سوءا أورثهم الجدل وقلة العمل » • وهذا الحديث قد يعطينا صورة مختصرة للشعب الذى تستفحل فيه النزعة الجدلية • فهو قوي الجدل في سبيل مطاليبه من الغير ، وهو في الوقت ذاته قوي الجدل ضد مطاليب الغير منه •

من مزايا الأقيسة المنطقية أنها تصلح لتأييد أي رأي ، ولتأييد نقيضه أيضاً[١] • ولهذا نجد الشخص الجدلي يأتي بالأقيسة لتأييد ما يرغب فيه الآن ، فاذا تبدلت رغبته بعدئذٍ استطاع أن يأتي بالأقيسة لتأييد رغبته الجديدة • وكثيراً ما ينكر هذا التناقض الذي يقع فيه ، ولعله لا يشعر به • ولذا كان الفرد الجدلي ذا شخصية مزدوجة في معظم الأحيان •

موطن الازدواج في العراق :

حين نقول بأن أزدواج الشخصية قد استفحل في العراق لا نقصد أنه استفحل في جميع سكانه على درجة واحدة • فقد أشرنا من قبل الى أن الازدواج لا يظهر في المجتمع الا اذا كان فيه نظامان متناقضان من القيم • وهذا أمر كثير الحدوث في المدن عادة • فهو قليل في الريف ونادر في البادية •

---

(1) Henry Thomas (The Living World of Philosophy) p. 91.

ان المدينة هي الموطن الذي تكثر فيه المواعظ الدينية وتشتد النزعة الجدلية • فالناس فيها قد تعلموا مثلاً عليا مناقضة لما اعتادوا عليه من أخلاق وعادات • انهم بعبارة أخرى يحلّقون في مواعظهم ومجادلاتهم تحليقاً مثالياً عالياً ، بينما هم في واقع حياتهم يسيرون على الضد من ذلك • وهـذا أمر يندر أن نجد ما يماثله في البادية وفي أكثر مناطق الريف •

ان المجتمع البدوي يعيش في ظل ثقافة اجتماعية واحدة ، وهو يكاد لا يعرف غيرها • فالفرد البدوي لم يتعلم في بيئته المنعزلة افكاراً أو مثلاً عليا تخالف القيم والعادات التي نشأ عليها منذ طفولته • انه يعتقد اعتقاداً جازماً بأن حياته هي الحياة المثلى التي لا يمكن أن يكون في الوجود خير منها • يقول الدكتور أحمد أمين في وصف البدوي ان « خياله محـدود وغير متنوع ، فقلما يرسم له خياله عيشة خيراً من عيشته ، وحياة خير من حياته يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف (المثل الاعلى) لأنه وليد الخيال ، ولم يضع في لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم يشر اليه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعري في عالم جديد يستقى منه معنى جديداً ، ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب »[1] •

والبدو حين يتعاطون الغزو أو النهب أو الثأر أو العصبية لا يدركون أنهم في ذلك يعصون الله أو يخالفون أوامر الدين • ذكر الدكتور فاضل الجمالي أنه عند زيارته لقبيلة عنزة في بادية الشام أخذ يناقشهم مناقشة طويلة حول ما اعتادوا عليه من نهب وغزو ، وهل ذلك مما يرضي الله عنه أم لا ؟ فكان جوابهم أنهم لم يقلقوا أنفسهم بالتفكير في مثل هذه المسألة[2] •

ويمكن أن نقول مثل هذا عن أهل الريف ، وخصوصاً اولئك الذين لم يتصلوا بالمدن وبمواعظها الدينية كثيراً • فهؤلاء لا يعرفون في حياتهـم الاجتماعية غير قيمهم العشائرية التي نشأوا عليها منذ طفولتهم • لا ننكر أن كثيراً من المناطق الريفية قد يرتادها الوعاظ والخطباء حيث يأتون اليها

---

(١) أحمد أمين (فجر الاسلام) ص ٣٧ ــ ٣٨ •

(2) Jamali (New Iraq) p. 46.

من المدن في مواسم معينة • ولـكن هؤلاء الوعاظ يبتغون كسب رزقهـم ، ولا يبالون بما يفعل أهل الريف في حياتهم الاجتماعية • ولعلهم يؤيدون أهل الريف في قيمهم العشائرية أحياناً[1] •

قد يظهر الازدواج في بعض الأفراد في الريف ، وهم الذين يخالطون أهل المدن ويتأثرون بمجادلاتهم المنطقية ومواعظهم الدينية • ولكنهم على أي حال قليلون نسبياً ، وهم مهما فعلوا لا يمكن ان يكونوا كأهل المدن في شدة ازدواجهم •

مشكلة أهل المدن أن ظروفهم تؤدي عادة الى انتشار التفسخ الخلقي بينهم على نطاق واسع ، كما سنأتي اليه في الفصل القادم • وهم بمقدار ما ينحطون في أخلاقهم نراهم يحلقون بأفكارهم تحليقاً عالياً • معنى هذا أن الفجوة بين تفكيرهم وسلوكهم واسعة جـداً ، فيؤدي ذلـك الى اسـتفحال الازدواج فيهم •

المؤسسات الدينية في المدن :

من الظواهر الاجتماعية التي تتميز بها المدن عن الريف والبادية هـي كثرة المؤسسات الدينية فيها ، كالمساجد والمدارس و « الحسينيات » ومجالس الوعظ و « التعزية » وما أشبه • وقد نشأت في هذه المؤسسات طبقة اجتماعية معينة تتألف من الفقهاء والوعاظ والخطباء • وهؤلاء يشعرون بأن من واجبهم إرشاد الناس الى الأخلاق المثلى التي جاء بها الدين • فهم يمطرون الناس بمواعظهم وخطبهم دائماً• فاذا قصّر منهم أحد في ذلك استهان الناس به، واذا كان بليغاً في مواعظه ذلق اللسان ارتفعت مكانته في نظر الناس وتوالت عليه الاحترامات والهدايا ، ووصفوه بـ « فم الذهب » •

مشكلة أهل المدن أنهم يحترمون المواعظ البليغة ولكنهم لا يستطيعون اتباع ما فيها من تعاليم ومثل عليا • فهم قد نشأوا منذ طفولتهم على أخلاق

(١) علي الخاقاني (شعراء الغري) ج ١٢ ، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨ •

أخرى حسبما توحي به قيمهم المحلية . وهي أخلاق مناقضة تماماً لتلك التي تدعو اليها المواعظ الدينية . فالمواعظ تدعو الى قيم الحلم والعفو والمساواة والعدالة ، وتشجب قيم العصبية والثأر والفخار والغلبة . اما القيم المحلية فهي على الضد من ذلك . ومعنى هذا أن الناس أصبحوا تحت تأثير نظامين متعاكسين من القيم ، فماذا يصنعون تجاه ذلك ؟

الملاحظ في المدن العراقية في العهد العثماني أنها كانت تحتوي على أفراد معلومين هم الذين يطلق عليهم اسم « الاشقياء » . وهؤلاء يتميزون عن غيرهم بشدة تمسكهم بالقيم المحلية ، ولا يبالون بالقيم الدينية . وهم يعترفون بذلك ولا يتكتمون فيه . وقد ينالون من الناس تقديراً واعجاباً على ما يبدونه من نخوة ورجولية ، ولا بأس عليهم بعدئذٍ ان يكونوا لصوصاً سفاكين يسطون على البيوت ويعتدون على الناس ما داموا يتبعون « الأصول » التي توحي بها القيم المحلية .

والى جانب هؤلاء أفراد آخرون على النقيض منهم ، وهم الذين يحاولون السير حسب القيم الدينية ، ويطلق عليهم اسم « الأخيار » أو « المتدينين » . ويجدر بنا أن نسميهم بـ « الاتقياء » في مقابلة أضدادهم « الاشقياء » . وهم ينالون من الناس تقديراً واعجاباً كمثل ما ينال « الاشقياء » .

يمكن القول إن « الاتقياء » و « الأشقياء » لا يعانون من أزدواج الشخصية الا قليلاً . فهم اتبعوا في الحياة طريقاً واحداً تقريباً ، وليس لديهم تناقض واضح بين تفكيرهم المثالي وسلوكهم الواقعي . ولكنهم على أي حال قليلون بالنسبة الى السواد الأعظم من أهل المدن .

أكثر أهل المدن ليسوا بأشقياء ولا أتقياء ، بل هم بين بين . وهم الذين يستفحل فيهم ازدواج الشخصية . فهم يحترمون الاشقياء والاتقياء في آن واحد. وهذا جعلهم يقتدون بالأشقياء طوراً ، ويقتدون بالأتقياء طورا آخر . فترى أحدهم يترنّم بآيات القرآن ، وبأحاديث النبي أو أصحابه وأهل بيته . وهو قد يشهر سيف لسانه على المخالفين لها . ولكنه لا يدري انه نفسه قد اعتاد على مخالفتها في كثير من قيمه وفعاله . فهو عندما يغضب ويشتم ،

أو يتعصب ويثأر ، ينسى الله ورسوله ويجري مندفعاً وراء قيمه المحلية لا يلوي على شي . اما اذا جلس في مجلس الموعظة والوقار ، انقلب الى تقي زاهد ، وأخذ يشكو الى الله من الظلم السائد ومن سوء أخلاق الناس . إنه يذم أخلاق الناس كأنه ليس واحداً منهم ، أو كأنه نشأ في مجتمع آخر .

كنت جالساً في احدى المقاهي المحلية ذات مرة استمع الى جماعة من الجالسين فيها يتحدثون ، فوجدتهم معجبين بموعظة بليغة كان قد ألقاها في جامع قريب أحد الوعاظ المعروفين . فكانوا يمجدون ما ورد فيها من تعاليم سامية وحض على التقوى والحلم والمغفرة . وبينما كانوا منهمكين في حديثهم مر في الزقاق رجل يعرفونه . فقطعوا حديثهم وأخذوا يذمون الرجل على ضعفه وقلة رجوليته . فهو في نظرهم « مخنث » يعتدي الناس عليه ولا يستطيع أن يعتدي على أحد منهم .

تربية الازقة :

لا يكاد الطفل في المدن العراقية يفتح عينه للحياة حتى يجد نفسه قد خرج الى الأزقة ليلهو ويلعب مع أترابه من أطفال الجيران والمحلة . وهناك ينمو الجانب الواقعي من شخصيته . وهذا الجانب سيكون عميق الجذور في تكوين شخصيته . فاذا كبر الطفل أخذ الجانب الآخر ينمو فيها ، وهو الجانب المثالي المستمد من المواعظ الدينية والمجادلات المنطقية .

أشرنا في الفصل السابق الى ضعف الحياة البيتية في المدن العراقية ، حيث رأينا المرأة تحاول أن تدفع بزوجها الى المقهى وبطفلها الى الزقاق ، لكي تبقى حرة بين جدران البيت . والمرأة في أكثر الأحيان لا تبالي بما يفعل طفلها في الزقاق ما دام غالباً غير مغلوب . فاذا رجع اليها باكياً يشكو من اعتداء أحد عليه هبت صارخة مولولة ، وقد ينقلب الزقاق عندئذ الى ساحة معركة عنيفة بين النساء ، وربما اشترك الرجال فيها أيضاً .

يمكن القول ان الازقة تربي الطفل وتُعدّه لكي يكون « شقياً » مغواراً يعتدي على غيره ولا يستطيع أحد أن يعتدي عليه . وأمه تحرضه أن يكون مثل أبيه « اذا مشى هز الأرض بأقدامه » .

تحاول بعض العائلات « المحافظة » منع أطفالها من اللعب في الأزقة بدافع الحفاظ على اخلاقهم • فهي تريد أن تربيهم تربية « صالحة » على زعمها ، ولا تدري أنها بذلك تفصلهم عن واقعهم الاجتماعي ، وتجعلهم يعيشون في عالم خاص بهم • فاذا كبر هؤلاء الأطفال صاروا كأنهم غرباء بين الناس ، وقد يتصفون بالكبرياء والتزمت وتغلب على تفكيرهم النزعة الطوبائية • انهم قد تخلصوا من أخلاق الأزقة فتورطوا في أخلاق أخرى قد تكون أشد ضرراً منها • فهم لا يفهمون المجتمع الذي يعيشون فيه ، وكذلك لا يفهمهم المجتمع •

كانت العائلات « المحافظة » في العهد العثماني تجد صعوبة كبيرة في منع أطفالها من اللعب في الازقة ، اذ لم تكن حينذاك مدارس أو رياض خاصة بالاطفال • فكانت تلك العائلات مضطرة أن تحجر أطفالها في البيوت وتوفر لهم أسباب اللهو واللعب فيها • اما الآن فقد تغير الوضع قليلا أو كثيرا ، وأصبح في مقدور الكثير من الناس تجنيب أطفالهم عن حياة الأزقة • ومنهم من استطاع أن يرسل أطفاله الى خارج العراق •

رأيت رجلا عمد الى ارسال أطفاله الى مدارس داخلية في خارج العراق ، وكانت حجته في ذلك أنه يريد أن يربيهم تربية حسنة ويجنّبهم من بذاءة الازقة • والواقع أنه كان مصيباً من ناحية ومخطئاً من ناحية أخرى • ان أطفاله سيرجعون الى العراق بعد تخرجهم وهم ينظرون في الحياة بمنظار ما تعلموه في مدارسهم الأجنبية • وهم عندئذٍ سيصابون بداء الرقاعة والتفرنج ، وقد يمسكون أنوفهم بأيديهم تقززاً اذا مروا بالأزقة الضيقة والمحلات القديمة • والويل للمجتمع اذا صار هؤلاء من حكامه أو المتنفذين فيه • فهم في واد والمجتمع في واد •

من أهم أساليب اللهو واللعب التي يتعاطاها الأطفال في الأزقة هو « الكسار » • ومعناها أن يؤلف أطفال كل محلة عصابة ليعاركوا بها أطفال المحلات الأخرى • وهم يفتخرون بذلك ، فاذا خرجوا من معركة منتصرين رجعوا الى محلتهم فرحين يهزجون ، فيهتف فريق منهم • هل

غلبتموهم ؟ » فيجيبه الفريق الآخر « إي والله ! » • ثم يهتف الفريق الأول مرة أخرى « هل غلبوكم ؟ » فيكون الجواب « لا والله ! » ••• الخ •

ان العداء كثيراً ما يستفحل ويزمن بين أطفال المحلات المتجاورة • وتستخدم الهراوات والاحجار و « المعاليق » في معاركهم ، وقد تستخدم الخناجر أو السكاكين فيها أحياناً ، لاسيما اذا جرت المعارك بين الأطفال الكبار والصبيان اليافعين •

وقد لا يكتفي الاطفال بـ « الكسار » ، فقط ، بل هم قد يتحرشون بالمارة وأصحاب الدكاكين ، اذا كان هؤلاء من المستضعفين أو العميان • وقد يغيرون أحيانا على البساتين ليسرقوا منها بعض التمر والفاكهة • وهم يجدون لذة كبيرة في السرقة والاعتداء ، اذ أن ذلك يعد في نظرهم من دلائل البطولة والشجاعة • ان التمر والفاكهة قد تكون متوافرة في بيوتهم ، ولكنهم يفضلون نهبها أو اغتصابها من غيرهم لما في ذلك من مغامرة وفخار • وتراهم يتنافسون على تناولها بينهم ، وهم يتضاحكون ويتباشرون •

انهم يحتقرون الطفل الذى لا يشاركهم في غاراتهم وسرقاتهم فهو في نظرهم « مخنث » أو « مكفخ » • وقد يقع تحت وطأة الأقوياء منهم فيذلّونه أو يستغلونه أو يلوطون به •

الواقع ان نزعة « التغالب » التي ورثها أهل المدن من البادية قد امتدت الى أطفال الأزقة • ولكنها قد تشوهت لدى الاطفال ومسخت عن الاصل الذي جاءت منه مسخا شديدا •

ان مكانة الطفل في الزقاق تتفاوت ارتفاعا وانخفاضا حسب مقدرته في تغلبه على غيره • وهذه المقدرة تظهر بمظاهر شتى نستطيع اجمالها فيما يلي :

(١) الشجاعة في المعارك : فالطفل الذي يبدي تفوقاً فيها يصبح قائداً أو زعيماً على جماعته طبعاً • وكثيراً ما يستغل زعامته ويسيء التصرف فيها •

(٢) القدرة على النهب والاغتصاب : فان مقدار الغنيمة التي يحصل

عليها الطفل في غاراته تعد مفخرة له . ولكنه لا يقسمها على أصحابه كما يفعل البدو في غنائمهم ، بل هو يحتكرها لنفسه وقد يتحداهم بها .

(٣) المصارعة البدنية : وهي شائعة بين الأطفال اذ يتخذونها مقياسا للقوة والغلبة . فالزعيم فيهم هو من يستطيع أن يصرع أقرانه ويلقيهم أرضا . فاذا ظهر بينهم من هو أقوى منه تحداه وصارعه ، وتصبح الزعامة عندئذٍ للغالب .

(٤) القدرة على خداع الغير والكيد به : فهم يعدّون المخادعة كالمغالبة ، ولهذا نجد كل طفل منهم يحاول انتهاز الفرص لكي يخدع غيره في أمر من الامور . فاذا نجح في ذلك هتف قائلاً « قشمرتك ! » . ومعنى هذا أنه انتصر عليه . وهم يصفون قوي الحيلة منهم بأنه « يأخذ صاحبه الى النهر ثم يرجع به عطشان » ، أي أنه قادر أن يخدع صاحبه و « يقشمره » بحيث يمنعه عن شرب الماء من النهر وهو عطشان .

(٥) الضحك على الغير والاستهزاء به : وهو في نظرهم نوع من الغلبة والمقدرة . فهم يحاولون أن يجدوا أحداً منهم بليداً أو سريع التصديق لكي يحيكوا له « المقالب » ويضحكو عليه . وكلما ازداد تصديقاً لهم ازدادوا في استضعافه والاستهزاء به . وهو قد يصبح في نهاية المطاف من الأذلاء المحتقرين ، فيعمدون الى ضربه والاعتداء عليه من غير حرج .

(٦) اللواط : ان أكثر الأطفال لم يبلغوا الحلم ، ولكنهم يمارسون اللواط بدافع الفخار . فالفاعل يفتخر بما فعل ، ويعتبره من قبيل الغلبة . أما المفعول به فهو مغلوب ومستضعف لا يستطيع أن ينظر الى الناس بملء عينه ، وهم لذلك يصفونه بأن « عينه مكسورة » . ان كسر العين في الأزقة من أعظم مظاهر التغالب بين الأطفال .

مهما يكن الحال فان مظاهر « التغالب » هذه التي ينشأ عليها الطفل في الأزقة قد تظل فعالة فيه عند كبره . انه قد يحاول كبتها والتظاهر بخلافها اذا واجه في كبره ظروفاً غير ملائمة لها . ونراه عندئذٍ يلتزم سلوك الوقار والتقوى ويتحذلق بالأفكار العالية . ولكنه قد ينسى نفسه

أحياناً فيندفع من حيث لا يشعر في أمور تدل على خفايا نفسه المكبوتة .

قال بعض علماء النفس : « الرجل طفل كبير » وهم يقصدون بذلك أن شخصية الانسان تتكون في طفولته عادة ، حيث تنغرس فيه منذ أعوامه الأولى أكثر الصفات التي تظهر عليه في كبره . انه قد يتغير في شخصيته قليلاً أو كثيراً من جراء تغير الظروف التي تحيط به في كبره . ولكن جذور الطفولة تبقى كامنة فيه ، وهي قد تظهر عليه ، وتلوّن تفكيره وسلوكه ، على وجه من الوجوه .

الازدواج المركز :

ان أي ظاهرة اجتماعية لا يمكن أن تكون على درجة واحدة في جميع الذين يتأثرون بها . فهم يختلفون في درجة تأثرهم بها حسب اختلاف العوامل النفسية والاجتماعية المحيطة بهم .

يغلب على ظني أن أشد أهل المدن ازدواجاً هم أبناء رجال الدين والوعاظ والاتقياء . فهؤلاء ينشأون منذ طفولتهم الباكرة في بيوت مملوءة بالمواعظ وتعاليم الدين ، وهم يستمعون اليها يوماً بعد يوم ، فيحفظونها ، وربما صاروا يتحذلقون بها على غيرهم من أطفال الزقاق . فهم يحبون أن يكونوا واعظين كآبائهم ولهذا نجدهم يردّدون عبارات الوعظ دون أن يدركوا مبلغ التناقض بينها وبين القيم التي اعتادوا عليها في الحياة الزقاقية .

أعرف أحد هؤلاء ، وكان من أقراني في الطفولة ، فكان لئيماً اعتدائياً لا يكاد يسلم أحد من لسانه أو يده . ولكنه حين ينتهي من أفعاله الاعتدائية ويجلس الى الاطفال ليتحدث معهم يبدأ بالموعظة « الرنانة » وينتقد الناس على تركهم تعاليم الدين القويم .

شهدته أخيراً وهو رجل متدين يقيم الصلاة بأوقاتها ويتهجد بتلاوة القرآن والادعية المختلفة . ولكنه في الوقت ذاته نقّاد مغتاب من الطراز الأول . انه كان في طفولته يؤذي الناس بيده ولسانه ، وهو الآن يؤذيهم بلسانه فقط . أما قلبه فلا يزال كما كان في طفولته « عامراً بالايمان » !

H

تربية الكتاتيب :

كان الأب اذا جاء بطفل له الى أحد الكتاتيب قال للمعلم : « لك اللحم ولي العظم »، وهو يشير بذلك الى جواز ضرب المعلم للطفل في سبيل تأديبه حتى يتهرأ اللحم منه . وكان المعلم لا يقصّر في ذلك أحياناً ، فلديه من وسائل التأديب ما فيه الكفاية . ولعلني لا اغالي اذا قلت ان المعلم يعلّم الولد على القراءة والكتابة من ناحية ، ويعلّمه على ازدواج الشخصية من الناحية الاخرى .

يطلب المعلم من تلاميذه أن يجلسوا في منتهى السكينة والوقار والادب ، فلا يتحركوا يمنة ويسرة . ويجب أن ينكبوا على واجباتهم الدراسية انكبابا تاما . وهذا أمر يستحيل على الطفل تحقيقه . فالطفل بطبيعته ذو حركة دائبة وميل قوي نحو اللعب واللهو . وقد فطن الى ذلك علماء التربية حديثا فجعلوا تعليم الطفل منسجما مع ميوله الطبيعية . أما تربية الكتاتيب فكانت على الضد من ذلك . فالمعلم فيها يعتقد أن شخصية الطفل كالعجينة يمكن صبّها بالقالب الذي يريده لها . فهو يعمد قبل كل شيء الى المواعظ والنصائح يمطرها على مسامع الاطفال مرة بعد مرة . فاذا وجد البعض منهم لم يتأدبوا بها أسرع الى العصا فانهال بها عليهم حتى يعلنوا التوبة والانصياع لمواعظه .

معنى هذا أن الطفل سيكون مضطراً الى التظاهر أمام معلّمه بالأدب والوقار . فاذا حانت من المعلم التفاتة اليه تظاهر بأنه مكب على دراسته لا يعرف غيرها . انما هو لا يكاد يلاحظ من المعلم غفلة عنه حتى ينتفض ، فينفّس عن حوافزه المكبوتة بكل ما يتيسر لديه من وسائل . اما اذا خرج الطفل من الكتّاب فانه يطلق لنفسه العنان ، فيجري راكضاً في الازقة صارخاً معربداً ، يضرب هذا ويخطف شيئاً من ذاك .

يقول الدكتور متي عقراوي : « والعادة الشائعة بأن لا يتكلم الصغار بحضور الكبار ما لم يُسألوا ، وينتظر منهم أن يحافظوا على الهدوء والرزانة . ونحن نرى نتيجة ذلك على وجوه الاطفال مظاهر رزانة مصطنعة

وغير مستحبة تقتل فيهم روح الاندفاع والنشاط »[1] .

الواقع أن هذه الرزانة المصطنعة ، التي أشار اليها الدكتور عقراوي ، لا يستمر عليها الطفل طيلة وقته . فهي موقتة يتظاهر بها أمام أبيه ومعلمه أو غيرهما من الكبار . وهو فيما عد ذلك وقح مشاغب لا يقف في شغبه عند حد .

مما يجدر ذكره أن المدارس الحديثة ، التي أخذت تحل محل الكتاتيب مؤخراً ، استطاعت أن تخلّص الأطفال من تلك الرزانة المصطنعة الى حد ما . ولكنها خلقت فيهم عادة أخرى لعلها لا تقل أثراً في تكوين شخصيتهم عن العادة القديمة . فهي أخذت تعلمهم الحماسة في سبيل بعض المبادىء والمفاهيم المستحدثة ، مما أثار فيهم نوعاً جديداً من ازدواج الشخصية ـ كما سنأتي اليه في فصل قادم .

تأثير الأوبئة في الازدواج :

لعل من المناسب في ختام هذا الفصل أن أتطرق الى ذكر الأوبئة ومبلغ تأثيرها في شخصية أهل المدن . ففي رأيي أن الاوبئة كانت من العوامل التي ساعدت على تقوية بعض مظاهر الازدواج فيها على وجه من الوجوه .

كانت الأوبئة في العهد العثماني تجتاح العراق حيناً بعد حين . وكثيراً ما كانت تتوالى عليه بمعدل مرة واحدة كل عشر سنوات . ولكنها كانت أشد وطأة في المدن منها في الريف ، وفي الريف أشد وطأة منها في البادية . وكلما كانت المدن أكبر وأشد ازدحاماً بالسكان كان تأثير الوباء فيها أفظع .

ولكي ندرك مبلغ التأثير الذى أحدثته الأوبئة في المدن العراقية نقرأ ما كتبه المبشر الانكليزى غروفز عن مشاهداته للطاعون الذى اجتاح بغداد في عام ١٨٣١ . فقد كان غروفز يسكن في بغداد حينذاك وأبى أن يغادرها كما فعل الكثيرون من أفراد الجالية الأوربية . وشاء القدر أن يبقى حياً ،

---

(١) متي عقراوي (العراق الحديث) ـ ترجمة المؤلف ومجيد خدوري ـ ص ٢٤٨ .

فسجل مشاهداته في كتاب نشر في لندن عام ١٨٣٢[1] .

ذكر غروفز أن عدد الموتى أخذ يتزايد يوما بعد يوم حتى بلـغ تسعة آلاف في اليوم الواحد . ويقول : « ان الموت قد أصبح الآن مألوفـاً بحيث أن الناس صاروا يدفنون أقرب الناس اليهم من دون اكتراث يُعتد به ، كما لو كانوا يقومون بعمل اعتيادي » . وعندما كان غروفز يتجول في الطرقات لم يصادف في طريقه أي انسان ، عدا الذين كانوا يحملون الجثث والاشخاص المصابين بالطاعون الوبيل . وكانت صرر الملابس من مخلفات الموتى ، ملقاة بالقرب من كثير من الأبواب . وبدلاً من أن تدفن الجثث حسب مراسـيم الدفن المعتادة ، صارت تلقـى على ظهـور الحمير والبغال ثم تؤخذ لتدفن في حفرة من الحفر . ووصـل الحـال أخيراً أن يسقط الناس في الطـرقات ، فتأتي الـكلاب تنهش أجسامهم وربمـا كان بعضهم أثناء ذلك لا يزال يعالج سكرات الموت ...

وكان أشد المناظر ايلاما وازعاجا وجود المئات من الأطفال الصغار في الطرقات ، والـكثيرون منهم لا يزيد عمرهم على عشرة أيام ، وهـم يتصارخون فيختلط صراخهم بزمجرة الـكلاب التي كانت تنهش جثث الموتى .

وجاء من بعد ذلك الفيضان ، واندفع الماء بكل قوته في داخل المدينة . وما حلّت الليلة الثانية من الفيضان حتى كان القسم الأسفل من المدينة كله تحت الماء ، فسقطت على ما يقال سبعة آلاف دار مرة واحدة ، حيث دفنت المرضى والأموات والأصحاء في رمس مشترك .

وقد بلغت صعوبة الحصول على المؤون أشدها في هذه المرحلة . فصار الاشخاص المحترمون جداً ، من الذين بقوا على قيد الحياة ، يدورون على الأبواب ليستجدوا شيئاً من أبسط الضروريات اللازمة للعيش . وكذلك ازداد عدد الموتى المتروكين في الطرقات الى درجة مخيفة ، وتعذّر وجـود

(1) Groves (Journal of a Resident in Baghdad).

الوسائل اللازمة لحمل جثتهم ودفنها[1] .

الواقع أن هذا الوباء الذي اجتاح بغداد قد اجتاح أكثر المدن العراقية . ويمكن القول انه كان أشد فتكاً وضراوة من جميع الأوبئة التي حلت بالعراق من قبل ومن بعد . وهو على أي حال قد يعطينا نموذجاً نستطيع أن نتبين به كيف كانت الاوبئة تساعد على نمو بعض مظاهر الازدواج في شخصية أهل المدن .

ففي الوقت الذى كان فيه أهل المدن يعتادون منذ طفولتهم على حب الغلبة والفخار بالعصبية والثأر والاعتداء ، كما رأينا ، كانت الأوبئة تجتاحهم بين كل حين وآخر فتبعث فيهم نزعة مناقضة لما اعتادوا عليه ، وهي نزعة الحزن والخنوع والشكوى من الزمان . ومن هنا جاز لنا القول بأن الشخصية في المدن صارت ذات طابعين مختلفين : أحدهما يميل نحو التألم والخنوع والشكوى ، والآخر يميل نحو التحدي والمغالبة .

أسباب الأوبئة في العراق :

الواقع ان الاوبئة كانت في الماضي تجتاح جميع الاقطار المتحضرة في العالم من دون استثناء . ولكني أميل الى الظن ان العراق كان في العهد العثماني من أكثر الاقطار معاناة للاوبئة ، ان لم يكن أكثرها على الاطلاق .

مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن العراق يقع في طريق الحج بالنسبة لبعض الأقطار الاسلامية . وهو علاوة على ذلك يحتوي على مراقد مقدسة عديدة يقصدها الزوار من شتى الاقطار ، وكثيراً ما كانوا ينقلون معهم جنائز موتاهم لدفنها في تلك المراقد . فاذا حدث وباء في أحد تلك الاقطار فسرعان ما ينتقل منها الى العراق .

كانت الهند منبعاً لكثير من الأوبئة كما هو معروف . وكثيراً ما كان الوباء ينتقل منها الى العراق بصورة مباشرة أو عن طريق ايران . وكانت النزعة القدرية المسيطرة على أكثر سكان العراق من العوامل الفعالة

---

(١) جيمس فريزر (رحلة فريزر) ـ ترجمة جعفر الخياط ـ ص ٩٧ ـ ١٠٤ .

في نشر الوباء بينهم . فهم كانوا ينظرون الى الوباء كأنه نوع من القضاء والقدر الذى كتبه الله عليهم ولا مناص منه . فاذا جاءهم الوباء صاروا تجاهه كالأغنام في المجزرة . وقد ذكر السائح ولشتات : أنه عندما وصلت أخبار الطاعون الى بغداد في عام ١٨٣١ ، بذل القنصل البريطاني جهوداً كثيرة لاقناع الوالي باتخاذ التدابير الاحتياطية ضده وباعلان الحجر الصحي ، ولكن رجال الدين منعوا الوالي من ذلك اعتقاداً منهم بأنه مخالف لاحكام القرآن[١] ...

ويرى فريزر أن سوء الادارة الحكومية كان عاملا آخر من عوامل انتقال الوباء الى العراق . فهو يذكر مثلا عن طاعون وردت أخباره الى بغداد في عام ١٨٣٤ ، اذ كان قد تفشى في كرمنشاه ، وأخذ المقيم البريطاني يحذر الوالي من عواقبه الوخيمة ، ولكن الوالي لم يلتفت الى تحذيره ولم يمنع من ورود الزوار الايرانيين الى العراق ، لانه كان يطمع بالأتاوى التي أعتاد أن يقبضها من اولئك الزوار[٢] .

يبدو على أي حال أن هناك عوامل أخرى تجعل سكان العراق فريسة سهلة للعدوى ، وتساعد على سرعة انتشار الاوبئة بينهم . ونستطيع أن نجمل بعض تلك العوامل فيما يلي :

أولا : كثرة الاهوار والمستنقعات في العراق . وقد أدى ذلك الى انتشار مرضي الملاريا والبلهارزيا بين السكان بنطاق واسع ، مما أضعف صحتهم وقلّل من مناعتهم تجاه الأوبئة .

ثانيا : توالى المجاعات . فقد ذكر التاريخ عن وقوع مجاعات عديدة في العراق من جراء التخريب الذى حدث على انظمة الرى فيه وتتابع الحروب والفتن . وقد دلّت بعض القرائن على أن الأوبئة كثيراً ما كانت تأتي عقب المجاعات .

---

(١) سعاد العمري (بغداد كما وصفها السواح الأجانب) ص ٦٧ .

(٢) جيمس فريزر (المصدر السابق) ص ١١١ – ١١٢ .

ثالثا : العادات السيئة التي اعتاد عليها أهل العراق في طريقة تناول طعامهم وفي قلة التنويع فيه ، كما أشرنا اليه سابقا . وهذا من شأنه اضعاف المناعة فيهم تجاه الأوبئة .

رابعا : قلة العناية بالنظافة والغسل ، وانتشار عادة التمخط والبصاق والتغوط في الطرقات . وقد اعتاد الناس في المقاهي وغيرها أن يشربوا من وعاء مشترك ، واحداً بعد الآخر ، من غير اعتناء بغسله أو تعقيمه . فيؤدى ذلك الى سهولة انتقال العدوى بينهم .

خامسا : حوض الكر ، وهو حوض صغير من الماء اعتاد الكثيرون من أهل المدن أن يبنوه في بيوتهم ليغسلوا فيه أوانيهم وينظفوا أبدانهم . وهو قد يكون في الغالب حائل اللون متعفناً ومملوءاً بالجراثيم المرضية . وكان من أهم العوامل في نقل الأمراض والأوبئة .

سادساً : تلوث مياه الشرب ، فقد كان السقائون يأتون بالماء من الشواطيء أو السواقي القريبة . وقد يصادف أن يكون هناك بعض النسوة يغسلن الملابس وخرق الأطفال ، فتختلط أقذارها بالماء الذى يملأ السقائون به قربهم ...

سابعا : طول الصيف وارتفاع حرارته في العراق . والحر كما لا يخفى يساعد على سرعة التعفن ونمو الجراثيم المرضية . وهو كذلك يدفع الناس الى السباحة في شواطيء الأنهار ، وهذه الشواطيء كثيراً ما تكون ملوثة بالغائط وشتى الاقذار .

ثامنا : تسميد مزارع الخضر بالغائط وأقذار المدينة . وقد اعتاد الناس أن يأكلوا الخضر دون أن يغسلوها غسلا جيداً ، فيأكلون معها كثيراً من جراثيم الأمراض وبيوض الديدان[١] .

---

(١) مما يلفت النظر أن هذه العادة لا تزال شائعة في العراق على منوال ما كانت عليه في الماضي . والغريب أن الحكومة العراقية تنفق على شؤون الصحة والوقاية أموالا طائلة ، ولكنها تسمح للزراع بأن يسمدوا الخضر بالغائط والاقذار . فهي تقاوم الامراض من جهة وتسمح بانتشارها من الجهة الاخرى . ولست أدري متى ينتبه المسؤولون الى ذلك يا ترى ؟!

طابع الغناء العراقي :

حين ندرس الأغاني العراقية ، لاسيما « المقامات » البغدادية منها ، نرى طابع الحزن والعويل غالباً عليها . فهي أغاني « جنائزية » على الاكثر ، وهي مملوءة بالشكوى من الدنيا وسوء الحظ والشعور بالخيبة والألم .

عندما استمع الى صوت « مقام » بغدادي وهو صادر من بعيد في ليلة هادئة ، أكاد أحسّ بأنه قد لُحّن اثر طاعون جارف قضى على أكثر الناس . فهو صوت انسان مات جميع أهله وبقي وحده يئن من الوحشة وفناء الدنيا .

يحكى أن أحد الطلاب العراقيين الذين يدرسون في الولايات المتحدة ذهب ذات يوم لزيارة صديق له من العراقيين هناك . فلم يجده في الدار التي كان نازلاً فيها . فجلس الى صاحبة الدار يتحدث معها عنه . فقالت السيدة تصف نزيل دارها بأنه شاب طيب ولكنه لا يكاد يدخل الحمام حتى يشرع بالبكاء . وقد اتضح أخيراً أن هذا الشاب العراقي لم يكن يبكي في الحمام كما ظنت السيدة الامريكية ، بل كان يغني « أبوذية » عراقية[1] ...

الملاحظ في سكان المدن العراقية أنهم ، حين يتشاتمون أو يتفاخرون ، يسلكون سلوك « الأشقياء » الذين اعتادوا على التحدي والمغالبة . ولكنهم لا يكادون يشرعون بالغناء حتى ينقلبوا الى « مساكين » مستضعفين أناخ الدهر عليهم بكلكله وأنزل عليهم ضرباته الماحقة .

يظهر هذا بشكل واضح في الحانات فاذا سكر أحدهم فيها بدأ يميل الى أغاني النواح والتألم « خايب يا قلبي ! » . ولكنه لا يكاد يشعر بشيء من الاهانة توجه اليه ، عن قصد أو غير قصد ، حتى ينتفض « سبعاً » ضارياً ، وقد تنقلب الحانة من جراء ذلك الى ساحة حرب تُشهر فيها الخناجر وتتقاذف فيها الكراسي وتحطم الموائد .

يبدو أن المرأة لا تختلف عن الرجل من هذه الناحية كثيراً . فهي قد

---

(١) علي الوردي (شخصية الفرد العراقي) ص ٤٤ .

اختصت بنوع من الأغاني الحزينة يسمى بـ « التعديد » • وربما جاء هذا اللفظ من تعديد خصال الميت عند البكاء عليه • وهذا « التعديد » شائع بين النساء في المدن والريف معاً • وقد برعت فيه المرأة العراقية براعة فائقة • فهي تبحث عن مجالس العزاء والبكاء ، وتسرع اليها لتنفّس فيها عن ألمها المكبوت • ولكنها في الوقت ذاته لا تتوانى أن تكون « سبعة » ضارية عندما يثور النزاع بينها وبين جاراتها في المحلة • فنراها عندئذٍ وقد صارت جهورية الصوت شديدة الغضب تلوّح بيدها مهددة شاتمة ، والويل لمن يقف في وجهها أو يتحداها •

جاء في أحد الأمثال العراقية الدارجة قولهم « القرج خاتون المحلة » • وهم يقصدون بـ « القرج » المرأة الوقحة ذات اللسان السليط • فهي خاتون المحلة ، أي سيدتها والمحترمة فيها •

ان المرأة تربي أطفالها على هذا النمط من السلوك • فهم ينشأون في حضنها ويتعلمون منها كيف يكونون « بكّائين » تارة ، و « شتّامين » تارة أخرى • وهم يتراوحون بين هذا الجانب وذاك حسبما يقتضيه المقام •

قد يصح القول بأن التربية الاجتماعية في المدن العراقية تعلّم الفرد أن يكون « سبعاً » تجاه البشر و « مخنثا » تجاه القدر • وهذا من مظاهر ازدواج الشخصية فيه !

الفصل الثاني عشر

التفسخ الخلقي في المدن

يرى بعض الباحثين أن الحياة في المدن تشجع على التفسخ الخلقي . وكان ابن خلدون يذهب الى مثل هذا الرأي . فهو عندما قارن بين أخلاق البدو وأخلاق الحضر وجد فرقا كبيرا بينهما . فالبدو في نظره أفضل أخلاقا من الحضر ، اذ هم بعيدون عما في الحضارة من ترف وتكالب على المادة وانهماك في الشهوات . وفيما يلي بعض ما قاله ابن خلدون في هذا الصدد :

« ... وأما فساد أهلها في ذاتهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلوّن بألوان الشر في تحصيلها ، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها . فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه ، وتنصرف النفس الى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له . فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الأيمان والربا في البياعات . ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه ... » .

« واذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذّن الله بخرابها وانقراضها ، وهو معنى قوله تعالى : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) . ووجهه أن مكاسبهم حينئذٍ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها ، فلا تستقيم أحوالهم . واذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت ... » .

« ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف ، فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ ويتبع ذلك التفنّن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط فيفضي ذلك الى فساد النوع ... فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترف وأنه اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات »(١) .

مما يجدر ذكره أن هذا الرأي الذي جاء به ابن خلدون ، حول فساد الأخلاق في المدن ، قد لا يصح تطبيقه على جميع المدن ولاسيما الحديثة منها . فالاخلاق من الأمور الاعتبارية أو النسبية ، وهي تخضع لما اعتاد الناس عليه في مجتمع ما من معايير ثقافية . فما نعتبره في مجتمعنا خلقاً سيئاً قد يعتبره غيرنا من الاخلاق الفاضلة .

فالملاحظ في المدن الحديثة من البلاد « الراقية » أن الوضع الخلقي فيها لم يصل في تفسخه الى الدرجة التي وصفها ابن خلدون . لا ننكر أن المدن الحديثة تحتوي على مناطق معينة يكثر فيها التفسخ الخلقي ، وهي المناطق التي تعرف بالـ « Slums » .أما المناطق الأخرى منها فهي في الغالب غير متفسخة خلقيا ، ونعني بذلك أنها منسجمة في وضعها الخلقي مع المعايير الثقافية السائدة في المجتمع هناك(٢) .

يبدو أن ابن خلدون استمد رأيه في فساد أخلاق الحضر من مشاهداته الشخصية في المدن التى خالطها وعاش فيها . وعندما قارن أخلاق تلك المدن بالتعاليم المثلى التى جاء بها الاسلام اعتبرها منحطة . وهو محق في ذلك من الناحية الاعتبارية كما لا يخفى .

وحين ندرس أخلاق المدن العراقية في العهد العثماني نجد رأي ابن خلدون منطبقاً عليها الى درجة كبيرة . فأهل المدن العراقية كانوا يستمدون

---

(١) ابن خلدون (المقدمة) ـ تحقيق علي عبدالواحد وافي ـ ج ٣ ص ٨٧٧ - ٨٨٠ .

(2) Gist and Halbert (Urban Society) p. 163.

معاييرهم الخلقية من التعاليم الدينية السامية ، بينما كانوا في حياتهم الواقعية يسيرون على ما يناقض تلك التعاليم .

الواقع أن البدو يناقضون تعاليم الاسلام في كثير من عاداتهم ، ولكنهم لا يدركون ذلك ولا يشعرون به . أما أهل المدن فهم ، لكثرة ما يشيع بينهم من المواعظ الدينية والمجادلات المنطقية ، يدركون الفرق بين عاداتهم وتعاليم دينهم . وهناك ناحية أخرى يختلف فيها أهل المدن عن البدو في هذا الشأن ، وهي أن أهل المدن قد اقتبسوا من البداوة كثيراً من العادات ، كما رأينا في فصل سابق ، ولكنهم لم يحافظوا على نقاوة تلك العادات كما جاءت من البادية ، بل هم قد شوّهوها ومسخوها حتى صارت أكثر بعداً عن التعاليم الدينية مما كانت عليه في أصولها الأولى . وهذا هو الذي جعل ازدواج الشخصية واضح الأثر في أهل المدن ، فهم بمقدار ما كانوا منحطين في سلوكهم الواقعي كانوا يحلّقون في تفكيرهم المثالي تحليقاً عالياً .

مهما يكن الحال فليس من الجائز أن نلوم أهل المدن في ذلك . انهم ضحايا الظروف الاجتماعية التي أحاطت بهم . وقد أشرنا من قبل الى أن الانسان بوجه عام هو صنيعة ظروفه أكثر مما هو صنيعة ارادته الفردية أو تفكيره المجرد .

ولكي نفهم ذلك بوضوح يجدر بنا دراسة مختلف الظروف التي أحاطت بأهل المدن في العهد العثماني ، وكيف أدت الى تفسخ وضعهم الخلقي . وعسى أن يكون ذلك عبرة لنا في عهدنا الجديد .

علاقة الحاكم بالمحكوم :

كانت الحكومة العثمانية تحرص كل الحرص على أن تحافظ على « هيبتها » في أعين الناس . فهي لا تبالي ما يفعل الناس بأنفسهم ما داموا يحترمونها ويبدون مظاهر التزلف أمامها . وقد صار ذلك من التقاليد الاجتماعية في المدن العراقية .

وكان الموظفون ، وهم الذين أطلق عليهم في القرن التاسع عشر اسم

« الأفندية » ، يتمسكون بمظاهر « الهيبة » في مختلف حركاتهم وسكناتهم . فكانوا لا يخالطون العامة ، واذا تحدثوا اليهم اتخذوا تجاههم موقف الكبرياء والاستعلاء . وكانت لهم نواديهم ومجالسهم الخاصة بهم ، ولهم آدابهم ولهجتهم وملابسهم التي يتميزون بها عن سواد الناس .

كنت أتحدث ذات يوم الى « أفندي » قديم ، وهو قد كان من الموظفين الكبار في العهد العثماني ، فوجدته يتأفف ويتألم من انحطاط وضع « الآفندية » في زماننا . فهم في نظره قد فقدوا « هيبتهم » ومكانتهم العالية ، فصاروا يجلسون في المقاهي مع العامة ، ولايتميزون عنهم في آدابهم أو ملابسهم أو أفكارهم . وقال : « ذهب ذلك الزمان الذى كان الأفندي فيه أفندياً بمعنى الكلمة ! » .

كان « الأفندية » في المدن طبقة فوق مستوى الناس . وكان بعض الوجهاء يحاولون التقرب اليهم ومعاشرتهم لكي ينالوا بذلك شيئاً من النفوذ ويزدادوا وجاهة . وقد نشأت من جراء ذلك فئة من الناس يطلق عليهم لقب « أهل الجبب » . وهؤلاء يحرصون على معاشرة الأفندية ، وقد يحاولون أن يكونوا من أعضاء مجالس البلدية أو مجالس الادارة . ومعظم حديثهم يدور حول ما قال « فلان أفندي » و « فلان بك » . واذا ارتفعوا في مكانتهم درجة أعلى ، أخذوا يتحدثون عن « الباشا المشير » .

الواقع أن معاشرة « الافندية » صارت من المفاخر التي يتباهى بها الكثيرون من أهل المدن . وقد جاء في بعض الأغاني والأمثال الشعبية ما يشير الى ذلك . ولا أزال أذكر أغنية كنت قد سمعتها في طفولتي حيث جاء فيها :

راح للميرى حبي جاء من الميرى حبي

فالمغني يمدح حبيبه بهذا البيت حيث يصفه بأنه يروح ويغدو في زيارة دوائر الحكومة ، ويعني بذلك أن حبيبه من الوجهاء الذين لهم صلة وثيقة وصداقة مع الموظفين .

وهناك نكته تروى عن رجل من أهل المدن ، وهي أنه جاء الى أصحابه مستبشراً لأن « الأغا » قال له : « أنت جفطة » . فهذه اللفظة تعني الشيء

الذي لا خير فيه ، ولكن الرجل كان فخوراً بها لأن « الأغا » خاطبه بها على سبيل المزاح والادلال • وقد صارت هذه النكتة مثلا سائراً يضربه الناس للرجل الوضيع الذى يفتخر بمحادثة أحد الكبراء ، فهم يقولون عنه : « قال له الأغا جفطة » •

والمشكلة في أهل المدن أنهم كانوا في أعماق أنفسهم لا يحبون الحكام ، وربما كانوا يبغضونهم • ومعنى هذا أنهم كان تجاه الحكام يظهرون غير ما يضمرون • وقد تأصلت هذه العادة في الكثيرين منهم بحيث أصبحوا في حياتهم اليومية يحترمون من لا يحبونه ويحبون من لا يحترمونه •

لقد نشأ فيهم من جراء ذلك ما يشبه العقدة النفسية • فهم صاروا يفترضون في الشخص المحترم أن يكون متكبراً عليهم يشمخ عليهم بأنفه ولا يكلمهم الا قليلا ، فاذا تنازل لهم أو تواضع حسبوه واحدا منهم فتجرأوا عليه واستهانوا به • انهم اعتادوا على رؤية « الأفندي » متعاليا عليهم ، وهم يحترمونه على الرغم من ذلك • وهذا جعلهم يتخيلون كأن التعالي والمكانة العالية أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر • فاذا تواضع أحد الكبراء لهم كان ذلك دليلا على فقدان مكانته العالية •

ينبغي أن لا ننسى أن أهل المدن ورثوا من البداوة عادة مناقضة لتلك التي اعتادوا عليها تجاه حكامهم • فقد رأينا البدو في الصحراء يكرهون من يتكبر عليهم • فهم ديمقراطيون تجاه رئيسهم ، فاذا تكبر عليهم نفروا منه وانفضوا من حوله • وهذه العادة البدوية امتدت الى المدن وتأثر بها أهلها قليلا أو كثيرا • فهم كالبدو يكرهون من يتكبر عليهم ولكن علاقتهم بالحكام جعلتهم يحترمون المتكبر على الرغم من كراهيتهم له •

فهم في أحاديثهم الخاصة يذمون المتكبر ذما قبيحا ، ولكنهم لا يكادون يرونه قد مر عليهم في طريق ، أو دخل عليهم في مجلس ، حتى يقوموا له احتراما ويبتسموا له ابتسامة التزلف • واذا تحدث اليهم أصغوا اليه بملأ أسماعهم ، وربما ضحكوا لنكاته « الرقيعة » ضحكا عاليا • وقد يصادف أحيانا أنه يأتي اليهم في الوقت الذي كانوا فيه منهمكين بذمه وشتمه ، فينقلب وضعهم

نحوه فجأة ، وقد يقولون له « كنا في ذكرك » ، حيث يقصدون أنهم كانوا يذكرونه بالخير ، بينما هم كانوا في الواقع يذكرونه بكل شر .

ان هذا يمكن اعتباره نوعا من النفاق ، ولكنه على أي حال لا يخلو من بعض معاني ازدواج الشخصية . فهو قد كان ظاهرة اجتماعية شائعة واعتاد الناس عليها بحيث صاروا لا يخجلون منها ، وربما افتخر البعض منهم بالبراعة فيها . وقد استفحل ذلك في الشعراء منهم بوجه خاص . فكان الشاعر لا يستحي أن ينظم قصائد المديح لكل من يرجو منه منفعة أو مكافأة . واعتاد الناس أن يتذوقوا جودة النظم وبراعة الاسلوب ، بغض النظر عما فيه من كذب وتزلف صارخ .

جاء في أحد الامثال العامية قولهم « جيب نقش وكل عوافي » . وهذا المثل يشير الى مبلغ انتشار عادة التزلف لدى الناس . فهو يعني أنك اذا استطعت أن تحذق صنعة « النقش » في التزلف أو الحيلة ، وجنيت منها منفعة ، فيحق لك أن تتمتع بتلك المنفعة هنيئاً مريئاً . وهناك أمثال عامية أخرى تشير الى مثل هذا المعنى ، كقولهم « اذا صارت حاجتك عند الكلب فقل له حاج كليب » ، وقولهم « كل من يأخذ أمي أسميه عمي » ... الخ .

لقد صار الناس لا يبالون بشخص من يتولى الحكم أو ينال الوجاهة بينهم . كل اهتمامهم منصب على كسب رضاه اتقاءاً لشره أو طمعا بخيره. والواقع أن هذه العادة لاتزال فعالة في بعض الناس حتى يومنا هذا. فهم لا يزالون يحترمون الوجيه المتكبر وصاحب المنصب الكبير على الرغم من بغضهم له .

أعرف أفرادا لا يزالون يحملون في أعماق أنفسهم « عقدة » احترام المتكبرين . فاذا لان في معاملتهم أحد وتواضع لهم ، تجرأوا عليه وأهانوه . واذا شمخ بأنفه عليهم احترموه وتزلفوا بين يديه . ولكن هؤلاء أصبحوا الآن قليلين ، وهم في تناقص يوما بعد يوم . ان القيم الديمقراطية الحديثة التي أخذت تنتشر في المجتمع العراقي مؤخرا لا تتيح لهم أن يستمروا على السير في طريقتهم القديمة .

ان الديمقراطية ليست نظاما سياسيا فقط ، بل هي كذلك نظام اجتماعي . واذا لم يتعود الناس على الديمقراطية في حياتهم الاجتماعية فانهم لن ينالوا خيرا في حياتهم السياسية . واذا بقي الناس على دأبهم القديم في احترام المتكبرين ، فان حكامهم سيظلون سائرين على طريقة « الأفندية » القدماء . وقد ورد في الحديث المأثور : « كيفما تكونوا يولى عليكم » .

دافع الربح في المدن :

تحدثنا في فصل سابق عن بداية ظهور دافع الربح في بعض أنحاء الريف ، وما حدث بينه وبين الاعتبارات القبلية من صراع . وعندما نأتي الى المدن نجد دافع الربح قد استفحل وكان له أثره البليغ في تكوين الاخلاق فيها .

ان المدن تقوم بطبيعتها على أساس الاحتراف . فالفرد فيها ، بعد أن تنمو شخصيته في الازقة أثناء الطفولة ، يخرج الى الحياة العامة ويحاول أن يتعلم فيها حرفة ليكسب بها رزقه . انه يواجه عند ذاك نمطا من الحياة يختلف عن ذلك الذى اعتاد عليه في نشأته الاولى .

الواقع أن هناك فرقا كبيرا بين الفرد الحضري والفرد البدوي من هذه الناحية . فالفرد البدوي عندما يشب عن الطوق ، ويبلغ مبلغ الرجال ، يجد الحياة أمامه لا تختلف كثيرا عن تلك التي نشأ عليها في طفولته . ان قيم « التغالب » التي اعتاد عليها في طفولته هي نفسها سائدة في المجتمع الكبير الذي دخل فيه . وهو اذن لا يعانى صراعا بين قيم الطفولة وقيم الرجولة . ويمكن أن نقول مثل هذا القول عن الكثيرين من أهل الريف . اما في المدن فالامر على خلاف ذلك في معظم الاحيان .

ان قيم « التغالب » التي يعتاد عليها الفرد الحضري في طفولته لا تلائم حياة السوق والاحتراف . فصاحب الحرفة يجب أن يخدم زبائنه باخلاص ، ويحرص على مداراتهم وعلى الاستجابة العاجلة لمطاليبهم ووساوسهم ،

لـكي ينال ثقتهم وتحسن سمعته بينهم . أما اذا كان ميالا للتغالب في معاملة الزبائن فانه سوف يفشل في حرفته عاجلا أو آجلا .

ان المبدأ الذي يسير عليه صاحب الحرفة الناجح هو « أن الزبون على حق دائما » . وهذا المبدأ نجده الآن متبعا في البلاد « الراقية » على نطـاق واسع . فصاحب الحرفة هناك ، سواء أكان تاجرا أو صانعا أو عاملا ، يود أن يكون مغلوبا تجاه زبائنه لا غالبا . وهـو يـدرك أن الغلبة الموقتة تنفر الزبائن منه وتؤدي به الى الافلاس في الامد البعيد . فهو يربح اليوم منها قليلا ، ويخسر غدا منها كثيرا .

ان هذا المبدأ من الصعب أن يفهمه الـكثيرون من أصحاب الحرف في المدن العراقية . فهم ميالون الى غلبة الزبون عاجلا ، ولا يهمهم ماذا يأتـي به الغد لهم . انهم يعدون الزبون كأنه « مغنم » فهم يصاولونه ويساومونه ، ويستخدمون في سبيل اقناعه مختلف الاساليب . والزبون قد يكون مثلهم ، فهو قد نشأ في الأزقة مثلهم . ولهذا تطول المساومة بينه وبينهم ، وربمـا اتخذت صورة المبارزة والمصاولة ، حيث يحاول كل فريق أن يخرج من الصفقة غالبا لا مغلوباً .

أصبحت المساومة في الاسواق العراقية فنا يحتاج الى حذق ولباقة . فالشخص الذي لا يتقن هذا الفن قد يصير مستضعفا في الاسواق ، يـكثر الطامعون فيه وقد يجعلونه موضع السخرية والتندر بينهم . اما الشخص المتقن لهذا الفن فهو فخور به ، وقد يتحدث عن صفقاته الرابحة فيه كمثل ما يتحدث البطل المغوار عن أمجاده في ساحات الوغى .

الواقع أن المنازعات كثيرا ما تقع بين البائع والمشترى في الاسواق . فالبائع الغالب لا يحب ان يتنازل عن ربح اكتسبه بسيف المساومة ، وكذلـك لايحب المشترى المغلوب أن يظل مغلوبا . وقد ينتهي الامر بينهما الى تبادل الضربات والشتائم ...

وليس من النادر أن نرى رجلا غنيا ، وهو شديد الـكرم عندما يقيم

الولائم أو يتبرع للمواكب أو يدفع الحساب في المقهى ، ولكنه في الوقت نفسه لا يتردد عن مخاصمة حمّال من أجل مبلغ زهيد . ولعله يأكل أجرة الحمال ، فذلك أفضل في نظره من أن يغلبه الحمال ويأخذ منه بضعة فلوس زائـدة .

ولا يقتصر حب الغلبة على المساومة فقط بل هو قد يشمل كذلك الغش في البضاعة أو انجاز العمل . فأنت اذ تستأجر ذا حرفة على القيام بعمل ما ، ثم تغفل عنه ، تجده قد تكاسل في عمله أو حاول الغش فيه . فاذا عاتبته في ذلك أخذ يأتي بأغلظ الايمان ليبرهن لك على أنه كان في عمله مخلصـا « والله شاهد على ما يقول » . وهذا أمر يدركه من يعاني بناء دار له ، فهو اذا لم يكن شديدا في مراقبته للعمال ومستعدا للقتال معهم ، لعبوا به واستغلوه استغلالا فظيعا .

وهناك ناحية أخرى قد يظهر فيها حب الغلبة أيضا ، هي ما يسمى في اصطلاح أهل المدن بـ « قص التيل » . ومعنى هذا الاصطلاح أن أحدهم يود أن يشترى بضاعة بالدين ثم يتهرب من أدائه . كنت أمشي ذات يوم مع رجل في أحد الاسواق ، فلاحظت أنه يتجنب الدنو من دكان معين ، وكان عذره أنه « قص التيل » مع صاحب الدكان . وهو قد كان يصرح بذلك من غير حياء ، مع العلم أنه كان قادرا على أداء الدين . والظاهر أنه يعتبر ذلك نوعا من الغلبة والمقدرة .

الواقع أن المدن العراقية كانت ، ولا تزال ، تحتوى على عدد غـير قليل من أمثال هذا الرجل . فهم يفتخرون بانهم قادرون أن يأكلوا حـق الناس دون أن يستطيع أحد أكل حق منهم . واذا أراد أحدهم الذهـاب الى مكان ما، سار اليه في دروب ملتوية، اذ هو يحاول تجنب المرور بالاسواق التي « قص التيل » فيها ، وهي كثيرة طبعا . واذا استطاع أحد الدائنين أن يمسك به على حين غرة أقسم له بأنه سيوفي دينه غدا ، ثم يذهب الى غـير رجعة .

ان حب المال ، أو ما يسمى أحيانا بالنزعة المادية ، من أهم خصائص أهل المدن . وهم يختلفون فيها عن البدو اختلافا واضحا . فقد رأينا من قبل أن البدو يحبون المادة ، ولكنهم لا يحبونها لذاتها بل لكي يتكرموا بها على الناس فينالوا المكانة العالية والسمعة الحسنة بينهم . ان المبدأ الذي يسير عليه البدو يتمثل في قول زهير بن ابي سلمى :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم[1]

أما أهل المدن فيسيرون على مبدأ آخر هو أن « القرش الابيض ينفع في اليوم الاسود » . فالقرش هو عصب الحياة في المدن ، حيث يستطيع الانسان به أن يشبع حاجاته المتنوعة ، ويضمن مستقبله ، ويتقرب الى الحكام ، ويحيط نفسه بالمظاهر التي تجلب له الجاه والنفوذ .

كان الغني في المدن العراقية قادرا على أن يضر وينفع . وربما كانت مقدرته على الضرر أكثر من مقدرته على النفع . فهو اذا أراد الاضرار بأحد استأجر « الاشقياء » للاعتداء عليه ، أو وشى به الى الحكومة فرمى به الى السجون . ولهذا كان الناس يحترمون الغني ويتزلفون بين يديه كمثل ما يفعلون تجاه حكامهم .

ويجب أن لا ننسى أنهم كانوا يحسدون الغني ، ويبحثون عن عيوبه . وكثيرا ما يتحدثون في مجالسهم الخاصة عن الوسائل « الدنيئة » التي جمع بها ماله . ولكنهم لا يكادون يرونه قادما عليهم حتى يقوموا له احتراما ويوسعون له صدر المجلس .

وكان الغني يعرف كيف يدعم وجاهته ويرفع مكانته بين الناس . فهو يتقرب الى رجال الدين ويبذل لهم الاموال ويبكي لمواعظهم ، كما كان يفعل هرون الرشيد في سالف الايام . وهو كذلك ينتهز فرصة الاعياد والمواسم

---

(١) الحسين بن أحمد الزوزني (شرح المعلقات السبع) ص ١٠٣ .

الدينية ، فيقيم الولائم والحفلات ويتصدر المواكب ، ويتبرع « في سبيل الله » من ماله قسطا كبيرا . وقد تنطلي هذه « الحيلة » على الكثير من الناس فيحسبون أنه نال ثواب الدنيا والآخرة .

أعرف رجلا غنيا كان في بداية أمره لصا كبيرا يسطو على البيوت . وبعد أن جمع ثروة غير قليلة أراد الحج الى بيت الله الحرام ، فقال له أحد الفقهاء ان الله لا يقبل حجه الا اذا طلب المعذرة من الذين سرقهم وأدى ثمن ما استلبه منهم . والظاهر أنه لم يقتنع بهذا القول ، فذهب الى الحج على رغم انف الفقيه . وعندما رجع من الحج صار وجيها محترما يتهافت الناس على مجالسه وولائمه ـ « والله غفور رحيم » !

يمكن القول ان احترام الاغنياء بهذه الصورة جعل الناس يتكالبون على جمع المال بكل وسيلة تقع في أيديهم ، ولا يبالون أن تكون مشروعة أو غير مشروعة . فهم يتبعون في ذلك المبدأ الذى أشرنا اليه من قبل : « جيب نقش وكل عوافي » .

تعاطي الخمر في المدن :

يندر استعمال الخمر في الريف ، وهو يكاد يكون غير موجود في البادية . اما في المدن فهو منتشر الى درجة كبيرة . والعامة من أهل المدن يطلقون عليه لقب « حليب السباع » . والكثيرون منهم يفاخرون بشربه ويعدونه من مظاهر الرجولية فيهم . وهم قد يمدحون رجلا فيقولون عنه انه « قاعد على طبق » ، أى انه يتعاطى شرب الخمر . وقد كان « الطبق » رمزا لشرب الخمر في العهد العثماني ، يوم لم تكن الموائد قد شاع استعمالها بعد .

مما يلفت النظر أن الأفيون والحشيش أو غيرهما من المخدرات لم ينتشر استعمالها في العراق على نطاق واسع . ولايزال الخمر هو المشروب المحبب الى قلوب أهل المدن العراقية . ان الأفيون منتشر انتشارا واسعا في ايران . وقد بدأ ينتقل الى العراق منذ عهد بعيد ، عن طريق الايرانيين

الذين يأتون الى العراق للزيارة أو السكنى • ولكن العراقيين لم يألفوه ولم يميلوا الى تعاطيه الا في نطاق محدود جدا •

الشائع بين العراقيين أن الأفيون يقلل « الغيرة » ويضعف الرجولة • والظاهر أن هذا كان من أهم الاسباب في قلة ميلهم اليه • فهم يريدون شيئاً يقوى من رجولتهم لا يضعفها • ولعلهم قد وجدوا في الخمر مطلوبهم • ولهذا نراهم يستأسدون عند شرب الخمر ، وكثيرا ما تظهر عليهم امارات العربدة والميل الى المشاكسة والعراك •

ليس من النادر في المدن العراقية ان يقف أحد السكارى في شارع أو زقاق ، فيشهر خنجره ويسد على المارة طريقهم • والمعروف عن بعض الافراد أنهم يتظاهرون بالعربدة ، دون أن يشربوا المقدار الكافي من الخمر ، ولعلهم يقصدون من ذلك اظهار قوتهم وشجاعتهم • وقد يقف أحد السكارى في حانة فيتحدى الجالسين أو ينتهرهم ويشتمهم • وقد يكون ذلك بداية معركة حامية بينه وبينهم •••

والمفروض في صاحب الحانة أن يكون لبقا كيّسا يداري زبائنه ويراعى مشاعرهم و « يدغدغ » نخوتهم ، لكى ينجح في مهنته • اما اذا كان بخلاف ذلك فالاحرى به أن يبحث عن مهنة أخرى له •

اذا جلس جمع من الاصدقاء في مجلس لشرب الخمر ، فمن أهم ما يجب أن يراعوه في مجلسهم أن لا يغضب أحد منهم الآخر بكلمة أو اشارة أو حركة • انهم يتحذرون من ذلك كل الحذر ، فهو قد يؤدى الى اثارة الغضب الشديد في السكران فينتج عنه ما لا يحمد عقباه ، وقد يسقط فيه بعض الضحايا • ولهذا نشأت حول شرب الخمر قواعد دقيقة ينبغي مراعاتها • وقد صار من الواجب على من يشرب الخمر مع رفقاء له أن يحتاط في مخاطبتهم ويدارى مشاعرهم • ومن الافضل له أن يمدحهم ويشيد بمروءتهم ، وهم من جانبهم ينبغي أن يقابلوه بالمثل لكى يتم الانس ويسود الانشراح بين الجميع •

من طبيعة السكر أنه يكشف عن دخائل النفس البشرية ، وما فيها

من قيم أو عقد مكبوتة . فقد شهدنا كثيرا من الناس في البلاد « الراقية » يتعاطون الخمر بشتى أنواعه ، ومنهم من يعتاد عليه منذ طفولته ، ولكنهم لا يميلون الى العربدة أو « الاستشاد » فيه . ومن النادر أن نرى أحدا منهم يؤدى به السكر الى مثل ما يؤدي اليه في المدن العراقية .

الظاهر أن أهل المدن العراقية يجدون عند شرب الخمر مجالا ينفسون به عما يعانونه من كبت في حياتهم الاجتماعية . فهم قد اعتادوا في طفولتهم على قيم « التغالب » ، ثم وجدوا في كبرهم أنهم غير قادرين على تحقيق تلك القيم أحيانا ، فيكبتونها في أعماق نفوسهم . وهم اذن ينتهزون فرصة الشراب لكي يعوضوا بها عما فقدوا في حياتهم الواقعية .

مما يجدر ذكره في هذا الصدد أن البدو كانوا في أيام الجاهلية يتعاطون الخمرة ، ويفاخرون بها . فكانوا يرون أن الخمر لا يجدر به الا الشجاع المقدام ، أما الرعديد الجبان فليس خليقا أن يشرب غير المرق . وقد شرب المسلمون الخمر في صباح يوم بدر ليزيدهم جرأة وشجاعة في قتال المشركين[1] .

هناك قرائن تدل على أن البدو كانوا عند شرب الخمر يميلون الى العربدة الشديدة . ولعل ذلك كان من أهم الاسباب التي جعلت الاسلام يحرم الخمر على أتباعه . ومما يلفت النظر أن البدو استطاعوا ، بعد دخولهم في الاسلام ، أن يتركوا شرب الخمر . وهذا بخلاف ما فعله أهل المدن ، فهم قد استمروا يتعاطون الخمر ، على الرغم من تحريم الاسلام له . فما هو السبب في ذلك ؟

يغلب على ظني أن شرب الخمر كان من العادات الطارئة على البداوة ، وربما جاء الى البدو في الجاهلية من جراء احتكاكهم بالمدن ، كمثل ما جاءت اليهم عبادة الاوثان وغيرها من العادات الحضرية .

ان البدو لا يحتاجون الى الخمر من أجل التنفيس عن رغباتهم

---

(١) أحمد محمد الحوفي (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) ص ٣٤٩ .

المكبوتة كما يحتاج أهل المدن • فمن النادر أن يعيش في البادية أفراد جبناء أو أذلاء يتخذون من السكر مجالا لكي يظهروا فيه بمظهر الشجعان الاعزاء على نمط ما رأيناه في أهل المدن •

اللواط في المدن :

الواقع أن عادة اللواط كانت منتشرة في المدن العراقية في العهد العثماني انتشارا واسعا ويمكن أن نعزو ذلك الى عوامل عديدة أهمها ما يلي :

(١) التربية الزقاقية : فقد رأينا كيف كان الاطفال في الازقة يعدون اللواط من مظاهر الغلبة ، وكانوا يفاخرون به ، ويطلقون عليه اسم « كسر العين » • فالفاعل يشعر كأنه قد غلب المفعول به ، وكسر عينه • فهو يعيّره بذلك دائما • وكثيرا ما يصاب المفعول به بعقدة نفسية من جراء ذلك ، فتضعف شخصيته تجاه أترابه أو تتفكك • وقد يتجرأ عليه أترابه فيستغلونه او يعتدون عليه •

واذا كبر الاطفال بقيت تلك العادة كامنة في أعماق الكثيرين منهم • وليس من النادر أن نرى الرجال الكبار يتفاخرون بها أو يتنابزون ، على منوال ما كانوا عليه في طفولتهم • ولهذا شاع بين العامة في كثير من المدن العراقية ما يعرف بـ « الشد » • فاذا أرادوا الانتقام من أحد تحايلوا عليه وشدوا وثاقه ثم لاطوا به قسرا • والمشدود قد يبقى طيلة حياته مكسور العين ، أما الذي يقوم بالشد فهو يفاخر بما فعل • أعرف شخصاً هو اليوم من الوجهاء وقد كان في أيام شبابه يرأس عصابة للشد ، والمظنون أنه لايزال فخوراً بـ « أمجاده » الماضية •

(٢) شدة الحجاب : فقد ثبت علميا أنه كلما اشتد الحجاب في المجتمع ازدادت نسبة انتشار اللواط بين أفراده • وهذا أمر طبيعي • فالانسان ميال بطبعه الى معاشرة الجنس الآخر والى التمتع بصحبته ، فاذا وجد

الجنس الآخر قد فصل عنه لسبب من الاسباب ، أخذ يحاول التعويض عنه بمعاشرة من يشبهه من أبناء جنسه . وهـذا هـو الذى جعـل بعض الرجـال في المجتمعـات التي يشـيع فيها الحجاب الشـديد يميلون الى معاشرة الغلام الامرد ، اذ هو يشبه الانثى . فاذا كبر هذا الغلام ونمت لحيته تركوه .

(٣) التراث الانكشاري : فقد أشرنا في فصل سابق الى تحكم الجيش الانكشاري في العراق قبل القضاء عليه في عام ١٨٣١ ، وكان أفراد هـذا الجيش يؤخذون منذ طفولتهم فيوضعون في مدارس داخلية ليتعلموا فيها على فنون القتال . والمعروف عن تلك المدارس في عهودها المتأخرة أنها كانت غير سليمة من الناحية الخلقية . وربما كان تلاميذها يمارسون اللواط فيما بينهم ، أو يمارسه فيهم المعلمون . وقد كان المماليك (أي الكولمندية) يشبهونهم في ذلك ، اذ كانوا مثلهم يؤخذون منذ طفولتهم ويربون في مدارس داخلية[١] . وقد تحكم المماليك في العراق على مدى ثمانين سنة تقريبـــا ، ثم قضى عليهم في نفس الوقت الذى قُضي فيـــه على الجيش الانكشاري .

مهما يكن الحال فقد كان اللواط منتشرا في أوساط الحكام في العهد الذي كان الانكشارية والمماليك يتولون زمام الامور فيه . وهذا جعـل اللواط أمرا مألوفا أو محترما بين الناس ، كما لا يخفى . وقد بقى هـذا الاعتبار الاجتماعي سائدا في المدن العراقية حتى عهد متأخر .

ليس لدينا احصاء عن مبلغ انتشار اللواط في المدن العراقية في العهد العثماني . ولكن هناك تخمينا تقريبياً يشير الى أن نسبة انتشاره كانت لا تقل عن (٤٠) بالمائة من مجموع سكان المدن . وهذه نسبة كبيرة جدا . ولعلها أكبر مما هي في البلاد الاخرى ، باستثناء امارات الخليج .

ويتضح انتشار اللواط في المقاهى عادة . فقد كان من الامور المألوفة في كثير من المقاهى أن يجلس الرجل فيها ومعه غلامه الخاص به . فهو

---

(١) علي الوردي (مهزلة العقل البشرى) ص ٩ ــ ١٠ .

لا يفارقه الا قليلا . واعتاد بعض الوجهاء والاغنياء أن ينفقوا على غلمانهم ، فيشترون لهم الملابس الفاخرة ، ويكفونهم حاجاتهم المعاشية المختلفة ، وقد يشركونهم في أعمالهم . ولم يكن الرجل منهم يستحي من ذلك ، وربما افتخر به في بعض الاحيان . ولا تزال بقية من هذه العادة موجودة حتى يومنا هذا .

يطلق الباحثون على اللواط اسم « الانحراف الجنسي الايجابي » ، اما الابنة فيطلقون عليها اسم « الانحراف الجنسي السلبي » . والملاحظ أن الانحراف الجنسي بكلا نوعيه ، الايجابي والسلبي ، موجود في جميع المجتمعات البشرية . ويعتقد الباحث هافلوك أليس أن (٢) بالمائة من سكان العالم ، في شتى الاقطار ، مصابون بالانحراف الجنسي بشكل يصعب عليهم التخلص منه[1] . فهو انحراف طبيعي فيهم نشأ من جراء خطأ في تكوين أجسامهم . فالذكر منهم يميل الى الذكر ، والانثى تميل الى الانثى . والفرد منهم قد يكون ذا انحراف سلبي أو ايجابي حسب الظروف التي أحاطت به في بداية أمره . وقد وقف العلم عاجزا عن علاج هؤلاء الا قليلا .

ان المنحرفين الطبيعيين يتميزون عن غيرهم من المنحرفين بكونهم ذوي طبيعة جنسية شاذة ، فالرجل منهم يميل الى رجل كامل الرجولة متين العضلات كث الشعر . وكذلك الانثى منهم اذ هي تميل الى أنثى ناعمة متغنجة .

معنى هذا أن هناك فرقا كبيرا بين الانحراف الطبيعي والانحراف الاكتسابي . فالاول منهما مرض لا يرجى شفاؤه في الغالب . اما الثاني فصاحبه ليس منحرفا بطبعه ، انما هو اكتسب الانحراف من محيطه الاجتماعي . وهو يتخذه وسيلة للتعويض عما فقده من معاشرة الجنس الآخر . وهو اذن قابل للشفاء ، ويتغير في نسبته ونوعه حسب الظروف المحيطة به .

---

(1) Havelock Ellis (Psychology of Sex) Vol. IV.

نستطيع أن نقول على أي حال ان سكان العراق لا يختلفون عن سائر سكان العالم من حيث وجود أفراد بينهم مصابين بالانحراف الطبيعي • وهؤلاء قد لا تزيد نسبتهم عن الـ (٢) بالمائة حسب تخمين هافلوك أليس • وهم موجودون في البادية والريف والمدن على حد سواء تقريبا • اما المصابون بالانحراف الاكتسابي في العراق ، فهم كثيرون جدا في المدن ، وقليلون في الريف ، ونادرون في البادية •

ومما يلفت النظر أن الانحراف السلبي في المدن العراقية كان ، ولا يزال ، ذا نسبة ضئيلة جدا • فبينما كانت نسبة الانحراف الايجابي فيها تناهز الـ (٤٠) بالمائة ، كما رأينا ، كانت نسبة الانحراف السلبي لا تزيد على الواحد بالمائة أو هي أقل من ذلك • وهذا التفاوت الكبير بينهما يرجع سببه الى القيم الاجتماعية التى كانت تسيطر على المدن العراقية •

ان الناس في بلاد الغرب ينظرون الى الانحراف السلبي والانحراف الايجابي نظرة متماثلة ، فهم لايفرقون بينهما ، ويعدون كلا منهما مرضا نفسيا أو شذوذا عن المألوف • واذا وصفوا شخصا بأنه مصاب بالانحراف الجنسي لا يهتمون بذكر نوع الانحراف فيه ، فلا يعرف السامع هل هو سلبي أم ايجابى •

اما في المدن العراقية فالامر على خلاف ذلك • فالناس فيها يحتقرون المنحرف السلبي كل الاحتقار ، وهو بينهم على أشد درجات الضعة والمهانة• اما المنحرف الايجابي فهو لا يخجل من انحرافه ، وربما يتباهى به في بعض الاحيان • فهو غالب قد كسر عين غيره دون أن يتمكن أحد من كسر عينه • وهذا هو الذى جعل نسبة الانحراف الايجابي بين أهل المدن اكثر جدا من نسبة الانحراف السلبي •

الواقع أن هذه النظرة تجاه الانحراف الايجابي بدأت تتغير تغيرا محسوسا في الآونة الاخيرة • فقد أخذ الناس يحتقرون المنحرف الايجابى أو يشمئزون منه • ويمكن القول ان الانحراف الايجابي سائر في سبيل التقلص بين أبناء الجيل الجديد شيئاً فشيئاً • وقد ساعدهم على

ذلك سفور المرأة وانطلاقها الحديث • فصرنا نرى الشبان يركضون وراء الفتيات ويطارحونهن أفانين الغزل والغرام ، بدلاً من الركض وراء الغلمان•

الملاهي في المدن :

اعتاد البشر ، في مختلف انحاء العالم ، على أن يتخذوا وسائل للهو والتسلية لينفسوا بها عما يعانون من كبت في حياتهم الاجتماعية . فالحياة الاجتماعية بوجه عام ترزح تحت وطأة القيود والاعتبارات والتقاليد التي تضيق الخناق على الانسان وتمنعه من الانطلاق وراء شهواته وميوله الطبيعية• ولهذا نشأت في كل مجتمع بشري انواع مختلفة من الملاهى ، وأوقات معينة للتمتع بها •

الملاحظ في البداوة وفي الريف العراقي أن الرجال فيهما ينتهزون فرصة الاحتفالات بالاعراس أو غيرها من مناسبات الفرح ، فيرقصون رقصة خاصة بهم تعرف بـ « الچوبي » • وقد تشاركهم النساء فيها أحيانا . وكثيرا ما يقيمون مواسم للسباق على الخيول ، او للمبارزات بالسيوف او العصي ، فتتفرج عليهم النساء ، ويزغردن لهم • وهم يشعرون عندئذ بالنشوة والابتهاج •

وللغجر في الريف العراقي وظيفة مهمة من هذه الناحية . فلديهم فتيات بارعات في الرقص والغناء ، وهم يتنقلون بهن بين القبائل الريفية فيشبعون فيها بعض الحاجة الى اللهو والتسلية .

وحين نأتي الى المدن العراقية نجد الحاجة الى اللهو فيها لم تشبع اشباعا كافيا . فالحجاب الشديد الذى ضرب نطاقه على المدن ، والتزمت المفرط تجاه المرأة فيها ، أدى الى انتشار الكبت الجنسي بين سكانها مما جعلهم يلجأون الى أنواع من اللهو غير سليمة وقد لا تخلو من رقاعة والتيات •

يوجد في المدن العراقية نوع من اللهو يطلق عليه اسم « الكسلة » . وهو يحدث في أيام معينة من السنة ، حيث تتجمع النساء حول مرقد من

المراقد المقدسة ويبقين هناك بضع ساعات يتلهين فيها بشرب الشاي أو تناول بعض الطعام . وعند هذا يأتي بعض الشبان وقد تزينوا ولبسوا أفخر ما عندهم من ملابس ، فيأخذون بالتمشي والتبختر حول النساء ... وهم يجدون في ذلك متعة كبيرة . فكل واحد منهم يشعر بأن جماله قد خلب عقول النساء ، فهو يتحرش بهن ويتغامز معهن ، بغية أن « يصيد » احداهن . وقد ينجح البعض منهم في ذلك أحيانا .

يمكن القول ان « الكسلات » تتيح المجال لبعض الرجال أن ينفسوا عن بعض ما يعانونه في حياتهم من كبت جنسي . وقد حاول بعض الغيورين على حرمة المراقد المقدسة تنزيه « الكسلات » من تلك المساوىء الخلقية فلم يفلحوا . انها مساوىء منبعثة من طبيعة الظروف الاجتماعية التي يعيش فيها أهل المدن .

وهناك نوع آخر من اللهو في المدن هو الذى يحدث في حفلات الاعراس أو الختان أو ما أشبه . ففيه يتجمع الرجال مساءا في دار صاحب الحفلة ، فيغنون على دق الدفوف . وقد يقوم بعض الغلمان أو الرجال ليرقصوا على غنائهم . وقد اعتادت النساء أن يجلسن في شرفات الدار أو فوق السطوح ليتفرجن على الحفلة . وعند هذا نجد كل رجل من المشاركين في الحفلة قد اتخذ له شخصية ثانية غير الشخصية التي نشأ عليها في حياته الاعتيادية . فهو يحاول أن يكون موضع اعجاب المتفرجات ، فيتقوس في حركاته ، ويرفع صوته « الجميل » بالغناء . وكثيرا ما ينتفض غضبا عندما يشعر باهانة موجهة اليه ، فيطلق الرصاص أو يشهر الخنجر . فهو يريد أن يبدي بطولته أمام النساء ، كمثل ما يبدي جماله . وربما نشأت من جراء ذلك معارك عنيفة ...

لم يكن في المدن رقص شعبي يتسلى الناس به كما هو الحال في البداوة والريف . كل ما هنالك رقص خاص بالرجال ، وهم يقومون به فرادى في حفلات الاعراس وغيرها ، كما أسلفنا . وقد اختص بهذا الرقص أفراد يطلق على الواحد منهم اسم « الشعّار » . وكان الناس

يفضلون أن يكون « الشعّار » غلاما أمرد يشبه النساء في ملامحه وتكوين جسمه ‧ فهو اذا رقص بينهم هز بطنه وأردافه ورقبته ‧ وكثيرا ما يقع بعض الرجال في عشق هذا الغلام ، وقديتنافسون عليه ، فتثور المشاحنات والمعارك من أجله ‧

يحدثنا السيد عبدالكريم العلاف في ذكرياته عن بغداد في أواخر العهد العثماني فيقول : انه كان يشاهد غلمانا يرتدون ملابس نسائية ويتشبهون بالنساء في الرقص على مسرح كان معدا في احدى مقاهى بغداد ، وهو مقهى « سبع » في الميدان[1] ‧

المقاهي في المدن :

اشتهرت المدينة العراقية بأنها من أكثر مدن العالم في عدد مقاهيها بالنسبة الى سكانها ‧ وقد وصفها أحد السواح قائلا : « بين كل مقهى ومقهى توجد مقهى » ‧ وكأنه كان يشير بذلك الى أن كثرة المقاهي في المدينة العراقية هي ككثرة الكنائس في روما ‧

ان كثرة المقاهى هي أحد مظاهر ضعف الحياة البيتية في المدن العراقية ‧ فمعظم الرجال فيها يقضون أوقات فراغهم في المقاهي ‧ وقد كانوا من قبل يقضونها في الدواوين ‧ والظاهر أن المقاهى منذ بداية ظهورها في العراق أخذت تنافس الدواوين في جذب الرجال اليها ‧ وقد تغلبت على الدواوين أخيرا ‧

سمى المقهى بهذا الاسم لانه المحل الذى كانت القهوة تسقى فيه ‧ ولا يزال العامة في العراق يطلقون عليه اسم « القهوة » ‧ ان كثيرا من المقاهى الآن أخذت تقدم الشاى بدلا من القهوة ، ولكن اسم « القهوة » ظل لاصقا بها ‧

ان أول مقهى أسس في العراق كان في بغداد في عهد الوالى العثماني

---

(١) عبدالكريم العلاف (بغداد القديمة) ص ١٢١ ‧

« جغالة زاده » صاحب الخان المعروف باسمه « خان جغان » ، وذلك في عام ١٥٨٦ تقريبا ، وموضعه الآن قرب المدرسة المستنصرية ، وبعد سنوات معدودة أسس مقهى آخر ، في عهد الوالي حسن باشا ، وموضعه قرب جامع الوزير على رقبة الجسر القديم[١] ، وتوالي من بعد ذلك تأسيس المقاهي في أنحاء بغداد ، ثم امتدت منها الى المدن العراقية الاخرى .

المظنون أن المقاهي كانت في أول أمرها لا يرتادها الا المستهترون وطلاب اللهو من الرجال . ومما يذكر أن بعضها كان يستخدم الغلمان الملاح لتقديم القهوة الى الزبائن ، وتعزف فيها الموسيقى[٢] . وبعد ان تكاثرت المقاهي على مرور الاعوام ظهر فيها شيء من التخصص . فصار لكل طبقة او فئة من الناس مقاه خاصة بها . فنشأت عند ذاك مقاه محترمة يرتادها التجار والوجهاء ، وأخرى منحطة يرتادها السفلة وطلاب اللهو والمقامرون وهواة الطيور واللواطون وغيرهم . وكان في كل محلة مقاه خاصة بها وتسمى الواحدة منها بـ « قهوة الطرف » .

يمكن القول على أي حال ان كثيرا من المقاهي أصبحت مباءة للتفسخ الخلقي . ولهذا كان رجال الدين والمحافظون من أهل المدن يستنكفون من الجلوس فيها . وكانت العادة الجارية أن لا يجلس الشبان في المقاهي الا بعد أن تظهر لحاهم . فاذا رؤي شاب أمرد جالسا فيها اعتبر ذا أخلاق متفسخة .

وكان بعض أصحاب المقاهي يتفننون في أساليب جذب الزبائن اليها . فكانوا يستأجرون من يغني للزبائن أو يقرأ عليهم قصص عنترة العبسي وأبي زيد الهلالي وحمزة البهلوان وغيرها . وعندما ورد الحاكي (الفونوغراف) الى العراق شاع استعماله في المقاهي شيوعا كبيرا . ولم يبطل استعماله الا بعد مجيء المذياع . وقد أخذت المقاهي الآن تستعمل التلفاز علاوة على المذياع ...

---

(١) يعقوب سركيس (مباحث عراقية) ج ٢ ص ١٨٧ ـ ١٩٠ .
(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧٩ .

ظهور المراقص :

أول مرقص ظهر في العراق هو مرقص « سبع » في بغداد . وهو لم يكن في بداية أمره مرقصا بل كان مقهى . وقد حاول صاحبه « سبع » أن يغلب منافسيه من أصحاب المقاهي ، فجاء بالغلمان يرقصون فيه . وقد نجح في مسعاه نجاحا منقطع النظير .

يذكر عبدالكريم العلاف حادثة مؤلمة حدثت في هذا المقهى عام ١٩٠٧ . « وفحواها أن رجلا يهوديا اسمه (سليم) قد خدع غلاما مسيحيا اسمه (نعيم) وكان الغلام في غاية الحسن والجمال ، أتى به ليشتغل في الملهى . وفي كل ليلة يتهافت الناس على الملهى للتمتع بذلك الجمال الباهر . فأحبه بعض أهل بغداد وأراد به المنكر ، فأبت نفس الغلام الزكية . وكثيرا ما كان يغريه بالمال ويسترضيه بالوعود الخلابة فلم يفلح . فجاءه ليلا وهو سكران ، والملهى يضم المئات من الناس ، وأطلق عليه الرصاص . فسقط ذلك اليتيم المخدوع على الارض مخضبا بدمائه ، فحمل الى مستشفى الغرباء . وهناك ظل ملقى على فراش الالم الممض يعاني البؤس الذي أحاط به حتى قضى نحبه . وقد أرخ المرحوم معروف الرصافي عام وفاة ذلك القتيل بقصيدة عنوانها (اليتيم المخدوع) ... »[1] .

ان أول امرأة تمتهن الرقص على المسرح في العراق هي « رحلو جرادة » . وهي من أهل حلب . وقد جاءت الى بغداد في عام ١٩٠٨ ، اثر انتصار الحركة الدستورية التي عرفت بـ « المشروطية » . وقد جاءت بعدها راقصات كثيرات . وكن جميعا يرقصن على منصات أعدت في بعض مقاهي الميدان ، كمقهى « سبع » ومقهى « عزاوي » ومقهى « السوّاس » .

وقد شغف الكثيرون من أهل بغداد بتلك الراقصات ، فأخذوا يتهافتون على المقاهي التى كن يرقصن فيها كل ليلة ، ويبذلون فيها أموالهم . وربما

---

(١) عبدالكريم العلاف (المصدر السابق) ص ١٢١ .

باع البعض منهم أملاكه وأهمل شؤون نفسه وعائلته في سبيل ذلك •
لقد كانت تلك فترة في حياة أهل بغداد لم يعهدوا لها مثيلا من قبل • فهم شهدوا فجأة نساءا جميلات وهن يهززن بطونهن وأردافهن ، ويبدين من الغنج وفنون الاغراء الشيء العجيب • فدارت رؤوسهم ، وخيّل لهم أن الدنيا قد انقلبت • والى هذا أشار معروف الرصافي في قصيدة له ، جاء في مطلعها :

أرى بغـــداد تسبح في الملاهي
وتعبث في الأوامــر والنواهي[1]

وعندما امتد لهيب الحرب العالمية الاولى الى العراق خمدت فورة المراقص فيه • فقد انشغل الناس آنذاك بالكارثة التي حلت بهم ، حيث سيق الرجال الى مجازر الحرب كالاغنام • وكان الكثيرون منهم يذهبون اليها دون رجعة ، خصوصا اولئك الذين ذهبوا الى جبهة قفقاسيا فأهلكهم البرد والجوع • وانتشر العويل والحداد في جميع أنحاء المدن[2] •

ولم تكد الحرب تنتهي حتى بدأت المراقص تفتح أبوابها من جديد • والظاهر أن التضخم النقدي الذي استفحل بعد الحرب كان من العوامل الفعالة في انعاش وضع المراقص • فهي قد تضخمت مع التضخم النقدي • واتضح ذلك في بغداد والبصرة بشكل خاص • فأخذ أصحاب المراقص يستوردون الراقصات من سوريا ولبنان ومصر • وصارت الاوراق النقدية ترمى على اقدام الراقصات كوابل المطر •

بذلت سلطة الاحتلال في العراق اموالا طائلة ، لتغذية جنودها وبناء الثكنات لهم ، فامتلأت جيوب الكثيرين من أهل المدن بالنقود ، وظهر بينهم

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٣ •

(٢) مما يجدر ذكره أن الحكومة العثمانية فرضت التجنيد الاجباري على أهل المدن فقط ، واستثنت منه أبناء القبائل الريفية والبدوية • فانتفع هؤلاء من ذلك فائدة كبيرة ، اذ هم استطاعوا أن يبيعوا منتجاتهم الزراعية والحيوانية بأغلى الاثمان ، فانتعش وضعهم المعاشي • وكان لذلك نتائج سياسية واقتصادية مهمة ظهر أثرها فيما بعد •

عدد كبير من « أغنياء الحرب » . فانثال بعض هؤلاء على المراقص يفرغون فيها أكداس النقود التي كسبوها على حين غرة .

كانت الراقصة التى تأتى من الخارج تعتبر العراق بمثابة منجم من الذهب . فهي اذا كانت جميلة ذات بـدن بض وتتوءات مغرية ، وكانت بارعة في اثارة الشهوات عند الرقص ، استطاعت أن توقع الكثيرين من الرجال في حبائلها ، وتسلب منهم جميع ما يملكون .

حين تعتلى الراقصة خشبة المرقص تأخذ بتوزيع بسماتها وغمزاتها على الحاضرين كيفما اتفق ، وبهذا تجعل كل واحد منهم يظن أنه هو المقصود بتلك البسمات والغمزات . انه يحسب نفسه أجمل الحاضرين وأكثرهم أناقة وجاذبية ، ولابد أن تقع الراقصة في غرامه « لفرط حسنه وبهائه » . وهو قد يعمد الى تقديم الهدايا لها بغية أن يزيد من اشتعال نار الغرام في قلبها .

إن الطريقة المألوفة في تقديم الهدايا الى الراقصـة هـى أن يشتري الرجل لها قنينة ، أو بضع قناني ، من المشروبات المستوردة الغالية . فتقتسم الراقصة ثمن القناني مع صاحب المرقص . وقد ينفق بعض رواد المراقص مبالغ كبيرة في هذا السبيل ليلة بعد ليلة . وهناك قصص تروى عن أشخاص ورثوا عن آبائهم ثروات ضخمة ، فانفقوها كلها في المراقص . ومنذ عهـد غير بعيد أخذ بعض شيوخ القبائل ، من الذين خالطوا أهل المدن ، يقلدونهم في هذا الشأن . وربما تفوقوا عليهم فيه . فهم يجمعون المال من كد الفلاح في الريف لينفقوه على الراقصات في المدينة[1] .

مما يلفت النظر أن هناك من الفقراء من يحاول تقديم الهدايا الى الراقصات ، تشبهاً بالأغنياء . وكثيراً ما يصاب بالخيبة في مسعاه . شهدت قبل ثلاثين سنة تقريبا ، في ملهى الجواهري ببغداد ، حادثة جديرة بالذكر في هذا الصدد . فقد كانت المغنية سليمة مراد تعمل في ذلك الملهى حينذاك ، وتخلب الألباب بأغانيها وبسماتها المغرية . وكان هناك خباز فقير يرتاد

(١) على الوردي (اسطورة الادب الرفيع) ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ .

الملهى ، فأراد ذات ليلة أن يقدم الى سليمة هـــدية لـكي ينـــال الحظوة لديها • فجمع ثمن ما باعه من الخبز ولم يدفع الديون التي عليه ، فتوافر لديه مبلغ أربعة دنانير • وجاء الى الملهى فجلس منفوخا كأنه يريد أن يفتح العالم • وعندما ظهرت سليمة على المسرح ، أخذت القناني تنهال عليها من كل ناحية • واذ ذاك أرسل الخباز قنينة واحدة اليها ، وهي كانت جميع ما يملك • ومن المؤسف أن هديته هذه ضاعت بين زحام الهدايا الاخرى ، فلم يجن منها سوى بسمة عابرة تكاد لا تسوى شيئاً • وعاد الى أهله يتحسر متألماً على فقدان رأس ماله الذي يصعب تعويضه[١] •

علاقة الرجل بالمراة :

يغلب على ظني أن هذا الوضع الذى رأيناه في المراقص العراقية قلما نجد ما يشبهه في مراقص البـلاد الاخـرى • فهو من مظـاهر الـكبت الجنسي الذي أشتدت وطأته في العراق بوجه عام ، وفي المـــدن منه بوجه خـاص •

يجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن العراق هو البلد الذى استفحلت فيه عادة « غسل العـار » الى درجـة يندر أن يـكون لها نظير في أي بلـد آخر • أما المدن الـكبيرة في العراق ، وهي التي ضعفت فيها تلك العادة ، فقد ظهرت مكانها عادة أخرى هي حجر المرأة والتشديد في مراقبتها وفرض الحجاب عليها •

الواقع أن الحجاب قد انتشر في أكثر البلاد الاسلامية ، منذ زمن بعيد ، ولـكنه لم يبلغ من حيث تأثيره الاجتماعي في تلك البلاد كما بلـغ في العراق • فهو في العراق ذو تقاليد صارمة تضيق على المرأة الخناق ، ولعلني لا أغالي اذا قلت بأن هذه التقاليد استمدت جذورها من عادة « غسل العار » وظلت محافظة على بعض معانيه •

---

(١) حدث لي ذات مرة أني كنت جالسا في أحد المراقص بجانب رجل سكران • فأرسل الرجل هدية الى راقصة • وظنت الراقصة أني أنا الذي أرسلت الهدية ، فمنحتني بعض بسماتها • وباء السكران بالخسران !

ان هذا هو الذى جعل المرأة العراقية شديدة الحذر والحياء ، ولعلها أشد في ذلك من جميع نساء العالم • فهي تخشى الرجال خشية بالغة ، وتتزمت كل التزمت في سلوكها تجاههم • انها تعلم أن أي لين يبدو عليها في التحدث معهم ، أو في مخالطتهم ، يثير حولها الاقاويل والشبهات ، وقد يؤدي بها الى الموت الزؤام أو العار الدائم •

وقد اعتاد الرجال في العراق على هذا التزمت والحذر الشديد في المرأة بحيث صاروا يتوقعون منها أن تكون « باردة » تجاههم تخفض بصرها عند محادثتهم ولا تبتسم لهم أبداً • فاذا وجدوا في أحدى النساء لينا أو ابتساماً خيل اليهم أن « الغرام » استحوذ على قلبها فجعلها مدلّهة لا تكترث لأقاويل الرقباء والعذّال •

ربما صح القول بأن الرجل العراقي أمسى ضعيفاً تجاه النساء • فاذا حاولت احداهن اغواءه بشيء من الغنج واللين خلبت لبه وسيطرت عليه ، دون أن يجد في نفسه قدرة على مقاومة اغوائها •

لا ننكر أن هذه الضعف تجاه المرأة موجود في جميع الرجال في العالم ، ولانستثني منهم في ذلك سوى ذوى الانحراف الطبيعي • ولكن هذا الضعف يختلف من حيث شدته فيهم حسب اختلاف الظروف الاجتماعية التي تحيط بهم •

لاحظنا شدة هذا الضعف عند أهل المدن العراقية سابقا ، في مجال « الكسلات » وحفلات الفرح • ثم لاحظناه بعدئذٍ في مجال المراقص • وقد نلاحظه في مجالات أخرى • فالرجل العراقي بصورة عامة لا يكاد يلمح أمرأة ، أو جماعة من النساء ، تنظر اليه حتى يشعر بالزهو ، فيتقوس في حركاته ويتحذلق في كلامه ، وقد يطلق النكات « الرقيعة » واحدة بعد الاخرى • فاذا رأى احداهن تضحك لنكتة منه ، غامت الدنيا في عينيه واخذ يزداد رقاعة وتحذلقاً • فهو يحسب أنه خلب لب المرأة ، وما درى أنها هي التى خلبت لبه • انه في واد وهي في واد !

التوازن الاجتماعي في المدن :

تحدثنا في هذا الفصل عن بعض مظاهر التفسخ الخلقي في المدن العراقية . وقد يعترض علينا معترض فيقول اننا قد غالينا في هذا الموضوع فذكرنا كل ما يشين أهل المدن ، دون أن نذكر ما كان لديهم من خصال حميدة .

إن هذا اعتراض وجيه . والواقع أن كل مجتمع بشري مهما كان « فاسداً » في بعض جوانبه ، فلابد أن يحتوي على جوانب أخرى « صالحة » ، لكي يتم التوازن الاجتماعي فيه . واذا اختل فيه هذا التوازن فلابد أن يكون مصيره الى الفناء عاجلا أو آجلا .

يجب أن نعترف على أي حال بأن المدن العراقية كانت غير خالية من بعض الخصال الحميدة ، كروح الجيرة والتضامن العائلي وقيم الشهامة والنجدة وما أشبه . وهي خصال قد ورثها أهل المدن من البداوة وحاولوا المحافظة عليها بمقدار ما أتاحته لهم ظروفهم الحضرية ، كما أشرنا اليه في فصل سابق . ولكن السؤال الذي يرد في هذا الصدد هو : هل كانت تلك الخصال كافية لموازنة التفسخ الخلقي الذي كان شائعاً بينهم ؟

ان الجواب على هذا السؤال من الصعوبة بمكان ، وهو يخضع لوجهات النظر المختلفة . فلو جارينا نظرية ابن خلدون لقلنا بان التوازن الاجتماعي في المدن العراقية كان أقرب الى جانب الفساد منه الى جانب الصلاح . ففي رأي ابن خلدون أن التفسخ الخلقي في المدن هو ايذان بفساد النظام الاجتماعي فيها ودليل على قرب انهياره وفنائه[١] .

ولكننا حين نستمع الى المعمرين من أبناء الجيل الماضي نراهم يذهبون الى الضد من نظرية ابن خلدون هذه . فهم يعتقدون بأن المدن العراقية كانت في العهد العثماني مليئة بالأخلاق الفاضلة ، حيث كان الرجال فيها « رجالاً » بمعنى الكلمة : يوفون بالعهد ويحمون الجار والدخيل ويبذلون أنفسهم في الملمات .

---

(١) ابن خلدون (المصدر السابق) ج ٣ ص ٨٧٦ ـ ٨٧٧ .

لـكي نفهم طبيعة التوازن الاجتماعي في المدن العراقية ندرس شخصية « الاشقياء » . فهؤلاء كانوا يمثلون القيم الاجتماعية السائدة ، المحمودة منها والمذمومة . انهم كانوا يحترفون اللصوصية في كثير من الاحيان ، ويفاخرون بسفك الدماء والاعتداء والسطو ، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه ذوي نخوة وشهامة لا تضاهي . فهم يحمون أبناء محلتهم ويدافعون عنهم ولا يسرقون منهم شيئاً ، واذا استنجد بهم أحد فتلوا شواربهـم وأسـرعوا الى مواطـن النجدة دون مبالاة بالخطر .

هناك قصص كثيرة عن مناقبهم لا يزال أهل المدن يتداولونها ويلهجون بذكرها . يحكى عن أحدهم مثلاً أنه سطى على بيت ذات ليلة ، وغفل عن نفسه أثناء السطو فذاق شيئاً من الملح . ولما أدرك طبيعة ما فعل ترك البيت دون أن يسرق منه شيئاً . انه صار مرتبطا مع أهل البيت بحـق « الزاد والملح » ولا يجوز اذن أن يعتدي عليهم أو يسرقهم . وربما أصبح من الواجب عليه أن يكون لهم حامياً .

وهناك قصة أخرى من هذا الطراز طالما سمعت أبناء الجيل الماضي يلهجون بها ، وهي أن جماعة من اللصوص سطوا ذات ليلة على بيت ، وأخذوا يجمعون منه الأواني وبعض الأثاث . فأحسّت بهم أم البيت وهي خائفة ، فأيقضت ولدها قائلة له : « قم ساعد أخوالك » . وسمع رئيس اللصوص قولها فأمر أصحابه بترك ما سرقوا . انهم صاروا في نظره اخوة للمرأة وأخوالا لولدها ، وليس من الجائز في شرعة النخوة والرجولة أن ينهب الرجل أخته وأبناء اخته .

ان هذه القصص تصـور لنا طبيعـة التوازن الاجتمـاعي الذى كان سائداً في المدن آنذاك . فقد كان الناس يقدرون « الشقي » اللص على شريطة أن يكون ذا شهامة ورجولة ، وهم لا يكترثون عندئذ لما يقترفه من سفك للدماء وسطو على البيوت وتخويف للآمنين . ولعلهم يعتبرون ذلك منه دليلاً على شجاعته وشدة بأسه .

يمكن القول ان « الشقي » صار مثالاً يحتذى به في نظر الكثيرين

من أهل المدن . فهو قد نال مكانة محترمة بينهم ، ولهذا أخذوا يحاولون التشبه به جهد امكانهم ، لكي يحصلوا على شيء من المكانة التي حصل عليها . يروى عن بعض الاغنياء أنهم كانوا يتعاطون السطو على البيوت في بعض الليالي . ولم يكن قصدهم من ذلك أن يسرقوا ، بل كان قصدهم أن يظهروا مقدرتهم على الشجاعة و « الشقاوة » .

يبدو أن هذه القيم الاجتماعية لا تزال مسيطرة على الكثيرين من أهل المدن العراقية ، ولاسيما العامة منهم . فهم قد نشأوا عليها في طفولتهم ، ووجدوا آباءهم يتبعونها ويمجدونها ، فظلوا متمسكين بها على الرغم من تغير الظروف . انهم لا يزالون يحترمون « السبع » المخيف ، ويحتقرون « المخنث » الخانع . وينبغي لمن يتعامل معهم أن يفهم ذلك لكي يستطيع أن ينجح بينهم .

فأنت اذا تحديت الرجل منهم أو حاولت مغالبته في شيء وجدته قاسيا عنيفا شديد الوطأة . ولكنك لا تكاد تجامله وتتقدم نحوه متلطفا أو مستنجدا حتى ينقلب الى رجل آخر ، اذ هو يكون اذ ذاك شهما كريما يعاونك بكل جهده .

نلاحظ هذا أثناء اشتداد الزحام في الدخول الى مكان أو المرور في طريق . فانت اذا زاحمت أحدهم وقف تجاهك بصلابة ، وربما اوقعك أرضا وداس عليك . أما اذا قلت له « تفضل » فسرعان ما يدعوك الى « التفضل » قبله . وهو يلح عليك في ذلك بمقدار ما تلح عليه فيه .

ان من الصعب أن يسود بينهم نظام الوقوف في صف طويل عند الازدحام على شيء ، على منوال ما يحدث في البلاد الأخرى . واذا فرض عليهم هذا النظام فسرعان ما يخرج منه بعض الافراد اذ هم يحاولون أن يصلوا الى الشيء قبل غيرهم ، وكأنهم يفتخرون بذلك ويعدونه من علامات القوة والغلبة . وربما اعتبروا المحافظة على النظام نوعا من الضعف والمسكنة .

والملاحظ أن المعارك والمشاجرات قد تكثر بينهم عند الازدحام في

مكان ما . وقد تبدأ المعركة بينهم من جراء سبب تافه يمكن تلافيه بكلمة بسيطة في سبيل الاعتذار والاسف . والواقع أن كلمة الاعتذار لم ينتشر استعمالها بينهم الا منذ عهد قريب جدا . ولا يزال بعضهم يستنكف من النطق بها إذ هي تدل في نظرهم على الميوعة وقلة الرجولة . فاذا أحس أحدهم بمن يزاحمه أو يرتطم به صرخ به غاضبا : « هل أنت أعمى ! » ، فيرد عليه المزاحم بكلمة أقسى . وبذا تبدأ المعركة التي قد تنتهي بإشهار الخناجر وسفك الدماء ، وقد يشترك فيها عدد كبير من الحاضرين بدافع العصبية والنجدة .

مما يجدر ذكره أن المجاملات الشائعة بين أهل المدن لا تزال تحتوى على بعض المعاني المستمدة من روح « الشقاوة » القديمة . فاذا مررت بأحد منهم وتقدمت نحوه بالتحية الحسنة ، رد عليك بتحية أحسن منها ، وقال لك : « أهلا ومرحبا أبو فلان » . اما اذا شمخت بأنفك عليه ، وتوقعت أن يبدأك هو بالتحية ، فسوف لا تحصل منه الا على العبوس والحقد .

ذكرنا من قبل أن الكثيرين من أهل المدن يحترمون من يتكبر عليهم ولكنهم يبغضونه . والظاهر أن هناك طريقة وسطى يستطيع الانسان بها أن ينال احترامهم وحبهم في آن واحد . وهي أن يعاملهم بشيء من الحكمة فيتكبر عليهم بمقدار ويتواضع لهم بمقدار ، أي يكون بعيداً عنهم وقريباً اليهم في الوقت نفسه . إنه يجب أن يدرك ما فيأعماق نفوسهم من دوافع بدوية وحضرية ، فيداري كل جانب منهم بما يلائمه .

إن هذا أمر صعب على أي حال ، ولكنه ضروري لمن يريد أن يعيش في العراق ويتوخى النجاح فيه ! .

الفصل الثالث عشر

طبيعة المرحلة الراهنة

كان معظم بحثنا في الفصول السابقة يدور حول الوضع الاجتماعي الذي كان سائداً في العراق في العهد العثماني • ونريد الآن ، في هذا الفصل الأخير ، أن ندرس بعض ملامح المرحلة الراهنة التي حلت بالعراق بعد زوال العهد العثماني عنه •

الواقع أن المرحلة الراهنة لا يكفي لدراستها فصل واحد • فهي مرحلة اجتماعية ذات أهمية بالغة ولعلها أهم مرحلة مر بها العراق في مختلف أطوار تاريخه الطويل • وسنحاول دراستها على شيء من التفصيل في كتاب قادم • أما غرضنا في هذا الفصل فهو استعراض بعض الخطوط الرئيسة التي تميزت بها المرحلة الراهنة ، وذلك لكي تتكامل في ذهن القارىء صورة عامة عن المجتمع العراقي من خلال تطوره من الماضي الى الحاضر •

أثر الحرب العالمية الاولى :

قد يصح القول بأن الحرب العالمية الاولى كانت أعظم حدث اجتماعي في تاريخ العراق الحديث ، فهي كانت بمثابة نقطة تحول هائل حيث انفتحت بها أمام أعين العراقيين آفاق جديدة لم يكن لهم بها عهد من قبل •

كان العراق في العهد العثماني يعيش في شبه عزلة اجتماعية • فكان الناس فيه ، الا القليل منهم ، لا يعرفون عن الحضارة الحديثة وأحداث العالم الخارجي غير النزر اليسير • ثم جاءت اليهم الحضارة إثر الحرب الاولى ، فكان مجيئها بغتة وبزخم شديد مما أحدث في المجتمع العراقي

تغيراً عنيفاً واسع النطاق .

يمكن تشبيه المجتمع العراقي من هذه الناحية بالنائم الـــذي يوقظ فجأة فيشهد أحداثا عجيبة لا عهد له بها من قبل فتهز كيانه هزاً وتبعث فيه الدهشة والارتباك .

كان المجتمع العراقي قبل ذلك قانعاً بما عنده ، واثقاً بصحته ، وهو يكاد لا يعرف غيره . ولـكنه فوجيء على حين غرة بأمور مخالفة لما اعتاد عليه ، فأصيب من جراء ذلك بصراع نفسي واجتماعي . وهو لا يزال يعاني من هذا الصراع ، وسيظل يعاني منه أمداً طويلاً .

مقاومة الحضارة :

من طبائع المجتمع البشري بوجه عام أنه ميال الى مقاومة كل تغير غير مألوف يطرأ عليه . وهذا أمر نلاحظه في جميع المجتمعات ، الراقية منها والمنحطة ، وهو ما يعرف في علم الاجتماع بـ « الاستمراريـة الثقافيـة » Cultural inertia [1] . انما هو قد يكون ضعيفاً أو شديداً في أي مجتمع من المجتمعات تبعاً لاختلاف الظروف فيه .

والظاهر أن مقاومة الحضارة الحديثة كانت في العراق شديدة جداً ، ولعلنا نستطيع أن نعزو ذلك الى العوامل التالية :

اولا : كان العراق يعيش قبل مجيء الحضارة اليه في شبه عزلة اجتماعية ، كما أشرنا اليه آنفاً . ومن طبيعة العزلة الاجتماعية أنها تؤدي بالناس الى شدة التمسك بتقاليدهم القديمة والى الخوف من أي تغيير يطرأ عليها . فاذا جاءهم التغيير شعروا كأنه يهدد بتحطيم مقدساتهم التي اطمأنوا اليهـــا زمنا طويلاً . ولهذا نراهم يهبون للدفاع عنها بحماس وضراوة .

ثانيا : لقد تميز مجيء الحضارة الى العراق بالمفاجئة ، كما ذكرنا . أضف

(1) Dawson and Gettys (An Introduction to Sociology) p. 583—585.

الى ذلك أنها كانت عند مجيئها راقية جداً وفيهـــا من عجائب المخترعات والنظم مـا يخلب الألباب ، وهـذا من شأنه أن يثير في الناس رد فعـل عنيف ضده • فلو أن الحضارة جاءت الى العراق ببطء وتدريج ، عـلى منوال ما جاءت الى بعض البلاد العربية الأخرى كمصر ولبنان ، لربما كان رد الفعل فيه أضعف أثراً •

ثالثا : كان مجيء الحضارة الى العراق مصاحباً للاحتلال الانكليزي • وقد كـان لهـذا الأمـر أثره البالغ في النفوس ، ولعـلـه أبلغ أثراً من العاملين السابقين • وهو جدير بأن نتحدث عنه بشيء من الاسهاب •

اعتقد الكثير من أهل العـراق أن الحضارة الحديثة هي من صنع الانكليز وأمثالهم من « الـكفار » ، وهي اذن لابد أن تكون مخالفة لدينهم وهادمة له • لقـد كانت تلـك نظرة ساذجة طبعاً ، ولـكنها سيطرت على عقول العامة وبعض رجـال الدين • فهم نظروا الى الحضـارة يحملها الانكليز معهم عند فتح العراق فخيّل اليهم أن الانكليز والحضارة شيء واحد لا يمكن التفريق بينهما ، وقد شعروا بأن الواجب الديني يقضي عليهم بمقاومتهما معاً •

كانت الدعاية العثمانية خلال الحرب تؤكد للناس على أن الانكليز انما جاؤا لتحطيم الخلافة ومحق الاسلام • وقد تأثر أهل العـراق بهذه الدعاية ، فأفتى رجال الدين بالجهاد وبوجوب مقاتلة « الـكفار » لـكي لا يستولوا على البلد فيفسدوا دينه • وذهب الـكثير من المتطوعـين ، من أهل المدن والقبائل ، الى سوح الحرب ليدافعوا عن دينهم ويجاهدوا في سبيل الله •••

المظنون أن هذه الدعاية العثمانية ظلت تؤثر في عقول العراقيين بعـد زوال العهد العثماني بمدّة طويلة ، وكان لها دورها الفعال في ازدياد المقاومة للحضارة الحديثة • فقد صار الكثير من العراقيين ، وفيهم بعـض رجال

الدين ، يتهمون كل من يأخذ بشيء من الحضارة الحديثة بأنه خارج عن الملة ، اذ هو في نظرهم يتشبّه بالكفار ويريد أن يكون منهم ، وقد شاع بينهم حينذاك المبدأ القائل « التشبه بالكافر حرام » .

فترة ما بعد الحرب :

كانت الفترة التي تلت الحرب العالمية الاولى فترة صاخبة من نواح شتى . وكان من أهم مظاهرها ما حدث فيها من تحريم واستنكار لكل ما جاءت به الحضارة من أفكار وعادات وأزياء . فقد كان السواد الأعظم من الناس ينظرون شزراً الى كل شيء جديد ولو كان في حد ذاته مشروعاً أو نافعاً . فدخول المدارس حرام ، وقراءة الجرائد حرام ، وتعلم أية لغة أوربية حرام . وكذلك حرموا لبس القبعة والأكل بالملعقة وربما الجلوس على الكرسي ، وحرموا أموراً أخرى كثيرة لا حصر لها .

حدثني صديق أنه كان في أيام شبابه يقرأ الصحف سراً ، فهو يحملها تحت عباءته لكي لا يراها الناس ، ويجتمع مع بعض أصحابه في أحد البيوت من أجل مطالعتها . وقد شهدت بنفسي ، منذ أربعين عاماً تقريبا ، رجلاً من العامة يعتدي على آخر لانه سمعه يقول بأن المطر ينزل من البخار . وقد صدر في تلك الايام كتاب عنوانه : « السيف البتار على الكفار الذين يقولون المطر من البخار » .

مما يجدر ذكره أن الناس لم يكونوا كلهم من هذا الطراز ، فلابد أن تظهر ازاء الجمهور الاكبر من الناس فئة قليلة تولع بالحضارة الحديثة وتدعو اليها ، ولابد أن يجرى بين الفريقين جدال ونزاع .

ان نزاع المحافظين والمجددين ظاهرة اجتماعية تكاد تكون محتومة في مثل هذه الظروف التي مرّ بها العراق . ولكنني أستطيع أن أقول ان النزاع الذي حدث في العراق كان عنيفاً جداً وقد تطرف كل من الفريقين فيه تطرفاً أدى الى نتائج فكرية واجتماعية غير محمودة .

لقد تورط المحافظون ، من جراء تزمتهم الشديد ، في أخطاء

عديدة . وتورط المجددون من جانبهم في أخطاء أخرى . وضاعت الحقيقة الوسطى بين هؤلاء واولئك .

مشكلة المحافظين :

مشكلة المحافظين الذي قاوموا الحضارة الحديثة أنهم لم يستطيعوا أن يستمروا في مقاومتهم لها مدة طويلة . فالحضارة مغرية جذابة تهواها النفوس ، ولهذا رأينا الذين قاوموها سرعان ما انجذبوا اليها وأخذوا يفعلون ما كانوا يحرمونه من قبل . فهم قد ناقضوا أنفسهم خلال مدة قصيرة دون أن يشعروا .

لنأخذ مثلاً قضية السفور والحجاب . ففي عام ١٩٢٤ قامت ضجة كبرى في العراق حول هذه القضية اشترك فيها صفوة المفكرين وقادة الرأي ، كما اشترك فيها العامة . وكان العامة مستعدين للاعتداء على كل من يدعو الى السفور اذ هم يعتبرونه كافرا يريد افساد اخلاق الناس ودينهم . وكان الكثير من المتعلمين يؤيدون العامة في ذلك . اما دعاة السفور فكانوا قليلين جداً ، وكان معظمهم من « الافندية » الشبان . سألت منذ عهد قريب أحدهم ، وهو الآن شيخ كبير السن ، عما جرى عليه يومذاك من أحداث ؟ . فحدثني عن محاولة للاعتداء عليه اتفق عليها جماعة من الغوغاء وخرجوا يبحثون عنه في الطرقات ، ولكنهم لحسن حظه لم يعثروا عليه ، بل عثروا على رجل شبيه به فأشبعوه ضرباً واهانة ...

لقد كان دعاة الحجاب كثيرين يمثلون السواد الاعظم من الناس . يروى عن أحدهم أنه كتب في مقالة له نشرتها احدى الصحف البغدادية ، فقال : ان السفور من خلق المستشرقين الذين يستهدفون به افساد الاخلاق . وقال آخر منهم متسائلا : كيف يمكن أن يحدث السفور في بلد كبلادنا وهو بلد اسلامي يأمر دينه أن تقر النساء في بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية[1] .

---

(١) صبيحة الشيخ داود (أول الطريق) ص ١٠٠ .

ممـــا يلفت النظر أن أكثر هؤلاء الذين قالوا مثل هذا القول فـي السفور ، وحاربوه محاربة شعواء ، عاشوا ليروا بناتهم سافرات • والواقـع أن السفور انتشر في بيوتهم وبين نسائهم كمثل ما انتشر في بيوت غيرهم • فقد جرفتهم الحضارة بتيارها وجعلتهم يجيزون ما كانوا يستنكرونه من قبل • وتلك هي مشكلة المحافظين في جميع أنحاء العالم تقريباً • والظاهر أن مشكلتهم في العراق تفوق مشكلة غيرهم في البلاد الاخرى ، اذ أن المدة التي انقضت بين موقفهم السابق وموقفهم اللاحق كانت قصـيرة جداً مما جعلهم يتورطون في مواقف مخجلة لم يكن من السهل عليهم تبريرها •

قضية الوظيفة الحكومية :

وهناك قضية أخرى اتضحت فيها مشكلة المحافظين بشكل أشد ممـا كانت عليه في قضية السفور ، وهي قضية الوظيفة الحـكومية • والواقع أن لهـذه القضية أهمية اجتماعية وكان لها أثر غـير قليـل في احـداث بعض مظاهر الصراع النفسي والاجتماعي الذى يعانيه الشعب العراقي في المرحلة الحاضرة •

كانت الوظيفة الحـكومية في العهد العثماني محتكرة من قبل طبقة معينة هي طبقة « الافندية » ، وكانت ذات مكانة اجتماعية عالية • كمـا أسلفنا في فصل سابق • وعندما تأسست الدولة العراقية بعد الحرب العالمية الاولى ، حـدث شيء من التغـير على الوظيفة الحكومية • فقـد حـاول الانكليز يومذاك أن يجعلو الحـكومة العراقية واجهـة لهم يحـكمون العراق من وراءها ، ولهذا فتحوا أبواب الوظائف أمام مختلف فئات السكان وطبقاتهم ، وأخذوا يجتذبون الوجهـاء والمتعلمين منهم للدخول فيها لكي يدعموا بهم نظام الحكم الجديد الذى تبنّوه •

لقد كانت الوظيفة مغرية لما فيها من نفوذ ومرتب مضمون • ولكن بعض رجال الدين اعلنوا تحريمها واعتبروها من قبيل التعاون مع الكفار • ومن هنا نشأ صراع نفسي لدى البعض من الناس ، حيث وقعوا بين دافعين

متناقضين : أحدهما يغريهم بقبول الوظيفة والآخر يردعهم عنها •

كان هذا الصراع ضعيفا فى بداية الامر ، عندما كانت الاسواق رائجة والحرف اليدوية مربحة • ولم تمض على ذلك سوى سنوات معدودة حتى حل الكساد محل الرواج ، وبدأت الحرف اليدوية تذوى تجاه البضائع المستوردة • وعندئذ انثال الناس على الوظائف الحكومية على الرغم من تحريمها • وأخذ الذين رفضوا الوظيفة فى أول الامر يندمون على ما فعلوا ، ويلوم بعضهم بعضا •

عند تأسيس الحكومة العراقية كانت الوظائف ميسورة في متناول كل رجل يعرف شيئا من القراءة والكتابة ثم أخذت تصعب شيئاً فشيئاً • وكلما زاد تهافت الناس عليها اشتدت صعوبة الفوز بها • ولما حلت الازمة الاقتصادية الكبرى فى عام ١٩٢٩ ، والاعوام التالية ، أصبحت الوظيفة الحكومية حلما بعيد المنال لا يفوز به الا ذو حظ عظيم •

صار الكثيرون من الناس يبذلون ماء وجوههم فى سبيل الحصول على وظيفة حقيرة ، ولا ينالونها الا بشق الانفس • وهنا شمخ الموظفون « السابقون » بأنوفهم ، وتهافت الناس عليهم يوسطونهم في حاجاتهم ويتزلفون اليهم •

أعرف رجلا من وجهاء الكاظمية كان قد استوزر فى بداية تأسيس الحكومة العراقية ، ولم يكترث للتحريم الذى أعلنه رجال الدين • فأخذ الناس يشتمونه ويشجبون عمله ، وتصدى له بعضهم فمنعه من دخول « الصحن الشريف » • ولم تمض على هذا سوى سنوات معدودة حتى انقلب الحال ، وصار ذلك الوجيه ذا نفوذ كبير ومكانة عالية يقصده الناس فى حاجاتهم ويبتغون رضاه •

ومما دعا الى استغراب الناس وأثار دهشتهم أنهم وجدوا البعض من المحافظين ورجال الدين الذين حرموا الوظيفة دخلوا فيها أو سمحوا لابنائهم وأقربائهم بالدخول فيها ، فأصيب الناس من جراء ذلك بخيبة أمل ورد فعل عنيف أدى الى زعزعة الكثير مما كانوا يؤمنون به من قبل •

حدث فى قضية المدارس الحديثة مثل ما حدث فى قضية الوظائف . فقد كانت المدارس فى أواخر العهد العثمانى قليلة جدا ومقصورة على أبناء « الافندية » في الغالب . وكان العامة ينظرون اليها نظرة ريبة واتهام ، وكان بعضهم يعدها مباءة للفساد الخلقي والانحراف الجنسي .

وعندما بدأت الحكومة العراقية تفتح المدارس أعلن بعض رجال الدين تحريم الدخول فيها ، فلقي هذا التحريم هوى فى قلوب العامة . ولذا كان الاقبال على المدارس فى بداية الامر ضعيفا ، ولم يدخل فيها الا عدد قليل من التلاميذ . ولكن ذلك لم يدم طويلا . فما هي الا سنوات معدودة حتى انقلب موقف الناس تجاه المدارس انقلابا يلفت النظر .

أخذت الرغبة فى دخول المدارس تزداد تبعا لازدياد الرغبة فى الوظائف الحكومية . ومما يجدر ذكره أن أكثر التلاميذ الذين دخلوا المدارس فى أول الامر ، ثم تخرجوا منها بعدئذ ، حصلوا على الوظيفة وأصبح لهم بين الناس مكانة مرموقة علاوة على ما فازوا به من مرتب مضمون . ومن هنا أخذ الآباء الذين فاتتهم فرصة الوظيفة يدخلون أبناءهم فى المدارس لكي يعوضوا بهم ما خسروه بأنفسهم . .

ظل بعض الآباء متمسكين بمبدأ التحريم فمنعوا أبناءهم من دخول المدارس ظنا منهم أنهم بذلك يحفظون دينهم وأخلاقهم ، ولكنهم وجدوا أبناءهم قد فسدوا من جهة أخرى اذ هم ابتلوا بعقدة نفسية من جراء ما خسروا من وظيفة وجاه .

ذكر الاستاذ علي الخاقاني قصة مهمة فى هذا الخصوص وقعت لشاب من أهل النجف . فقد أراد هذا الشاب الدخول في المدرسة كغيره من أقرانه ، ولكن أباه منعه من ذلك بتحريض من أحد رجال الدين . وقد عاش الشاب ليرى رجل الدين نفسه يدخل ابنه فى المدارس حيث يتخرج منها طبيبا محترما . فتألم الشاب من ذلك وأصيب بعقدة نفسية طاحنة جعلته ثائرا ناقما يسلق الناس بلسان سليط ويستهتر بالتقاليد بكل وقاحة .

وانتهى الامر به الى دخول السجن ، وطورد وعذب ونال من المشـــقة والحرمان قسطا كبيرا[1] .

مدارس البنات :

كان موقف الناس تجاه مدارس البنات أشد كثيرا من موقفهم تجاه مدارس البنين . فالمرأة فى العراق ، كما أشرنا اليه فى فصل ســـابق ، محاطة بتقاليد صارمة جدا . وقد كان الناس فى العهد العثمانى يعتقدون بأن مجرد تعليم المرأة القراءة والكتابة يؤدي الى فسادها وخروجها عن الطريق .

ألف فقيه بغدادي معروف ، هو الشـــيخ نعمان بن أبي الثناء الألوسي ، كتابا في عـام ١٨٩٧ عنـوانه : « الاصابة في منـع النساء من الكتابة » . ولا يزال الكتاب مخطوطا فى مكتبة الاوقاف ببغداد . وقـد جاء في هذا الكتاب قوله : « ... فأما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله منه ، اذ لا أرى شيئا أضر منه بهن . فانهن لما كن مجبـــولات على الغدر ، كان حصولهن على هذه الملكة من أعظم وسائل الشر والفســاد . وأما الكتابة فأول ما تقدر المرأة على تأليف كلام بها ، فانه يكون رســـالة الى زيد ، ورقعة الى عمرو ، وبيتا من الشعر الى عزب ، وشيئاً آخر الى رجل آخر . فمثل النساء والكتب والكتابة كمثل شرير سـفيه تهدى اليه سيفا ، أو سكيرا تعطيه زجاجة خمر . فاللبيب من الرجال هو من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى ، فهو أصلح لهن وأنفع[2] » .

الواقع أن هذا الرأي الذي نقلناه لم يكن رأيا شاذا ، بل كان يمثل الاتجاه العام فى العراق يومذاك . وقد ظل هذا الاتجاه سائدا فى بعض الاوساط العراقية حتى عهد متأخر . وعندما أخذ بعض الناس يتسامحون تجاه مدارس البنين ظلوا يتصلبون تجاه مدارس البنات . ففى العقد الثاني

(١) علي الخاقاني (شعراء الغري) ج ١١ ص ٢٦٨ ـ ٢٧٠ .
(٢) عبدالرزاق الهلالي (تاريخ التعليم في العراق ...) ص ٥٩ .

من هذا القرن أغلقت مدارس للبنات بعد فتحها لان الآباء رفضوا أن يرسلوا بناتهم اليها « خشية العار » . ولكن هذا الاتجاه أخذ يضعف شيئاً فشيئاً ، حتى اختفى أخيرا وحل محله اتجاه معاكس له بشكل يثير الدهشة .

عجيب أمر الناس ، اذ هم يمتنعون عن الامر الجديد في البداية ثم يتهافتون عليه أخيرا . ذكرت الاستاذة صبيحة الشيخ داود عن أحد المتزمتين أنه كان سابقا يحرم على ابنته مغادرة بيتها الى الجيران الا وهي ملففة بعباءتين . ثم انقضت الايام عليه ، فاذا به يحاول ادخال ابنته الى كلية مختلطة ، ويوسط بعض أولى النفوذ في ذلك . فلما سئل عن هذه المفارقة قال « ذاك زمان ... وهذا زمان[1] » .

لا لوم على الرجل فيما فعل . فهو في الماضي انما كان يسير حسبما توحي به القيم الاجتماعية التي كانت سائدة يومذاك ، وهو الآن يسير حسبما توحي به القيم السائدة في الوقت الحاضر . انه لم يتغير في نمط سلوكه انما تغيرت القيم الاجتماعية به .

يبدو أن هذا التغير السريع في القيم الاجتماعية قد أدى الى سقوط كثير من الضحايا . فالفتاة التي يمنعها أبوها من دخول المدرسة لابد أن تصاب بمرارة الخيبة والالم الممض . فهي ترى بعض جاراتها وصديقاتها يدخلن المدرسة وكأنهن قد خرجن بذلك الى عالم رائع من الزهو والانطلاق ، بينما هي قابعة بين جدران بيتها تندب سوء حظها .

حدث منذ عهد غير بعيد نقاش حاد في مجلس حافل في مدينة النجف ، بين أحد الوجهاء ورجل متزمت من رجال الدين . قال الوجيه يخاطب رجل الدين ويندد به : « ان من يمنع تأسيس مدرسة البنات غاشم ظالم . كفانا أنكم موهتم علينا أولا بأن مدارس الاولاد بدعة وفجور ، فتقدم أولادكم وصاروا محامين واستعبدوا أولادنا فراشين عندهم . أما بناتي فلا أقبل أن يكن خادمات عند بناتكم »[2] .

---

(١) صبيحة الشيخ داود (المصدر السابق) ص ١٠٨ .
(٢) علي الخاقاني (المصدر السابق) ج ١٠ ص ١٥٩ .

طبيعة رد الفعل :

ان هذا الموقف المتهافت الذى وقفه المحافظون ازاء التجديد أحدث آثارا سيئة فى ابناء الجيل الجديد وجعلهم يسلكون فى الحياة سلوكا غير رصين •

ان ابناء الجيل الجديد ميالون بطبعهم الى الاندفاع مع تيار الحضارة الحديثة • فالتقاليد القديمة لم تتمكن من نفوسهم كمثل تمكنها من نفوس آبائهم ، وهم يجدون فى التجديد اغراءا قويا يدفعهم نحوه • ولكنهم حين رأوا المحافظين يمنعونهم باسم الدين من الاندفاع وراء هذا الاغراء صاروا يشعرون بالنفرة من المحافظين ومن الدين فى آن واحد •

يمكن القول انهم أصيبوا بعقدة نفسية ضد الدين ، فهم لا يستطيعون أن ينظروا اليه نظرة موضوعية • فقد خيل اليهم أن الدين هو الذى دفع المحافظين الى ما فعلوا ، وعندما وجدوا المحافظين يناقضون أنفسهم • اذ هم يقاومون الحضارة أولا ثم ينجرفون معها أخيرا ، ظنوا أن الدين نفسه كذلك فأخذوا يتقززون منه ويتفاخرون بانتقاده والاستهتار به •

أصبح الكثيرون من أبناء الجيل الجديد يحسبون أن من مستلزمات الثقافة الحديثة أن يكون صاحبها غير متدين • فهم يظنون أن الانسان لا يستطيع أن يكون متدينا ومتمدنا فى آن واحد ، اذ يجب عليه أن يختار أحدهما وينبذ الآخر • واذا رأوا شخصا يحاول أن يكون متمدنا ومتدينا في آن واحد نظروا اليه نظرة استغراب وربما استهجنوه وضحكوا عليه •

لست أريد بهذا أن أدافع عن الدين • ولابد أن أعترف بأن العقائد الدينية التي كانت سائدة فى العهد العثماني هي فى حاجة الى الاصلاح والتهذيب • ولكن الذي أريد قوله هو أن تطرف الجيل الجديد في النفرة من الدين جعل فى أذهانهم فراغا مما أدى بهم الى كثير من الحيرة والقلق والالتياث •

ان التزمت الشديد في الدين قد يكون سيئاً ، ولكن التحلل الشديد من الدين ربما كان أسوأ منه • ان العقيدة الدينية بوجه عام تمنح الانسان

تماسكا وطمأنينة غير قليلة ، فاذا تحلل الانسان منها على حين غرة أدى ذلك به الى التطوح في الاهواء والى التقلب وراء النزعات المتضاربة . فهو يتحمس اليوم لمبدأ ما ، وقد يتحمس غدا لنقيضه . وتلك هي احدى مشاكل الجيل الجديد في العراق .

المدارس والانفتاح الطبقي :

قد يدهش القارىء حين يعلم بأن عدد تلاميذ المدارس الابتدائية في عام ١٩٢٠ – ١٩٢١ كان زهاء ٨ آلاف ، ثم أصبح في عام ١٩٦٣ – ١٩٦٤ يناهز ٩٥٨ ألفا[١] ، أي أنه أصبح قريبا من المليون . ولعله الآن قد اجتاز حد المليون وزاد عليه كثيرا . وتلك قفزة هائلة كما لا يخفى ، وهي في تصاعد مستمر عاما بعد عام ، فما هي النتائج النفسية والاجتماعية التي تتمخض عنها يا ترى ؟

ان هذه القفزة تدل طبعا على سرعة سير الجيل الجديد في طريق الحضارة الحديثة ، ولكنها تدل في الوقت ذاته على مبلغ ما يعانيه المجتمع العراقي من توتر وتأزم . فالتلميذ حين يدخل المدرسة يطمح قبل كل شيء الى أن يكون في المستقبل « أفنديا » مرموقا يشار اليه بالبنان بين أبناء محلته أو مدينته . ان أباه يحرضه على ذلك ، وأمه تريد أن تباهي به جاراتها وترغم به أنوف الحساد والاعداء .

واذا صادف أن نجح أحد أبناء المحلة ، فحصل على وظيفة عالية أو جاه ، أصبح شؤما على جميع أبناء المحلة . فكل أم في المحلة تريد من ولدها أن يكون مثله ، وهي تظل تعنفه قائلة : « لماذا نجح ابن فلانه ولم تنجح أنت ؟ فهل تنقصك عين أو أذن ؟! » . انه في نظرها أذكى من غيره وأفضل ، وهي تتوقع منه اذن أن يتفوق على أقرانه في الدراسة وأن يصل بها الى أعلى المناصب . فاذا فشل في ذلك أخذت

---

(١) اعتمدنا في هذين الرقمين على دائرة الاحصاء في وزارة التربية والتعليم .

تنعى سوء حظه وحظها . خايب يا قلبي ! » .

أصبح التلميذ ازاء هذا الضغط الشديد المحيط به لا يهمه طلب العلم بمقدار ما يهمه « الترقي » . فقد انفتح بين يديه النظام الطبقي ، وهو يريد أن يتسلق سلم المجد فيرتفع به عن طبقة أبيه . فاذا تخرج من المدرسة الابتدائية سعى بكل جهده الى الدخول في المدرسة الثانوية ، واذا نجح فيها سعى الى دخول الجامعة ... وهلم جرا . فكل مرحلة تؤدي الى مرحلة أعلى منها . انه يتوقع أن يجد الطريق مفتوحا أمامه حتى النهاية ، لا عقبة فيه ولا مانع . فاذا وجد أي تعويق يقف في طريقه أعلن شكواه ودخل في عداد الناقمين المتذمرين .

لو قارنا بين هذا الوضع وما كان الناس عليه في العهد العثماني لرأينا فرقا كبيرا جدا . فقد كان النظام الطبقي في العهد العثماني مغلقا أو شبه مغلق ، فكان من العسير على الفرد أن يرتفع الى طبقة اجتماعية أو اقتصادية أرفع من طبقة أبيه . وكان الطفل نادرا ما يطمح الى مهنة أو منزلة خارج النطاق الذي فرضه المجتمع عليه . ومما يجدر ذكره أن هذا الوضع من شأنه تعويد الناس على القناعة وعلى الرضى بالقسمة والنصيب : فكل ما يصيب الانسان في حياته هو مكتوب على جبينه منذ ولادته ، فلا فائدة اذن من الجد والسعي والطموح .

أما الآن فقد انقلبت الآية ، وأصبح شعارالناس : « من جد من وجد » و « كل من سار على الدرب وصل » ... وقد أخذت المدارس تلقي في أذهان طلابها أمثال هذه الاقاويل فتجعل كل واحد منهم يطمح أن يكون وزيرا كبيرا ، أو زعيما تهتف له الجماهير ، أو قائدا يفجر الثورات . لقد « صار » غيره من أبناء محلته أو طبقته فلماذا لا « يصير » هو ؟ فهل غيره أفضل منه ؟!

كان مبدأ الناس في الماضي يتلخص في قولهم : « كل شيء قسمة ونصيب » . أما الآن فمبدأهم هو: « من جد وجد » . وكل من هذين المبدأين له محاسنه ومساوئه . فالاول منهم يؤدي بالمجتمع الى الركود

والجمود ، ولـكنه يمنح الفرد الطمأنينة والقناعة • أما الثاني فهو يحرك المجتمع ويبعث فيه التطور ، ولـكنه من الناحية الاخرى يجعل الفرد شديد الطموح والتكالب لا يطمئن الى شيء ولا يرضيه حال •

كبش الفداء :

مما يجدر ذكره أن مبدأ « من جد وجد » قد شاع بين الناس حديثاً ونال من اهتمامهم أو تصديقهم أكثر مما يستحق • فهذا المبدأ قد يصح أن يلقى على الاطفال في سبيل تشجيعهم على السعي والمثابرة ، انما هو لا يمثل طبيعة الحياة تمثيلاً واقعياً •

ان الانسان في الواقع لا يستطيع أن يصل الى ما يطمح اليه عن طريق الجد والمثابرة وقوة الارادة وحدها ، فلابد أن تساعده على مطمحه مواهبه الطبيعية من جهة ، وظروفه النفسية والاجتماعية من الجهة الاخرى • أما اذا كانت مواهبه وظروفه غير مساعدة لـه فان الجد لا ينفعه الا قليلاً • ليس في مقدور أي واحد منا ، مثلاً ، أن يكون « بسمارك » أو « بيتهوفن » أو « أديسن » أو « الجاحظ » أو « ابن خلدون » ، مهما حاول وثابر وكافح • فهؤلاء أو غيرهم من عمالقة البشر كانت لديهم مواهب خاصة تميزهم عن غيرهم ، وهم قد عاشوا في ظروف حضارية ملائمة حيث أتيح لمواهبهم أن تتفتح وتنمو • ولو أنهم عاشوا في ظروف أخرى فلربما ضاعت مواهبهم كما يضيع تراب اليورانيوم لدى الشعوب البدائية •

ومثل هذا يمكن أن نقول عن أي ناجح في أي مجال من مجالات الحياة • فكل ناجح مهما كان ضئيل الشأن لابد أن تتوافر لديه عوامل متنوعة تساعده على النجاح • ونحن مع هذا لا يجوز أن نبخس « الجد » حقه في هذا الشأن • وربما صح القول بان « الجد » ضروري لبلوغ النجاح انما هو غير كاف وحده(١) •

---

(١) ان هذا الموضوع معقد ، وقد حاولت دراسته في كتاب « خوارق اللا شعور » الذي صدر في عام ١٩٥٢ ، فليرجع القاريء اليه اذا أراد التفصيل في هذا الموضوع •

مشكلة أبناء الجيل الجديد في العراق أنهم آمنوا بصحة « من جد وجد » ايماناً غير محدود واعتبروه مفتاح النجاح وسبيل العظمة في كل مجال . فهم اذا دخلوا المدارس كان طموحهم عاليا ، فآباؤهم وأمهاتهم من ورائهم يحرضونهم على بلوغ أقصى المنى ، والمعلمون يمطرونهم بالأشعار والأناشيد والمواعظ الحماسية التي تريهم المستقبل مفتوحاً بين أيديهم وهم يهتفون : « الى الامام ، الى الامام ! » . ولكن الكثيرين من هؤلاء الطامحين المتفائلين سيرتطمون بصخرة الواقع عاجلا أو آجلا . فمنهم من يفشل أثناء مرحلة الدراسة ، ومنهم من يفشل عند خروجه الى الحياة . ان الصورة « الرائعة » التي سيطرت على أذهانهم في البداية تأخذ بالذبول والتضاؤل شيئاً فشيئاً . وعند هذا يشعرون بخيبة الأمل ويبدأون بالبحث عن سبب يعزون اليه فشلهم على أي حال .

هنا ينبغي أن لا ننسى أن الانسان بوجه عام اذا فشل في أمر فهو لا يحب أن يعزو فشله الى نفسه ، بل هو يميل عادة الى البحث عن سبب خارجي ليعزو اليه الفشل . فاذا كان التلميذ بليداً مثلاً صعب عليه أن يعترف ببلادته ، ولعله يعتبر نفسه من أذكى الناس ، فهو في ذلك كالمجنون الذي يرى نفسه العاقل الوحيد بين الناس . وهو حين يخفق في دراسته يحاول أن يضع اللوم على عداوة المدرس له أو على سوء تدريسه أو ما أشبه . أما اذا تخرج من المدرسة ولم يحصل على الوظيفة المنشودة فهو قد يشعر بالامتعاض من « الوسطاء » الذى ساعدوا غيره ولم يساعدوه ، وهو لابد في نهاية المطاف أن يجد التنفيس في مجال السياسة فيرفع صوته هاتفاً بسقوط الحكومة والاستعمار .

انه يؤمن بمبدأ « من جد وجد » ولكنه لا يطبقه على نفسه ، اذ هو يرى نفسه من أكثر الناس سعياً وجداً ومثابرة ، كمثل ما يرى نفسه من أكثر الناس ذكاءاً و « عبقرية » . فهو يعتقد جازماً بأن الاوضاع « الشاذة » هي التي عرقلت سبيل نجاحه ، ولولا ذلك لاستطاع أن يخدم الامة والوطن ، ولما ضاعت « عبقريته » هذا الضياع الفظيع ! .

وقد يصح القول بأن المدارس أصبحت كأنها مصانع تفريخ للتذمر السياسي في العراق . فالتلميذ حين يجد العقبات تعترقل عليه سبيل « الترقي » يأخذ بالحماس في سبيل « الوطن » . وقد يصل به الحماس الى درجة يتخيل نفسه بها زعيماً سياسياً مرموقاً تهتف له الجماهير وهو يرفع يده تحية لها وابتهاجاً . فاذا رأى أحداً غيره قد نال « الزعامة » دونه ، تملكه الأسى وأخذ ينعى على البلد انحداره في سبيل الانهيار .

حدة الوعي السياسي :

لعلني لا أغالي اذا قلت ان الشعب العراقي في مرحلته الراهنة هو من أكثر شعوب العالم ، ان لم يكن أكثرها ، ولعاً بالسياسة وانهماكاً فيها . فكل فرد فيه تقريباً هو رجل سياسة من الطراز الأول . فأنت لا تكاد تتحدث الى بقال أو عطار حتى تجده يزن لك البضاعة وهو يحاورك في السياسة أو يسألك عنها . وقد يحمل الحمال لك البضاعة فيحاول في الطريق أن يجرك الى الحديث في السياسة وهو يزعم أنه لو تسلم مقاليد الأمور لأصلح نظام الحكم بضربة واحدة .

الواقع أن هذا الانهماك الشديد في السياسة لم يكن موجوداً في بداية هذا القرن . فقد كان الناس يومذاك يتبعون ازاء الاحداث السياسية مبدأ « أنا شعليه » ، ومعناه أن الأمر لا يهمني وليس لي دخل فيه . وكان الأب يوصي ابنه أن يتعلم مهنة يكسب منها عيشه وأن يبتعد عن السياسة اذ هي « لا تعطي خبزاً » .

يروى عن رجل أنه أثناء الحرب العالمية الاولى غضب من ولده حين رآه مولعاً بأخبار المعارك التى كانت تجرى يومذاك في اوربا . فقد جاءه الولد ذات مرة وهو فرح يهتف قائلا : « سقطت وارشو » ، فأراد الأب أن يلقنه درساً فأخذ بيده وجاء به الى بائعة شوك في السوق حيث قال لها : « هل تبيعين حزمة الشوك بخبر سقوط وارشو ؟ » فلم ترض المرأة بذلك طبعاً . وعند ذاك قال الأب لابنه وهو يعظه : « انظر الى قيمة الخبر الذى جئت به فهو لا يسوى حزمة شوك ! » .

ان هذه القصة تمثل لنا الاتجاه العام الذي كان مسيطراً على أذهان الناس

في ذلك الحين ، هذا مع العلم أن الحرب كانت قد شملتهم بويلاتها ، اذ كان الشبان منهم يساقون الى مجازر المعارك كالأغنام • والظاهر أنهم كانوا ينظرون الى تلك الويلات والمجازر نظرتهم الى القدر المكتوب عليهم ، فهو بلاء أنزله الله عليهم من جراء ما اقترفوا من ذنوب •

هذا هو ما كان عليه معظم العراقيين في الحرب الاولى ، ولكنهم في الحرب الثانية أصبحوا من أشد الناس شغفاً بأخبار المعارك وأحداث السياسة التي تجرى في مختلف أرجاء العالم • فقد كانوا يتناقشون حولها ، وربما تنازعوا وتضاربوا ، وامتلأت الأسواق والمقاهي والبيوت بمجادلاتهم العنيفة • وقد كان ذلك صدى لما كانوا يشعرون به من وعي حاد تجاه أحداث السياسة المحلية •

قد يقول قائل : ان الدعايات والاذاعات التي أشتد أوارها في الحرب الثانية كان لها أكبر الأثر في ذلك • وهذا قول لا يخلو من صواب ، ولكننا يجب أن لا ننسى أن تلك الدعايات والاذاعات كانت موجهة نحو كثير من الاقطار ، فلماذا كان تأثيرها في العراق أشد منه في الأقطار الأخرى ؟

الواقع أن الحدة في الوعي السياسي التي شهدناها في العراق لم تكن مقصورة على فترة الحرب الثانية ، وهي لم تنشأ فيها فجأة بين عشية وضحاها بل هي قد نشأت قبل ذلك ثم جاءت الحرب فعملت على توسيع نطاقها وعلى تركيزها في النفوس • وعندما انقسم العالم بعد تلك الحرب الى معسكرين متنازعين ، انعكس صدى النزاع في العراق ، فانقسم سكانه الى فريقين متعاديين ينهش أحدهما في الآخر ويريد أن يشرب من دمه •

لاشك أن هناك عوامل عديدة لعبت دورها في هذا الانقسام والتباغض ، ولكنني أميل الى الظن أن النزعة الجدلية التي ورثها أهل العراق من أسلافهم كانت من جملة تلك العوامل ، ان لم تكن من أهمها •

أشرنا في فصل سابق الى أن النزعة الجدلية كانت قوية الأثر في المجتمع العراقي منذ زمن بعيد ، انما هي كانت في الماضي مقتصرة على

المواضيع الدينية ولم يكن لها شأن في السياسة الا قليلاً . فقد كان الناس حينذاك يتجادلون حول العقائد الدينية ، وكل فريق منهم يدّعي أنه وحده صاحب الحق فيها ثم يأتي بالبراهين « العقلية » و « النقلية » لكي يدعم رأيه فيها .

وعندما حلت المرحلة الراهنة بالعراق ، فانفتح بها النظام الطبقي وضعفت العقيدة الدينية في الجيل الجديد ، أخذت النزعة الجدلية تتحول من مجالها الديني القديم الى مجالها السياسي الجديد .

ومما يجدر ذكره أن المرحلة الراهنة تميزت بأحداث سياسية عنيفة ، فقد تتابعت فيها « الانقلابات » و « الانتفاضات » و « الوثبات » يتلو بعضها بعضاً . فكان كل حدث من هذه الأحداث بمثابة مدرسة شعبية تحرك الاذهان نحو السياسة وتزيد من عدد المولعين بها . وبهذا أصبح المجتمع العراقي كأنه ساحة نزال يتصاول الناس فيها بالمبادىء السياسية ، كمثل ما كانوا قديماً يتصاولون بالمبادىء الدينية ، وهم فيها بين كرّ وفرّ لا يريحون ولا يستريحون .

صارت الأحداث السياسية مجالاً للتنفيس ، حيث يستطيع الفرد بها أن يشبع رغبته في التذمر أو يضع عليها اللوم في فشله . ولهذا وجدنا الناس يفرحون بكل انقلاب يجرى في نظام الحكم . فهم يتباشرون به ، ويهتفون له ويصفقون ، اعتقاداً منهم أنه يفتح لهم طريق الأمل . فاذا مضت عليه الايام أخذ بريق الامل يتضاءل في أعينهم . فهم لم يصلوا به الى ما كانوا يطمحون اليه . وهم عندئذٍ يطلبون انقلاباً جديداً . ومن هنا صح القول : « كل انقلاب يحمل معه بذرة نقيضه » .

ان أي انقلاب مهما كان ، ولو قامت به « الملائكة » ، ليس في مقدوره أن يلبي مطاليب الناس جميعاً ، ولاسيما اذا أخذنا بنظر الاعتبار هذا العدد الهائل من أبناء الجيل الجديد الذين انفتح أمامهم سبيل « الترقي » واشتد فيهم الطموح نحو « المعالي » . لابد أن يشعر الكثير منهم بخيبة أمل تجاه الانقلاب ، بعد مدة قصيرة أو طويلة . فهم يرون غيرهم ممن هو دونهم في الاخلاص والكفاح قد وصل الى ما كان يطمح اليه ، فلماذا لم يصلوا هم ؟!

طبيعة الازدواج الحديث :

ان هذا الوضع الذى تحدثنا عنه قد يبعث في الجيل الجديد ازدواجاً في الشخصية يشبه من بعض الوجوه ذلك الازدواج الذي رأيناه في آبائهم في عهد مضى .

ان أبناء الجيل الجديد لم يعودوا يتأثرون بالمواعظ الدينية كما كان يفعل آباؤهم من قبل ، بل هم أخذوا يتأثرون بمواعظ من نوع مستحدث هي تلك التي تمطرهم به المدارس ووسائل النشر والدعاية الحديثة كالصحف والاذاعات والاحزاب وما أشبه .

يجب أن لا ننسى أن الكثيرين منهم نشأوا في طفولتهم في بيئات محلية قديمة ، ولعبوا في الازقة ، حيث اعتادوا فيها على قيم التغالب والعصبية والكسار والشقاوة . فاذا كبروا صاروا يتعلمون الأفكار والمصطلحات الحديثة . ومعنى هذا أنهم وقعوا تحت تأثير ثقافتين متناقضتين ، ولابد أن يظهر فيهم نمط من ازدواج الشخصية ضعيف أو شديد .

ان أحدهم قد يتمشدق بأرقى ما جاءت به الحضارة من مبادىء ومفاهيم ، ولكن ذلك ليس سوى طلاء سطحي حيث تكمن تحته الشخصية الزقاقية ، فلا تكاد تمس بعض الأوتار الحساسة منها حتى ينتفض صاحبها « سبعاً » ضارياً كأنه من « اشقياء » ذلك الزمان .

مهما يكن الحال فليس جميع أبناء الجيل الجديد على درجة واحدة في هذا الازدواج . فالبعض منهم قد انصهروا في الثقافة الحديثة انصهاراً جعل ظاهرهم وباطنهم متقاربين . ويبدو أن هؤلاء كانوا في طفولتهم غير منسجمين مع الحياة الزقاقية ، أو شعروا بالنفرة منها لسبب من الاسباب ، فاعتزلوا عنها وأخذوا ينهمكون في دروسهم أو هواياتهم الانطوائية . ولهذا كانوا في كبرهم أقدر من غيرهم على التكيف للثقافة الحديثة .

أما الذين كانوا في طفولتهم من أبطال المحلة وقادة المعارك فمن الصعب عليهم أن يتخلصوا في كبرهم من تأثير القيم الزقاقية . فهم سيظلون « أشقياء » كما كانوا ، غير أنهم يسترون شقاوتهم بطلاء براق من المصطلحات الحديثة ، وهم قد يستخدمون تلك المصطلحات أسلحة ضد خصومهم كمثل ما كانوا في طفولتهم يستخدمون الهراوات والأحجار .

ان هؤلاء المزدوجين يمثلون احدى مشاكل المجتمع العراقي الحديث . فهم قد ينالون الشهادات العالية أو يتسنمون مراكز النفوذ والزعامة ، فاذا كتبوا أو خطبوا جاءوا بالمبادىء « الرنانة » يمطرونها على رؤوس الناس ، وهم قد يغضبون حين يرون أحداً يخالفهم فيها ، انما هم في سلوكهم الواقعي لا يختلفون عن غيرهم من الناس ، ولعلهم أكثر منهم انحرافاً عن المبادىء التي ينادون بها .

ان المبادىء الحديثة جاءت الى العراق « طارئة » ، اذ هي لم تنبعث من طبيعة ثقافته الاجتماعية الأصيلة . فهي قد اتخذت شكل محفوظات وأناشيد وهتافات وشعارات وما أشبه . والفرد يتعلمها في المدارس ، أو يقرأها في الصحف والكتب ، أو يسمعها في الاذاعات ، أو تلقى عليه في المظاهرات والحفلات . وهي اذن تبقى فعالة في مجال الكلام والجدل والانتقاد فقط ، ومن الصعب أن تتغلغل بتأثيرها في أعماق النفوس . فالفرد قد يجادلك على أساسها انما هو لا يستطيع أن يغير سلوكه بها الا في نطاق محدود جداً .

لا ننكر أنها ستؤثر في سلوك الافراد بمرور الأيام ، وسيزداد تأثيرها جيلاً بعد جيل ، وبهذا يضعف أثر الازدواج فيهم . ولكن ذلك أمر لا يحدث دفعة واحدة ، بل هو يجري تدريجياً وببطء شديد . وربما استغرق أجيالاً عديدة . ونحن اذ ندرس طبيعة المرحلة الراهنة لابد أن نعترف بما يجري فيها من ازدواج في تكوين الشخصية ، حيث اعتاد الناس فيها أن يقولوا ما لا يفعلون .

مشكلة الوساطة :

يعاني المجتمع العراقي في مرحلته الراهنة مشاكل كثيرة لا يسعنا هنا تعدادها أو التحدث عنها باسهاب ، ولعل من المناسب في هذا الصدد أن نأتي على ذكر احدى تلك المشاكل وهي مشكلة الوساطة . وهذه المشكلة يصح أن تكون نموذجاً للازدواج الذي ابتلى به الجيل الجديد من جراء التناقض بين الثقافة القديمة والحديثة في تكوين شخصيته .

نقصد بـ « الوساطة » أن يلجأ الانسان الى وسيط من أولي النفوذ في سبيل تمشية أموره في دوائر الدولة . والواقع أن الوساطة ليست طارئة على ثقافتنا الاجتماعية القديمة ، بل هي مستمدة من صميم تلك الثقافة ولها جذور عميقة فيها . فالفرد حين يلجأ الى الوسيط انما يجري حسب مقتضيات القيم المحلية القديمة ، فهو يناشد الوسيط بحق القرابة أو الجيرة ، أو حق « الزاد والملح » ، أو أي حق آخر من حقوق العصبية أو الشهامة أو الدخالة أو ما أشبه . انه يطرق الباب على الوسيط في أية ساعة يشاء ، حيث يقدم اليه رجاءه ويلح عليه فيه . والوسيط لا يستطيع أن يمتنع عن قبول الرجاء أو يمتعض منه ، بل يجب عليه أن يرحب بالزائر ويبتشّ له . واذا هو لم يفعل ذلك اعتبره الناس قد خالف أصول الشهامة والمروءة وأخذوا يتقوّلون عليه ويذمونه ذماً قبيحاً . انه يجب أن يقوم بالوساطة ويتحمس لها لكي يبرهن بذلك أنه « شهم » و « سبع » و « ابن أجاويد » .

وهنا يقع الوسيط في ورطة لا يدري كيف يخرج منها . فهو اذا كان موظفاً كبيراً أو وزيراً وجد نفسه تحت ضغط دافعين متعارضين . فهو من جهة مقيّد بمبادىء العدالة والمساواة التي لا تفرّق بين المواطنين ، وهو من الجهة الاخرى مضطر أن يراعي حقوق الوساطة التي تنافي تلك المبادىء . فاذا سار مع الوساطة هاجمه دعاة المبادىء ، واذا سار مع المبادىء هاجمه دعاة الوساطة . فهو واقع بين حجري الرحى حائر ملتاث لا يدري ماذا يفعل .

اذا اشتهر أحد المتنفذين بأنه « شهم » و « ذو مروءة » تهافت الناس على بابه وسدوا عليه الطريق . وكلما ازدادت سمعته « الحميدة » ازداد تكاثر الناس عليه . وكل واحد من هؤلاء له حاجة يريد قضاءها ويعتقد أنها منسجمة مع المصلحة العامة وخدمة « الوطن » . فاذا أجيب الى طلبه رضي ، واذا أخفق في حاجته رفع عقيرته بالذم وصار من الاعداء الالداء ...

انهم جميعاً ينادون بمبادىء العدالة والمساواة واحترام القانون

ولـكنهم ينادون بها في الخطب والهتافات ، وفي مجال الانتقاد والمعارضة . اما حين تـكون لهـم حاجة في دوائر الدولـة فانهم ينسون تلـك المبادىء ويأخذون بتمجيد قيم الشهامة والمروءة . انهم يشجبون الوساطة حـين يرون غيرهم قد استفاد منها دونهم ، وهم يمدحونها حين تكون حاجتهـم قائمـة عليها .

انهـم مزدوجـون ، ولا يخـفى أن صاحـب المنصب الـذي يلجأون اليه في وساطاتهم مضطر أن يكون مزدوجاً مثلهم . فهو قبل أن ينال المنصب الرفيع كان شديد النقد للذين تولوا المناصب قبله . انه يهاجمهم وينتقدهم لمحاباتهم ومراعاتهم للوساطة ، وهو يطلب منهم أن يكونوا عادلين يعاملون الناس جميعاً على قدم المساواة التامة ، ولـكنه لا يكاد يتولى المنصب حتى يجد نفسه قد تورط في نفس الخطأ الذى أعلن انتقاده له من قبل .

الواقع أن ظاهرة الوساطة كانت موجودة في العهد العثماني ، وهـي كانت قوية الأثر في جهاز الدولـة . ولـكنها مع ذلك لـم تكن تعتبر من المشاكل الاجتماعية . فالناس حينذاك لم يكونوا قد تعلموا مبادىء العدالة والمساواة بعد ، وكانت نظرتهم الى الموظف كمثل نظرتهم الى المالك الذى يستطيع ان يعطي من ماله أو يحـرم منه من يشاء دون حساب أو رقابة . فاذا استجاب الموظف لوساطاتهم أجمعوا على مدحه واعتبروه من الـكرام « الاجاويد » .

لـم يـكن في ذلك العهد ما نسميه الآن بـ « الرأي العام » الذي يراقب الحـكومة وينتقد تصرفاتها ، أو يعتبر الموظف خـادماً للشعب ومسؤولاً تجاهه . ان الرأي العام ظـاهرة اجتماعية حديثة(١) ، وهـو قد نشأ في العراق بتأثير المدارس ووسـائل النشر الحـديثة . ومن هنا أصبح الموظف يخشى من رقابة الرأي العام قليلاً أو كثيراً ، وهو مضطر أن يداريه على وجه من الوجـوه ، انمـا هو مضطر كذلك أن يـداري القيم المحلية . وهذا هو منشأ المشكلة .

لا ننكر أن الرأي العام في نمو متواصل ، بينما القيم المحلية فـي

---

(1) William Albig (Public Opinion) p. 17-25.

H

تضاؤل . وسيأتي وقت قريب أو بعيد يطغى فيه الرأي العام على القيم المحلية ويفقدها تأثيرها الاجتماعي . أما في الوقت الحاضر فهما موجودان معاً جنباً الى جنب ، ولذا أصبح الفرد مضطراً أن يداريهما معاً . فكل واحد منهما له تأثيره على الفرد وليس من السهل التغاضي عنه .

لنفرض أن رجلاً تولى منصب الوزارة ، أو أي منصب كبير آخر ، وعزم على أن يسير في معاملاته على أساس المبادىء المثالية التي ينادي بها الرأى العام . فطرد الوسطاء جميعا وطبق القوانين تطبيقاً صارماً لا محاباة فيه ، فلم يراع أي حق من حقوق العصبية أو الجيرة أو الصداقة أو « الزاد والملح » أو غيرها . واذا جاءه ذو الحاجة ، فناشده بشيء من تلك الحقوق ، انتهره ووبخه وسد الباب في وجهه وقال له : انك لا تختلف في نظري عن غيرك من الناس . ماذا سيكون مصير هذا الوزير ؟ اترك هذا السؤال الى القارىء لكي يجيب عليه بنفسه .

الفجوة بين الشعب والحكومة :

ان الفجوة بين الشعب والحكومة ظاهرة اجتماعية كانت موجودة في معظم الأمم القديمة ، وهي تنشأ من جراء بغض الشعوب لحكامها . فالحكام يفرضون الضرائب على رعاياهم ويضربونهم بالسياط ويأمرون بقتلهم لأقل هفوة تبدر منهم ، وهذا لابد أن يؤدي بالرعايا الى بغضهم قليلاً أو كثيراً .

ولكن هذه الفجوة بين الحكام والرعايا كانت ذات طابع « سلبي » ، وأعني بذلك أنها لا تؤدي الى تكوين « رأي عام » يراقب الحكام ويردعهم عن الاستبداد والظلم ، فالحكام سادرون في استبدادهم والرعايا سادرون في خنوعهم .

لم يكن الرعايا يعدون حكامهم خداما لهم كما هو الحال في الشعوب الحديثة ، بل كانوا يعدونهم أسياداً . وهم اذن لا يفترضون في حكامهم أن يقوموا لهم بأي عمل نافع ، واذا قام أحد الحكام أحياناً بمثل هذا العمل اعتبروه تفضلاً منه وعملاً « خيرياً » فأخذوا يلهجون بذكره ، ونظم الشعراء القصائد « العصماء » في مديحه .

ان هذا هو ما كان الناس عليه في العراق في العهد العثماني ، ولكنهم

سرعان ما تغيروا بعدئذ وذلك حينما اشتد فيهم الوعي السياسي ونمى الرأي العام . وبذا تحولت الفجوة بين الشعب والحكومة من طابعها « السلبي » القديم الى طابع « ايجابي » حديث .

لا يخفى أن الحكومة العراقية مصابة بعيوب وأدواء شتى . فهي قد انبثقت من المجتمع الذي تعيش فيه واستمدت طبيعتها منه ، فاذا كان المجتمع مصاباً بالعيوب والادواء فهي لابد أن تكون مثله مصابة بها[١] . ولكن الرأي العام لا يفهم هذا عادة ، فهو يفترض في الحكومة أن تنجز من الأعمال مثل ما انجزته الحكومات « الراقية » التي يسمع عنها . وهذا يؤدي الى نفع كبير ، بلا ريب ، اذ هو يجعل الحكومة تتحرك فتحاول القيام بالتعمير والاصلاح بمقدار جهدها ، ولولا ذلك لظلت الحكومة على دأبها سائرة على ديدنها القديم لا تعرف من دنياها غير تعمير المساجد وتخريب البلاد .

نحن لا ننكر أن الحكومة العراقية هي أفضل جداً من الحكومة العثمانية ، فهي قد انجزت في نصف قرن ما عجزت الحكومة العثمانية أن تنجز جزءاً صغيراً منه في أربعة قرون . ولكن مشكلتها أنها تجابه وعياً سياسياً شديداً لم يكن موجوداً من قبل . فالرأي العام يريد منها الشيء الكثير ، بينما هي مقيدة بالواقع الاجتماعي التي تعيش فيه وليس في امكانها أن تتحرر منه دفعة واحدة وتقفز الى الامام على نمط ما يبتغي الرأي العام منها .

كان الناس في العهد العثماني ينسبون كل بلاء يصيبهم الى الله ويعتقدون أنهم مستحقون له من جراء ذنوبهم ، وهذا جعلهم يعظ بعضهم بعضاً لكي يتركوا اقتراف الذنوب ويستغفروا ربهم . أما الآن فقد نسي الناس ربهم وصاروا ينسبون كل بلاء الى الحكومة ، وهذا يدعوهم الى انتقاد الحكومة والى الهتاف بسقوطها .

وصل الحال ببعض العراقيين من الناحية الى درجة أنهم يعدون الحكومة مسؤولة عن كل أذى يصيبهم مهما كان تافها . فاذا ثار في

---

(١) سيجد القاريء دراسة مسهبة لعيوب الحكومة العراقية ، وشتى الأدواء التي تنخر فيها ، في كتاب قادم — ان شاء الله !

وجوههم غبار مثلاً أخذوا يشتمون الحكومة لأنها لم تزرع الأشجار في البراري ، واذا ازدحمت السيارات في شارع قالوا : تعساً لهذه الحكومة التي لا تنظم السير تنظيماً مضبوطاً . أما اذا نزل بهم ضرر كبير فان الشتائم تنهال على الحكومة من كل حدب وصوب .

قد يجوز القول بأن هذه « الفجوة الايجابية » بين الشعب والحكومة هي في ازدياد يوماً بعد يوم . فالحكومة حين تقوم بانجازاتها النافعة انما تقصد بها أن يرضى عنها الرأي العام ، ولكنها لا تدري أنها قد تزيد بذلك من نقمته عليها . فهي اذا فتحت مدرسة مثلاً فمعنى ذلك أنها تزيد من عدد الأفراد الطامحين المتذمرين ، واذا أسست مستشفى تهافت الناس عليه وازدحموا وهم عندئذ سيأخذون بالتأفف منه وينتقدون الحكومة على تقصيرها فيه . اما اذا وقع انقلاب فانهم يتوقعون منه ان يأتي بالمعجزات في اصلاح الوضع العام ، وهم سوف يشعرون بالتذمر حين لا يحصلون منه على ما كانوا يأملون !

كلما سارت الحكومة في انجازاتها خطوة واحدة الى الامام سار الرأي العام قبلها خطوات . فهي مسابقة بين من هو بطيء في سيره ومن هو سريع ، فلا البطيء قادر أن يسرع ولا السريع قادر أن يبطيء ، فمتى يلتقيان ؟!

من طبيعة الانسان أنه لا يتذمر من شيء الا اذا كان واعياً لحقوقه فيه . فالعبد في عهود الرق لا يتذمر مهما قسى عليه سيده اذ هو يعرف بأن سيده قد اشتراه بماله كما يشتري الحمار وليس له اذن من حق على سيده أكثر من حق الحمار . انما هو لا يكاد يتعلم بأنه انسان كغيره من الناس ، وأن له مثل حقوقهم ، حتى يبدأ بالتذمر ، وربما ثار عند ذاك ثورة عارمه . ان الوعي تجاه الظلم يثير الانسان أكثر مما يثيره الظلم نفسه !

مقارنة بين عهدين :

يمكن القول بوجه عام ان العراقيين في مرحلتهم الراهنة قد تعلموا أفكاراً هي أرفع جداً من مستوى ظروفهم وقيمهم الاجتماعية . انهم طفروا بأفكارهم طفرة واسعة الى الامام ، مع العلم ان المجتمع الذي يعيشون فيه

لا يستطيع أن يسايرهم في طفرتهم . فالتطور الاجتماعي بطبيعته بطيء متدرج ، وهو غير قادر أن يطفر كطفرة الأفكار المجردة .

قد يصح تشبيه المرحلة الراهنة من بعض الوجوه بتلك المرحلة التي مر بها العراق في صدر الاسلام . فلقد انتشرت في العراق حينذاك المبادىء الاسلامية العالية ، فأخذ الناس يتواعظون بها ويتناقدون ويستخدمونها سلاحاً ضد خصومهم ، بينما هم كانوا في حياتهم الواقعية يسيرون حسب قيمهم البدوية القديمة .

يحدثنا التاريخ أن الشرارة الاولى في الثورة على عثمان انبثقت من الكوفة ، وذلك عندما قال عامل الكوفة : « انما السواد بستان قريش » ، فهب بعض الحاضرين يحتجون عليه ويصخبون وينتقدون . ومنذ ذلك الحين أخذ نطاق الانتقاد والاعتراض يتسع تدريجياً حتى شمل كثيراً من المسلمين في الأمصار الاسلامية الأخرى . وبهذا انقسم المسلمون الى فريقين متنازعين ، فأخذ كل فريق يتطرف من جانبه ، وصار التطرف يتفاقم شيئاً فشيئاً حتى انتهى أخيراً الى مقتل الخليفة ...

لست هنا بصدد البحث في وقائع تلك الثورة ، ولكني أستطيع أن أقول على أى حال انها كانت كغيرها من الثورات التي امتلأ بها تاريخ الشعوب تدعو الى مبادىء العدالة والمساواة . فقد كان الثوار على عثمان يشجبون سياسة المحاباة التي اتهموه بها ، ويطالبونه بأن يساوى بين المسلمين فلا يفضل منهم فئة على أخرى . ونحن لا يهمنا هنا أن يكونوا على صواب في تهمتهم تلك أم على خطأ ، بل المهم أن نعرف أن هذا هو ما كانوا يدعون اليه ويطالبون به .

تولى الخلافة ، بعد مقتل عثمان ، علي بن ابي طالب . وكان هذا الرجل مثالاً حياً للمباديء التي طالب بها الثوار كما هو معروف . وقد شاءت الظروف أن ينتقل علي مع الثوار الى العراق ، ومن هناك أخذوا يحاربون معاوية الذى اعتبر نفسه خليفة عثمان وولي ثأره . وهذا أمر له أهمية الاجتماعية اذ هو الذي وجّه العراق وجهته الذي اشتهر بها منذ ذلك الحين .

الملاحظ أن أكثر الامصار الاسلامية أخذت تعود الى حياة الهدوء والطاعة تدريجياً ، فهي كادت تنسى مبادىء الثورة وبدأت تسير مع التيار العام أينما توجه بها . أما العراق فقد شذ عن ذلك شذوذاً واضحاً .

قد يصح أن أقول أن الكثيرين من أهل العراق الذي ساهموا في الثورة منذ بدايتها كانوا في أعماق أنفسهم لا يختلفون عن غيرهم من عامة الناس . فهم انما ثاروا على سياسة المحاباة لأنها لم تكن في مصلحتهم ، ولو كانت في مصلحتهم لما ثاروا . والظاهر أنهم كانوا يريدون من علي بن ابي طالب أن يحابيهم ويراعى مصالحهم على منوال ما حابى عثمان أصحابه . وعندما وجدوه يسلك سبيل المساواة والعدالة حقاً سئموا عهده وانفضوا من حوله ، حتى أصبح في أيامه الأخيرة وليس حوله من الأعوان المخلصين الا نفر معدود . والمأثور عنه أنه قال في ذلك الحين : « ما أبقى لي الحق من صديق » .

لست أريد بهذا ذم أهل العراق . فتلك هي طبيعة أكثر الناس في كل زمان ومكان . وحين ندرس طبيعة الجماهير الذين ساهموا في الثورات ، في شتى أطوار التاريخ ، نجدهم لا يختلفون عن أولئك اختلافاً أساسياً . فالانسان بوجه عام حين يدعو الى المبادىء العالية ، أو يثور من أجلها ، انما يبتغي منها مصلحته الخاصة . اما الذين يؤثرون المصلحة العامة على مصالحهم فهم قليلون ، وقليلون جداً .

مهما يكن الحال فقد تمركزت مبادىء الثورة في العراق وتغلغلت بين سكانه أكثر مما تغلغلت في الأمصار الأخرى . ولما صار العراق موطن المعارضة للدولة الاموية ، بعد موت علي ، اتخذ أهل العراق تلك المبادىء سلاحاً يصولون به ضد حكامهم « الظالمين » . وهذا هو الذي دعا الحجاج بن يوسف الثقفي الى أن يخاطب أهل العراق بكلمته المشهورة : « يا أهل الشقاق والنفاق » . فصارت تلك صفة لاصقة بأهل العراق حتى يومنا هذا .

وجهة نظر :

اعتاد المؤرخون المسلمون على تداول تلك الكلمة التي وصف

الحجاج بها أهل العراق ، وعلى التسليم بصحتها ، دون أن ينظروا الى ما يختفي وراءها من عوامل اجتماعية . وقد ذهب بعضهم الى القول بأن جو العراق وتربته ومياهه هي التي جعلت أهل العراق كذلك ، فهي في نظرهم طبيعة ثابتة في أهل العراق لا يستطيعون التخلص منها . ولا تزال هذه الفكرة شائعة بين الناس حتى اليوم ، فاذا تغير الجو في العراق فجأة قال بعضهم لبعض : انظروا هذه هي طبيعة أهل العراق !.

وهناك قصة طريفة في هذا الصدد ، خلاصتها أن الاسكندر المقدوني كتب ، بعد فتحه العراق ، الى استاذه أرسطوطاليس يقول له : « لقد أعياني أهل العراق ، ما أجريت عليهم حيلة الا وجدتهم قد سبقوني الى التخلص منها ، فلا أستطيع الايقاع بهم ، ولا حيلة لي معهم الا أن أقتلهم عن آخرهم . . فأجابه أرسطوطاليس قائلاً : « لا خير لك في أن تقتلهم ، ولو أفنيتهم جميعا ... فهل تقدر على الهواء الذي غذى طباعهم وخصهم بهذا الذكاء ؟ فان ماتوا ظهر في موضعهم من يشاكلهم ، فكأنك لم تصنع شيئاً ! » .

يبدو أن هذه القصة مختلقة وضعها المؤرخون المسلمون ثم نسبوها الى الاسكندر وأرسطوطاليس لكي يسبغوا عليها طابع الحكمة الفلسفية التي اشتهر بها الاغريق القدماء . ولكن الذى نلاحظه فيها أنها تصف أهل العراق بالذكاء . والظاهر أن الجاحظ ، الباحث العربي المعروف الذى عاش في القرن الثالث الهجرى ، قد استفاد من هذه القصة . فهو قد جاء بتعليل لطبيعة أهل العراق ربط فيه بين رأي أرسطوطاليس ورأي الحجاج .

قال الجاحظ : ان العلة في عصيان أهل العراق على الامراء هي أنهم أهل نظر وفطنة ثاقبة ، ومع النظر والفطنة يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال والتمييز بين الرؤساء واظهار عيوب الامراء ... وما زال العراق موصوفاً بقلة الطاعة وبالشقاق على أولي الرئاسة[1] .

---

(١) عمرو بن بحر الجاحظ (البيان والتبيين) ج ٢ ص ٩٤ .

ان هذا الرأي الذي جاء به الجاحظ يكاد يشبه ماذكرنا من قبل حول شيوع النزعة الجدلية لدى أهل العراق . فالنزعة الجدلية حين تشيع وتشتد في شعب من الشعوب تجعله فطناً متفتح الذهن من ناحية ، وتجعله كثير الشغب والانتقاد تجاه حكامه من الناحية الاخرى . وهاتان صفتان متلازمتان يصعب الفصل بينهما في أكثر الأحيان .

لو قارنا بين أهل العراق وأهل الشام في العهد الاموي لظهر لنا مصداق هذا الرأي . فقد اعتاد أهل الشام أن يكونوا ذوى طاعة وانصياع يصدقون ما يقوله لهم حكامهم ويأتمرون بأمرهم . فكانوا قوة موحدة حيث استفادت الدولة منهم واستفادوا هم من الدولة ، ولكنهم كانوا في الوقت ذاته ذوى تفكير راكد لا يعرفون من شؤون دينهم ودنياهم الا ما يؤمرون به أو يوحى به اليهم .

أما أهل العراق فكانوا على النقيض من ذلك ، يجادلون في كل قضية ويتنازعون ، وهم بذلك يضعفون انفسهم من الناحية السياسية ، انما هم من الناحية الفكرية أقوياء لا يشق لهم غبار .

ان الفرد في مثل هذه الحالة قد يكون مزدوج الشخصية ، اذ هو يرتفع بأفكاره الى مستوى أعلى كثيراً من مستوى بيئته الاجتماعية ، ولكنه في الوقت ذاته لابد أن يكون متفتح النظر شديد الوعي واليقظة . فهو ليس مطواعاً يصدّق ما يقال له ، بل هو يجادل فيه ويعاند . وليس في مقدور أحد أن يخدعه أو يجره من اذنه كما يجر الخروف !

من طبيعة الجدل أنه يثير في الناس التساؤل والتطلع ، ويضعف فيهم الركود الفكرى . فالجدل الذى ينشب بين اثنين لابد أن يبعث في الذين يستمعون اليه حافزاً يدفعهم الى المشاركة فيه ، قليلاً أو كثيراً . وقد تتسع دائرة الجدل شيئاً فشيئاً حتى يشترك فيه العوام أخيراً . وبهذا يصبح المجتمع كله كأنه بودقة فكرية جبارة ينتج عنها كل طريف جديد.

بين الماضي والحاضر :

المعروف عن العراق في التاريخ الاسلامي أنه كان منبعاً لاكثر الفرق

والحركات الاجتماعية ، ومنه انتشرت الى غيره من الأمصار الاسلامية الاخرى . ففيه نشأ الخوارج والشيعة والمعتزلة ، وفيه اشتدت حركات الموالي والشعوبية والغلاة والزنادقة ، ثم ظهرت فيه من بعد ذلك حركات الزنج والقرامطة والعيارين ، وفيه نشأت أول طريقة صوفية منظمة هي الطريقة «القادرية» ، وكذلك طريقة الفتوة وغيرها ...

ان الكثير من هذه الحركات والمذاهب قد تعد في نظر بعض الباحثين « هدامة » ، ولكنها على أى حال نتيجة لازمة لما حدث في العراق من تفاعل وتلاقح بين الأفكار المختلفة ، ومن مجادلات عنيفة حولها ، وهي كانت من أهم عوامل النشاط المبدع الذى تميزت به الثقافة الاسلامية ، ولولاها لسارت الثقافة الاسلامية في سبيل الجمود والتحجر .

أكاد أعتقد ان الشعب العراقي في مرحلته الراهنة يحاول أن يتشبه ، من بعض الوجوه ، بأسلافه الغابرين . فهو الآن لا يقل عنهم في حبه للجدل والتنازع حول المباديء المختلفة ، وهو كذلك لا يقل عنهم في تفتح الذهن واليقظة .

انه الآن لا يبتدع المذاهب المستحدثة كما كان يفعل أسلافه ، بل هو يستوردها من الخارج ويتنازع عليها . والظاهر أن رقي الحضارة الحديثة التي جاءت اليه جعلت منه « مصباً » للمذاهب ، لا « منبعاً » لها . ومن يدري فلعله في مستقبل الأيام سيكون « منبعاً » لها كما كان في سالف الأيام .

يوصف الشعب العراقي الآن بأنه « يقرأ الممحي » ، وقد يكون هذا الوصف صحيحاً أو غير صحيح . ولكننا نعرف على أي حال أنه شعب « قاريء » . فهو يلتهم من الصحف والمجلات والكتب نسبة أكبر مما تفعله الشعوب العربية الأخرى . وقد أدرك ذلك الناشرون في القاهرة وبيروت وحسبوا حسابه ، فهم يخصصون للعراق مما ينشرون حصة « الأسد » .

وأستطيع أن أقول ان الفرد العامي في العراق قد يفهم من الحقائق السياسية وأحداث العالم ما لا يفهمه أقرانه في كثير من البلاد « الراقية » . فهو يتساءل عنها وقد يناقش فيها كأنها ذات مساس مباشر بحياته الخاصة .

هل هم غدرة :

من الأقاويل التي شاعت ولاتزال شائعة على الأفواه حول أهل العراق هو أنهم غدرة يبايعون ثم ينكثون كما فعلوا بالحسين بن علي اذ هم أرسلوا اليه يطلبونه ثم قتلوه • يروي السيد علي بازركان أنه في عام ١٩٢١ كان في ضيافة الملك حسين في مكة عندما وصلت الى الملك برقية من بعض رؤساء العراق يطلبون منه ابنه فيصلاً لتنصيبه ملكاً في العراق ، وقد سأل الملك ضيفه قائلا : « ولكني أخشى يا شيخ أن يعامل أهل العراق فيصلاً كما عاملوا جده الحسين من قبل »[١] •••

يرجح في ظني أن هذا القول الشائع حول أهل العراق لا يخلو من خطأ ، فنحن حين ندرس حادثة الحسين دراسة دقيقة نجد أن أكثر الذين أرسلوا اليه لم يشتركوا في قتله ، وأن أكثر الذين اشتركوا في قتله لم يرسلوا اليه • فقد كانت في العراق يومذاك فئتان مختلفتان : احداهما مع الحسين والأخرى ضده ، وقد جاء من الفئة الأولى عدد كبير بغية نصر الحسين غير أنهم وجدوه مقتولاً ، ولو تأخر مقتل الحسين بضعة أيام لربما تغير مجرى الأحداث •

لا ننكر أن الذين أرسلوا الى الحسين من أهل الكوفة تقاعسوا عن نصرته وقبعوا في بيوتهم ، ولكنهم شعروا بعد مقتله بالندم الشديد وذهبوا يقاتلون في سبيل الأخذ بثأره حتى فنوا عن آخرهم ، وهم الذين عرفوا في التاريخ باسم « التوابين » ، وقد ضربوا في الوفاء مثلاً رائعاً •

يصح أن نصف أهل العراق بأنهم منشقون على أنفسهم أو متفرقون ، انما لا يصح أن نصفهم بانهم غدرة على منوال ما شاع عنهم • والظاهر أن أهل العراق لا يختلفون عن غيرهم من الناس حيث يوجد فيهم الغدرة كما يوجد فيهم الأوفياء ، ولكن انشقاقهم على انفسهم هو الذي جعلهم يبدون أحياناً كأنهم غدرة • فقد تظهر فيهم فئة تدعو الى شيء حتى اذا تم لها ذلك ظهرت فيهم فئة أخرى تدعو الى النقيض منه ، وبذا قد تضيع الحقيقة بينهم وتسوء سمعتهم •

ان من الممكن أن نقول مثل هذا عن العراقيين في الوقت الحاضر • وهنا يكمن لغز هو من أهم ألغاز المجتمع العراقي !

---

(١) علي آل بازركان (الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية) ص٢٣٠•

خاتمة الـكتاب

أعترف بأن هذا الكتاب الذي هو بين يدي القارىء لا يكفي لاعطاء صورة متكاملة عن المجتمع العراقي ، وقد كان القصد من تأليفه أن أجعله مقدمة عامة لكتب أخرى تأتي بعده . فالمجتمع العراقي كغيره من المجتمعات البشرية له جوانب شتى ، وكل جانب منها يستحق أن يخصص له بحث قائم بذاته .

حاولت في هذا الكتاب شرح الفرضية التي أخذت بها في دراسة المجتمع العراقي ، وهذه الفرضية قد تصح أو لا تصح ، انما هي على أي حال محاولة ابتدائية ربما كانت حافزة لغيري على خوض هذا الموضوع المعقد وعلى الوصول به الى نتائج مجزية . أما الكتب التالية فسوف أحاول بها دراسة جوانب من المجتمع العراقي هي في نظري ضرورية لفهم هذا المجتمع . والواقع أني في الكتاب الحالي قد مررت ببعض تلك الجوانب مرا سريعا دون أن أدرسها دراسة وافية ، ولابد اذن من العودة الى دراستها بتفصيل أكثر .

لست أدعى أني قادر على انجاز جميع الكتب التى أنوى تأليفها . فهناك عقبات متنوعة قد تقف حائلا بيني وبين ما أريد ، منها العقبات الصحية ومنها غير الصحية ... ولا أكتم القارىء أن السن قد تقدمت بي فأصبحت أجد مشقة كبيرة في كل كتاب أخرجه للناس ، وربما حل بي الموت دون أن أستطيع اتمام ما بدأت به .

ومهما يكن الحال فان هناك كتابا واحدا شرعت بتأليفه فعلا عنوانه « تاريخ الصراع الطائفي في العراق » وأرجو أن تتيح لي الظروف لكي أخرجه في وقت قريب . وفي رأيي أن هذا الكتاب يبحث جانبا مهما من جوانب المجتمع العراقي ، ولعله أهم جانب فيه ، اذ هو موضوع له تاريخ طويل في العراق وله جذور عميقة في تكوين شخصيته وثقافته الاجتماعية .

أنا واثق أن بحث الصراع الطائفي سوف لا ينال رضا الكثيرين من أهل العراق ، فهم اعتادوا أن ينظروا في هذا الصراع نظرة « متحيزة » حيث يعتقد كل فريق منهم أنه وحده صاحب الحق المطلق فيه وأن غيره

مبطل بلا مراء . وهذه في الواقع هي نظرة أكثر الناس حين يتنازعون في أمر من الامور .

من طبيعة الناس أنهم اذا تنازعوا على شيء تطرفوا في نظرتهم اليه ، وكلما اشتد النزاع بينهم ازداد تطرف كل فريق منهم في ناحيته الخاصة به . وبهذا تتسع الفجوة بينهم على مرور الايام . وهم عندئذ يريدون من كل باحث أن يجاريهم في تطرفهم ، وأن ينظر في الحقيقة كما ينظرون . فاذا أيدهم الباحث في ذلك اعتبروه « منصفا » واحترموه ، أما اذا خالفهم فانهم يغضبون منه ويشتمونه وربما اعتدوا عليه .

من مستلزمات البحث العلمي أن يكون صاحبه غير متحيز جهد امكانه ، فاذا ظهر عليه التحيز خرج عن كونه باحثا وأصبح داعية من الدعاة . وهناك فرق كبير بين الداعية والباحث . والظاهر أن بعض الكتّاب والنقاد عندنا لا يميزون بينهما تمييزا واضحا . فكل فريق منهم يبحث عن عيوب خصمه بينما هو يتستر على عيوبه الخاصة به ثم يحاول تبريرها بالادلة « العقلية » و « النقلية » ، ويهتف قائلا : هـذا هو الحق الذى توصلت اليه عن طريق البحث العلمي !

اننا الآن في حاجة ماسة الى بحث في الصراع الطائفي من غير هذا الطراز . فالطائفية أصبحت من أعضل الأدواء التي يشكو منها المجتمع العراقي ، وربما صح القول انها اتخذت شكل « العقدة » المكبوتة في شخصية الفرد فيه . ومن طبيعة العقدة أنها تزداد استفحالا كلما استمرت كامنة في أعماق النفس وتوالى عليها الجدال « المتحيز » يوما بعد يوم . لابد لنا من أن نخرج « العقدة » الى الضوء فندرسها دراسة موضوعية واعية ، وبهذا قد نأمل أن نصل بها الى حلٍ ـ على وجه من الوجوه !

حول منهج الدراسة :

لابد لي من أن أذكر في هذا الصدد أن هناك منهجين مختلفين لدراسة الظواهر أو المشاكل الاجتماعية : أحدهما قديم والآخر حديث . فالأول منهما ، وهو الذى يمكن تسميته بالمنهج « العقلاني » ، ينظر الى المجتمع

نظرة مثالية وعظية ، وهي النظرة التي سيطرت على المفكرين والفلاسفة قديما باستثناء ابن خلدون وقلة من أمثاله .

ليس هنا مجال التحدث عن عيوب هذا المنهج ، وكنت قد بحثت فيه باسهاب في كتاب سابق[1] . وقد يكفي أن أشير في هذه المناسبة الى أن المنهج « العقلاني » لا يلائم المنهج العلمي الحديث ، أو هما على طرفي نقيض . ويؤسفني أن أرى بعض المتعلمين منا لا يزالون يجهلون هذه الحقيقة ، فهم يعتقدون أن المنهجين شيء واحد أو هما يؤديان الى نتيجة متماثلة : فالذي يأتي به « العقل » بتفكيره المجرد لا يمكن أن يخالف ما يأتي به العلم . وقد جرى بيني وبين أحدهم ذات يوم جدال حول هذا الموضوع ، فجاء بالادلة « العقلية » المتنوعة ليدحض بها رأيي ، وقد نجح فيما أراد لانه كان أقدر على الجدل مني . ولكن الحقيقة بقيت كما كانت اذ هي الحقيقة التي تسود الاوساط العلمية الحديثة في شتى أرجاء العالم ، فلا فائدة اذن من أن يغلبني في الجدل أو أغلبه .

ان أصحاب المنهج « العقلاني » اعتادوا أن يعيشوا بتفكيرهم الاجتماعي في أبراج عاجية ، فاذا أتيح لهم أن يمروا بالازقة والاسواق وخالطوا العامة نظروا اليهم نظرة استعلاء وشموخ وأخذوا يشمئزون مما يجدونه بينهم من عادات « سخيفة » أو عقائد « باطلة » . انهم يظنون أن العامة انما صاروا كذلك لجهلهم وسوء تفكيرهم وهم قادرون اذن أن يصلحوا أنفسهم اذا استعملوا عقولهم وفكروا تفكيرا سليما .

لا يخفى أن هذا الرأي هو من جملة التراث الفكري التي ورثناه عن المعتزلة وعلماء الكلام ، وهو تراث مستمد من الفلسفة الاغريقية التي كانت تثق بالعقل البشري ثقة مطلقة وتعده علة كل فساد أو صلاح في المجتمع . فالمجتمع في نظر تلك الفلسفة ليس سوى مجموعة من الافراد ، وكل فرد له « عقل » يرشده الى طريق الرشاد أو الضلال . ومعنى هذا أن المشاكل الاجتماعية هي مشاكل « عقلية » بالدرجة الاولى ،

---

(١) هو كتاب « منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته » . وقد صدر في القاهرة عام ١٩٦٢ .

فاذا صلحت عقول الافراد صلحت أخلاقهم واستقام نظام المجتمع بها فلا مشاكل فيه ولا هم يحزنون !

ومن هنا جاء المثل القائل : « لو أنصف الناس لأستراح القاضي » . والواقع أن الناس ليس في مقدورهم أن يكونوا « منصفين » بالمعنى الـذي ذهب اليه المفكرون القدماء . فالانصاف من الامور النسبية ، وكل فريق من الناس يعتقد أنه هو المنصف الاكبر بالمقارنة الى غيره . والى هذا أشار القرآن حيث قال : « كل حزب بما لديهم فرحون » .

مهزلة العقل البشري :

في عام ١٩٥٥ أخرجت كتابا سميته « مهزلة العقل البشري » . واني ربمـا كنت مخطئاً في تلك التسمية ، أو مغالياً فيها على الاقل ، ولكني انمـا جئت بها لكي أظهر عيوب المنهج « العقلاني » الذي سيطر على أذهـان الكثيرين منا .

لا شك أن العقل ذو أهمية عظيمة في الحياة البشرية ، وهو من أهم الفروق التي يتميز بها الانسان عن أخيه الحيوان ، ولكنه في الوقت نفسه ذو قدرة محدودة . ان من الخطأ ان ننكر أهمية العقل البشري ، وكذلك من الخطأ أن نثق به ثقة مطلقة . ولابد أن يكون هناك حد وسط بين هذين الطرفين .

العقل في حقيقة أمره نتاج اجتماعي ، وهو صنيعة الثقافة الاجتماعية التي ينشأ فيها الانسان . فاذا وجدنا انسانا خرج بتفكيره عن الاطار الذى فرضته عليه الثقافة الاجتماعية فسبب ذلك أنه تأثر بثقافات أخرى ، وهو في تأثره هذا يجرى على قوانين لا يستطيع التحرر منها الا قليلا . ولو أنه عاش في بيئته المنعزلة ولم يعرف عن غيرها شيئا لوجدناه منسجما معها الى حد كبير .

لنفرض أن شخصا نشأ بين أناس يعبدون الكلاب مثلا ، وهو لا يعرف غير هذه العبادة في حياته ، فاننا لا نتوقع منه أن يفكر تفكيرا « سليما » تجاه الكلاب . وهو لو كان ذا قدرة على الجدل لجاء بالادلة « العقلية » يبرهن بها على أن عبادة الكلاب هي خير ديانة ظهرت الى الوجود !

ليست هذه هي طبيعة العقل البشري تجاه العقائد فقط ، بل هي طبيعته تجاه كل الافكار والنظم والتقاليد التي اعتاد عليها وآمن بصحتها . وقد درس العلماء مختلف شعوب العالم فوجدوا أن ما نراه حقا قد يراه آخرون باطلا ، وهم واثقون بما عندهم كمثل ما نثق نحن بالذي عندنا[1].

خلاصة القول اننا حين نرى الناس منغمسين في عادات « سخيفة » أو عقائد « باطلة » لا يكفي في اصلاحهم أن ندعوهم الى التفكير السليم . فهم اذا فكروا لا يستطيعون أن يتوصلوا بتفكيرهم الى غير ما اعتادوا عليه ، وهم في الوقت ذاته يعتقدون اعتقادا جازما بأن تفكيرهم هذا سليم جدا وأننا نحن أصحاب التفكير السقيم .

يحسب الانسان عادة أنه حر في تفكيره ، بينما هو في الواقع مقيد فيه الى حد كبير . انه يقع تحت تأثير عوامل شتى تقيد من حرية تفكيره ولكنه لا يشعر بها في كثير من الاحيان اذ هي كامنة في اعماق « اللاشعور » منه ، وهو قد يغضب حين ينبهه أحد اليها .

قوانين المجتمع :

يقول ابن خلدون : أن المجتمع البشري له قوانين تتحكم فيه كقوانين الطبيعة ، ومن يريد اصلاح المجتمع يجب عليه أن يراعى تلك القوانين والا فهو محكوم عليه بالفشل .

ان هذا الرأي الذي جاء ابن خلدون قد لا يخلو من غلو ، انما هو في الوقت ذاته لا يخلو من صواب أيضا . فالمجتمع ليس مجرد مجموعة من الافراد كما كان القدماء يظنون ، بل هو شيء أكثر من ذلك . انه كيان قائم بذاته يسيطر على الافراد الذين يتألف منهم ، وله قوانين يجرى عليها على وجه من الوجوه .

لا تنكر أن هناك اختلافا كثيرا بين قوانين المادة الجامدة وقوانين المجتمع . فالاولى صارمة تخضع لها جميع الذرات المادية خضوعا تاما ولا يقع فيها شذوذ أو تمرد . أما قوانين المجتمع فليست بمثل هذه الصرامة

---

(1) William Sumner (Folkways) p. 521.

اذ في امكان بعض الافراد أن يشذوا عنها قليلا أو كثيرا . ولكننا يجب أن لا ننسى أن هؤلاء الافراد لا ينطلقون في شذوذهم من تلقاء أنفسهم أو بدافع من تفكيرهم المجرد . انهم يقعون تحت وطأة ظـروف معينة ، نفسية أو اجتماعية أو غيرها ، مما يجعلهم يختلفون في سلوكهم عن الآخرين . ولو كانوا في مثل ظروف الآخرين لما اختلفوا عنهم في أكثر الاحتمال .

فنحن قد نرى مجرما سفاكا يعبث بالناس ولا يرعى فيهم أي حق أو ذمة ، فنظن أنه فعل ذلك باختياره ، بينما هو في الواقع مدفوع بعوامل شتى لا ارادة له فيها . وهذا هو الذى جعل الشعوب « الراقية » تحاول علاج المجرم ، لا معاقبته . فهو في نظرها غير مسؤول عن أعماله الشاذة مسؤولية تامة . ان المسؤولية تقع على ظروفه اكثر مما تقع عليه . ومن هنا جاء القول المشهور : « لو عرفت كل شيء لعذرت كل انسان » .

أرجـو من القارىء أن لا يفهـم من هـذا أن الانسان مسيّر ، أو مجبور ، في جميع أعماله كمثل ذرة الغبار عند هبوب الريح . فهذا تطرف كتطرف الذين يقولون بأن الانسان مخير ، أو مفوض ، في جميع أعماله .

يروى عن الامام جعفر بن محمد أنه قال : « لا جبر ولا تفويض انما الامر بين بين » . وهذه لعمرى كلمة قيمة تلخص لنا طبيعة الانسان أجمل تلخيص . فالانسان يملك شيئا من الحرية في أعماله ، ولكنها حرية محدودة وهي تتاح له عند الحيرة عادة . « فالحرية » و « الحيرة » بهذا الاعتبار متلازمتان .

ان الذرة المادية لا تتحير في حركاتها ، وكذلك الحيوان . أما الانسان فقد تتصارع فيه أحيانا دوافع متنوعة ، حيث يدفعه بعضها نحو طريق معين ويدفعه بعضها الآخر نحو طريق آخر . وهو عندئذ قد يتردد ويتحير فلا يدرى أين يتجه . وهنا قد يساعده ذكاؤه على أن يوفق بينهما أو يكتشف طريقا ثالثا أفضل منهما ، وهذا هو شأن الناجحين والعباقرة . وربما أخفق الانسان في ذلك فيسير في طريق الانحراف أو الجنون أو الجريمة ...

مما يجدر ذكره أن هذا لا يحدث الا لافراد قليلين ، أما أكثر الناس فهم يسيرون في حياتهم سيرة تكاد تكون خالية من الصراع والحيرة ، وهذا

هو ما نراه غالبا بين العامة من الناس لا سيما اولئك الذين يعيشون في ثقافة اجتماعية راكدة . فهم منجرفون مع التيار العام لا يعرفون من حياتهم غير ما اعتادوا عليه واطمأنوا اليه جيلا بعد جيل . انهم يجدون التقاليد والقيم والعقائد السائدة بينهم قد حلت لهم كل مشكلة وفسرت كل غامض ، وهم يسيرون عليها من غير تشكيك أو حيرة . فالفرد منهم يتخيل أنه حر فيما يفعل بينما هو في حقيقة أمره مسير الى حد بعيد .

رأينا البشر حين يتنازعون أو يتعاونون ، وحين يؤمنون أو يكفرون ، وحين يغضبون أو يرضون ، وحين يتطورون أو يتخلفون ، منذ أقدم الازمان حتى زماننا هذا ، فوجدناهم يسيرون على وتيرة متماثلة تقريبا . انهم قد يختلفون في مظاهرهم السطحية ، فيغيرون أزياءهم مثلا أو يبدلون أسلحتهم ويطورون حضارتهم ، ولكنهم في أعماقهم يظلون كما كانوا من طراز اولئك البشر الذين خبرناهم في غابر الايام .

نماذج طوبائية :

استطاعت العلوم الطبيعية أن تنجح في السيطرة على المادة الجامدة ، وفي استغلال طاقاتها ، عن طريق الدراسة الموضوعية للقوانين التي تتحكم فيها . فالذي يريد أن يستغل الطاقة المائية في شلال ، مثلا ، يجب أن يكون على معرفة دقيقة بطبيعة مجرى الماء وقوانينه ، أما اذا أراد بناء سد على الماء من غير خبرة سابقة فلابد أن ينتهي به عمله الى الفشل الذريع .

يصح أن نقول مثل هذا عن الذين يريدون تغيير مجرى المجتمع أو استثمار طاقاته . والظاهر أن اصحاب المنهج « العقلاني » لا يدركون هذه الحقيقة ، أو هم لا يحبون أن يدركوها ، اذ هي تناقض المنهج الذي يتبعونه في تفكيرهم تناقضا جذريا . انهم دأبوا أن يتخيلوا نماذج «طوبائية» للمجتمع ، ثم يصبونها في مواعظ « رنانة » حيث يصدعون بها رؤوس الناس بغض النظر عن طبيعة المجتمع الذي يعيشون فيه . وحين يفشلون في التأثير على الناس يأخذون بالتأفف منهم وبالتقريع لهم . فهم يضعون اللوم على عاتق الناس بينما هم أجدر باللوم منهم .

وضع افلاطون من فلاسفة الاغريق نموذجا للمجتمع الصالح في

« جمهوريته » ، وحذا الفارابي من فلاسفة الاسلام حذوه في « مدينته الفاضلة » وحين نقرأ كتاب الفارابي نجده يصف المدينة الفاضلة بأنها المدينة التي يتعاون أهلها لنيل السعادة الحقيقية ، فاذا قام كل فرد بعمله وأتقن مهنته وأنجز مهمته حصل من مجموع هذه الجهود المنظمة التناسق والتآلف والغبطة الفائقة التي يحلم بها البشر • وهو يقول ان في ائتلاف أعضاء المدينة الفاضلة ما يشبه توازن أعضاء البدن ، والفرق بين تركيب البدن وتركيب المدينة أن أعضاء البدن طبيعية وأعمالها قسرية لا تصدر عن ادراك واختيار ، أما أعضاء المدينة فبعلمهم ورضاهم يتحدون : اذا أرادوا اجتمعوا ، واذا ارادوا تفرقوا ، واذا شاؤوا اتبعوا الحكمة والسعادة ، واذا شاؤوا اتبعوا الجهل والضلالة[1] •••

جاء الفارابي بهذا الرأي « العظيم » واستراح كأنه أعطى البشر تركيبا سحريا يستطيعون به أن يعالجوا جميع مشاكلهم وأدوائهم التي يشكون منها ، وليس عليهم اذن الا أن يستعملوه وينعموا به أبد الدهر • انه لم يقف لحظة لينظر في الطبيعة البشرية التي جبلوا عليها وهل هم قادرون بها أن يحققوا في أنفسهم هذا التعاون والتآلف بمجرد أن يوجهوا ارادتهم اليه •

ان هذا يشبه ما ورد في القصة الرمزية المعروفة حول اجتماع الفئران للبحث عن طريقة ينجون بها من خطر القط ، فهم قد اتفقوا أخيرا على أن يربطوا في عنق القط جرسا حتى اذا داهمهم سمعوا به واستطاعوا الهرب منه في الوقت المناسب • لا يخفى أن هذا الرأى الذي اتفقوا عليه صحيح جدا من الناحية النظرية ، ولكن عيبه الوحيد أنه غير عملي ، اذ كيف يمكن للفئران أن يمسكوا بعنق القط ويشدوا عليه الجرس دون أن يأكلهم ؟!

قرأت في كتاب صدر منذ عهد قريب لمؤلف عراقي ما نصه :

« بلى ان المسلمين لو وفقوا لادراك أيسر خصال الاخوة فيما بينهم وعملوا بها لارتفع الظلم والعدوان من الارض ، ولرأيت البشر اخوانا على

---

(١) الياس فرح (الفارابي) ص ٩٩ •

سرر متقابلين قد كملت لهم السعادة الاجتماعية ، ولتحقق حلم الفلاسفة الاقدمين في المدينة الفاضلة ، فما احتاجوا حينما يتبادلون الحب والمودة الى الحكومات والمحكمة ، ولا الى الشرطة والسجون ، ولا الى قانون العقوبات وأحكام للحدود والقصاص . ولما خضعوا لمستعمر ولا خضعوا لجبار ، ولما استبد بهم الطغاة ، ولتبدلت الارض غير الارض وأصبحت جنة النعيم ودار السعادة . .

أود أن أسأل هذا المؤلف الفاضل : كيف يمكن للبشر أن يكونوا « اخوانا على سرر متقابلين » فينسوا ضغائنهم وما اعتادوا عليه من عصبيات وعنعنات ؟ وهل المؤلف نفسه قادر أن يفعل ذلك تجاه خصومه ؟ ان البشر لا يستطيعون أن يكونوا كذلك الا اذا خرجوا من كونهم بشرا وصاروا كالملائكة مجبولين من طينة أخرى !

دأب « العقلانيون » أن يضعوا نماذجهم المثالية العالية دون اهتمام بطريقة تحقيقها عمليا ، وأحسبهم لا يحبون أن يقلقوا أنفسهم بالتفكير في هذه الطريقة اذ هي في نظرهم طريقة ميسورة ، فما دام البشر « عقلاء » يميزون بين الضار والنافع لهم فسوف يتعاونون ويتآلفون حالما يدركون النفع الناتج عن ذلك .

طبيعة التعصب العقلاني :

اذا اعتنق أحد « العقلانيين » فكرة ما ، وتحمس لها ، ظن أن الناس جميعا سيتحمسون لها حالما يعظهم بها أو يعلمهم اياها . فهو يجدها في نظره واضحة لا غبار عليها ولا ريب فيها ، فيظن أنها لابد أن تكون كذلك في نظر كل انسان له عقل سليم . واذا تولى هذا « العقلاني » منصبا رفيعا أو كان ذا نفوذ حف به المتزلفون يصفقون له ويهتفون ، فيخيل اليه أن الناس كلهم قد آمنوا بفكرته وسيحققونها في أنفسهم وينالون بها السعادة والرفاه ، وهو لا يكاد يرى احدا يخالفه في الرأي حتى يتملكه الغضب ويعتقد أن هذا المخالف لابد أن يكون معاندا أو حسودا أو جاهلا ، والويل له على أي حال[1] .

---

(1) Schiller (Formal Logic) p. 393—399.

ان كثيرا من المنازعات العنيفة التي تقع بين المفكرين والمتعلمين تقوم على هذا الاساس ، وهم في ذلك لا يختلفون عن العوام والجهلة الا من حيث المظهر الخارجي . فالجاهل حين يعتدي على خصومه ويقسو عليهم انما يجرى حسب عاداته أو عقائده التي نشأ عليها ، أما المتعلم فهو قد يتخذ عادات أو عقائد أخرى من جراء ظروفه المختلفة ولكنه قد يتعصب لها كتعصب الجاهل . والفرق بينهما هو أن هذا يستخدم تفكيره للاتيان بالبراهين « العقلية » التي تؤيد رأيه بينما ذاك لا يعرف البراهين « العقلية » بل هو يندفع في سلوكه اندفاعا فطريا ساذجا .

دروس بليغة :

شهدنا في العراق من هاتيك المنازعات العنيفة شيئاً كثيراً اثر « هزة » الرابع عشر من تموز . والواقع ان تلك « الهزة » نبشت من المجتمع العراقي ما كان مدفونا وأوضحت ما كان غامضا ، وقد يصح القول بأنها أعطتنا من الدروس بمقدار ما أخذت من الضحايا .

كان الشعب العراقي في العهد العثماني يعاني تنازعا شديدا بين فئاته المختلفة ، ولكن تنازعه ذاك كان قائما على أساس من العصبية القبلية أو البلدية أو الطائفية أو ما أشبه ، كما أسلفنا في فصول سابقة . ثم مرت بعد زوال العهد العثماني فترة أمدها أربعون عاما تقريبا ، والظاهر أن تلك الفترة لم تكن كافية لان ينسى الشعب بها تنازعه القديم ، فلما حلت به « الهزة » في عام ١٩٥٨ عاد الشعب يتنازع من جديد .

ظهر التنازع الجديد وهو مصبوغ بطلاء من الشعارات والمبادىء الحديثة ، غير أنه كان في أعماقه يحتوى على جذوره القديمة . وهو في الواقع غير قادر أن يتخلص منها اذ هي كامنة في « اللاشعور » تحاول الانفجار عند سنوح الفرصة . ولهذا وجدنا الفلاح في القرية وابن الشارع في المدينة ، وغيرهما من العوام الذين تتألف منهم اكثرية الشعب العراقي ، قد اندفعوا يتظاهرون ويهتفون ويتحمسون ، ولكنهم في أعماق أنفسهم كانوا يبتغون من ذلك مثلما كانوا يبتغونه في « هوساتهم » القديمة .

وجاء بعض المتعلمين يشجعون العوام في اندفاعاتهم تلك ويؤيدونهم

بالبراهين « العقلية » . فأصبح كل من يخالفهم في الرأي لابد أن يكون خائنا أو عميلا للاستعمار . وانتشر الغوغاء يبحثون عن « الخونة » ليعتدوا عليهم كمثل ما كانوا في عام ١٩٠٨ يبحثون عن دعاة « المشروطية » ، وفي عام ١٩٢٤ عن دعاة « السفور » . انهم هم لم يتغيروا بل تغيرت الشعارات والمبادىء التي تظاهروا بها .

لست أقصد بهذا جماعة من الناس دون جماعة ، أو حزبا دون حزب . فالكل في هذا سواء تقريبا اذ هم جميعا ينطلقون من اطار فكري واحد ويعيشون في ظروف متشابهة . وحين يتاح لفريق منهم أن ينتصر على خصمه يفعل به مثل ما فعل خصمه به ، أو أشد منه[١] .

استدراك مهم :

مما يجدر ذكره في هذه المناسبة أن النزعة « العقلانية » ليست خاصة بالعراق وحده بل هي نزعة عالمية بدأ بها الاغريق القدماء وانتشرت منهم الى كثير من الشعوب المتحضرة قديما ، وهي لا تزال منتشرة هنا وهناك حتى يومنا هذا . والملاحظ أنها انتعشت في أوربا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وكانت من أسباب الثورة الفرنسية الكبرى . ولما قامت تلك الثورة جاء بعض زعمائها براقصة حسناء فجعلوها رمزا للعقل ونصبوها على منصة في قاعة عامة ثم أخذوا يعبدونها بدلا من الله .

لقد كانت تلك فورة فكرية في أوربا صاحبت فورة الثورات التي تتابعت هناك في ذلك الحين . ومنذ منتصف القرن التاسع عشر بدأ « العقل » ينزل من عليائه[٢] ، وأخذت البحوث العلمية تكشف عن قصور العقل البشري وعن « الحماقات » التي يتورط فيها أحياناً .

ان هذه البحوث العلمية كانت ذات تأثير غير قليل على الرأي العام في أوربا ، مما جعله يميل تدريجا نحو النضوج والرصانة . وبذا تحول

---

(١) انظر كتاب « الاحلام بين العلم والعقيدة » الذى أصدرته في عام ١٩٥٩ ، ص ٣٧٢ وما بعدها .

(2) William Albig (Public Opinion) p. 9—11.

H

النزاع العنيف الذي كان مستفحلا بينهم الى نزاع هادىء لا تراق فيه الدماء أو تنتهك الحرمات •

ان الناس هناك لا يزالون يتنازعون في الآراء والمذاهب والاحزاب ، ولكن تنازعهم هذا قائم على أساس من الاحترام المتبادل الى درجة لا يستهان بها • فالفرد منهم حين يعتنق رأيا لا يحاول أن يفرضه على غيره بالقوة ولا يدعي أنه وحده صاحب الحق المطلق فيه •

ان النظام الديمقراطي الذي يتبعونه قائم على هذا الاساس ، ولا شك أن ممارستهم له جيلا بعد جيل جعلهم يعتادون عليه حتى صار جزءا من تقاليدهم الاجتماعية التي يسيرون عليها في بيوتهم ومدارسهم وفي ندواتهم ومجالسهم •

قد يجوز أن أقول بأن الشعب العراقي يعيش الآن في ما يشبه الاطار الفكري الذي عاشت فيه أوربا قبل قرنين ـ أو قرن واحد على الاقل ! وربما كان أكثر منها انهماكا فيه من جراء النزعة الجدلية القوية التي ورثها من أسلافه الغابرين •

فالفرد العراقي لا يستسيغ أن يرى أحدا يخالفه في رأي أو عقيدة • انه لا يدرك أن غيره قد يكون مخلصا في رأيه أو عقيدته كاخلاصه هو ، وأنه لو كان قد نشأ في نفس البيت والمحلة والطائفة التي نشأ فيها غيره لما اختلف عنه في التفكير اختلافا كثيرا • يبدو أن الفرد العراقي لا يفهم هذه الحقيقة ولهذا وجدناه ميالا الى الاعتداء على المخالفين له ويظن أنه على صواب •

سؤال وجواب :

رب سائل يسأل : الى متى يبقى الشعب العراقي هكذا تسيطر عليه النزعة « العقلانية » المتطرفة وتدفع به في مثل هذا الاتجاه العنيف ؟!

يرجح في ظني أن الشعب العراقي لابد له من أن يتطور في تفكيره كما تطورت الشعوب الاوربية قبله • انه قد يكون بطيئا في تطوره هـذا لشدة سيطرة النزعة « العقلانية » عليه ، ولكنه مضطر أن يتطور عاجلا أو آجلا • ان التجارب القاسية التي مر بها علمته دروسا بليغة ، فاذا هو

لم يتعظ بها أصيب بتجارب أقسى منها ، وربما حل به من الكوارث والويلات ما يقسره على تغيير اطاره الفكري رغم أنفه .

وهنا قد نواجه سؤالا آخر : هل نترك الشعب العراقي يتورط في التجارب القاسية مرة بعد مرة حتى يتعظ بها من تلقاء نفسه ، أم ينبغي أن نأخذ بيده ونرشده الى الطريق الصحيح ؟

يمكن القول ان الوضع الراهن في العراق يحتاج الى تخطيط ومعالجة موضوعية بمقدار ما تتحمله ظروفه المحلية . ويخيل لي أن من الوسائل المجدية في ذلك هو أن نحاول تعويد الشعب العراقي على الحياة الديمقراطية ونجعله يمارسها ممارسة فعلية ، حيث نتيح له حرية ابداء الرأي والتصويت دون أن نسمح لفئة منه بأن تفرض رأيها بالقوة على الفئات الاخرى . فليس يكفي أن يكتشف الشعب ، نظريا ، خطأ الطريقة التي سار عليها بل ينبغي أن يعتاد ، عمليا ، على الطريقة الصحيحة ويدرك نتائجها في مجال التطبيق .

قد يعترض القاريء على هذا الرأي أو يصفه بالطوبائية ، اذ كيف يمكن للشعب العراقي أن يترك قيمه المحلية وعصبياته الموروثة ثم ينهمك في حياة ديمقراطية لا عنف فيها ولا اعتداء ؟ وهل ننسى ما وقع بعد « هزة » الرابع عشر من تموز عندما قيل للناس « أنتم احرار فيما تقولون وتكتبون » فانثال بعضهم على بعض يتناهشون ويتذابحون ؟

ان هذا اعتراض وجيه حقا ، ولكن الذي أريد أن ألفت النظر اليه هو أن الناس كانوا حينذاك في وضع نفسي واجتماعي غير طبيعي ، فهو لم يكن وضعا ديمقراطيا بل كان وضعا « غوغائيا » حيث تخيل الناس فيه أن الدنيا انتهت وأن ما يفعلونه اليوم لا حساب عليه غدا .

يبدو أن الكثيرين من الذين تورطوا في مثل هذه الاندفاعات « الغوغائية » يشعرون الآن بالندم . لقد أدركوا أنهم كانوا واهمين عندما تخيلوا أن الدنيا انتهت ، فالذي يعتدي على الغير سوف يأتيه يوم يعتدي الغير عليه ، اذ هي أيام متداولة ـ يوم لك ويوم عليك !

ان هذه فرصة يجب علينا انتهازها ، فالعراق الآن يقف على مفترق

الطريق ، وهذا هو أوان البدء بتحقيق النظام الديمقراطي فيه ، فلو فلتت هذه الفرصة من أيدينا لضاعت منا أمدا طويلا •

لا أنكر أن تحقيق النظام الديمقراطي في الوقت الحاضر سوف لا يخلو من العنف والصخب خلوا تاما ، فالشعب العراقي ليس في مقدوره أن ينقلب بين عشية وضحاها الى شعب ديمقراطي رصين كالشعوب التي سبقته في مضمار الديمقراطية • انه يحتاج الى زمن يمارس فيه النظام الديمقراطي مرة بعد مرة ، وهو في كل مرة سيكون أكثر كفاءة فيه واعتيادا عليه مما في المرة السابقة •

ان الديمقراطية ليست فكرة مجردة تُعلم في المدارس أو تلقى في الخطابات والهتافات ، بل هي اعتياد وممارسة عملية • فاذا بقينا نتظاهر بالديمقراطية قولا ، ولا نمارسها فعلا ، فسوف نظل كما كنا يسطو بعضنا على بعض ـ الى ما لا نهاية له !

قد يظهر عند ممارسة الديمقراطية من يحاول تزييف الانتخاب أو العبث بالاصوات ، كما فعل أسلاف له من قبل ، وربما نجح في ذلك مرة أو عدة مرات • انما هو سيدرك عاجلا أو آجلا أن أمده لا يطول • انه اذ يفعل اليوم ذلك لابد أن يتوقع من غيره أن يفعل مثله غدا • فهي سلسلة « خبيثة » متتابعة الحلقات ، وكل حلقة منها تؤدي الى حلقة تالية • فمن مصلحته اذن أن يقطع السلسلة منذ الآن فيريح ويستريح !

الخلاصة :

ان الشعب العراقي منشق على نفسه وفيه من الصراع القبلي والطائفي والقومي أكثر مما في أي شعب عربي آخر ـ باستثناء لبنان ـ وليس هناك من طريقة لعلاج هذا الانشقاق أجدى من تطبيق النظام الديمقراطي فيه ، حيث يتاح لكل فئة منه أن تشارك في الحكم حسب نسبتها العددية •

ينبغي لاهل العراق أن يعتبروا بتجاربهم الماضية ، وهذا هو أوان الاعتبار !

فهل من يسمع ؟!

فهرس الكتاب

رقم الفصل	رقم الصفحة	عنوان الفصل
-	٣	الاهداء
-	٤	المقدمة
١	١١	صراع البداوة والحضارة
٢	٣٤	ماهي البداوة
٣	٥٣	البداوة ونزعة الحرب
٤	٨٢	أعماق الثقافة البدوية
٥	١١٧	العراق في العهد العثماني
٦	١٤٢	الصراع الثقافي في العراق
٧	١٦٦	الحرب الدائمة في العراق
٨	١٩٢	تكوين الشخصية في الريف
٩	٢٢٢	مظاهر التدين في العراق
١٠	٢٥٨	الوضع الاجتماعي في المدن
١١	٢٨٤	ازدواج الشخصية في المدن
١٢	٣٠٩	التفسخ الخلقي في المدن
١٣	٣٣٩	طبيعة المرحلة الراهنة
-	٣٧٠	خاتمة الكتاب

حول الاخطاء المطبعية

وقعت أخطاء مطبعية كثيرة نترك أمر تصحيحها الى فطنة القارىء ولكن هناك أخطاء نشأت من جراء وضع سطر مكان آخر في بعض الأماكن كما في صفحة ١٠٥ (في السطر الحادي عشر) وفي صفحة ١٥٣ (في السطرين الرابع عشر والسادس عشر) • وقد طبعنا تصحيح هذه الأسطر على ورقة منفصلة يجدها القارىء طي الكتاب • وربما كانت هناك أخطاء أخرى من هذا الطراز لم نستطع اكتشافها في الوقت المناسب ـ والله الساتر على أي حال !